مملكتا قتبان وسبأ

استكشاف الممالك القديمة الواقعة
على طريق التوابل المذكور في العهد القديم

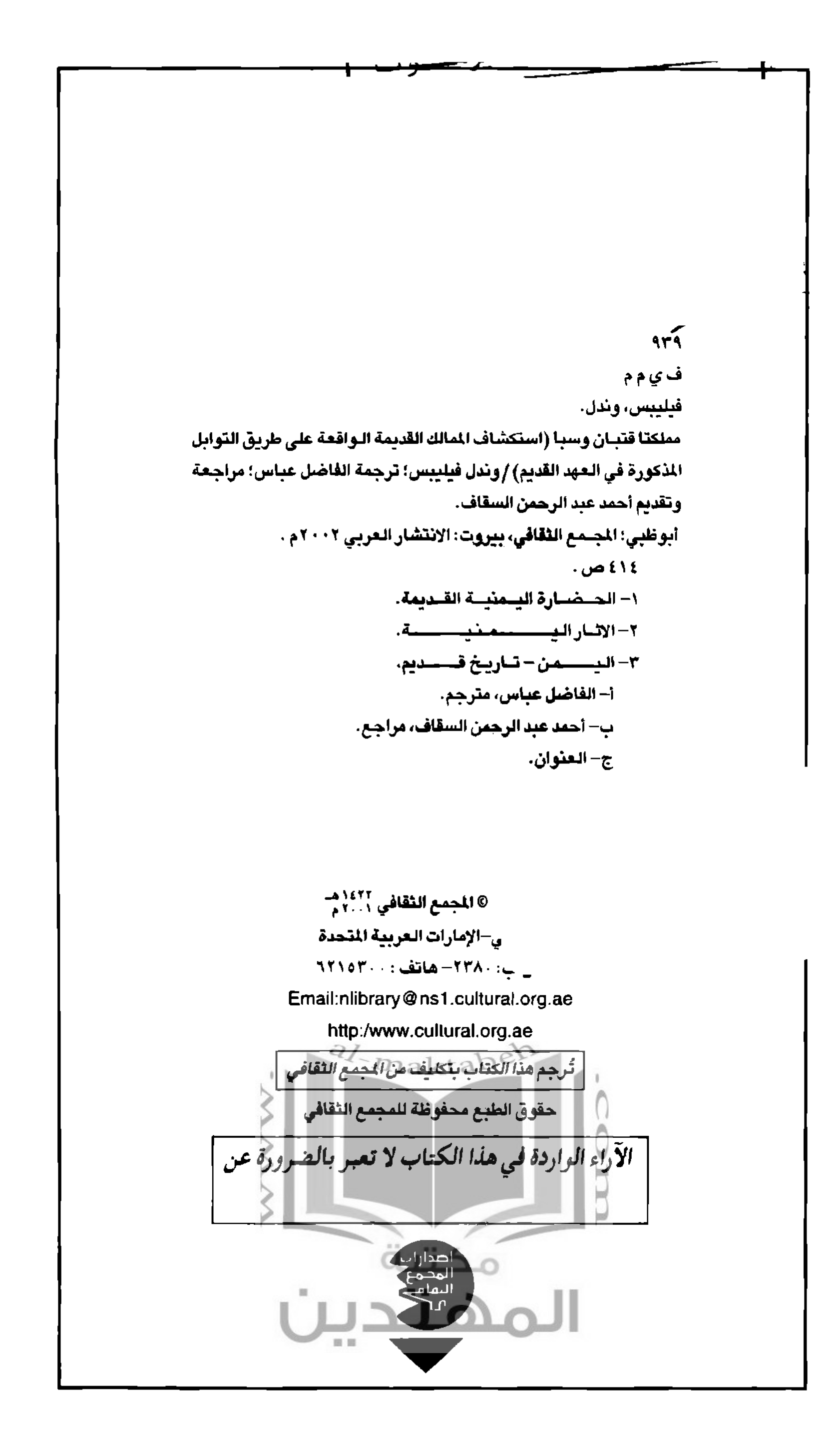
 وندل فيليبس

ترجمة

الفاضل عباس

مراجعة وتقديم

د. أحمد عبد الرحمن السقاف

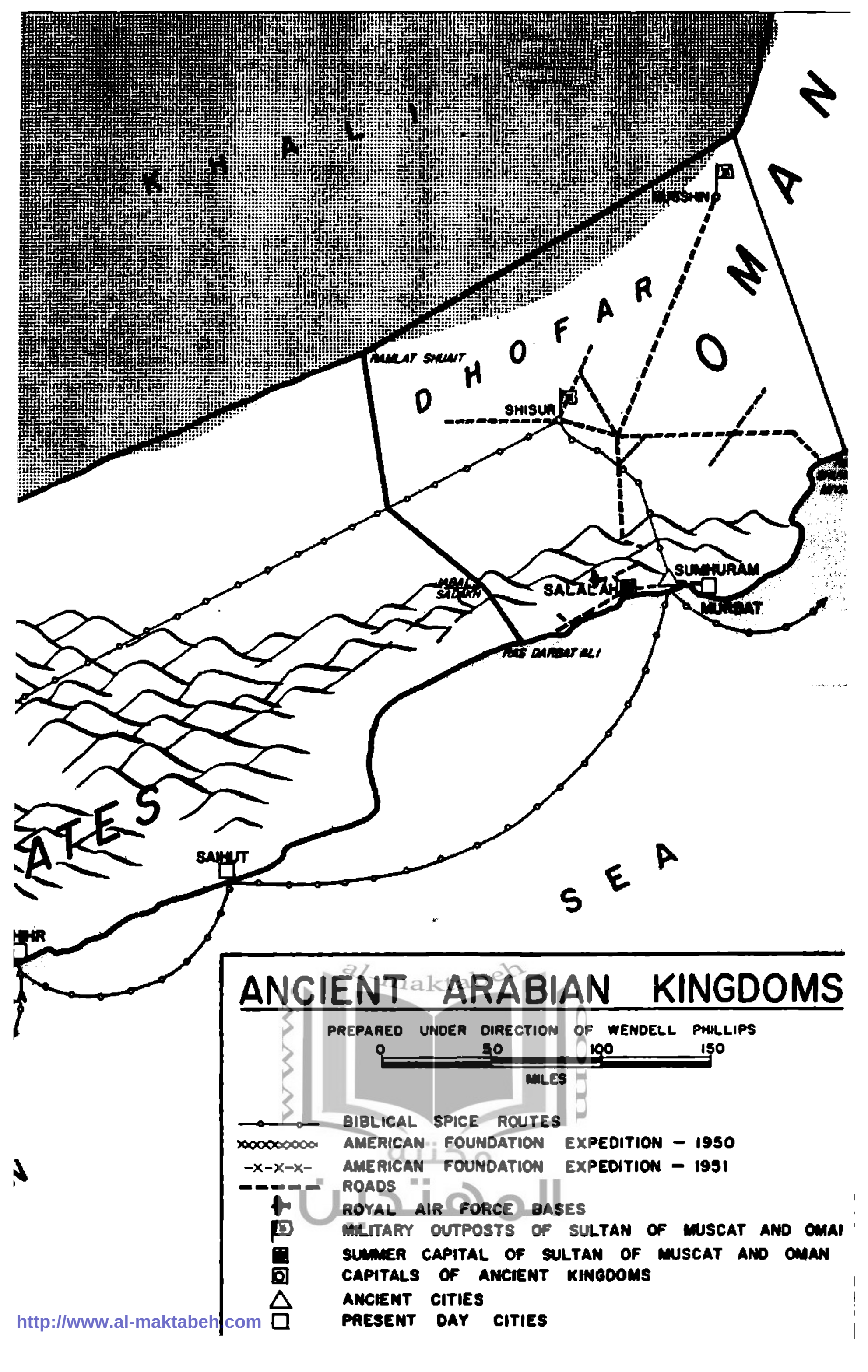


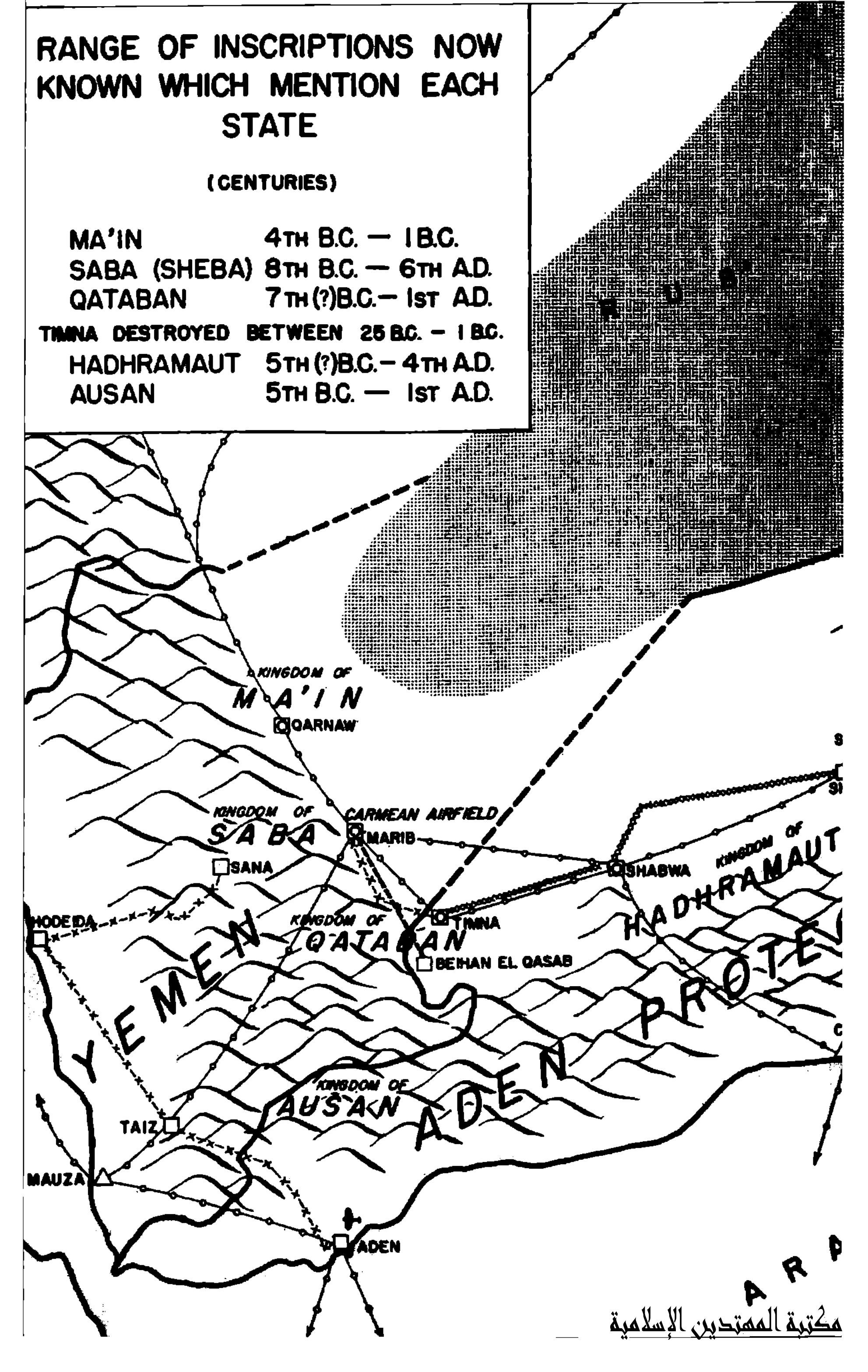
٩٣٩
ف ي م م
فيليبس، وندل.
مملكتا قتبان وسبا (استكشاف الممالك القديمة الواقعة على طريق التوابل المذكورة في العهد القديم) / وندل فيليبس؛ ترجمة الفاضل عباس؛ مراجعة وتقديم أحمد عبد الرحمن السقاف.
أبوظبي؛ المجمع الثقافي، بيروت: الانتشار العربي ٢٠٠٢م .
٤١٤ ص .
١- الحضارة اليمنية القديمة.
٢- الآثار اليمنية.
٣- اليمن - تاريخ قديم.
أ- الفاضل عباس، مترجم.
ب- أحمد عبد الرحمن السقاف، مراجع.
ج- العنوان.

ي-الإمارات العربية المتحدة
ـ ب: ٢٣٨٠- هاتف: ٦٢١٥٣٠٠
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

تُرجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


K H A L I
D H O F A R
O M A N
MIRSHIN
RAMLAT SHUAIT
SHISUR
JABAL SADAH
SALALAH
SUMHURAM
MIRBAT
RAS DARBAT ALI
SAIHUT
S E A
ATES
ANCIENT ARABIAN KINGDOMS
PREPARED UNDER DIRECTION OF WENDELL PHILLIPS
0 50 100 150
MILES
BIBLICAL SPICE ROUTES
AMERICAN FOUNDATION EXPEDITION — 1950
AMERICAN FOUNDATION EXPEDITION — 1951
ROADS
ROYAL AIR FORCE BASES
MILITARY OUTPOSTS OF SULTAN OF MUSCAT AND OMAN
SUMMER CAPITAL OF SULTAN OF MUSCAT AND OMAN
CAPITALS OF ANCIENT KINGDOMS
ANCIENT CITIES
PRESENT DAY CITIES


RANGE OF INSCRIPTIONS NOW KNOWN WHICH MENTION EACH STATE
(CENTURIES)
MA'IN 4TH B.C. — 1 B.C.
SABA (SHEBA) 8TH B.C. — 6TH A.D.
QATABAN 7TH (?) B.C. — 1ST A.D.
TIMNA DESTROYED BETWEEN 25 B.C. — 1 B.C.
HADHRAMAUT 5TH (?) B.C. — 4TH A.D.
AUSAN 5TH B.C. — 1ST A.D.
KINGDOM OF MA'IN
QARNAW
CARMEAN AIRFIELD
KINGDOM OF SABA
MARIB
SANA
SHABWA
KINGDOM OF HADHRAMAUT
HODEIDA
TIMNA
KINGDOM OF QATABAN
BEIHAN EL QASAB
YEMEN
KINGDOM OF AUSAN
ADEN
TAIZ
MAUZA
ADEN



فهرس المحتويات

تقديم الكتاب

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين على أمور الدنيا والدين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد الخلق اجمعين نبينا محمد وعلى آله الغر الميامين وصحبه وتابعيهم باحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فهذا الكتاب يحكي قصة شاب امريكي جامعي طموح اسمه ونيدل فيليبس استطاع رغم صغر سنه و بشدة عزمه وعلو همته، وبمساندة وتشجيع من رئيس ومدير جامعة كاليفورنيا وشخصيات مرموقة أخرى ان ينشئ "المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان" بغرض القيام بعمليات استكشاف اثرية في بلاد الشرق العربي القديم. وبما أن الإتجاه الاستشراقي آنذاك كان يركز على الاهتمام بالدراسات التوراتية فقد اختار ويندل فيليبس ان تكون باكورة أعمال المؤسسة التي يترأسها إرسال بعثة أثرية إلى جبل الطور بسيناء وتصوير مخطوطات دير سانت كاترين. ولعله بهذا الاستغلال للاستجابات الدينية في مجتمعه تمكن من الحصول على دعم أدبي ومالي وعيني من جهات حكومية وشركات ومؤسسات خاصة ومنظمات دينية وخيرية وجامعات وشخصيات اجتماعية بارزة فانهالت عليه المنح والتبرعات فتولدت لديه من جراء ذلك فكرة " استكشاف الممالك العربية القديمة الواقعة على طريق التوابل التوراتي " وهو العنوان الذي اختاره بعناية لكتابه هذا، ومن ثم إلقاء الضوء على الملكة بلقيس ملكة سبأ الشهيرة التي أتِيَ بها وبعرشها كما أخبرنا القرآن الكريم إلى النبي سليمان، وذلك في القرن العاشر قبل الميلاد كانت تلك هي البواعث من وراء إنشاء تلك المؤسسة وسيجد القارئ الكريم في ثَنَايا هذا الكتاب ما يؤكدها. وبعد أن توفر المال اللازم قام ويندل فيليبس في اغسطس عام ١٩٤٩م بزيارة مسح أولي لمدة أسبوعين لإختيار

موقع الحفريات الأثارية ولم تكن أمامه خيارات كثيرة آنذاك نظراً للعزلة التي كان إمام اليمن يفرضها على مملكته ولعدم توفر الظروف الأمنية المناسبة في منطقة شبوه عاصمة مملكة حضر موت القديمة باعتبارها منطقة توتر بين إمام اليمن الذي يدعي تبعيتها له وبين الانجليز الذين يتواجدون بعدن ويسيطرون على ما كان يسمى بإمارات الجنوب العربي من خلال معاهدات حماية شملت كل المناطق التي شكلت ما عُرف فيما بعد باليمن الجنوبي لذلك كان الاختيار الأمثل لويندل فيليبس هو التنقيب في إمارة بيحان موطن مملكة قتبان والتي تتمتع بحماية الانجليز ويحكمها أشراف بيحان الذين وجد منهم ويندل فيليبس كل تشجيع وترحيب.

وهكذا جاء ويندل فيليبس في فبراير عام ١٩٥٠م على رأس بعثة أثرية كبيرة ضمت نخبة من علماء الآثار والنقوش وبعد أن وصلت البعثة ومعداتها الضخمة إلى ميناء المكلا بحضر موت، انطلقت براً في نحو ثلاث عشرة شاحنة كبيرة (دودج باور واجون) متجهة صوب بيحان مروراً بأهم مدن وادي حضر موت تريم وسيؤن وشبام ثم واصلت سيرها غربا حتى وصلت إلى بيحان القصاب وأجرت البعثة خلال موسمين حفريات شملت ثلاثة مواقع رئيسة هي هجر كحلان موقع عاصمة قتبان (تمنع)، وحيد بن عقيل جبانة العاصمة القتبانية، وهجر بين حميد (ذ- غيلم / ذ- غيلن) ويقع على بعد نحو ثمانية أميال إلى الجنوب من هجر كحلان وفي هجر بن حميد تمكنت البعثة من القيام بسبر استراتيجرافي (طبقي) قطاعي بعمق ١٥ متراوتم تحديد نحو ١٩ طبقة أثرية.

كانت المحصلة النهائية لتلك الحفريات إيجابية وباهرة إذ عثر على نحو ٤٠٠ نقش قتباني منها نحو ٢٦٠ نقشا من حيد بن عقيل بالإضافة إلى عدد من

المخربشات وتمثالين من البرونز لأسدين يمتطيهما طفلان، وعقد من الذهب ورؤوس من المرمر وكمية كبيرة من الفخار، والنصب، والتماثيل، والقبور، والآثار العمرانية الأخرى.

وبعد حفريات بيحان تطلع ويندل فيليبس نحو مَأْرِب وكتب إلى إمام اليمن يطلب منه الإذن بالموافقة على التنقيب في مَأْرِب. ويبتسم الحظ للشاب الأمريكي المغامر ويتمكن من الحصول على موافقة الإمام ويبدأ التنقيب في مَأْرِب في نوفمبر عام ١٩٥١ بمحرم بلقيس (معبد أوام) . وكان العمل في البداية يسير بشكل مُرْضٍ يدعو إلى التفاؤل حيث تم إظهار بعض اجزاء المعبد السبئي والكشف عن عدد كبير من النقوش والنصب والتماثيل . كما أجرت البعثة دراسة لسد مَأْرِب ونسخت بعض النقوش المكتوبة على جدرانه. غير أن خلافات نشأت بين البعثة وموظفي الإمام خلقت نوعا من التوتر مما جعل ويندل فيليبس يتصور أن حياة أفراد بعثته في خطر، وينفذ، بالتالي، في فبراير من عام ١٩٥٢م خطة للهروب من مَأْرِب إلى بيحان تاركا وراءه جميع معداته وناقلاً بعض الصور والاستنساخات والرسوم التي تمكنت البعثة من القيام بها ورغم هذه النهاية الدرامية لأعمال البعثة في مَأْرِب إلا ان تلك الحفريات مكنت من اكتشاف نحو ٨٠٠ نقش سبئي من محرم بلقيس والمنطقة المحيطة به بالاضافة إلى عدد من التماثيل البرونزية والرخامية والنصب واللقى الأثرية والآثار العمرانية الأخرى.

وقد تركت النهاية الحزينة لإعمال التنقيب في مَأْرِب أثراً بالغا في نفس ويندل فيليبس وأعضاء بعثته فأراد تعويض تلك الخسارة المادية والمعنوية فتوجه إلى سلطنة عُمان وهناك في موقع يسمى خور روري قرب صلالة بظفار تمكنت البعثة من الكشف عن مدينة حضرميه تسميها النقوش التي وجدت في الموقع

(سمهرم) وكذا عن معبد للإله الحضْرَمي (سين) وبهذه الحفريات الأثارية بظفار عُمان يختتم ويندل فيليبس قصة استكشافاته الأثارية في بلاد العرب كما يرويها في هذا الكتاب. وهي في حقيقة الأمر قصة بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى إذ تمتلك الكثير من عناصر ومقومات الرواية الناجحة من تشويق ومغامرة وإثارة ودراما حقيقة خصوصا حادثة الهروب الحزين من مَأْرِب مما يؤهلها لتكون أساسا لمادة فيلم من أفلام هوليوود فقد برع المؤلف في سرد تفاصيل أحداثها بأسلوب مشوق وممتع رغم ماتقتضيه الدقة العلمية لطبيعة موضوعها من جفاف وبلغة كلاسيكية رصينة في نصها الانجليزي استطاع أن يودعها وصفا دقيقا لتفاصيل الحياة اليومية والعادات والتقاليد ونجح في تسجيل ورصد الكثير من الحوادث الطريفة والغريبة والمعلومات النادرة والدقيقة أحيانا ولاشك ان وجود الآنسة إيلين سلامة السكرتيرة والمترجمة العربية للمؤلف قد أسهم في نقل صورة حية عن المجتمع النسائي باليمن وخصوصا بمنطقتي بيحان ومَأْرِب وجاءت الترجمة العربية للاستاذ الفاضل عباس سَلِسَةً رقراقة، أعذب من السلسال واشبه بالماء في الحدور إذا سال، لتضفي على ذلك النص جمالاً فوق جماله وتزيده بهاء على بهائه.

لقد صدر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥٥ وصدرت له ترجمات إلى الفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات وقوبل بدراسات نقدية من العلماء والمتخصصين بدراسة آثار وتاريخ العربية الجنوبية (اليمن القديم) وتوالى ظهور دراسات قام بنشرها أعضاء البعثة فبالنسبة لحفريات هجر كحلان (تمنع) نشر F.B Albright , R. l. Bowen. وآخرون(1) دراسة أولية عن الآكتشافات الآثارية فيه وذلك عام ١٩٥٨. وبالنسبة لحيد بن عقيل نشر Roy L.Cleveland(2) نشر Gus Van Beek (3) دراسة مفصلة عن الحفريات

التي تمت بالموقع وذلك في عام ١٩٦٩ كما قام عالم النقوش A.Jamme (4) عام ١٩٦٢ بنشر نحو ٣٠٠ نقش سبئي من محرم بلقيس أما حفريات خور روري بظفار عُمان فقد خصص لها ويندل فيليبس كتابا أسماه "عُمان المجهولة" ضمنه الاستكشافات التي أجراها عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٠ وقام بنشره عام ١٩٦٦(5) ويضاف إلى ذلك كله المقالات والبحوث التي نشرت في الدوريات والمجّلات المتخصصة فور انتهاء البعثة من مهام استكشافاتها والتي تناولت نتائج تلك الاستكشافات و تأثيراتها على مختلف فروع الدراسات المتعلقة بتاريخ وحضارة اليمن القديم وقد ظلت دراسات اليمن القديم،حتى ما قبل تنقيبات بعثة ويندل فيليبس ونشر نتائجها، ورغم تاريخها الطويل منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي حبيسة اهتمامات استشراقية دينية ولغوية ومرجعية حضارية اغريقية استعلائية وزاد الطين بلة أن تلك النقوش الكتابية المكتشفة آنذاك والتي كان اولئك الباحثون يركزون دراساتهم على نصوصها كانت في غالبيتها تتسم بالجمود والتعقيد بحكم طبيعتها وتعدد لهجاتها فجاءت نتائج استكشافات البعثة الأميركية باشراف ويندل فيليبس لتقدم للباحثين مادة علمية جديدة ومهمة رغم ماشاب تلك الإستكشافات وكذا الدراسات التي نشرت نتائجها من تصور وخلط وتشويش.

ومن بين أهم ماأسهمت في تحقيقه تنقيبات ويندل فيليبس هو إقحام علم الآثار ليدلي بدلوه ويقول كلمته في مجمل القضايا الشائكة المتعلقة بالدراسات العربية الجنوبية آنذاك ولعل أهم ماقاله وبشكل حاسم قاطع هو أن علم المسند والدراسات الحضارية و التاريخية المختصة باليمن القديم لاعلاقة لها بالدراسات التوراتية وأنه لابد من الاعتماد في دراساتها على النقوش الكتابية المسندية

والوثائق المادية الأخرى والآثار العمرانية التي يوفرها لنا علم الآثار.

ورغم ما تضمنته تلك المادة العلمية التي وفرتها لنا تنقيبات ويندل فيليبس من أدلة قوية تشير إلى أن أقدم النقوش والوثائق المادية والآثار العمرانية المكتشفة إنما تصف لنا مرحلة متطورة من حضارة اليمن القديم و بالتالي فإن مراحل ولادة ونشأة ونمو تلك الحضارة لابد وأن تكون ضاربة بجذورها في أزمان غابرة إلا أن المدرسة الاستشراقية الأوروبية الفرنسية ومن خلال المرجعية الحضارية الإغريقية أبت إلا أن تتحفنا بنظرية مفادها أن نمط خط نقوش المسند التذكارية إنما هو متأثر بنمط الخط الإغريقي وبالتالي فإن عمر الحضارة اليمنية القديمة حسب نمط الخط لأقدم نقوشها التذكارية لايتجاوز القرن الخامس ق. م. وخاضت هذه المدرسة حربا شعواء ضد المدرسة الأمريكية بزعامة أ.البرايت ثم ألبرت جام وكذا ضد المدرسة الألمانية بزعامة ف . هومل ثم هـ. فون فيسمان اللتان قررتا، بناء على نقشين آشوريين يرجع تاريخ أقدمهما لعام ٧١٤ ق. م.، رفع عمر الحضارة اليمنية القديمة إلى القرن الثامن ق.م.، وظلت دراسات علم المسند متأثرة سلبا بهذه النزاعات حتى جاء علم الآثار عام ١٩٨٥ بالقول الفصل عندما اكتشفت البعثة الأثرية الايطالية مدينة (يلا) السبئية التي يعود تاريخها على أقل تقدير إلى القرن الحادي عشر ق.م.

غير أن أهم نتائج تنقيبات بعثة ويندل فيليبس في مجال النقوش المسندية إنما هي بلا جدال تلك النقوش السبئية من محرم بلقيس والتي بلغت نحو ثلاثمائة نقش والتي قام بنشرها ألبرت جام عام ١٩٦٢ وتنبع أهميتها من كونها جاءت جميعها من موقع واحد وتتناول فترة تاريخية متقاربة ويمتاز أغلبها بالوضوح النصي والاسهاب في وصف الوقائع التاريخية والحربية فأنكب العلماء على

دراستها وفحصها وتحليلها واستخلاص ما تضمنته من معطيات جديدة ومهمة اتسعت بها آفاق المعرفة في شتى فروع علم المسند واستوجبت إعادة النظر في مجمل الدراسات السابقة وتجديدها وتطويرها وهكذا شكلت روح المغامرة وحب الاستكشاف لدى ويندل فيليبس نقطة انعطاف مهمة في مسيرة تطور الدراسات الأثرية والتاريخية لعلم المسند ولتاريخ وحضارة الجزيرة العربية القديم بوجه عام.

والآن وبعد مرور قرابة نصف قرن من تلك الاستكشافات ورغم ماشهده هذا الميدان من اكتشافات هامة، واهتمام بأعمال المسح والصيانة والتنقيب كان للبعثات الأجنبية فيه الدور الأبرز، وظهور كوادر عربية احتلت مكانها في أقسام التاريخ والآثار بجامعاتنا العربية التي تبلغ نحو مائتي جامعة وفي الهيئات المختصة بالآثار والتراث والتاريخ، رغم كل ذلك لازلنا نفتقد مدرسة عربية تنظر إلى هذا الجانب الحيوي من ذاكرة أمتنا ومخزونها التراثي والحضاري بمنظار مستقل عن تلك الرؤية الاستشراقية ولازلنا بحاجة إلى جهود عربية تحدد استراتيجيات عمل مشترك لإجراء تنقيب علمي منظم يستمر العمل فيها لسنوات من خلال برامج طويلة الأمد إن هذا التراث إنما هو إرثنا جميعا ولذلك فإن الاهتمام بكشفه ودراسته هو مسؤوليتنا جميعا لقد ذكرنا أن الاهتمام بالدرسات التوراتية كان الباعث وراء إنشاء المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان أفلسنا أحق بالاهتمام بما وصفها القرآن بِأَرضِ الجنتين والبلدة الطيبة، وبقصة ملكة سبأ مع نبي الله سليمان وإسلامها على يَديْهِ؟ لقد ذكر القرآن أصحاب الأخدود وقوم تبع وأصحاب الفيل أفلسنا أحق بأن نهتم بما ورد عنهم في النقوش المسندية والآثار؟ أليس هذا هو تاريخنا جميعا؟ ألا يوجد بيننا من يهتم بهذا بعيدا عما تقوم به الجامعات والهيئات الرسمية؟ ترى أين دور المؤسسات والشركات والقطاع الخاص والهيئات

الخيرية والأفراد؟ ألسنا حقا بحاجة، أخي القارئ الكريم، إلى "ويندل فيليبس" عربي ينشئ لنا "المؤسسة العربية لدراسة الإنسان العربي"؟

وتبقى لنا كلمة ملؤها الود الصادق نهمس بها في أذن البعض من إخواننا العرب الذين تصدوا للقيام بترجمة كتب الرحالة الاجانب والمستشرقين التي تناولت بلدان الخليج العربي واليمن بأن يبذلوا جهدا في تحقيق أسماء المواضع والأعلام فذلك أضعف الإيمان خاصة ونحن نعيش عصر تدفق وتيسر المعلومات والاتصالات إن لهذا التحقيق أهمية بالغة إذ يتعذر دونه الاستفادة من الكتاب المترجم ومعلوماته. ناهيك عن مطالبتهم بالتمكن المعرفي في مادة الكتاب المترجم أو الاستعانة بذوي الاختصاص للمراجعة والتنقيح والتقديم النقدي الذي يضع الكتاب في إطاره الموضوعي أو التاريخي الصحيح أما إن ارادوا أن نحدثهم عما نطمح منهم ونتمناه فنضيف على ماذكرنا أن يتمازجوا مع النص المترجم معرفة وذوقا وشغفا. والحق أن هذا مسلك صعب دونه عقبات كأداء خصوصا في هذا الزمن الذي هرج ومرج ويكفينا أن نرى منهم جهدا صادقا قد بذل فنعذرهم عما لابد وأن يعتري عملهم من خطأ أو زلل.

وإني إذ أقول هذا لا أبرئ نفسي وقد أقدمت على مراجعة ترجمة هذا الكتاب وكان الأليق بي الإحجام لا الإقدام غير أني حرصت من خلال الحواشي على نزويد القارئ ببعض التصويبات لما أورده المؤلف من تصحيف أو تحريف أو معلومات خاطئة وكذا بما طرأ اليوم على المعلومات التاريخية والأثارية من جديد بفعل تقدم الدراسات وتطور وسائل البحث. وقد جهدت ما وسعني الجهد في تحقيق أسماء الأعلام والمواضع من خلال الرجوع إلى الخرائط والمعاجم والمراجع والاتصالات الشخصية التي أجريتها مع بعض الزملاء والأشخاص الذين ينتمون إلى أماكن

ذكرها المؤلف ويصعب الحصول على معلومات منشورة عنها وعلى وجه التحديد منطقة بيحان وإني لأعبر هنا عن شكري وتقديري لكل من ساعدني وزودني بمعلومة أو نبهني إلى خطأ.

وإني لأرجو أن تتسع صدور أساتذتي وزملائي من المختصين بدراسات علم المسند، وكذا القراء الكرام، لما شاب هذا العمل من قصور غير أني بذلت قصارى جهدي، والجهد عاذر، وكنت أوثر الصمت وعدم الخوض في هذا الميدان الشائك وتركه لمن خاض غماره واعتلى صهوته. ولم يكن يخطر لي قط ببال أن أكتب فيه لبعدي عنه وعدم تفرغي له. غير أن الإخوة الأفاضل بالمجمع الثقافي بابوظبي لم يتركوا لي مندوحة ولم يقبلوا لي عذرا وألحوا على بالعودة، ولعلهم رأوا أن العود احمد، وباحمد سُمِّيتُ. وهكذا يبدو، أخي القارئ الكريم، أنه لاحيلة لي في الأمر إذ لايجوز لي باي حال من الأحوال أن «أنْصَرِف» فللّه الأمر من قبل ومن بعد وهو ولي التوفيق.

الدكتور ... أحمد عبد الرحمن السقاف

أبوظبي ١٥/٥/٢٠٠٠

الحواشي :

(1)- R.L. Bowen And F.B. Albright and Others, Archaeological Discoveries in South Arabia, Publication of the American Foundation For The Stuly of Man, The John Hopkins Press,Baltimore, 1958.

(2)- Ray L. Cleveland, Ancient South Arabian Necropolis, Objects From the Second Campaign (1951) in the Timna Cemetry, the John Hopkins Press, Ballimre, 1965.

(3)- Gus Van Beek, Hajar Bin Humeid, Investigations at a Pre - Islamic Site in South Arabia (Publication Of The American Foundation For the Stuly Of Man) Vol. v., Baltimore, 1969.

(4)- A, Jamme, Sabaean Inscriptions From Mahram Bilqis (Marib) (Publication Of the American Foundation For The Study of Man,), Baltimore, 1962.

(5)Wendell Phillips, Unknown Oman, London, 1966.

مقدمة :-

بين يديك أيها القارئ العزيز قصة حلم جميل، رغم أنه كان مثل الكابوس في بعض الأحيان. وقد يستمتع بعض القراء بما سأرويه عن العاصمة التي شيدتها ملكة سبأ والتي لاقينا أصنافاً من العنت في بلوغها، وربما لا يجد الآخرون مسرّة في متابعة ما حدث لنا في المملكة اليمنية، عموماً فإنني أتمنى أن تكون هذه الصفحات مصدر إلهام للذين يعشقون المغامرة والاستكشاف مهما كانت المخاطر المحفوفة بهم، ولكني في الوقت نفسه أذكّر الجميع بأن الأحلام الرومانسية وسحر الأسفار والمعرفة واقتحام المجهول قد تجلب معها الكوارث والمتاعب، مثل الآلام المبرحة التي تداهمك إذا تشققت شفتاك أو تورم لسانك أو تجمدت أطرافك أو أصابتك الدسنتاريا أو الحمّى، ومثل الاكتئاب أو الضجر الممضّ، كل ذلك جزء لا يتجزأ من حياة المستكشف.

لقد ظلت أبواب الاستكشاف مشرعةً، خاصة بالنسبة للقارة الأفريقية البكر، التي هي بمثابة مختبر في العراء لمختلف العلماء والباحثين كافة ولمن يعشق اقتحام المجهول.

أما بالنسبة للجزيرة العربية فإن الأجراس قد دقت لتوها والأبواب فتحت على مصراعيها لمن أعد العدة من المستكشفين، فهذه واحدة من آخر المناطق في العالم التي يجهلها الكثيرون. إننا على موعد نجلو فيه ثمّة حقائق حول هذه الأرض أرض الرمال والغبار،والبدو والجنابي،والمعابد المطمورة والقصور المبنية من اللّبْن.

بيد أننا نصطدم بالعقبات والمشكلات؛ فالأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية مازالت نهباً لعدم الاستقرار السياسي، تنتابه موجات من العنف والخلافات

الحدودية.

هنالك مناطق بأكملها محظورة وغير آمنة، تسود فيها البندقية ويحكمها قانون الثارات القبلية المتأصّلة، وقد حاولنا أن نمدّ جسور التفاهم والتودد بين الأمريكان والشعوب العربية من خلال الرحلات الأربع التي قمنا بها لهذه المناطق والتي نَقُصّ عليك خبرها في هذا الكتاب بطريقة عفوية. إن مستقبل الجزيرة العربية يتكون الآن، وما لم تسهم أمريكا وأوروبا في جهود هذه الشعوب من أجل النماء والرخاء، فإن تأثيرنا عليها سيضعف، كما تشهد بذلك وتيرة الأحداث التي نمر بها اليوم ونحن في منتصف القرن العشرين.

ليس من أهداف هذا الكتاب تسليط الضوء على الماضي السحيق، ولكننا ننقل صورة عن الحاضر مشفوعة بأمنياتنا في أن يكون المستقبل مشرقاً وأن تستعيد الجزيرة العربية الأمجاد التي شهدتها في غابر الأزمان. إن العقلية الاستعمارية الكلاسيكية التي كانت سائدة منذ نهاية القرن المنصرم أخذت تنحسر في معظم دول الغرب، وليس أدلّ على ذلك من الاستثمارات الأمريكية التي تنتظم الجزيرة العربية. هذه الأنشطة الاستثمارية مبنية على أساس متين من التعاون والمصلحة المتبادلة بين الطرفين، حيث إن رفاهية كل طرف تعتمد اعتمادا كليا على الطرف الآخر، وهكذا فإن العالم العربي ينفض غبار الماضي ويدخل في عصر جديد من الأمجاد والازدهار.

لا بد أن نكون صريحين مع أنفسنا؛ فالعرب لا يصدقون الادّعاء بأننا يمكن أن نساعدهم لوجه الله تعالى، وحقيقة الأمر أن الأوروبيين والأمريكان لهم أجندتهم؛ ولكننا إذا اعترفنا بحقيقة المصالح التي تحفزنا لاستقطاب ودّ العرب، وإذا اعترف إخوتنا العرب بأنهم أيضا يحتاجون لنا كما نحتاج إليهم، فإننا بذلك

نكون قد خطونا خطوات عديدة نحو بناء الغد المشرق السعيد على أرضية من التفاهم والتعاون والواقعية.

وأخيراً، فإنني أؤكد بأن ما يحمله هذا الكتاب بين دفتيه من إفادات وآراء لا تعبر إلا عن آراء الكاتب شخصياً، ما لم يُذكر قائلوها بالتحديد.

وأود بهذه المناسبة أن أزجي تحياتي وجزيل شكري للشخصية العربية الأولى، السلطان سعيد بن تيمور، سلطان مسقط وعمان والمحميات، الذي أسبغ عليَّ شرف اللقب الرفيع: (المستشار).

كما أتقدم بالثناء العاطر لجون فوستر نيلون الذي كان لي بمثابة الأساس الصخري الذي انطلقت منه في رحلتي إلى أفريقيا، وشكري أيضا لصمويل ف. بريور الذي كان مثل جبل طارق حين استندت إليه في رحلاتي للجزيرة العربية.

والشكر أيضا لوزير الطيران هارولد إي تاليوت، ولوكيل وزارة الخارجية الأسبق الجنرال والتر بيدل سميث، وللسناتور يورك بي هكنلوبر، ولمساعد وكيل الخارجية هنري إي بايرود، لمساعدتهم الجمة.

والشكر أسديه أيضاً لحكومة عدن وللقوات الجوية الملكية لدعمهم وتعاونهم، والشكر للدكتور روبرت جوردون سبرول رئيس جامعة كاليفورنيا الذي هيّأ لي اول فرصة لقيادة حملة استكشافية في حياتي، والشكر للدكتور وليام كي جريجوري عالم الآثار المرموق الذي أخذ بيدي إلى طريق البحث عن الحضارات القديمة، والشكر للمرحوم الدكتور روبرت بروم الذي كلّل رحلتنا إلى أفريقيا باكتشافه إنسان سوارتز كرانز شبيه القرد، والشكر للدكتور شارلز كامب الذي كان وراء انضمامي لأول بعثة استكشافية في حياتي، والشكر لجيمس كي مفت الذي ألهمني منذ نعومة أظفاري، والشكر لآر في وتسل لمساعداته التي لا تقدر

بثمن وصحبته لي في رحلة ظفار، والشكر للكماندر وندل فيليبس دودج المستكشف العريق والمحرّر الأسبق لمجلة (ذا اكسيلوررزجورنال) الذي لم ينس رحلاتي أبداً، وللدكتور ايرون مون ولورنس شيرمان المنتجين السينمائيين الأفذاذ على دعمهم لي في مجال التصوير، والشكر لرتشارد سانقر من وزارة الخارجية الذي كان أول من اقترح عليَّ إمكانية التنقيب في بيحان، والشكر لولتون وين مراسل (مدل إيست) الذي مهد لنا الدخول لليمن، والشكر للويس جونسون ولإدوارد إيقان ولشارلس نيقر ولهنري اكنيري ولبول آيكن لاستشاراتهم القانونية.

لقد ساعد الكثيرون في إعداد هذا الكتاب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وإذا أردت رصد أسمائهم جميعاً فإنني أحتاج لفصل آخر، ولكنني أتوجه بالشكر لأعضاء الحملات الاستكشافية الأربع الذين أمدوني بمذكراتهم ولزملائي في «المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان» لدعمهم المتواصل، وشكري للويل توماس لوقوفه المستمر إلى جانبي، ولوالدي ميرلي فيليبس وللعميد تي إي ماكنيرتي الذي شجعني على تسجيل تجاربي في شكل كتاب، وشكري لكيروان مدير الجمعية الجغرافية الملكية الذي قدم لنا العون في مجال الخرائط، والشكر للدكتور فريزو هيبروك ولنايجل قروم للمعلومات القيمة التخصصية التي وفروها لنا وللخرائط التي أعطونا إياها، والشكر لفريد بلتشلي لرسم بعض الخرائط، والشكر لجاك ميقر محرر مجلة (كرايسلر موترز) الذي أشرف على تحميض الآلاف من صورنا، ولوليام تيري الذي جعل من كل صورة لوحة فنية، ولديفيد كبرتن لمساعدته في اختيار الصور، وللسيدة هانيمان، وللبروفيسور ستيرتون، وللبروفيسور متولي، ولشارلس انج، وليات كوهتل، ولحسين ادنوالا، ولكيث

كولنز ، ولإنصاف عبد المقصود، ولجو ريختنك ، ولقس فان بيك، ولهيربرت فرنس لمراجعة النص، وللدكتور البرت جام لمراجعة النص ولترجمته للنقوش القتبانية والسبئية، ولأمي ولأختي مارلين لمراجعة نص الكتاب، وللبروفيسور كاسبر كريمر لاقتراحاته البناءة، ولولبس كنفزلي وتق لتشجيعه ونصائحه التي لم تنقطع.

إن شكري الخاص جداً مقدم للبروفيسور وليام .ف. البرايت الذي راجع النص وصحح الترجمات من اليونانية واللاتينية، وشكري لسكرتيرتي العربية الممتازه مدموزيل إيلين سلامة للسمعة الطيبة التي اكسبتها لبعثاتنا الاستكشافية، ولمعلوماتها القيمة التي حصلت عليها من السلاطين والأمراء والشيوخ والأشراف بجنوب الجزيرة العربية ولمساعداتها الضخمة في أثناء إعداد هذا الكتاب ، ولمارشال ماكلنتوك الذي صحح النص وجمّله وجعله مقروءاً.

وندل فيليبس

البعثة وآلام مخاضها

كلما أقدم محاضرة أو عرضاً سينمائياً عن تجربتنا في الجنوب العربي، يسألني الحاضرون سؤالين: « كيف أصبحت قائداً ومنظماً لبعثة علمية كهذه؟ » و« كيف تتمكن من استقطاب التمويل والأجهزة؟ »

وإجابتي عن السؤالين دائما هي: الرغبة والعمل الجاد والايمان والحماس وشيء من الحظ ومعرفة الأشخاص المناسبين. ولكنني الآن أريد أن أكون أكثر وضوحاً وأروي طرفاً من تجاربي الشخصية منذ أن بدأت نشاطي في هذه البعثات وكيف جمعت لها الدعم الذي مكنها من تنفيذ مشاريعها في أفريقيا وسيناء والجنوب العربي.

لقد راودتني أحلام الاستكشاف منذ نعومة أظفاري ، وهذا ما شجعتني أمي عليه كثيراً. وخلال سنين الكساد العالمي كنت بائعاً للجرائد والمجلات في شوارع أوكلاند بكاليفورنيا وأنا في العاشرة من عمري، فتعلمت السرعة، وأجدت لعبة التوقيت الصحيح منذ تلك السن المبكرة. كما تعلمت من تجاربي أن أقتحم ولا أتردد . أذكر أن الكاتب الإنجليزي هـ.ج.ولز قال لي أيام الحرب العالمية عندما التقيته في لندن :-

« الطريقة الوحيدة لتعلم الكتابة ياوندل هي أن تمارسها » وقد تعلمت كذلك ان أفضل طريقة لتجويد الخطابة والكلام أمام جمع من الناس هو أن تقف على رجليك وتتكلم مرات ومرات غير هيّاب أو وجل.

ولقد تخرجت من جامعة كاليفورنيا متخصصا في علم الحفريات الآثارية (باليونتولوجي) بعد تمرينات عملية عديدة وعمل ميداني ، منها بعثات ثلاث

ذهبت تجوس ولاية أريزونا واوتاه واوريقون بحثا عن الحفريات والمتحجرات.

وكنت خلال الحرب العالمية الثانية أعمل بحاراً في سفينة تجارية طافت بين مسارح العمليات الأساسية، وبعد الحرب فكرت في مشروع استكشافي يغطي القارة الأفريقية كلها، وقد أعجبت الفكرة رئيس جامعة كاليفورنيا «روبرت قوردون سبرول» ومديرها «جون فرانسيس نيلان» . وقد ساعدتني أسفاري في اثناء الحرب في التعرف على علماء ومبدعين كثيرين وعلى استقطاب أعداد منهم من أنحاء العالم كافة لنشاطاتنا الاستكشافية.

أما فيما يختص بالدعم المالي فإنني مدين «لروي شابمان اندروز» مستكشف صحراء «قوبي» الذي علمني أساليب البحث عن التمويل ، وقد تأسيت ببعثته في أواسط آسيا الموفدة من متحف التاريخ الطبيعي الأمريكي رغم كل ذلك فقد اكتشفت بعد قليل أن الحلم والتفكير المجرد في إنشاء بعثة أمرٌ يختلف عن واقع تكوينها وخوض غمار العمل الخاص بها .إنه يشبه من وجوه عدة رنجاب المرأة طفلاً :حملُه سهل لكن ولادته صعبة.

وكانت خطواتنا الأولى كأنها فوق حقول من الشوك، مفعمة بالقلق، وأحياناً بالإحباط والفشل . وبدأت أتساءل: ألم يكن الأفضل الانغلاق في مكتبي وامتهان الكتابة؟ أليس من الأفضل التحضير للدكتوراه وهي البطاقة الأكاديمية الأولى في عالم اليوم؟ ولماذا لا أبقى في البيت مع أمي مكباً على القراءة حتى أحصل على وظيفة في مختبر لا أبرحه إلا إلى البيت؟

كان ذلك في أواخر عام ١٩٤٦م وكان «المارشال جان كرستيان سمتس» يمثل بلاده جنوب أفريقيا في اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة في «ليك سكسس» . فأخذت خطاب توصية من رئيس جامعتي وذهبت لنيويورك حيث

قدمت نفسي لهذا المارشال العظيم الذي برز في حرب البوير في القرن التاسع عشر وأصبح رجل دولة ممتاز وهو مثقف وفيلسوف. واستمع لي المارشال سمتس بانتباه شديد، وقال لي في النهاية إنه مستعد لقبول الرئاسة الفخرية لمجلس الأمناء وأعطاني خطاباً قيماً كمقدمة لمشروعنا. يقول الخطاب في جزء منه:-

«إن أفضل مكان لدراسة بدايات الإنسان هو جنوب أفريقيا التي تعدُّ متحفاً حقيقياً لآثار ماقبل التاريخ، بل ربما كانت مهداً للعنصر البشري، ودراسة بدء الخليقة هي من أمتع الدراسات العلمية التي زاد الاهتمام بها مؤخراً . ونحن نعرف الشجرة ليس فقط بثمارها؛ إنما بجذورها ، ومعرفة أسلافنا الأولين وتطورهم عبر العصور الجيولوجية المختلفة قبل فجر التاريخ ستلقي كثيراً من الضوء على القضايا العلمية وغيرها التي تشغلنا اليوم».

إن هذا الدعم الأدبي من شخصية عالمية فذة كالمارشال كانت منحة من السماء لنا، وبفضله تبرعت لنا المؤسسات العديدة في خلال عشرة أيام بعشر شاحنات جديدة وخمسين ألف جالون بنزين وترحيل بحري مجاني، وأجهزة كهربائية، وأجهزة تسجيل، ومعدات تقدر قيمتها بمئات الآلاف من الدولارات.

وما بين لقائي بالمارشال وبداية أول مشروع استكشافي قمت بنشاط واسع وأسفار كثيرة، منها رحلة إلى افريقيا غطيت خلالها أربعين ألف ميل ، وقد تبرع لي بتذاكرها نائب رئيس شركة «بان أمريكان» المستر «صمويل بربر» . وقد كنت المندوب الأمريكي الوحيد في أول مؤتمر لكل أفريقيا لدراسة ما قبل التاريخ الذي عقد في نيروبي في يناير ١٩٤٧م.

وعدت بعد تلك الرحلة لأواصل تأمين الجبهة المالية، وقد ساعدتني الملكات التي غرسها والدي في وجداني منذ الصغر، وهي الحماس للفكرة والتقدير السليم

للخطة الزمنية المناسبة والتنظيم الصحيح وسعة الخيال والثقة بالنفس والإيمان. وكنت فعلاً أحتاج لكل هذه الملكات. وقد حذرني كثير من العلماء من الترهل والعدد الكبير، كما انتشر الهمس في أروقة الجامعة حول ضخامة البعثة، وحول مهمة البعثة في أفريقيا. ولكن ذلك لم يفتّ في عضدنا لأن الذين وقفوا معنا هم الأشخاص والجهات ذات الوزن الفعلي؛ ومنهم مثلاً الجنرال جيمس دولتل الذي اصبح نائباً لرئيس شركة شل والذي دخلت عليه أول مرة فقال لي :-

«لديك دقيقة واحدة لطرح قضيتك يا عزيزي!» ولكني رغم ذلك خرجت منه بخمسين ألف جالون بنزين وهكذا فإن هؤلاء العمالقة الذين طلبنا منهم الدعم حاسمون دائماً وكذلك قدمني «الان سبراول» رئيس مصرف الاحتياط المركزي لمديري شركة جنرال موتورز فخرجت منهم بعشر شاحنات.

وبما أن جامعتي كانت تتخوف من حجم البعثة وصغر سني (ست وعشرون سنة) فقد أشار إليّ مدير الجامعة بالاستعانة بقوات البحرية، وبالفعل قابلت الأدميرال شستر نمتز مدير العمليات، في شقته الفاخرة في واشنطن، وقدم لنا مساعدات جبارة. وقد عرّفني الأدميرال بالجنرال كارل سباتس الذي تبرع لنا بطائرة . وكذلك أعطانا الأدميرال بعضا من ضباط وجنود البحرية لكي يعملوا معنا في البعثة ومنحنا أجهزة وحوّلنا لمدير الخدمات الطبية الذي كان من رأيه ليس فقط تقديم العون إنما الاستفادة من عمل البعثة الميداني في أفريقيا، كانت هذه فرصة طيبة لإجراء أبحاث طبية في تلك القارة بالتنسيق مع بعثتنا، ومن أجل ذلك وقعنا مع الخدمات الطبية عقدا قيمته ٥٨٠٠٠ دولار لإجراء دراسات طبية في أفريقيا بتكليف منهم ، وانتدبوا لنا فريقا من تسعة أطباء وفنيين.

وبعد اجتماعات موفقة مع الرئيس جنرال دوايت أيزنهاور والدكتور دانا كومان والدكتور بول سايبل رئيس لجنة البحوث والتطوير بالجيش الأمريكي، خرجنا

بمجموعة من السيارات والمقطورات والقوارب والأجهزة الميدانية الهامة .

ثم قابلت رولاند هاريمان أحد الشركاء في مجموعة مصارف براون وإخوانه، ولقد دعمنا بكرم فائض مما جعل كثيراً من العلماء في وضع يمكنهم من التخلي عن التزاماتهم بأمريكا والانضمام لنا والسفر والعمل معنا في أماكن نائية في مجاهل أفريقيا .

كما أسهم معنا توماس واتسون من شركة « بزنس ماشينز انترناشونال » ، ودكتور قلبرت دارلنقتون رئيس جمعية الإنجيل الأمريكية، وساعدنا الأدميرال رويار بشحن معداتنا على سفن البحرية إلى الإسكندرية في مصر، كما قدمت جامعة كاليفورنيا مبلغ عشرين ألف دولار لنا كدعم مالي .

وبعد عام من ذلك كتبت الصحف في كاليفورنيا قائلة :-

« إنه من دواعي الفخر بالنسبة لولاية كاليفورنيا أن الجمعية الجغرافية الوطنية قد صنفت البعثة الأمريكية كرقم واحد في البعثات العلمية لعام ١٩٤٨م » وبعد ستة وعشرين شهراً من ذلك شهد الأدميرال بو من البحرية الامريكية « بأن البعثة الأفريقية الموفدة من جامعة كاليفورنيا أنهت أكبر عملية مسح طبي للقارة الأفريقية وقد كانت المهمة ناجحة جداً . »

ثم بعد ذلك جاء دور بعثة جبل الطور بسيناء وبعثة الجنوب العربي اللتين تمتا باسم « المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان »، التي يتألف مجلس إدارتها من الرجال الذين دعموا البعثة الأفريقية . ولكنا أيضا بدأنا مجهود الاستقطاب والبحث عن التمويل من أوله .

حملنا خطاب توصية من « سام برير » مدير بان أميريكان إلى كي تي كيلر رئيس شركة كرايسلر، وكان في نيتي أن أطلب منه عشر سيارات (باور واقن دودج) ، ولكن عندما قابلت ذلك الرجل وشرحت له طبيعة عملنا والمناطق التي

سنرتادها أحس بأن تلك فرصة طيبة لإجراء الأبحاث والتجريب الميكانيكي، ومنحنا أسطولاً يتكون من خمس عشرة شاحنة وسيارة دودج.

وقدمني صديقي بن كونر رئيس شركة كولت للأسلحة لوالتر دتمارز رئيس شركة قراي الصناعية الذي فاق حماسه حماسنا لهذه المشاريع وقد زودنا بمسجلات وأجهزة الكترونية وجمع لنا دعماً غزيراً من معارفه وأصدقائه، ومنهم المستر سيرز نائب رئيس شركة رمنقتون راند الذي موَّلنا بكل ما نحتاجه من أجهزة مكتبية للعمل الميداني. ولم تكن تلك الهدايا للاستخدام التجريبي وأغراض البحث، إنما كانت في غالب الأحيان بغرض مساعدتنا في بحوثنا التاريخية والآثارية بغض النظر عمّا تجلبه لتلك الشركات من فوائد جانبية.

ولقد زرنا رئيس شركة كوداك الذي أهدانا آلة تصوير سينمائية خاصة متطورة، كما تقدم لنا مدير شركة قرافلكس بكمية من آلات التصوير.

وقفت مكتبة الكونغرس معنا في بعثة سيناء وساندتنا من الألف إلى الياء، كما دعمتنا شركة سيتيز سيرفس أويل بمبلغ من المال وطائرة سسنا صغيرة وزيوت موتورات. وحصلنا على جهاز إرسال واستقبال من البحرية.

وبعد أن توجهنا لمنطقة الجنوب العربي أخذنا نواجه المشكلات الأخرى، بعد أن فرغنا من التمويل والأجهزة وخلافه، وأهم هذه المشكلات الجو الحار والبيئة القاسية التي وجدناها. كان لابد أن نعمل خلال موسم الشتاء والربيع فقط.

وكان الدعم المالي الأساسي من شركة هاينز الصناعية في بيتر سبيرق التي انشأت لنا صندوقاً خاصاً أسهمت فيه منظمات خيرية أمريكية كثيرة.

وهكذا فإننا وجدنا عوناً لا حصر له من المؤسسات الحكومية والشركات والمنظمات الطوعية والجامعات والأفراد.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الأول

ارجع إلى الخلف ! ارجع إلى الخلف !

لقد بدت لي الجزيرة العربية من الجوّ مقفرة ومكفهرّة منذ بدء الخليقة؛ هذه البقعة الرملية الضخمة التى تتوسط كتلتين شاسعتين من الأرض، آسيا وافريقيا، تبدو كأنها قد انفصلت عن البحر لتوّها، فما زالت بدائية ومتجهّمة وعارية؛ وهنا تبرز الأرض بلا إزار يسترها، ولا تزخرفها البحيرات أو الغابات.

لا تصافح الخضرة عينيك هنا، باستثناء بقع معزولة هنا وهناك تقف دليلاً على أن خالق الكون جلّ وعلا أراد أن يلطف بسكان هذه الفيافي، فبينما ظلت القارات الأخرى ترفل في نعيم الأنهار والأشجار، ظلت الجزيرة العربية بلقعاً جرداء إلا من جيوب متناثرة ومتباعدة من الخصب وعيون الماء وسط الأودية المجدبة والهضاب الرملية.

رغم الوجه العابس لجنوب الجزيرة العربية كنت أتطلع خلف ذلك لما استبطنته تلك الرمال عندما حلّقت فوقها بالطائرة في أثناء زيارة المسح الأولى في شهر أغسطس عام ١٩٤٩م والتي استغرقت أسبوعين، كنت أعرف من خلالها أن ذلك الغطاء الخارجي الكالح الهزيل يُخفي وراءه ماوراءه؛ كنت أخترق بمخيلتي الكثبان المتحركة والأودية الصادية والصخور الصلبة، وأكاد أبصر خلفها طريقا طويلا يمتد لسبعمائة ميل من الشرق إلى الغرب ، ثم ينعطف شمالاً ويتعرج لمسافة ألف ميل حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وديار أسلافنا الذين بدأت بهم الحضارة الغربية. عدت بمخيلتي ثلاثة آلاف سنة لأرى قوافل الجمال المحملة بالبخور والمرّ والذهب والجواهر وسن الفيل والتوابل والحرير ومحار السلاحف والزمرد ؛ كانت

القوافل تشق غمار الصحراء من هنا فوق طريق واحد لا بديل له، اسمه «طريق البخور» فلو اتجهت شمالا ستجد نفسها في الربع الخالي الذي هو عبارة عن مئات الأميال من القفر اليباب تماماً، ولو اتجهت جنوبا ستجد نفسها وجها لوجه مع البحر، بحر العرب والمحيط الهندي، بعد مسافة قصيرة فوق الجبال الكالحة* .

لقد اهتدت القوافل لهذا الطريق لأن به عيون ماء وبقعاً خضراء تمد الجمال وراكبيها بالماء والطعام ، وتلك ثروة أهم من الذهب والبخور عندما يعطش الإنسان أو يجوع، وازدهرت حول هذه البقع مدن شهيرة كانت تجبي الضرائب والرسوم من تلك القوافل لقاء ما توفره لها من مأكل ومشرب وهنالك طرق صغيرة فرعية تلتقي هذا الطريق الرئيس من بعض الموانئ بالجزء الجنوبي المطل على بحر العرب، وفي تلك الموانئ ترسو الفُلك الشراعية العاتية تدفعها الرياح الموسمية القادمة عبر المحيط الهندي من جهة الشرق، محملة بالبضائع الهندية؛ وقد ظلت أسرار تلك الرياح واتجاهاتها معلومات انفرد بها العرب لآلاف السنين. كانت تلك السفن تأتي إلى سقطرى ومنها إلى اليمن، وسقطرى (أو جزيرة البَرَكة) تقع على

* الربع الخالي وهو المنطقة الصحراوية الممتدة من الأجزاء الشمالية لحضر موت والمهرة والأجزاء الشمالية الغربية لعُمان من جهة الجنوب وحتى جنوب صحراء الدهناء ووادي الدواسر من جهة الشمال. ويتصف الربع الخالي بقلة أو انعدام المياه خصوصا في اجزائه الغربية وبالتالي ظل يُشَكِّل منطقة يصعب اجتيازها مما جعله يمثل حاجزا طبيعيا بين وسط الجزيرة العربية والأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية منها ويجب عدم الخلط بين الربع الخالي ورملة السَبْعَتين فالأخيرة تقع إلى الشرق بين مَأرِب وبيحان وتمتد حتى الأجزاء الغربية من وادي حضر موت (انظر الحاشية صفحة ٧٩).(المراجع)

مقربة من عدن، وهي مركز تجارى يربط الهند بأفريقيا والجزيرة العربية*. وفي الركن الغربي الجنوبي من الجزيرة العربية كانت هنالك موانئ تتناهى إليها البضائع القادمة من القرن الأفريقي، ومن ثم تأخذ تلك الشحنات طريقها إلى درب القوافل الرئيس لتنضم التي البضاعة الرئيسة التي اشتهرت بها حضرموت وظفار وهي البخور .

قد يصعب علينا اليوم تفهم الدور الحيوي والمهم للبخور في عالم الأمس القديم، حيث إننا لا نعرف الروائح الخبيثة التي كانت سائدة آنئذ وكانت تحتاج لسحب كثيفة من الدخان المعطر ليطردها ويحل محلها. وكانت العطور الشرقية المخلوطة بالزبيب واللبان والتوابل تستخدم في التحنيط والتعقيم والعلاج، وكانت

---

* جزيرة سقطري واحدة من أكبر الجزر العربية تبلغ مساحتها حوالي ٣٠٠٠ كم مربع ويبلغ اقصى طول لها نحو ١٣٠ كم. تقع على بعد نحو ٥٥٠ كم إلى الجنوب الشرقي من (قنا) الميناء الرئيس لمملكة لحضر موت (أرض البخور) ورغم بعد سقطرى عن ساحل حضر موت الا أن مملكة حضر موت كانت تسيطر عليها منذ القدم وفي ذلك شاهد على تسجيل الحضارمة لبصماتهم في تاريخ الملاحة منذ وقت مبكر. وقد أشار إلى تلك السيطرة مؤلف كتاب (الطواف) Periplus كما شهدت بذلك نقوش المسند المتأخرة ويبدو أن تلك السيطرة كانت سياسة ثابتة لدى مملكة حضر موت فرضتها ضرورات إستراتيجية وجغرافية واقتصادية فالجزيرة تتوسط طرق الملاحة الدولية آنذاك وتمتلك ثروات طبيعية كاللبان والصمغ والصبر ودم الأخوين والنباتات النادرة الأخرى التي تستخدم كعقاقير بالإضافة إلى العنبر ومادة الذبل التي تستخرج من السلاحف تذكر نقوش المسند جزيرة سقطرى باسم (سكرد) ويطلق عليها الكتاب اليونان والرومان اسم (ديو سكورديا) وكلمة "ديو" في اليونانية تعني جزيرة أما سكورديا" فهي الصيغة اليونانية للاسم الأصلي للجزيرة كما ورد في النقوش وبالتالي فلاصحة للقول بأن إسم سقطرى مشتق من تسمية سنسكريتية للجزيرة هي (ديقيب سوخارتا) .(المراجع)

أبخرة العود تتصاعد في المآتم والأعراس وغير ذلك من المناسبات ، كما ظلت تعبّق البيوت كل يوم.

كانت المناسبات الدينية تحديداً تتطلب كميات هائلة من عود البخور، فقد كانت هذه المادة مقدسة وكان البلد الذي يصدرها ، وهو الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، أيضا بلداً مقدساً. ففي القرن الثاني عشر قبل الميلاد مثلاً بنى رمسيس الثالث ملك مصر مخزناً خاصاً لحفظ عود البخور الذي يستخدم في عبادة الإله آمون رع. وكان معبد القدس يحتوي على غرفة خاصة تحت الأرض لتخزين العود. وكان دارا ملك فارس يتلقى من العرب ضريبة سنوية عبارة عن ثلاثين طناً من عود البخور. وفي بابل كان محراب الإله «بل» طاهراً على الدوام تحت أبخرة زكية تطلقها كميات من العود تبلغ ستين ألف رطلٍ كل عام. وكذا الحال بالنسبة للهندوس، والبوذيين، واليونانيين، والرومان الذين كانت طقوسهم الدينية تتطلب دخان عود معين، لا يتوافر إلا في بقعة معينة جنوب الجزيرة العربية وفي منطقة القرن الأفريقي.

لمدة ألف عام ، وربما أطول من ذلك، ازدهر جنوب الجزيرة العربية لدرجة خيالية حتى أُطلق عليه الكتاب الكلاسيكيون اسم «العربية السعيدة»* ، وتلك بواقع اليوم مفارقة كبرى، فقد ظلت هذه المناطق عبر القرون الأخيرة المنصرمة، أرضاً

---

* العربية السعيدة "تسمية أطلقها الكتاب اليونان والرومان على جنوب الجزيرة العربية ووسطها وشمالها وتشمل المنطقة الواقعة جنوبي الخط الممتد من خليج العقبة في الغرب وحتى رأس الخليج العربي في الشرق، بينما أطلقوا تسمية "العربية الصخرية أو الحجرية" على شبه جزيرة سيناء وماجاورها من مناطق في شمال الحجاز وجنوبي البحر الميت، وكذا تسمية "العربية الصحراوية" وارادوا بذلك على وجه التقريب الصحراء المعروفة ببادية الشام والتي تمتد شرقا حتى بلاد العراق .(المراجع)

جرداء شاحبة، يعيش عليها أقوام يعانون الفقر المدقع على الدوام.

وبالإضافة لإنتاج عود البخور، فقد ازدهرت التجارة في جنوب الجزيرة، باعتبارها وسيطاً بين الشرق والغرب، واحتكر العرب التجارة البحرية، بين هاتين الحضارتين طوال القرون السابقة لإتصالهم المباشر بهما، وكان المحيط الهندي يضج بحركة التجارة العربية لفترة طويلة، قبل أن تنتقل للبحر الأبيض المتوسط. وظلّت السفن القادمة من الهند، وسيلان تفرغ شحناتها في الموانئ العربية المطلة على بحر العرب، أو في الجزر، والشطآن الأفريقية الشرقية التي كانت خاضعة للنفوذ العربي، وما كانت أبداً تتخطّى باب المندب إلى داخل البحر الأحمر، ومن الناحية الأخرى فإن السفن المصرية، وغيرها مما يأتي من الشمال كانت تجوب البحر الأحمر كما تشاء ولكنها لا تتخطّى باب المندب إلى داخل بحر العرب. وهكذا فإن الوسيط العربي استطاع أن يحتفظ بموقعه مع بقاء الشقة بين الشرق والغرب، بين المنتج والمستهلك.

وهكذا حُمّلت القوافل بخيرات آسيا بالإضافة لعود البخور من جنوب الجزيرة، وأصبح الطريق الطويل الذي تسلكه القوافل محط نزاع بين القبائل والشعوب، الكل يريد أن يسيطر عليه؛ فمنذ الألف الثانية قبل الميلاد حتى بُعَيد بداية العصر المسيحي قامت العديد من الممالك ثم ماتت ثم قامت أخريات، وتحالفت، وغزت جيرانها ثم انحسرت وتلاشت، مثل سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحِمْيَر، وهي قد تبدو لنا أسماء غريبة مثل عواصمها مأرب وقرناو وتمنع وشبوة وظفار*. وربما سمعنا عن سبأ التي نعرفها بالاسم الآخر (شيبا) التي ورد ذكرها في العهد القديم

* ظفار هنا هي ظفار حمير وعاصمة مملكة حمير وليفرق بينها وبين إقليم ظفار الواقع حاليا بسلطنة عُمان وكانت مدينة ظفار الحميرية تقع إلى الجنوب من صنعاء بنحو ١٢٠ كم انظر الحاشية ... صفحة٣٢٨ (المراجع).

الذي يقول بأن ملكة سبأ زارت سيدنا سليمان عليه السلام وكانت محملة بالهدايا المدهشة مثل عود البخور. وجاءت في العهد القديم كذلك شذرات عابرة عن جنوب الجزيرة العربية لا تشفي الغليل تماماً، ولكنها على كل حال تؤكد وجود أمم، هنا في الأزمان الغابرة فتكت بها الحروب وتضاءلت بعد ذلك وتحجرت وتخلفت عن مجرى التاريخ البشري المعاصر طوال العشرين قرناً المنصرمة.

إن عشرين قرناً من الزمان كافية لدفن الماضي السحيق وطمس معالمه، ولكن لحسن الحظ بقيت بعض المعالم التي قاومت عوامل التعرية والنسيان؛ بيد أن الكثير من تلك المعالم هي عبارة عن أساطير وقصص فولكولورية شعبية تختلط فيها الحقيقة بالخيال، رغم أننا قد نهتدي لبعض الحقائق التاريخية بين أبيات الشعر كما فعل «شليمان» الذي استطاع أن يعثر على مدينة طروادة ويحدد مكانها بالضبط من خلال الإشارات التي وجدها في قصيدة «الإلياذة» للشاعر الإغريقي «هوميروس» وهنالك إشارات أكثر وضوحاً عن الجنوب العربي في النصوص القديمة التي كتبها المؤرخ هيرودوت، وبلايني، واسترابو، وأراتوثينس، وغيرهم من الكتاب القدامى، رغم أنها خطوط عامة مبنيَّة على الأقاصيص السمعية. هنالك سفر عن الشواطئ العربية بعنوان (الطواف حول البحر الإريتري) كتبه بحار إغريقي في القرن الأول الميلادي، يُعتدُّ به فيما يخصّ المناطق

الساحلية ولا يحكي عن الداخل إلا قليلاً* .

إن شح المصادر هو الذي لم يشجع الباحثين والعلماء على اقتحام الصحاري والرمال للاطلاع على ذلك الماضي العريق، فتركوها لحالها ولقبائلها المتناحرة التي لا يوجد بينها شيء غير بغضها للغريب، خاصة الأوروبيين والمسيحيين. ولكن في القرن الماضي توغل بعض المستكشفين في هذه المناطق وكتبوا عن سد مأرب الذي كان واحداً من عجائب الدنيا وكتبوا عن بقايا المعابد التي وجدوها . وجاءت هذه الكتابات، مشفوعة بالنقوش العديدة الموجودة، لتؤكد أن الروايات القديمة وما جاء به المؤرخون الكلاسيكيون لا تخلو من حقيقة.

كنت ملماً بكل ذلك وأنا أُحلق فوق هذه البقع الجرداء لأول مرة، وكنت أتساءل: كيف كانت هذه الأراضي البائسة الجافة مرتعا لحضارات وارفة وتجارة رائجة تناهت من وإلى كل الدنيا القديمة؟! من الصعوبة بمكان أن يصدّق الإنسان

---

* كتاب الطواف حول البحر الإرثري (Periplus Maris Erythraei) مجهول المؤلف ويعتقد بأنه كان بحارا يونانياً وقد اختلف في عصره فرجح فريق من الباحثين أنه عاش في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي وذهب فريق آخر إلى أنه عاش في القرن الثالث الميلادي وكلمة (Periplus) تعني "طواف" أو "دورة" وكلمة (Maris) تعني "بحر" أما Erythraei فتعني "أحمر" غير انه لايقصد بالبحر الإرثري مايعرف اليوم بالبحر الأحمر فقط بل كانت هذه التسمية تشمل أيضا شمال المحيط الهندي وبحر العرب وساحل عُمان والخليج العربي والساحل الأفريقي الشرقي المطل على المحيط الهندي ويعدُ كتاب (الطواف) من أهم المراجع اليونانية التي قدمت وصفا للموانئ البحرية المطلة على المناطق المذكورة ولنشاطها التجاري. وقد ترجم الكتاب عن اليونانية إلى الإنجليزية عام ١٩١٢ تحت عنوان:

The Periplus of the Erythraean Sea, Wilfred H. Schoff, Longmans,1912

(المراجع)

أن هذه الأرض التي ظلت خربة منذ ألفي عام كانت ذات أهمية وقيمة عالية في يوم من الأيام.

لماذا غربت الشمس عن الحضارات العريقة في الجنوب العربي؟ هنالك عوامل كثيرة متشابكة أدت إلى ذلك ، منها انخفاض الطلب بالنسبة لعود البخور منذ أن حلت الديانات السماوية كالمسيحية مكان الأديان الوثنية. ولكن يبدو أن هنالك عاملاً حاسماً رئيساً تمثل في بحَّار إغريقي يدعى (هيبالاس) زار المحيط الهندي في ا لقرن الأول قبل الميلاد، واكتشف أن الرياح الموسمية التي تنطلق من وسطه، وتلعب دوراً ملاحياً رئيساً ، تتجه شرقاً نحو الهند في فصل الصيف، وغرباً نحو أفريقيا في الشتاء؛ وجاءت على إثر ذلك السفن الرومانية متخطية جنوب الجزيرة العربية، ومهمشة له تحمل البضائع من وإلى الشرق مباشرة بتكلفة أقل من القوافل الصحراوية ومدنها التي كانت تتغشاها، وتدفع لها الضرائب والرسوم.

ومنذ ذلك الحين تضاءلت أهمية الجنوب العربي التجارية وانتقلت مراكز الحضارة نحو الشمال والشمال الغربي . وإلى الشمال من الربع الخالي سادت حضارات أخرى، وضجت حركة التاريخ صعوداً وهبوطاً دون تأثير يذكر على جنوب الجزيرة الذي انكمش على نفسه، وجفت الحياة في ربوعه ؛ لقد استسلم الزمن لغفوة عميقة هنا وغاصت آثار الحضارات القديمة تحت ركام غزير من الرمال، وبقيت هناك مثل زهرة يابسة بين دفتي كتاب. وهكذا، فقد بدت لي الأرض مقفرة وطاردة، ولكنها غنية في باطنها بآثار الماضي التي أردت أن أنفض عنها الغبار، وأجلو ركام السنين، حتى أبلغ تلك الأمجاد العريقة الغابرة.

الفصل الثاني

البحث عن موقع

هبطت طائرة السلاح الجوي الملكي البريطاني القادمة من عدن بالممر الصغير، غير الممهد بوادي بيحان وتقشعت عني حالة الغثيان، وشيئاً فشيئاً عادت معدتي لموضعها الطبيعي. لقد سارت الرحلة عبر الأرض كلها على مايرام، إلا هذه المسافة القصيرة من عدن إلى حيث أردنا أن نبحث عن آثار مدينة (تمنع) حاضرة الجنوب العربي القديم. أصلحت هندامي ومددت يدي للشريف صالح بن ناصر ذلك العربي الوسيم، والمحترم الذي استقبلنا خير استقبال.

زودنا الشريف بجمل وحصان لنا ولأمتعتنا عبر الأميال السبعة التي تفصلنا عن الجهة التي قصدناها. وقد بدا لي الجمل حيواناً شرساً من مظهره، وعندما اقتربت منه سمعت أصواتا كإرزام الرعد تنطلق من جوفه، فالتفت إلى شارلس إنج مدير الآثار بمستعمرة عدن الذي كان يرافقني، وطلبت منه أن يمتطي الجمل ففعل دون تردد وترك لي الحصان الذي كان عليه سرج كأنه منجد ببضع حجارة صماء تتدلى منه أحزمة قصيرة للأرجل، فكادت ركبي تصطدم بحنكي فوق الطريق الوعر الذي سلكناه بين الصخور الكالحة الجرداء.

وأخيراً وصلنا لكومة ضخمة من التراب والرمل اسمها هجر كحلان التي كانت ذات يوم مدينة عظيمة طولها نصف ميل وعرضها ألف قدم، ومساحتها نحو ستين هكتاراً. تركت ذلك الموقع جانباً لبعض الوقت، ويممت وجهي شطر القصر المبني من اللبن، الذي يقع في أطراف المدينة التاريخية، ووجدنا فيه خير ترحيب وحفاوة من صاحبه الشريف عوض، شقيق حاكم بيحان. كان هذا الرجل أنيقاً

وقاسي الملامح في نفس الوقت، وكان إلى حدٍ كبيرٍ يماثل الصورة التي ترسمها هوليوود عن الفارس العربي الشجاع والشرير في نفس الوقت. كان عوض هذا شخصية رومانسية تحب التجوال والصيد والقتال، وقد أطلق على نفسه اسم : (ملك الربع الخالي) ، تلك البقعة الممتدة إلى الشمال من هذا المكان والتي لا يجرؤ أحد على اختراقها وقليلون ممن فعلوا ذلك، كتبت لهم النجاة.

قدّم لنا الشريف عوض وجبة فاخرة بالطريقة البدوية الأصيلة : وما إن جلسنا القرفصاء على الأرض حتى جاؤوا بقدح ضخم مصحوب بأسراب من الذباب، استرقت النظر إلى داخل الإناء فوجدته مملوءاً بخليط غريب يشبه البيض المضروب وله فجوة في وسطه يغطيها سائل أصفر. أخذت الأيدي تمتد من كل الجهات وتغرف من تلك المادة ثم تغمسها في السائل الأصفر، ثم تأخذ الأيدي طريقها للأفواه تتبعها أسراب الذباب الذي تناثر من السحابة الكثيفة المحلقة فوق القدح .

لقد مرت عليَّ أطعمة غريبة من قبل ولقد اتبعت العديد من الطرق في تناولها، ولكنني هذه المرة عجزت تماماً عن الاستزادة بعد بضع لقيمات، مهما ألححت على نفسي بدواعي الشهامة والدبلوماسية. ثم جاء الفوج الثاني الذي كان معقولاً بعض الشيء، إنّه حساء جيد المذاق. وجاء بعد ذلك صحن من اللحم الضأني المشوي حسبت أنني أستطيع أن أتعاطاه ، ولكنه وضع فوق الطبق بصورة لم أشهد مثلها في حياتي: فهو كوم حوله أمعاء الخروف منثورة كأنها مروحة هوائية؛ وحاولت جهدي أن أستزيد من ذلك اللحم دون جدوى. عندها أخبر شارلس إنج مضيفنا بعربيته السلسة أنني أمريكي، فهز الشريف عوض رأسه عدة مرات إلى أعلى ثم أسفل ، كأنه فهم للتو لماذا وجدت صعوبة في تذوق الطعام؟.

توجهنا في العصر نحو التل المسمى (هجر كحلان) الذى تكمن تحته بقايا

مدينة (تمنع) عاصمة مملكة قتبان القديمة، وهو موقع يرى شارلى إنج بأنه من أهم المواقع الأثرية بالجنوب العربي، باستثناء مأرب عاصمة مملكة سبأ، وكذلك مدينة صرواح باليمن المحرمة* . وفي أثناء ذلك ناقشت بعض الأمور مع الشريف عوض ، مثل إمكانية وجود عمال محليين، وإيجار مكان للسكن مثل قصره، وغير ذلك. وعندما عدت إلى عدن في المساء كنت متفائلاً بانني ساحقق كشفاً جيداً يتعلق بحضارات الجنوب العربي في العصور السابقة للمسيحية، يتعلق بنوعية الحياة حينذاك والثقافة والأديان واللغة والعادات ونوع الحكومة وطرق التجارة والعلاقات بباقي شعوب ذلك العالم القديم.

بيد أنني مازلت أقلّب الأمر: أي المواقع أجدى بأن نبدأ به، لذلك قررت أن أواصل الطواف على المواقع الأخرى. طرحت الأمر مع حاكم عدن بالإنابة المستر إي آر توماس الذي كان متعاوناً للغاية وأبدى استعداداً للترحيب بنشاطنا في كل المحميات البريطانية بمنطقة الجنوب العربي وهي القبائل والإمارات التي أبرمت اتفاقيات تصالحية مع بريطانيا، ولكنه استثنى من ذلك موقع مدينة شبوة عاصمة حضرموت القديمة حيث إن تلك منطقة غير آمنة وتكتنفها نزاعات بين اليمن وجيرانها وبريطانيا.

لقد استبدت بي رغبة عارمة في الاستكشاف لِجنوب الجزيرة العربية؛ إذ تكاد تكون عذراء بالنسبة للباحثين والعلماء الذين صدتهم عنها العوامل الطاردة مثل الرمال الشاحبة والمحل والعطش والعنف المنفلت. إن الحفريات الأثرية تؤتي أكلها

---

* صرواح واحدة من أهم المدن السبئية القديمة تقع على مسافة ١٢٠ كم إلى الشرق من صنعاء ومن اهم آثارها معبد الإله السبئي المقه وفي فناء المعبد يوجد نقش صرواح الكبير المعروف بنقش النصر (Gl. 1000 a, b) الذي يرجع تاريخه إلى القرن السابع ق.م.(المراجع)

في المناطق التي لم يصلها الجغرافيون وراسمو الخرائط، والتي يرمزون لها في الخرائط بعلامة استفهام؛ مثل تلك الأماكن المتنازع عليها وغير المضمونة العواقب. وقد أبرمت بريطانيا العديد من المعاهدات خلال العقدين المنصرمين حسمت بموجبها العديد من النزاعات الحدودية ، ورغم ذلك بقيت جيوب كثيرة غير آمنة. وقد تمكن بعض الرحّالة من اقتحام هذه المناطق الوعرة، الداخلية ،وأول تنقيب حقيقي هو الذي قامت به جيرترود تومسون حيث اكتشفت معبداً للقمر في حريضة بحضرموت يعود تاريخه لما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد*. على كل حال، حزمت أمري على أن اقتحم هذا المجال وأدخل جنوب الجزيرة العربية ببعثة استكشافية كاملة، وأتوقع أن الظروف الأمنية أصبحت لا بأس بها.

لقد شدت الجزيرة العربية انتباهي عندما قدت رحلة استكشافية لأفريقيا استغرقت ستة وعشرين شهراً ، برعاية جامعة كاليفورنيا، وقد اشترك معي في تلك الرحلة أكثر من خمسين عالماً وفنياً ، واستخدمنا في أثنائها خمساً وعشرين شاحنة بالإضافة لطائرة واحدة وقارب بمحرك، وغطينا القارة بأكملها وبحثنا في شؤون طب المناطق الحارة وعلم الحفريات والآثار والجيولوجيا وعلم الأجناس وغير

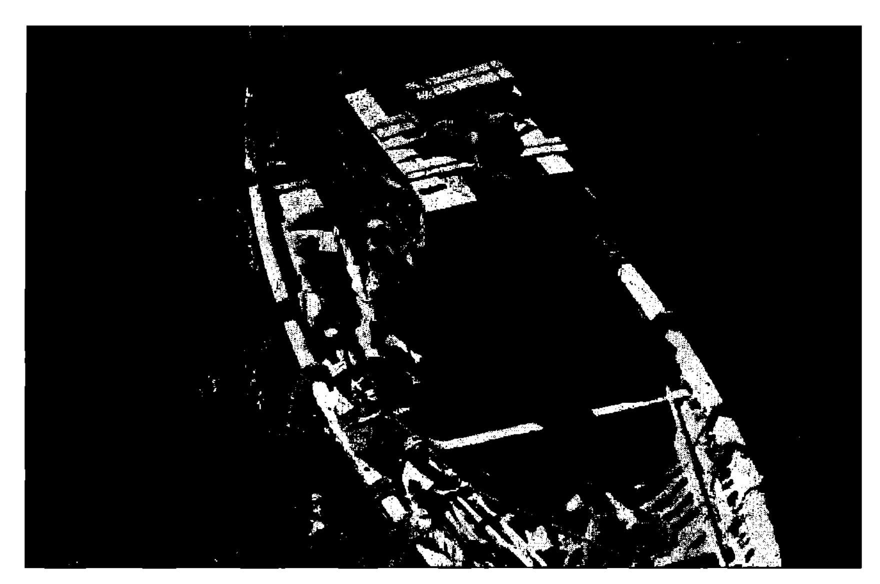
---

* ليس هذا هو أول تنقيب أثري حقيقي بل سبقه ما قام به كل من كارل راثينز و فون فيسمان عام ١٩٢٨م بموقع يسمى (الحقة) على بعد نحو ٢١ كم شمال غرب صنعاء. وقد كشف هذا التنقيب عن معبد للالهة (ذات بعدان) يعود تاريخه إلى القرن الأول ق.م. أما البعثة الاثرية بقيادة كاتون تومسون فقد بدأت أعمال التنقيب في عام ١٩٣٧م وتمكنت من الكشف عن معبد للاله (سين) أكبر آلهة حضر موت أرجعت تاريخ بنائه إلى القرن الرابع أو الخامس ق. م. وقد نشرت نتائج تلك التنقيبات في كتاب صدر عام ١٩٤٤ :
Gertrude Caton Thompson, the Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut) (Reports of the Research Committee of the society of Anti quaries of London, No 13), Oxford, 1944(المراجع)

ذلك. وقد تضافرت عوامل عديدة لتجذب نظري نحو جنوب الجزيرة العربية؛ فشرق أفريقيا مثلاً تربطها وشائج قوية بالمنطقة العربية، والصومال مثلاً كانت مصدراً للعطور التي تصدرها للموانئ العربية ومنها عبر القوافل إلى مناطق البحر الأبيض المتوسط. وكذلك فإن مدن السواحل الشرقية لأفريقيا وجزرها مليئة بالعرب القادمين أصلاً من حضرموت ؛ فسلطان زنجبار الذي دعاني لغداء فاخر هو ابن عم سلطان مسقط وعمان؛ وقد التقيت في أفريقيا الزعيم الطائفي الكبير السلطان السير محمد شاه المعروف باسم اغا خان. اقام هذا الرجل ذو الثروة الخرافية معسكراً ضخماً بسهول سرنجيتي في تنجانيقا وهي من اغنى المناطق في العالم بالحيوانات البرية، به مهبط للطائرات طوله أربعة آلاف وخمسمائة قدم، ولديه طائرتان واثنتا عشرة خيمة مجهزة بالحمَّامات والتيار الكهربائي والمياه الباردة والساخنة وستون خادماً وخمسة رماة بنادق وأربعة طباخين؛ وإذا كانت هذه الأعداد الضخمة والاستعدادات الهائلة هي لمجرد رحلة صيد، فإن رحلاتي الاستكشافية العلمية أحق بذلك، وما عدت بعد ذلك أكترث للانتقادات التي كانت ترد أحياناً عن حجم بعثتي.

وبما أن الأغا خان كان رئيساً للجمعية العمومية لعصبة الأمم فقد اهتم كثيراً بالطبيعة الأممية لبعثتي وأشار إلى ضرورة إشراك العلماء من كل الجنسيات والأديان، كما اقترح علي الذهاب في بعثة لجبل سيناء وتصوير آلاف الوثائق الهامة الموجودة في دير سانت كاترين في تلك المنطقة، وأهم من ذلك فقد كان الأغا هو الذي اقترح عليَّ العمل في جنوب الجزيرة العربية باعتبارها من أواخر المناطق في العالم التي تنتظر الحفريات الأثرية.

وقد التقيت كذلك بوزير الخارجية السعودي بالإنابة الذي شجعني على زيارة



قارب يحمل شاحنة «باور واشن» من السفينة إلى مرفأ المكلاّ.



شاحنة دودج تسحب آلية مشحونة في صندوق من القارب إلى المرفأ.



النقيب مبارك عبدالله «البندقجي الممتاز» الذي صفى العديد من أهله بسبب مخالفتهم للتقاليد العربية.

بلاده والاستكشاف لآثارها. وهكذا فقد شاءت الأقدار أن تجمعني بالعديد من الأشخاص وأن أمرَّ بجملة تجارب تحفزني على الذهاب إلى جنوب الجزيرة؛ المهم في الأمر إعداد فريق مؤهل ومجهز يستطيع أن ينجز شيئاً ذا بال في ذلك الركن من العالم، وذلك كان يستدعي تنظيماً دقيقاً ومتمهلاً ؛ وبعد عمليات تخطيط صبور وبمساعدة بعض الجهات تمكنت من تاسيس (المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان) ، واخترنا لها البروفيسور وليام.ف.البرايت عالم الآثار المعروف، ورئيس كرسي الدراسات الشرقية بجامعة جون هويكنز، نائباً أولا للرئيس. قامت هذه المنظمة بدراسة بدايات العنصر البشري وتطوره منذ بدء الخليقة إلى اليوم، واكتسبت عطف وتأييد العديد من العلماء المرموقين والفطاحل ، إذ كان مجلس إدارتها مرصعاً بنجوم براقة مثل الأدميرال شستر نمتز (١٩٤٩-١٩٥٢م) ، صمويل .إف. بريور، لويل توماس، العميد تي.إي. ماكينري، والتر دتمارز، بيارد كولجيت، جيمس كي موفت، وشارلس نيفر.

حسنا! بدأنا بداية طيبة، ولكن السؤال من أين نبدأ في جنوب الجزيرة العربية؟! إن المنطقة غنية بالآثار ، ولم تمسسها يد الباحثين بعد، وتفتحت أمامنا العديد من الفرص. كنا على اتصال، أنا والبروفيسور البرايت بجون بي. فيلبي، أكبر مستكشف معاصر للجزيرة العربية، وقد أشار إلينا أن نبدأ بمنطقة نجران بالعربية السعودية وهي مهد مملكة معين القديمة* ؛ ولكننا استبعدنا هذه المنطقة

* نجران ليست مهدا لمملكة معين وإنما عرفت في النقوش السبئية القديمة كنقش صرواح الكبير (Gl. 1000, b) بانها موطن قبيلتي مهامرم (مهامر) وأمرم (أمير) أما نقوش القرنين الثالث والرابع الميلاديين فتذكر لنا قبيلة نجران وما كان لها من دور في الصراع السبئي - الاثيوبي أما مملكة معين الشهيرة فموطنها وادي الجوف من بلاد اليمن وهي منطقة تقع شمال مَأْرِب وإلى الشمال الشرقي من بلاد نهم وقد اشتهرت معين بنشاطها التجاري كوسيط وناقل

من خياراتنا لعدة أسباب تداخلت العوامل السياسية فيها بالتجارية وبأسباب أخرى.

ولكننا لم نندم كثيراً على عدم قيام مشروع نجران، خاصة بعد أن عرفنا بأن السفير السعودي في واشنطن أخذ يشكك في نوايانا واتهمنا بمحاولة غرس الصهيونية في المملكة السعودية. هذا في الواقع ضرب من التلبيس الذي يتعرض له باحثون مثلنا، فنحن كثيراً ما نتهم بالتجسس والعمالة، أو بأننا نخطط لقيام قواعد بحرية، أو بأننا نعمل كمحرضين للثورة، أو أننا ننهب الثروات من باطن الأرض كالذهب ، أو أننا نبحث عن اليورانيوم.

ولقد اضطررنا كذلك لشطب منطقة أخرى من قائمتنا، وهي مأرب عاصمة مملكة سبأ القديمة، رغم أنها كانت من أهم المواقع الأثرية في المنطقة، ذلك لأنها داخل مملكة اليمن، وتلك بلاد يصعب ترويضها وارتيادها.

قررت أن ألقي نظرة على ثلاثة مواقع ممكنة، فركبت طائرة الخطوط الجوية الأمريكية (بان أم) وقطعت المحيطات والقارات ، مع وقفات بسيطة في إسطنبول والإسكندرية والقاهرة ؛ إذ حاولت وضع اللمسات الأخيرة لبعثة سيناء التي كنا قد استقطبنا لها موافقة ودعم مكتبة الكونغرس الأمريكي. وفي القاهرة تناولت وجبة غداء مع جون فيلبي الذي بالرغم من الصعوبات التي أبدتها

= لتجارة القوافل فكانت لها محطات تجارية في كل من منطقة العلا في شمال الحجاز (ددان) وفي غزة وكذا ممثلون تجاريون في كل من مصر واليونان وتدل فخامة معابدها وآثارها على أنها شهدت فترة إزدهار كبير وكانت عاصمتها قرنو (حاليا معين) ومن مدنها يثل (حاليا براقش) ونشن (حاليا السوداء) وقد اختفت مملكة معين مع بداية العصر المسيحي إثر اكتشاف الطريق البحري المباشر الذي يصل بين سواحل المحيط الهندي وحوض البحر الأبيض المتوسط حيث تمكنت سبأ من ضم معظم مدن معين إليها. (المراجع)

السعودية،شجعني ووافقني الأي في أن أدرس بجدية مشروع حفريات وادي بيحان موقع العاصمة القديمة لمملكة قتبان.

وفي القاهرة استأجرت طائرة صغيرة قديمة سقفها من المشمع تابعة لخطوط رابيد العربية، طيارها بيتر كولفن من شركة شل بالقاهرة، وطرنا جنوبا حيث نزلنا في الأقصر وبورسودان وجزيرة كمران بالبحر الأحمر ثم عدن التي هي بمثابة جبل طارق آخر لبريطانيا بين بحر العرب والبحر الأحمر . وبدت لنا مدينة عدن صاخبة ومفعمة بالحيوية التجارية، ورغم أنها ذات تاريخ عريق إلا أن الآثار الدالة عليه تعرضت للخراب والضياع.

قابلت شارلس إنج في عدن، وتحدثت مع الحاكم العام بالإنابة الذي سخر من طائرة رابيد ووضع تحت تصرفي طائرة السلاح الجوي الملكي لتقلني إلى وادي بيحان حيث قمت بزيارتي الأولى للتل الذي تقبع تحته مدينة تمنع القديمة. لقد شكرته على ذلك ورجعت بذهني لذات يوم عام ١٩٤٧ م ونحن نحلق فوق الصحاري المصرية عندما لاحظ رفاقي شيئا يلمع عن بُعد ، ولما هبطنا نتفحص الأمر اكتشفنا انه حطام طائرة وفي وسطه جثث الطاقم والركاب وهم مازالوا ممتشقين أحزمة الأمان، وجدول سفريات الكابتن يشير إلى أن الرحلة المأساوية الأخيرة تلك كانت في عام ١٩٤٣م.

عندما غادرت عدن باتجاه بيحان كانت الأمور قد رتبت والأمر قد استقر على بدء العمل في هذا الموقع، ولكن ظلت هناك بعض العقبات التي مازالت تعترض سبيلنا. الطريق البري الوحيد في ذلك الوقت إلى بيحان كان طويلاً ومتعرجاً، يمتد لبضع مئات من الأميال من ميناء المكلاّ شمالاً عبر وادي حضرموت، ثم غرباً فوق سهول وصحراء تختفي آثار الطريق فيها. ورغم أن معظم هذه المناطق لم

تدخل أي خرائط بعد إلا أنني تعلمت من التجربة أنك تستطيع أن تستدل طريقك عبرها إذا أعددت نفسك بسيارات مؤهلة لخوض عباب الصحراء يقودها سائقون متمرسون في دروبها.

ولم يكن الطريق مشكلة بقدر ما كانت السلطات الحكومية في المكلاّ هي العقبة الكؤود؛ فرغم أن هذا الميناء تابع لمحمية عدن وخاضع للنفوذ البريطاني، كانت بها حكومة شبه مستقلة تسيطر على مدينة المكلاّ وما جاورها من أطراف وادي حضرموت الساحل التي يتعين علينا أن نمرّ فوقها؛ والحكومة التي أنشأها القعيطيون في المكلاّ تجبي ضرائبها وجماركها الخاصة بها، ولسلطانها الحق في فرض ما يراه من رسوم على آلياتنا وأجهزتنا التي أردنا أن نعبر بها منطقته إلا إذا استطعت أن أثبت أنها معدات علمية ولا تستخدم لأغراض تجارية.

أقلتنا الطائرة من عدن إلى المكلاّ حيث وجدت كل عون وتفاهم من المستشارين الإنجليز الذين دافعوا عنا أمام المسؤولين القعيطيين فيما يختص بالجمارك التي أرادوا أن يفرضوها على آلياتنا ومعداتنا. لقد طالبتنا الحكومة القعيطية بمبلغ ستة عشر ألفاً ومئتي جنيه إسترليني (أي ما يعادل خمسة وأربعين ألف دولارٍ) كرسوم لاستخدام شريحة من الطرق البرية تقدر بمائتين وأربعين ميلاً. ألجمتني المفاجأة وكدت أفقد المقدرة على الكلام عندما أخبروني بذلك، وأوشكت أن أرد عليهم قائلاً (ولكنني لا أريد أن أشتري الطريق بهذا المبلغ!) بيد أني لم أقل ذلك، واكتفيت بتذكيرهم أن هذا المبلغ وحده يكفي لتمويل بعثة استكشافية كاملة، وإذا أصرّوا عليه فإنني سأتخلى عن مشروع الحفر في بيحان.

وأخيراً توصلت مفاوضاتنا لحلٍ، إذ اقترح عليَّ أحد المسؤولين أن أتبرع بوابور أسفلت أو آلية من هذا القبيل تساعد الحكومة القعيطية في جهودها لتعبيد

الطرق البرية، في مقابل إعفائي من الضرائب الجمركية، ووافقت على ذلك شاكراً لهم حسن ضيافتهم.

سافرت بعد ذلك عائداً للولايات المتحدة حيث قضّيت ثلاثة اشهر أجمّع الأشخاص المشاركين في البعثة والموارد المالية، والآليات، والأدوات، والأجهزة مثل سيارات الشحن ، وآلات التصوير، والثلاجات، والأطعمة، والمولدات الكهربائية، والآلات الكاتبة، والمسجلات، والبنادق، وأجهزة الإذاعة ووسائلها والأدوية، ثم شرعت في ترحيل هذه الأشياء للجزيرة العربية، ولم يكن من بينها وابور أسفلت ولقد اكتشفت أن المصانع والشركات الأمريكية لم تتبرع لي بمنتوجاتها فقط لأسباب إنسانية ولكنها أرادت أن تختبر مصنوعاتها وترى أداءها في المناخ والظروف القاهرة الجديدة التي كنا مقبلين عليها. أما التبرعات النقدية فلم تكن متيسّرة، إلا لبعثة سيناء التي تعاطف معها أهل الخير من أرباب العمل لأنها تنطوي على جذور دينية ولأن عملية تصوير أكثر من مليوني نص تاريخي قديم هي عملية ذات أهمية كبيرة .

الفصل الثالث
أريج المكـــلاّ

أبحرت السفينة البخارية (فلهو) ذات الحمولة التي تعادل ألف طن، أبحرت من عدن صوب المكلاّ وعليها معظم موظفينا وأجهزتنا والعملات التي نحتاجها ، لتبدأ أول بعثة استكشافية في الجزيرة العربية تقوم بها (المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان) ، وكان قد توجه قبلنا إلى المكلاّ اثنان من رجالنا لغرض إعداد المكان الذي سننزل فيه أمتعتنا وفحص الطريق البري للموقع وإعداد محطات الوقود بالطريق، هما كينيث براون صديقي من أيام الدراسة ، ويعمل بفريقنا كمساعد عالم آثار ، وجورج فارير، مهندس ميكانيكي ورجل كل المهمات.

لقد انضم لفريقنا بعض الأشخاص ، مثل شارلس إنج الذي أراد أن يقضّي معنا بضعة أسابيع في بيحان، والصومالي جمعة إسماعيل الذي كان رئيساً للخدم والذي لعب دوراً أساسياً ذات مرة في إنقاذنا جميعاً من موت محقق.

يبلغ طول جمعة ستة أقدام، وهو رجل هادئ الطبع ، دائم الابتسام ذو خبرة ومراس، وكان قد اشترك من قبل مع هيو سكوت في رحلته الاستكشافية عن مباهج الطبيعة باليمن؛ وكان جمعة يتحدث بالاضافة للغته الصومالية عدة لغات أخرى مثل العربية والانجليزية والأردو والعديد من اللهجات الأخرى، وكانت تلك ميزة استفدنا منها كثيراً ، رغم وجود واحد من أكبر علماء اللغة في العالم هو البروفسور البرايت الذي يتحدث خمساً وعشرين لغة.

كان الحاكم العام بعدن قد أصرّ على أن يصحبنا فريق من الحراس البدو العاملون في حكومته يرأسهم النقيب مبارك عبد الله الشخصية المهيبة والمحترمة في كل

محميات عدن؛ وقد اشتهر مبارك هذا بدماء كثيرة سفكها دفاعاً عن شرف القبيلة، وسمعت وما كدت أصدق أنه قضى على أسرته كلها قتلاً وهنالك إشاعات كثيرة حوله ولكن أقواها تلك التي تقول إنه ذات مرة أرسل ضيفاً لحفل عرس في بيت عمه، وقُتل الضيف، فاشترى مبارك بندقية جديدة وكمية من الذخيرة وأخذ في تقتيل الذين قاموا بذلك العمل رغم انهم من اقرب الأقربين إليه. على كل حال احسسنا بنوع من الثقة في مبارك، وزاد إعجابنا به ما رأينا من مهارته في استخدام البندقية ودقته في التصويب.

ورغم أنني ارتحت لاهتمام الحاكم بأمننا في الرحلة إلى بيحان فقد أتعسني بعض الشيء عندما تحدثت معه من قبل، عندما ذكر لي أنه لو كان موجوداً في أثناء رحلة المسح الأولى ما كان سيوافق عليها بسبب المخاطر الأمنية والمشكلات السياسية الموجودة. واستمر السير ريجنالد شامبيون قائلاً:- (ولكني بما أنك وصلت ومعك زملاؤك فإنني أرحب بكم وسأبذل قصارى جهدي لجعل إقامتكم ممتعة وناجحة).

بعد ست وثلاثين ساعة من مغادرتنا عدن تبدّت لنا المكلاّ في الأفق يغلب عليها اللون الأبيض محشورة بين مياه البحر الزرقاء والجبال الحمراء والأبنية التي تشمخ وراءها كحائط ضخم. وعندما نظرت إليها عن قرب كانت أكثر جمالاً، مبانيها ذات الطوابق الأربعة والخمسة مطلية بالجير الأبيض تبرز منها مآذن ثلاثة عشر مسجداً، وهنالك زخارف زرقاء على جدران المنازل تنسجم مع لون البحر، وتتكامل الصورة الزاهية بمنظر أربع قلاع بيضاء تكلل هامات الجبال المحيطة بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم . وكلما اقتربت من المنازل بهت لونها الأبيض فرأيتها رمادية وداكنة وضيقة، وبدت لك مياه الشاطئ متسخة ، تختفي الصورة

الجمالية التي تكون قد رسمتها في ذهنك للمدينة من على بُعد، فتداهمك أسراب الذباب ورائحة السمك، خاصة الميت والمجفف.

وعندما رست سفينتنا انصرفت الأذهان إلى مسائل اخرى وما عدنا ننتبه لجمال المدينة أو قبحها . رأينا قارباً ينطلق نحونا من بين القوارب الشراعية الكثيرة المتناثرة على الشاطئ ، يحمل جورج فارير الذي كدت ألا أعرفه بسبب اللحية التي أطلقها. صعد جورج إلى السفينة ومعه مندوبنا كيني براون .

قال جورج إن هنالك مشكلة بسيطة نواجهها، ونصحنا بألا ننزل إلى الميناء بأي زجاجة بها أي سائل، حتى لو كان زيت شعر، إذ إن السلطات تعتقد بأننا نهرب الخمور. ذكر جورج أن أحد موظفي الحكومة القعيطية رأى عصيراً أمريكيا في شحنتنا وظن أنه وسكي لأنه لم ير مثله من قبل، وفي أثناء النقاش بينه وبين جورج سال قليل من العصير على ملابس الموظف فانكبت عليه أسراب الذباب.

وقبل أن أتدارك الأمر وأسحب المشروبات والسوائل من شحنتنا بدأت عملية الإنزال من سفينتنا إلى القوارب الصغيرة، فسألنا الله عز وجل ألا نتعرض لمشكلة أو سوء فهم. تلك القوارب الشراعية مزودة بمجاديف كذلك وتستخدم أساساً في نقل الذرة والحبوب، ولم نطمئن على أجهزتنا ومعداتنا التي جاءت هذه القوارب لنقلها، وبخاصة السيارات الكبيرة ومولدات الكهرباء، وكانت الواحدة منها تزن خمسة إلى ستة آلاف رطل، ولكن مندوبنا بالموقع كيني براون طمأننا على ذلك.

عملية الإنزال على الرصيف من هذه القوارب الصغيرة كانت أيضاً صعبة للغاية، وقد سجلها بل تيري على شريط سينمائي. جاء بل من سيناء بصحبة زوجته ليساعدنا في هذه البعثة. وكادت إحدى السيارات تنزلق إلى قاع البحر لولا الحمالون العرب الذين تصببوا عرقاً كثيراً إلى أن تمكنوا من إيصالها إلى البر،

بعد شدٍّ ورفعٍ وجهد جهيد.

كان بين أمتعتنا كيسان يزنان أكثر من مئة وخمسين رطلاً بهما ألفا قطعة نقود معدنية عليها وجه الإمبراطورة ماريا تيريزا ومكتوب عليها السنة ١٧٨٠م رغم أنها سُكّت حديثاً، وكان لابد أن تحمل هذه العملة المسماة بريال ماريا تيريزا، لأنها الوحيدة المتداولة في جنوب الجزيرة العربية بالإضافة للروبية الهندية التي كانت العملة الرسمية في عدن وفي السلطنتين القعيطية والكثيرية، وما زال البدو يفضلون دولار ماريا تيريزا إمبراطورة الدولة العظمى التي لم يسمعوا بها قط. ولربما وصلت هذه العملة لجنوب الجزيرة عن طريق الأتراك العثمانيين منذ زمن طويل، وقد تراوحت قيمتها صعوداً وهبوطاً حسب أسعار الفضة، وكان الريال يعادل خمسين سنتاً أمريكيا عندما كنا هناك، ولكن بدو حضرموت وبيحان ما كانوا يعلمون شيئا عن سعر الصرف. كانوا يعرفون شيئا واحداً: ريال ماريا تيريزا، رغم أنهم كانوا يقبلون خردة أقل قيمة مثل اليكشة المحلية أو العملات المعدنية الهندية.

بعد أن أنزلنا كل أمتعتنا بسلام من السفينة (فلهو) توجهنا نحو مقرنا وأمعنا النظر فيما حولنا فاكتشفنا أن المكلاّ مدينة بلا عمق أفقي، أي إنها تكاد تكون شريطاً رقيقاً طويلاً من المباني بمحاذاة الساحل، وهي أشبه بميناء الإسكندرية، ولكن طعم زنجبار ونموذجها ماثلان أكثر. والمكلاّ ليست مدينة تاريخية قديمة، إذ لم تكن موجودة في القرن الأول الميلادي عندما زار هذه المناطق صاحب كتاب «الطواف» (the Periplus). كان الميناء المعروف آنذاك هو «قنا» إلى الغرب من الموقع الحالي للمكلاّ ومنه كانت البضائع تنقل إلى وادي حضرموت

ومن ثم إلى طريق القوافل القديم، قوافل التوابل*. ومنذ نشأتها في القرون الوسطى ظلت المكلاّ ** ميناء نشيطاً يسكنها خليط حضري شانها شان كل الموانئ، ولكن العنصر الهندي غالب فيها، تراهم بين الموظفين، وترى أثرهم في اللبس ، وبخاصة في زي أفراد الأسرة الحاكمة ، كما ترى العمران الهندي بارزاً ، وبخاصة في قصر السلطان الجديد على الطرف الغربي من المدينة. وحول هذا القصر نشأ حي سكني راقٍ يُسمى «بَرَّع السُّده» أما القصر القديم فقد تحول إلى مكاتب حكومية، يقع في وسط المدينة، إلى جانب المحلات التجارية والسجن والأحياء الصومالية البائسة ، وكان أسواها حالاً ذلك الذي يقع على الطرف الشرقي من المكلاّ، تحت سفح الجبل، وقد مررنا به في طريقنا نحو المعسكر.

---

* ميناء قنا: الميناء الرئيس لمملكة حضر موت وواحد من أهم الموانئ في العالم القديم ورد ذكره في التوراه في سفر حزقيال ودلت النقوش المسندية والآثار على أنه كان ميناء تجاريا مزدهرا ذكره الكتاب اليونان والرومان ووصف مؤلف كتاب الطواف (periplus) النشاط التجاري له والسلع الصادرة منه والواردة إليه وكانت قنا مقر الاسطول البحري الحضرمي الذي قام بتدميره وحرقه الملك السبئي شعر أوتر في حربه ضد حضر موت في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الميلادي يقع ميناء قنا على بعد ١٢٠ كم إلى الغرب من المكلا بقرب الموضع المعروف بـ (بير علي) حالياً .(المراجع)

** المكلا ميناء حضر موت الحالي، ظهر واشتهر في القرن الثاني عشر الهجري بعد أن اتخذه السلطان الكبادي مقرا لحُكْمِه وقد كان من قبل مجرد مرفأ صغير تلجأ إليه سفن الشحر في فصل الخريف عندما يهيج البحر وتشتد الرياح لأنه وبفضل السلاسل الجبلية التي تحيط به، يكلأ السفن من الرياح ولذا فاسمه مشتق من الجذر (كلأ) وقد ورد ذكر المكلا في المخطوطات الحضرمية على انها قرية ساحلية متواضعة تسمى الخيصة لكن أهمية المكلا إزدادت عندما نقل إليها السلطان القعيطي مقر حكمه في أثناء العقد الثاني من القرن العشرين فصارت ميناء حضر موت الرئيس .(المراجع)

في الطرف الشرقي من المكلاّ يتصل البحر بالجبل ذي الارتفاع الحاد مما يشكل حماية طبيعية للمكلاّ بعكس الطرف الغربي حيث تنفرج مياه البحر عن الجبال بمسافة، وقد اضطروا في السابق لبناء سور متين في هذا الجزء لحماية المدينة.

مررنا بين الجبل والبحر من الناحية الشرقية، وتوجهنا نحو معسكرنا الكائن في قصر صيفي أنزلنا فيه سمو السلطان السيد صالح بن غالب القعيطي سلطان الشحر والمكلاّ. وقبل أن نصله مررنا بمنطقة تسمى «خلف» تُجَفف فيها الأسماك، حيث رأينا ملايينها ملقاة فوق الرمل والحجارة لتجفف بواسطة الشمس، ويبدو أن رائحتها قد بلغت عنان السماء، مارة بتلك القلاع الموجودة فوق قمم الجبال؛ وتتخلل هذه الرائحة شعرك وهندامك وتعلق برئتيك، وتبقى معك لفترة بعد مغادرتك المكلاّ كنوع من الذكرى.

يقع القصر الذي نزلناه في بقعة جميلة بقرب البحر، غير أنه كان خاليا من النوافذ تقريبا، وليس فيه وسائل الراحة الحديثة، وبعد أن أنزلنا رحالنا في القصر أشرف المهندس الميكانيكي شارلي ماكلوم على فحص السيارات والأجهزة الأخرى، وقام الدكتور جيمس ماكنش طبيب البعثة وأكتاف رومين مصورها بإعداد البنادق ووضعوا المناظير المكبرة فوق كل واحدة منها. أما أنا فقد انشغلت بإعداد أوراقي لمقابلة السكرتير المالي لحكومة المكلاّ لمناقشة موضوع وابور الزلط الذي كانوا قد طلبوه مني.

كان شارلس إنج قد حذرني من أن الحكومة القعيطية فعلاً تتوقع مني وابور، زلط، وإلا فيتعين عليّ أن أدفع ١٥٪ من قيمة الأجهزة والمعدات التي أدخلتها عبر الميناء. ولكن ذلك يعني إفلاسنا تماما، لذلك أخذت أفكر في مخرج من هذا المأزق. على كل حال، استمع لي سكرتير المالية وأنا أشرح له الصعوبات التي

لاقيتها وكيف كنت مشغولا بالإعداد لهذه البعثة، ولم أجد وقتا لوابور الزلط ، كما اكدت له أنني سأحاول مرة أخرى أن أحصل عليه أو على شيء من هذا القبيل يسهم في مشاريع تعبيد الطرق، خاصة ونحن باقون لمدة عامين على الأقل بمشروع الحفريات. وقد أصيب المسؤول القعيطي بخيبة أمل ولكنه نظر للموضوع بواقعية ورأى ألا فائدة من حبسنا في المكلاّ إذا لم نحضر وابور الزلط ، وأخلى سبيلنا.



الفصل الرابع

عبر وادي حضرموت

في تمام الساعة الثانية ظهراً من يوم الإثنين الموافق العشرين من فبراير ١٩٥٠م فرغنا من تحميل أغراضنا على سياراتنا التي تحمل علما مكتوباً عليه: (نادي المستكشفين، رقم ١٤٣)؛ وشيئاً فشيئاً تحركت القافلة على الطريق المحاذي للبحر إلى أن بلغنا بوابة المدينة على الحائط الغربي، وبعدها مررنا بحظيرة ضخمة للجمال بها جماعة من العرب البدو أخذوا يحدّقون فينا بنظرات غير ودّية.

وفي الحقيقة أسرّ لنا بعض الأصدقاء أن أصحاب الجمال يغارون من السيارات لأنها تنافسهم وتضيق عليهم عيشهم؛ وإلى الشمال من هنا، في المملكة العربية السعودية، أدى اكتشاف النفط لتسريع التحديث وبناء الطرق واستيراد السيارات، ولما لم يستطع أصحاب الجمال أن يشتروا السيارات فهم يعيشون على ما تبقى من الفتات في مجال الترحيل والتجارة، وقد عمت أنباء هذه التطورات كل الجزيرة العربية كالنار في الهشيم، وكان من أهم العقبات التي أخرت رصف طريق المكلاّ / وادي حضرموت *العداء الذي قابله به أصحاب الجمال الذين عبروا

---

* هذا هو الطريق الذي انفق على بنائه وتعبيده السيد الشريف ابو بكر بن شيخ الكاف من ماله الخاص مبلغ مائة وثمانين ألف دولار يربط الطريق بين الشحر وتريم وتبلغ المسافة بينهما نحو ٣٠٠ كم واستغرق العمل فيه نحو عشر سنوات بسبب معارضة القبائل التي يقوم أبناؤها بنقل البضائع على الجمال وتلك التي تمر الطريق بأراضيها. وقد كلف الحصول على موافقتهم مبالغ كثيرة وقد كان الإنتهاء من تعبيد الطريق في عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م. وتم إفتتاحه وتبديد بعض الصعوبات التي سببها الحاكم القعيطي للشحر بعد تدخل الإنجليز. وقد ترك ذلك الإنجاز التاريخي صدى طيباً في نفوس الناس وأثنى فحول الشعراء الحضارمة على أسرة آل

عن سخطهم أحياناً بوابل من الرصاص، وحتى بعد قيام ذلك الطريق المعبد كان أصحاب الجمال يطلقون الرصاص على السيارات المارة به، ولكن بحمد الله لم يتعرض موكبنا لهجوم من هذا القبيل إذ إنه يسير في وضح النهار، وهو رتل ضخم من سيارات الشحن.

بعد سوق الجمال اتجهنا نحو الداخل صاعدين منحدراً حاداً إلى أن استوينا على هضبة من الحجارة الجيرية ، ثم اتجه الطريق شرقاً ، ماراً بالأشكال التي تشبه المصاطب وبعض الأودية الصغيرة الخضراء، ولكنا رأينا سحباً من الجراد تحلق فوق تلك الأودية، ويقيني أنها ستأتي على ما بها من خضرة في القريب العاجل.

قضينا الليلة الأولى بقرب مهبط صغير للطائرات تابع للسلاح الجوي الملكي البريطاني في منطقة اسمها (الريان)، وفي صبيحة اليوم التالي واصلنا مسيرتنا حيث إلتقينا بالطريق القادم من الشحر ، ثم إتجهنا شمالاً فمررنا بمزارع التبغ

الكاف والسيد أبو بكر بوجه خاص. ومن ذلك قصيدة غراء بعث بها السيد احمد بن عبد الله بن محسن السقاف من مهجره باندونسيا مطلعها:

صوت هذا البشير في كل ناديْ ... سَرَّ احبابكم وغاظ الأعادي

قال فيها مشيراً إلى إنشاء آل الكاف للطريق المذكور

همة خَرَّت الجبال لها دَكاً ... وسُوِّتْ بين الربي والوهاد

ثم شقت على الشعاب طريقاً ... قربت شقة النوى والبعاد

ثم اضاف:

اتراني أبقى إلى حين يغدو ... بُعْد (سيؤن) ليلة من (سعاد)

بشروني أطير شوقا فبنت الجو ... حول المطار والجو هادي

ويقصد الشاعر بسعاد مدينة الشحر وهي محل ولادته. وكان أثرياء حضر موت الداخل قبل إفتتاح الطريق يقومون بتفكيك سياراتهم في المكلا ويحملون اجزاءها على ظهور الجمال فتمر بها الشعاب والمنحدرات حتى إذا وصلت تريم او سيؤن أو شبام قاموا بإعادة تركيبها مرة أخرى.(المراجع)

التابعة للسلطان بالقرب من غيل باوزير ثم أخذنا في الصعود فوق الممر الجبلي المسمى ممر المَعْـدِي . وعند منتصف النهار كُنا قد وصلنا إلى إرتفاع ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، فتوقفنا لاستراحة بسيطة تناولنا فيها طعام الغداء واسترخينا قليلاً . وماكدنا نحط رحلنا حتى أطل علينا بعض الصبية فجأة ، كأن الأرض إنشقت عنهم ، يحملون ثمار جوز الهند لبيعها لنا.

تحركنا عصر ذلك اليوم ، شاقين طريقنا بصعوبة على حواف الجبال الضيقة وبجانب الهاويات السحيقة مارين بقرية المعدّي ، ثم دلفنا إلى الطريق الجبلي المتعرج ومررنا بمنعطفاته الكثيرة والخطيرة حتى بلغنا هضبة شاسعة تُسمى (الجول) ، وفوقها سرنا حتى وصلنا وادي حضرموت. هنالك عدة أودية تتخلل هضبة الجول ، فترى في جنباتها صورة جيولوجية رائعة ومُتنوعة ،تفصح عن التاريخ الطبيعي للمنطقة ، خاصة وصخورها عارية من أي غطاء نباتي وليست هنالك رمال متراكمة إلاّ في قيعان تلك الأودية ، وقُمت فعلاً بدراسة جزء من تلك الصخور ، بمساعدة الدكتور فريزو هيبروك القادم من لاهاي بهولندا وهو عالم الجيولوجيا الملحق ببعثتنا ومُصمم الخرائط ، وقد استفدت من معلوماتي القديمة ودراستي لعلم الآثار والمتحجرات ، وكانت سعادتي فائقة

عندما عثرنا على بعض العظام المتحجرة لبعض الحيونات البحرية التي كانت تعيش في المحيطات ماقبل التاريخ ، أي قبل نحو خمسين مليون سنة عندما كانت هذه الأجزاء من الجزيرة العربية تغطيها مياه البحر .

مازلنا فوق هضبة الجول ، على بعد ستة وسبعين ميلاً من قرية الريان التي تركناها خلفنا ، وعلى ارتفاع ٣٠٠٠ قدم ، بدا الجو صحواً والرياح باردة ، وفي المساء هبطت درجة الحرارة للصفر وكُنا نرتجف من البرد . أحسسنا كأننا من

المهاجرين الأمريكان الأوائل في سهول سانتافي بالغرب الأمريكي ، ففعلنا كما كانوا يفعلون إذ أوقفنا سياراتنا في شكل مربع وجلسنا بداخله نصنع الطعام ونأكل ، حتى آوينا إلى الفراش.

كان النقيب مبارك دائماً يُفضل الركوب مع فلاديس تيري في السيارة التي تقودها والتي كانت هي السيارة الأولى في مقدمة الموكب ، ولذلك كانت هي التي تُحدد سرعة القافلة ، هل تكون بطيئة أم سريعة ، وكُنا جميعنا نطمئن لها ونثق في قيادتها لركبنا ، ومن المعجبين بها كذلك كان النقيب مبارك ، وفي الحقيقة ان العرب يَعتبرون الشخص الذي يقود سيارة أو طائرة شخصاً غير عادي، وقلاديس كانت بارعة في كلتيهما، وبالإضافة لذلك فقد كانت مسؤولة الحسابات لثلاث بعثات رئيسة كان بها ثلاثة وثمانون عالماً وباحثاً وفنياً وثلاثمائة عامل ، وقد سافرت هذه البعثات وعملت في أكثر من عشرين بلداً . قادت هذه السيدة شاحنة حمولتها طنان ونصف الطن ومعها مقطورة من القاهرة إلى رأس الرجاء الصالح ، ووضعت رقماً قياسياً في الشرق الأوسط عندما قادت سيارة من القاهرة إلى جبل سيناء ست مرات في عشرة أيام ، مما حدا بالسفير الأمريكي في مصر ، جفرسون كافري الذي كان معها في اثنتين من تلك الرحلات ، أن يقول : « هذه سيدة عظيمة » . وفوق هذا وذاك فإن قلاديس شقراء جميلة ، ولقد كانت قيادتها لحملتنا موفقة للغاية إذ أن سياراتنا قطعت مشوارها بسلام دون أن تتعرض أي واحدة منها لعطب ودون أن ينفجر إطار واحد رغم الطريق الصخري الوعر.

إن نجاح أي بعثة آثار يعتمد على مهارة وفاعلية العاملين فيها من غير العلماء والباحثين ، وخاصة في مكان مثل جنوب الجزيرة العربية المغلق والمضطرب أمنياً. إن الرجال الذين يؤدون أخطر الأدوار هم خبراء الشحن والنقل والمهندسون

الميكانيكيون والعاملون في الحقل الطبي . فإذا تعثر هؤلاء تعثرت البعثة كلّها إذ إن العلماء والباحثين لايستطيعون اداء أدوار هذه الكوادر الهامة. ذلك هو الذي دفعني لأختيار الشباب لأداء هذا الدور رغم اعتراض الكثيرين من أصدقائي الذين كانوا يرون بأن الخبرة أهم . ربما دفعني للميل نحو الشباب أنني شاب لم أبلغ الثلاثين بعد.

حدث في إحدى الأمسيات ، بعد تناول طعام العشاء ، أن سمعنا موسيقى هادئة تنبعث من أفراد الحرس الحكومي المتحلقين حول نارهم ، وكان اللحن غريباً على آذاننا ، ولكن أخذنا ننسجم معه ونستسيغه ونتذوقه بعد قليل . كان الحراس يغنون جماعياً في شكل كورال ، فاقتربنا منهم نسترق السمع ، حتى صرنا جزءاً منهم وتحلقنا معهم حول النار . ثم جاء دورنا وطلبوا منا أن نُغني ففعلنا بعد تردد ، ثم غنوا هم بعدنا ، ونحن بعدهم ، وهكذا ، وقد كنت حزيناً بعض الشيء لأننا لم نستطع أن نجاريهم بالمستوى نفسه فقد كان أداؤهم أفضل وغناؤهم أجمل بكثير ، وعلى أية حال كانت أمسية طيبة وممتعة.

مرض البروفسير البرايت ، ولكن آثرنا الا نتوقف لأننا أصبحنا على مشارف مدينة سيؤن وهي مدينة كبيرة لابأس بها ، فواصلنا السير وسط الوديان العامرة بالطمي والتي كستها حقول الشعير وحفّت بها بساتين النخيل ، مفارقة مدهشة بين خضرة داكنة وخلفية جبلية قاتمة ومجدبة . وكانت دهشتنا أعظم عندما وجدنا بين قريتى النويدرة وسكدان نهراً جارياً بمياه صافية بلّورية مثل الكرستال ، مليئاً بشتى أنواع السمك ، وهو منظر غريب للغاية في ذلك الجزء من الجزيرة

العربية* .

وعندما شارفنا وادي حضرموت أخذت القرى تتكاثر وتتكدس ، وأصبحت الأرض أكثر خصوبة ، وهذا الوادي يمتد بطول يبلغ ثلاثمائة وستين ميلاً . وكلمة وادٍ في حقيقة الأمر ترمز لمجرى مائي قديم نضبت منه المياه ، وبعض منها تدب فيه الحياة عندما تهطل الأمطار وتجري فيه المياه بتيار عنيف وقوي ، تغذيها الجداول المنحدرة من قمم الجبال بلا كابح من أشجار أو غطاء نباتي .

يستمر الجفاف بهذه المناطق لمدة أحد عشر شهراً في السنة ، وقد لاتهطل الأمطار لعدة سنين ، ولكن المياه الجوفية لاتنضب ، ومنها يشرب الناس عن طريق الآبار ، وقد مررنا بالعديد من الآبار عندما اقتربنا من الوادي مما يفسر وجود القرى حولها. يبلغ عرض الوادي في بعض المناطق أربعين ميلاً ، ولكنه بعد مدينة تريم يضيق أحياناً ليصبح فقط أربعة أو خمسة أميال ، وهنا يكتسب اسماً آخر وهو وادى المسيلة رغم أنه إمتداد لوادي حضرموت نفسه الذى ينتهي عند مصبه في البحر قرب مدينة سيحوت. ويبدو أن هذا الوادي كان حياً قبل عشرين ألف سنة عندما كانت الأمطار أكثر غزارة ، كان عبارة عن نهر عظيم يجري نحو الشرق ، تُغذيه روافد صغيرة هي الأودية العديدة التي تتفرع من وادى حضرموت اليوم .

لقد ورد ذكر حضرموت في سفر التكوين بالاسم العبري (حزر مافيث) **

---

* النويدرة وسكدان قريتان في منطقة غيل عمر التي تبعد عن سيؤن بنحو ٧٠ كم ومن أهم قراها "ساه" ويسكن هذه المنطقة قبائل من اهمها آل جابر وآل الزبيدي .(المراجع)

** يرى المستشرق البلجيكي جاك ريكمانز ان مدلول اسم حضر موت يعني أرض البخور اما أ . بيستون فذهب إلى ان الاسم مشتق من الجذر "ضرم" اي اشعل ناراً لكننا لا نستبعد ان يكون الاسم مشتقاً من الفعل "حضر" وتعني في لغة المسند : قام بزيارة دينية لإله، ويؤيد ذلك ورود صيغة النسبة (أحضرن) في النقوش للدلالة على الحضارم .(المراجع)

بمعنـــــى (حظيرة الموت) ، ويتحدث سفر التكوين عن أبناء قحطان* أيضاً، ونجد اليوم قبائل حضرموت وهي تتباهى بأنها من نسل قحطان ، حفيد سام بن نوح ، وهو جد أعراب جنوب الجزيرة العربية .

وما إن دخلنا وادي حضرموت حتى إنعطفنا يساراً ، وبعد أميال قليلة وصلنا سيؤن العاصمة الجميلة للدولة الكثيرية ، وهي من أكبر مدن الجنوب وأقلها إزدحاماً وإكتظاظاً بالسكان ، فيها العديد من الميادين التي تزينها أشجار النخيل الباسقة .

نزلنا في قصر السيد أبوبكر **، أحد أعمدة أسرة الكاف ذات الثراء والنفوذ ، وهو قصر غريب ومهيب ، وعائلة الكاف هم سادة المال والأعمال بالدولة الكثيرية وهم الذين عبَّدوا الطريق من المكلاّ والشحر إلى وادي حضرموت . كان السيد

---

* قحطان ورد ذكرها في نقوش المسند كواحدة من قبائل وسط الجزيرة العربية الغربي إلى جانب كندة الأولى بوادي الدواسر ومذحج و الخصاصة وغيرها . ويبدو من سياق النصوص أن موطنها كان في بلاد عسير في أرض جنب وسِنْحَان .(المراجع)

** أبو بكر بن شيخ بن عبد الرحمن الكاف العلوي الحسيني ولد بسنغفورة عام ١٣٠٥هـ من أبوين حضرميين وجاء إلى حضر موت وعمره نحو الثالثة عشر وكان جده عبد الرحمن قد كون ثروة هائلة من خلال نشاط تجاري وعقاري دؤوب في سنغفورة وجاوه، ثم قام والده شيخ بتنمية تلك الثروة وتوسيعها . كان السيد ابو بكر من ابرز الشخصيات الحضرمية المشهورة بالجاه والثروة وقرى الأضياف والسعي في المصالح العامة كرس حياته وبذل ثروته في سبيل تحقيق الأمن والاستقرار بحضر موت من خلال جهود لاتكل في تقريب وجهات النظر وتغليب الاحتكام إلى الحوار والجنوح إلى السلم . اما عن سماحته وبسطة كفه وإنفاقه في أعمال الخير والبر والصدقة فحدث ولاحرج من بناء للمدارس واقامة للمكتبات والسقايات والمستوصفات الطبية إلى ماذكرنا من إنشائه لطريق للسيارات يربط بين الشحر وتريم . والشيء من معدنه لا يستغرب فقد كان والده مشهورا بكل ذلك كما كان ذلك هو دأب السادة الأشراف بحضر موت منذ ان وطأت قدم جدهم المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي=

أبوبكر قد سافر إلى سنغافورة عندما حللنا بسيؤن ، وعائلة الكاف لديها جذور اقتصادية ضاربة في جنوب شرق آسيا ، وكان في استقبالنا قُطب آخر من أسرة الكاف هو السيد جمل الليل الذي أحسن وفادتنا وأقام لنا وليمة بقصره في اليوم التالي لوصولنا**.

لقد إزدهرت حضرموت في أيام قوافل الجمال وتجارة التوابل ، ولكن ممالكهم تهاوت ونجمها أفل مع انتقال الحركة التجارية إلى البحر*** ، فبدأ الحضارمة في

= بن الإمام جعفر الصادق أرض حضر موت عام ٣١٨هـ كما تشهد بذلك المصادر التاريخية فلينظرها مَنْ له أنَسٌ بالتاريخ و كان الحق له رائدا والإنصاف قطب رحى توفى السيد ابو بكر بسيؤن في الثاني من ديسمبر عام ١٩٦٥م إثر رجوعه من الحرمين بعد أداء النسكين وزيارة قبر سيد الكونين (ص) ولمعرفة المزيد عن شخصية السيد أبوبكر أنظر كتاب إنجرامس :

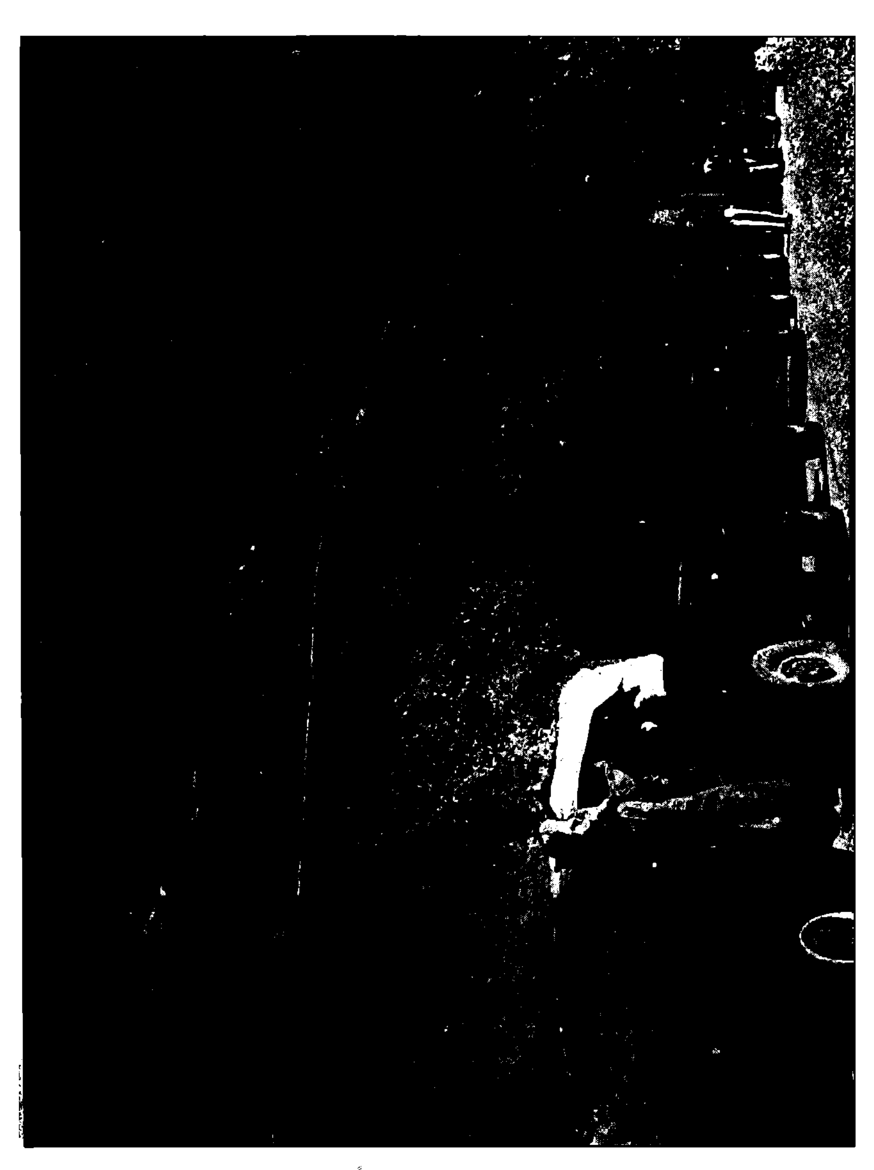
(Arabia and the Isles, Harold Ingrams, London, John Murray, 1942. (المراجع)

** هو جمل الليل بن عبد الرحمن بن شيخ الكاف ابن أخ السيد أبي بكر الكاف .(المراجع)

*** لقد تهاوت ممالك أوسان ومعين وقتبان لكن مملكة حضر موت بنشاطها الملاحي وموانئها (قنا) ولكونها منتج اصلي للبخور ظلت متماسكة بل إزدهر نشاطها التجاري مما الب عليها عداوة جارتها الكبرى سبأ التي لم تكن باستطاعتها ان تتماسك لولا تواجدها المكثف في المرتفعات الغربية الخصبة مثل صنعاء وبلاد سمعي وبلاد حاشد وبكيل ووادي ضهر ولذلك انتقل مركز الثقل السياسي لسبأ إلى أسر وسلالات تلك المناطق واعتلى بعضها عرش سبأ كالبتعيين الهمدانيين مثلاً كذلك إزدهر الكيان الحميري الناشئ آنذاك وازدهرت المناطق الساحلية الجنوبية والجنوبية الغربية كأرض المعافر وميناؤها (موزا) وكذلك ميناء عدن هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يجب أن لايغيب عن الأذهان أن حضارة ممالك اليمن القديم لا يعزي إزدهارها فقط لنشاطها في تجارة القوافل البرية بل كان ذلك الإزدهار نتيجة طبيعية لنشاط زراعي متطور قائم على التحكم في مصادر المياه من خلال بناء السدود وشق القنوات فنشأت من جراء ذلك مجتمعات مستقرة قطعت في مسيرة الحضارة شأواً بعيداً ولم يكن اختفاء معين وأوسان وقتبان بمجرد اكتشاف الطريق البحري المباشر بين الشرق والغرب إن هذا تبسيط ساذج=

الهجرة وطلب العيش في بلدان أخرى حيث عملوا في التجارة والعقارات والمصارف في بلدان مثل كينيا وتنجانيقا وزنجبار والسودان ومصر والعربية السعودية والحبشة وسنغافورة وبينانق والمستعمرات الهولندية السابقة بجزر جنوب شرق آسيا (حيث توجد بها أكبر جالية حضرمية يبلغ تعدادها سبعين الف نسمة). وحيثما ذهب الحضارمة حملوا معهم حبهم لتراب وطنهم ، وكلهم يحلمون بالعودة لبلدهم ذات يوم ظافرين غانمين محمّلين بالثروات التي جمعوها في الخارج. ورغم العزلة التي ضُربت على حضرموت لِحقب طويلة فقد كان هنالك منفذ معين إلى الجزر التي كاد يحتلها الحضارمة في جنوب شرق آسيا،

= للمسألة بل الأرجح أن اشتداد الصراع بين الكيانات الكبرى آنذاك : سبأ وحضر موت وحمير هو الذي أدى إلى اقتسامها لأراضي تلك الممالك الصغيرة غير أن الغلبة في النهاية كانت لملوك حمير الذين استطاعوا في نهاية القرن الثالث الميلادي إعتلاء عرش سبأ ثم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى استطاعوا إخضاع حضر موت وبذلك تمكنوا من توحيد بلاد العربية الجنوبية كلها، بل أضاف ملكهم أبو كرب أسعد في نهاية القرن الرابع الميلادي أراضي الطود وتهامة وتشمل بلاد عسير وأراضي قبائل دواة. وأقام الحميريون دولة كنده بنجد في وسط الجزيرة وكل ذلك دليل على أن حضارة العربية الجنوبية وممالكها لم تنهار بمجرد إكتشاف الطريق البحري بين الشرق والغرب كما اعتقد المؤلف لقد ضعفت ثم اختفت ممالك كما ظهرت ثم قويت أخرى لكن المسيرة الحضارية ظلت مستمرة رغم بعض الصعوبات والعراقيل، وذلك لأن الحضارات كما أنها لا تظهر فجأة فهي كذلك لاتختفي بين عشية وضحاها وكما قال أرنولد توينبي إن التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما وإنما تنتقل عناصرها إلى أُمّةٍ أو أمم جديدة لتقدم حضارة جديدة ومن هنا يجب أن يفهم دور أهل اليمن في حمل لواء مسيرة الحضارة العربية في صدر الإسلام وما تَلَتْهُ من فتوحات ومن بين الشواهد التي قلما نوّه بذكرها المؤرخون دورهم في تثبيت الدولة العربية الإسلامية في الأندلس خصوصا بعد قيام الدولة العباسية بالمشرق وفرضها حصاراً شديداً على تلك الدولة الأندلسية الفتية فاعتمدت على جهود أبنائها واجتهاداتهم في الزراعة والإدارة والفقه والقضاء وكان لأهل اليمن منهم الدور الأبرز .(المراجع)



النصف الأول من قافلة الشاحنات (باور واقن) تصعد ممراً حاد الانحدار في الطريق من المكلا إلى وادي حضرموت .

فتيات عربيات ملاح .



حراس عرب منتدبون للبعثة .

وكانت الحركة نشطة بين حضرموت وتلك الجزر ، مما نتج عنه ازدهار بعض المُدن في وادي حضرموت فظهرت في قلب الصحراء ناطحات السحاب والطرق المُعبدة والقصور البديعة والحُلي والأجهزة الحديثة والأطعمة المستوردة وطبقة عليا تلقت تعليماً نظامياً حديثاً. ونتيجة لاختلاط العرب الحضارمة بشعوب شرق آسيا صار الناس يطلقون على حضرموت اسم بلاد الأميرات الأندونيسيات.

كان قصر السلطان في سيؤن يتألف من سبعة طوابق ، مبنياً من اللّبن وعليه حُلة زاهيــة من الطلاء الأبيض . أمــا مــدينة تريم فــهي مــدينة راقيــة مــاهولة بالأرستقراطيين الذين يسكنون في فيلات جميلة ، وفيها الفينا منزل السيد جمل الليل يرفل في نعيم الكهرباء وصنابير الماء والحمامات والأثاث الغربى الفاخر والهواتف . ومدينة تريم هي بمثابة العاصمة الدينية لحضرموت ، بها ٣٦٥ مسجداً، كأنما هنالك مسجد في مقابل كل يوم من أيام السنة ، وقد أعتلينا الدرج الحلزوني لإحدى المآذن* التي يبلغ ارتفاعها ١٧٥ قدماً واستمتعنا بمنظر المدينة الأخاذ من ذلك العلوّ الشاهق ، فبدت لنا المدينة شاسعة ، يحيط بها سور عليه خمس بوابات وأكثر من عشرين قلعة.

* يقصد المؤلف منارة مسجد عمر المحضار وهي بحق إحدى روائع الفن المعماري الحضرمي فبالرغم من ارتفاعها الشاهق إلا انها مبنية من الطين واللبن فقط ومجصصة بالجير الأبيض صممها وبناها على نفقته العلامة إمام البلغاء الشاعر الكبير السيد ابو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب (١٢٦٢- ١٣٤١هـ) وكان الانتهاء من بنائها في عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م أما الشيخ عمر المحضار الذي ينسب إليه المسجد فهو الإمام الكبير والصوفي الشهير عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف العلوي الحسيني نقيب العلويين بحضر موت في عصره ولد بتريم وتوفي بها عام ٨٣٣هـ.(المراجع)

تكتسب تريم أهميتها الدينية لكونها موطناً للسادة الذين يحكمون السلطنة الكثيرية*، ولقب شريف أو سيد في جنوب الجزيرة هو لقب متوارث ، مثل لورد، وله دلالات دينية عميقة إن الذين يحملونه هم سلالة الدوحة الهاشمية ويقولون بأنهم أحفاد النبي محمد عليه الصلاة والسلام من سلالة ابنته فاطمة الزهراء.

* لم يحكم السادة الأشراف بحضر موت السلطنة الكثيرية كما توّهم المؤلف بل سميت السلطنة الكثيرية نسبة إلى سلاطينها من آل كثير الذين يرجع نسبهم إلى بني ضنه جاءت بنو ضنة مع بطون كبرى من نهد وبني حرام إلى حضر موت في النصف الثاني من القرن السادس الهجري بأعداد كبيرة من موطنها الأصلي بمنطقة تثليث وكتنه شمال غرب نجران واستقرت في البدء في منطقتي العبر والكسرِ ثم أخذت تتغلغل في كل انحاء حضر موت الداخل وظهر أول نشاط لآل كثير عام ٦٢٩هـ حينما عمروا قرية عينات القديمة لكن تواجدهم ظل متواضعا وفي عام ٧٢٣هـ استولوا على قرية بور وبدأوا صراعا طويلا مع سلاطين آل يماني من بني حرام حكام تريم. وباستيلاء آل كثير على ظفار عام٨٠٧هـ بدأت انجم سعودهم في الطلوع حتى استولوا على الشحر في نهاية القرن التاسع الهجري لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على منافسيهم آل يماني إلا عام ٩٢٦هـ في عهد سلطان آل كثير الشهير بدر أبي طويرق الذي استطاع بسط نفوذه على حضر موت كلها واجزاء من حبان وظفار وظل حكم آل كثير متماسكا نوعا ما لكن الصراعات سرعان مادبت في أوصال سلطنتهم فاستعان بعضهم بالزيدية واستعان آخرون بقبيلة يافع ورجحت في النهاية كفة قبائل يافع حتى صارت السلطة الفعلية في أيديهم فاقتسموا عام ١١٣٠هـ حكم البلاد وسقطت بذلك سلطنة آل كثير الأولى. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري ظهرت لآل كثير سلطنة متواضعة في حضر موت الداخل وتوفرت لها فرصة لاعادة مناطق نفوذ سلطنتها الاولى لكنها واجهت مقاومة عنيدة من قبائل يافع بقيادة آل القعيطي الذين استطاعوا السيطرة على المناطق الساحلية والمينائين الهامين الشحر والمكلا. واستمرت سلطنة آل كثير الثانية هذه حتى عام ١٩٦٧م عام استقلال البلاد عن الاستعمار البريطاني. (المراجع)

والسادة يلعبون دور القيادة الروحية والدينية وليس السياسية أو العسكرية ، ولكن بعضهم أصبح له نفوذ عظيم بسبب قوة الشخصية أوالثروة ؛ وفي حقيقة الأمر فإن السادة مُقدسون لدى جماهير الأعراب في جنوب الجزيرة العربية الذين يدينون بالولاء حتى لأقل الأشراف ثروة أو أكثرهم فقراً.

دعانا السيد جمل الليل لوليمة فاخرة متنوعة لم نشهد مثلها من قبل ، جلسنا القرفصاء في قاعة ضخمة مزينة بأبهى الألوان ، ونثرت أطباق الطعام من كل نوع أمامنا فوق سجاد عجمي مزخرف. قلت لجورج فارير الذي كان يجلس بجانبي :-

« ياجورج . قد يبدو هذا الطعام غريباً بالنسبة لك ، ولكن يجب أن تضع كرامتنا كأمريكان في إعتبارك . إغرس يدك في الأكل وتظاهر بأنك مستمتع به . »

هز جورج رأسه موافقاً ، ولكن في تلك اللحظة وضع أمامه طبق غريب ، فهتف قائلاً :-

« هذه عيون حيوان .. عيون حيوان ..! »

قلت له :-

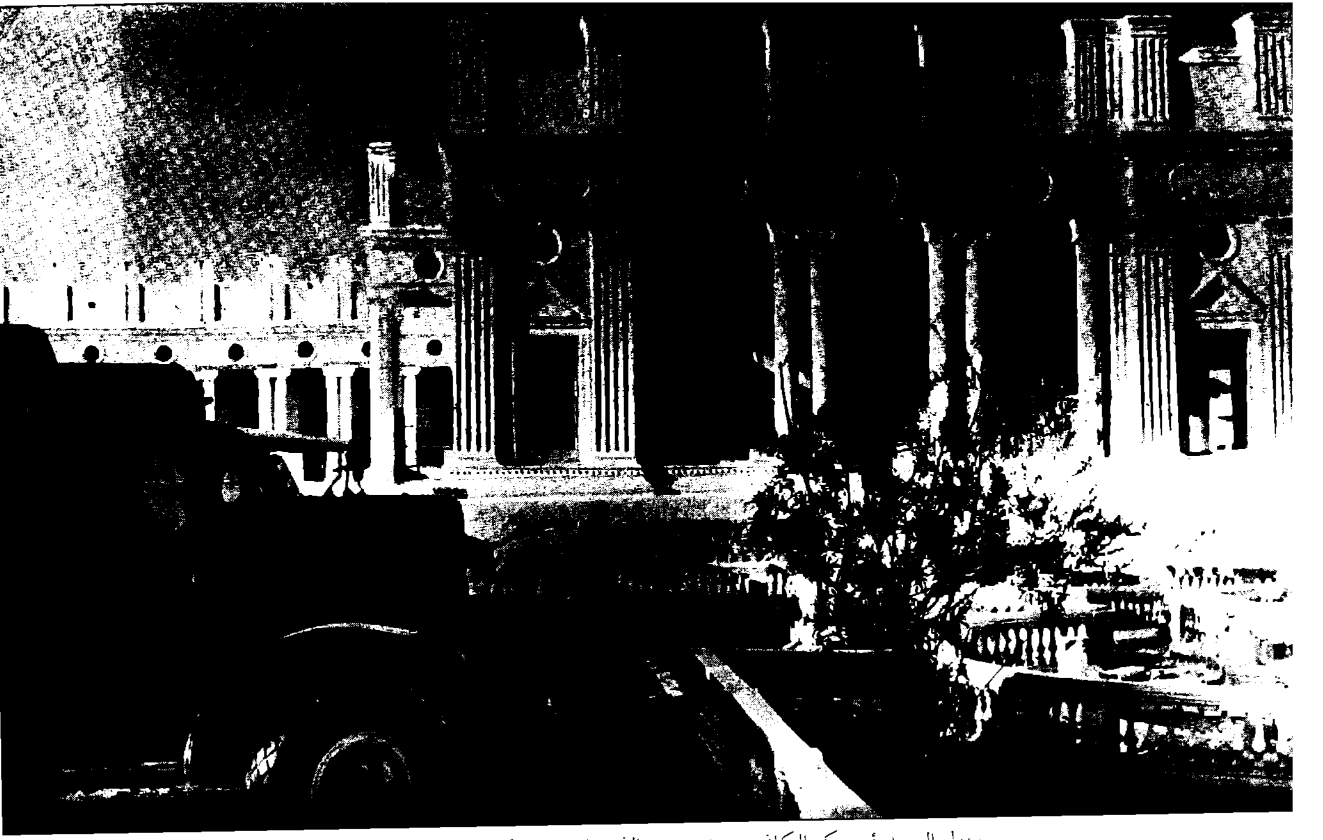
« نعم ، لأننا ضيوف مقربون فإنهم يكرموننا بأفضل الأصناف . »

إنشغلت لبعض الوقت في حديث جانبي مع مُضيفنا الشريف ، وحانت مني التفاته لجورج فوجدته منهمكاً في الطعام يلتهمه بتلذذ شديد ، كان يغرس يده في طبق الأرز ، ثم يدخلها في قدح مليء بعسل النحل ، ثم يُرسل اللقمة لفمه قبل أن تسيل منها خيوط صوب السجاد ، وهو في غاية الاستمتاع والنشوة . ولقد وقف خلفنا مجموعة من الصبيان يهشون على الذباب بسعف النخيل* ،

*اي مرواح يدوية مصنوعة من الخوص .(المراجع)



قلاديز تيري ، سكرتيرة البعثة ، أول امرأة أمريكية مستكشفة تعمل في حضرموت وبيحان.



منزل السيد أبو بكر الكاف بحضرموت الذي استخدم كمقر مؤقت للبعثة.

ونجحوا في إبعاده تماماً حتى فرغنا من الوليمة.

تألف طبق الحلوى من عجينة البلح مخلوطة بشيء من الخبز والعسل الأسود . ثم انتقلنا لغرفة مجاورة لنتناول الشاي مع قطع (الجاتوه) ، وبينما كُنا نحتسي الشاي فُتحت الأبواب على مصاريعها وهجم أكثر من عشرين شخصاً على باقي الأكل يلتهمونه التهاماً ، هؤلاء هم « المساكين » ، أي الفقراء والمعاقون والعميان ، وهذا تقليد قديم في الدولة الكثيرية.

توجهنا عصر ذلك اليوم لقصر السيد عمر بن شيخ الكاف لتلبية دعوته لحفل شاي ، وما استطعنا أن نأكل أو نشرب شيئاً يذكر بعد وجبة الغداء الدسمة. ولكننا استمتعنا بمنظر القصر البديع وزخارفه ونقوشه وخصوصا حوض السباحة الكبير المرصعة جدرانه برسومات زيتية لنساء شبه عاريات وفي أوضاع مثيرة*

على بعد عشرين ميلاً إلى الغرب من سيؤن كانت هناك مدينة شبام التي تُعتبر موقع ناطحات السحاب الأكبر في الجزيرة العربية كلها ، فهي تتألف من بنايات متشابهة ومتلاصقة كأنها جسم واحد ، باستثناء قصر السلطان المخطط بالأبيض والبني والذي يشمخ عالياً بينها . وعندما أقبلنا على شبام كانت بناياتها البيضاء تتوهج تحت شمس الصباح ، وهي بنايات ذات ستة أوسبعة طوابق رغم أنها تبدو أعلى من ذلك إذ أن لكل طابقين صفين من الشبابيك ، أحدهما فوق الآخر.

---

*مازال القصر المذكور قائما إلى اليوم ولا توجد به ماذكرها المؤلف من رسومات. وقد زاره الكثير من الأجانب قبل زيارة المؤلف وبعدها ولم يذكروا شيئاً مما ذكر علاوة على أن المكانة الدينية لتريم وطبيعة أهلها المحافظة تجعل من المستبعد أن تجرؤ شخصية مرموقة كالسيد عمر على فعل كهذا. توفي السيد عمر بالقاهرة حيث ذهب إليها للعلاج عام ١٩٧٠ م ونقل جثمانه إلى تريم ودفن بها .(المراجع)

عندمـا تتـوسط المدينة تتـضح لـك الصـورة بعض الشيء وتدرك لماذا بدت البنايات من على البُعد كأنها ملتصقة بعضها بالبعض الآخر ، والسر في ذلك غياب الشوارع التي تفصل بينها ، هنالك مجرد أزقة ضيقة لايستطيع صف من ثلاثة أشخاص أن يمشي فيها بارتياح ، وهي ليست ضيقة ومتعرجة حسب ولكنها مظلمة دائماً ورطبة ومكتظة بالبشر ، وتتوسط الأزقة مجاري الصرف الصحي وأكوام القُمامة . تتدلى على جنبات البنايات خراطيم الزلاقات التي تأتي بالأوساخ والفضلات من الطوابق العليا إلى قارعة الطريق ، عليك دائماً أن تقفز بعيداً كلما سمعت صوت هدير أو خريرينبعث من تلك الخراطيم تتجمع المجاري التي تتوسط الأزقة في بُحيرة رئيسة بالميدان الوحيد الموجود في المدينة ، ليس في ذلك الميدان معلم آخر سوى مستنقع المجاري الآسن.

على الرغم من الحالة الرثة لصحة البيئة والروائح الكريهة التي تنبعث من أزقة شبام وحاراتها، فهي المدينة التجارية الرئيسة بحضرموت. لقد ظلت منذ قرون السوق الأساسي لكل قبائل المنطقة ، ومازالت مزدهرة باعتبارها العاصمة الداخلية لسلطنة الشحر والمكلاّ*.

*شبام مدينة حضرمية قديمة ورد ذكرها في نقوش المسند ولذلك فلاصحة لما ذكره الهمداني (٢٨٠ - ٣٦٠هـ) في كتابه (صفة جزيرة العرب) من أن اصل اسم شبام هو شباه بالهاء فأبدلت الهاء ميما، ومن أن ظهورها كان بعد انتقال سكان شبوه إليها فقد ثبت من النقوش المسندية أنها مدينة مزدهرة ووصفت طبقة من سكانها بلفظ (ابعل) وهو مايعني طبقة المُلاك وذلك في ذاك الوقت الذي كانت فيه شبوه عاصمة لحضر موت. وقد ظلت شبام طوال التاريخ محتفظة بأهمية خاصة وتتخذها الدول المتعاقبة قَصَبةً لها وكانت شبام مركزا تجاريا مهما لسكان حضر موت الداخل ترد إليها القوافل من المكلا والشحر ويافع وصنعاء وذلك قبل انتشار استخدام السيارات في النصف الأول من القرن المنصرم تبعد مدينة شبام نحو ٢٠ كم إلى الغرب من سيؤن. (المراجع)

اتجهنا بعد ذلك نحو قعوظة ، مارين بواد عريض تحف به الجبال الشاهقة . اعترضتنا رمال هشة غطست فيها عجلات السيارات فأبطأتنا قليلاً ، ثم واصلنا المسيرة حتى وصلنا إحدى المحطات في الطريق التي لدينا فيها مخازن وقود كان قد أمّنَها لنا وفد المقدمة ، وبعد ان تزودنا بالبترول تحركنا مرة أخرى وقطعنا طريقاً سهلاً ومريحاً قبل أن نتوقف للراحة وقضاء الليل على الطريق .

شهدنا في قعوظة قطيعاً من الجمال يُقدر بالمئات جاء للشرب من الآبار ، وعلى ذلك يدفع أصحابها اجراً للحكومة . كل إمارة او دولة عربية تُجبي الضرائب على الجمال وماتحمله من بضائع إذا مرت بديارها ، وهكذا الحال بالنسبة لقعوظة وبئرها الوحيدة التي ترد إليها القوافل لتشرب الماء ثم تدفع ماعليها من خراج . هذه هي الطريقة التي كانت تؤدي لإزدهار المدن التي تقع على طريق القوافل المحملة بالتوابل واللبان وعود البخور ، الماء والضرائب* .

بينما كانت السيارات تعبُّ من البنزين مارس الدكتور ماكنش مهنته مع البدو، ففحص أحدهم الذي كان يعاني من إسهال حاد وصرف له حبوب سلفاديازين، ووزع كميات هائلة من الأَسبرين للعديد من سكان قعوظة الذين أصيبوا جميعاً بالصداع فجأة لّما سمعوا أن هنالك طبيباً في المدينة .

أخيراً أعطى شارلي ماكولم الإشارة بالتحرك ، واستأنفنا الرحلة قاصدين بئر عساكر علّنا نصلها قبل حلول الظلام . أخرج بل تيري آلة التصوير وصوّر مشهد مغادرتنا لقعوظة . في هذه المرة أخذنا معنا مرشدين من البدو ليدلانا على الطريق

---

*قعوظة : تقع في منطقة الكسر بغرب وادي حضر موت وكانت تَمُرُّ بها قوافل التجارة القادمة من نجران والجوف وحبان ومرخة وغيرها من بلاد اليمن تسكنها بطون من قبائل نَهدْ أبرزهم آل عجاج .(المراجع)

حتى لانحيد عنه بتاتاً ، إذ إننا لم نطرق اي جهة أبعد من قعوطة من قبل ، وليس هنالك طريق بالمعنى المعروف ، ولقد أصبح وادي حضرموت في هذه المناطق عريضاً جداً وماعاد يشبه الأودية التي مررنا بها. عند ذلك دخلنا في منطقة تُسمى (رملة السبعتين) *وهي سهل شاسع من الرمال يمتد من مأرب في اليمن بالغرب عبر مسافة تبلغ مئتي ميل حتى فوهة وادي حضرموت بالشرق ، ويمتد من تمنع في بيحان متجهاً شمالاً حتى يتحد مع الربع الخالي رويداً رويداً. رملة السبعتين تعني « سهل السبأين » وقد يكون هذا الاسم متوارثاً من أزمان غابرة ، ربما بسبب حدث معين وهو غزو مملكة سبأ لمملكة قتبان ولما وراءها شمالاً وشرقاً من المناطق الأخرى.

كانت قيادة السيارات فوق هذا السهل الرملي الممتد مثيرة وممتعة ولم نشهد مثلها من قبل في كل رحلاتنا الاستكشافية. قدنا السيارات بسرعة خمسة وثلاثين وأحياناً وأربعين ميلاً في الساعة على تلك الرمال الثابتة والممتزجة بالحصى، وأخذ الموكب شكل طائرات تطير كلها في خط واحد للاستعراض ، فكان المنظر بديعاً للغاية ، وصار بل يلهث بآلة التصوير يُمنةً ويُسرى محاولاً أن يُسجل تلك اللحظات ونحن نمخر عباب الصحراء بسرعة لم نحلم بها ولم

---

* رملة السبعتين بالعين المهملة وليس الألف هي المنطقة الصحراوية الممتدة من مَأرِب غربا حتى وادي حضر موت شرقا وكانت قديما تسمى بمفازة صيهد كما ذكر الهمداني وياقوت الحموي وبما ان هذه المفازة كانت تقع على أطرافها الجنوبية والغربية عواصم الممالك القديمة حضر موت وأوسان وقتبان وسبأ ومعين فقد أطلق المستشرق الإنجليزي الراحل الفرد بيستون "مصطلح" ثقافة صيهد على الفترة القديمة من تاريخ تلك الممالك ولم يكن اختيار تلك الممالك لعواصمها في أطراف الصحراء اعتباطاً بل كان هدفه السيطرة على طريق البخور وهو الطريق البري العالمي آنذاك للتجارة بين الشرق والغرب .(المراجع)

نتوقعها.

نتيجة لتلك السرعة وجدنا أننا قطعنا في ذلك اليوم ثلاثة أضعاف المسافة التي قطعناها في أي يوم آخر ووصلنا بئر عساكر قبل مغيب الشمس بفترة طويلة. وكان منظر القلعة البيضاء جميلاً وهي تتوهج تحت أشعة الشمس الذهبية قبيل المغرب ، كأنك في مشهد رومانسي ساحر بأحد أفلام الغرب الامريكي . ألقينا عصا الترحال لتلك الليلة وأخرجنا الأمتعة اللازمة للعشاء والمبيت تحت جدران القلعة البيضاء.

وماكدنا نتحلل من وعثاء السفر حتى سمعنا على البعد صوت طلقات نارية ، وأخذ بعضنا يتحسس مسدسه وبندقيته . كان ذلك في الواقع هو الأسلوب التقليدي لدى أعراب البدو في استقبال ضيوفهم ، وبعد قليل وصلتنا مجموعة من آل عمرو وهم فخد من قبيلة بَلْعُبَيْد ، ومازالوا يطلقون الرصاص في الهواء . وما كان منا إلا ان رددنا عليهم بالمثل ، فأطلقنا مجموعات من الرصاص في الهواء من المسدسات وبنادق الصيد وبنادق الكارين ، ثم شرعنا في مُصافحتهم بحرارة فرداً فرداً، جميعنا وجميعهم . إن الأعرابي الذى يقطن الصحراء يعيش على بندقيته ويموت بدونها ويستخدمها في الطقوس كافة مثل استقبال ضيوفه . وإذا أراد أن يبدى لك مشاعر طيبة صوّب في إتجاهك وأطلق النار ، وبقدر ما كانت الطلقات قريبة منك بقدر ما يدل ذلك على قربك من قلبه . وقد ذهلت بعد ذلك ببضعة أسابيع عندما استقبلني شيخ ودود في بيحان وابدى لي أخلص مشاعر الإخاء ، وشد على يدي بيمناه بحرارة مدهشة بينما اطلق رصاصة بيسراه مرت على بعد بوصتين من أنفي.

جاء المزيد من آل عمرو في الليل ووجهوا الدعوة لي ولشارتس إنج فلحقنا بهم

أمام نار الفريق التي أقاموا حولها ، وقدموا لنا قهوة مليئة بالهيل . قالوا لنا متفاخرين إن هذا الجناح من قبيلتهم به ستة وعشرون رجلاً ، ارتكب أربعة وعشرون منهم جريمة قتل ، فتلفت متفحصاً أوجه الستة والعشرين الذين أمامي لأعثر على الرجلين اللذين لم يشاركا في هذا الشرف .

في صبيحة اليوم التالي، وعند الفجر شددنا رحالنا من بئر عساكر، لأننا أردنا أن نقطع هذا الجزء الأخير من رحلتنا في يوم واحد، ونصل بيحان في المساء. مررنا أولاً بجزء من سهول شبوة ، تلك المنطقة المحظورة بسبب شراسة أهلها ورفضهم للغريب ، وبعد مسافة مُعينة ، ولما تأكدنا من أننا تركنا مدينة شبوة القديمة خلفنا ، اتجهنا نحو الجنوب الغربي محاولين أن نتفادى أهل تلك البقاع. ولكن مهما بعدت عن شبوة فقد يصادفك أهلها إذ أنهم ينتشرون في مساحات واسعة حولها ، فقبيلة الكرب التي تسيطر على شبوة هي في الواقع تفرض سطوتها على مئات من الأميال المربعة حولها ، وقد اشتهروا بمهاجمتهم للقوافل في شتى أنحاء هذه السهول .وهناك أيضاً قبيلة البريكي التي تمتلك جزءاً من شبوة ، وهي قبيلة من المشائخ الذين ظلوا يحرسون الآثار والأماكن المقدسة بهذه المنطقة جيلاً بعد جيل ، و منها قبتان في شبوة تحتوي على رفات اثنين من أسلافهم الأولياء . لقد ظلت شبوة بكنوزها التاريخية مُنزوية عدة قرون، حتى أُطلق عليها لقب (المدينة الخفية) ، ولم يزرها إلا بضعة غربيين لايتعدون أصابع اليد الواحدة . لقد كنا في مأمن بحمدالله وبفضل الحجم الكبير لبعثتنا وبفضل فريق الحراسة المكونة من خمسة عشر جندياً عربياً يقودهم النقيب مبارك، فلم نتعرض لتحرش أو هجوم عدواني . وكان يُمكننا أن نقتحم مدينة شبوة نفسها ونتفرج على ما فيها من آثار، ولكننا تحسبنا لأي حادث عارض أو هجوم مباغت

وآثرنا السلامة بالابتعاد عنها كلية ، وتركنا مسافة بيننا وبينها تقارب أربعة أميال، وكان معنا شيخان يعيشان في شبوة عثر عليهما شارلس إنج لنستخدمهما كمرشدين في الصحراء ، ولم نسمح لهما بمغادرتنا كأنهما أسيران لدينا ، إذ إن العادة السارية في أسفار الصحراء هي أن يكون لديك مرشد من البدو المحليين ، وقد تحتفظ به كرهينة ولا تطلق سراحه إلا بعد بلوغك الجهة التي تريدها بالتحديد .

هنالك خلط شائع بين كلمتي (شبوة) و (سبأ) ، لم تكن شبوة ذات شأن في التاريخ القديم ، بل كانت الأقل أهمية والأكثر حداثة من عواصم الممالك المشهورة في الجنوب العربي ، وليس هنالك أدنى صلة بينها وبين مملكة سبأ ، إذ إنها كانت تقع في مكان غير خصب وليس فيه ما يقيم الأود بالنسبة لسكان كثيرين .ولم يكن ذلك هو الحال بالنسبة لكل من تمنع أو مارب . كانت ميزة شبوة فقط أنها في طريق القوافل ، وبها بعض مناجم يستخرج منها الملح ، وذلك الموقع يشير أيضاً إلى أنها في مكان استراتيجي بالنسبة للقوافل التي تجلب البضائع من ميناء قنا ، والقوافل التى تسلك الطرق التي تسير مع وادي حضرموت من شرقه إلى غربه* .

*لم تكن شبوة اقل شأنا من عواصم الممالك الأخرى سبأ وقتبان ومعين. فقد شاع ذكرها واشتهر اسمها لدى الكتاب اليونان والرومان واطنب في وصفها المؤرخ بليني Pliny وذكر معابدها التي تربو على الستين وأنها عاصمة بلاد البخور وقد دلت النقوش والآثار على انها كانت مدينة تجارية هامة باعتبارها مركز انطلاق تجارة القوافل البرية المحملة بالبخور وبضائع الشرق الأخرى إلى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وكانت تسكن بها جاليات من سبأ ومعين وقتبان تعمل في التجارة وكانت مقر القصر الملكي الحضرمي المعروف باسم "شقر" أو "شقير" وتدل نقوش العقلة وما تصفه من مراسيم إعتلاء ملوك حضر موت للعرش وحضور =

عندما بلغنا قرية عسيلان في منطقة بيحان قابلنا الأهالي بإطلاق الرصاص في الهواء ولكنه لم يكن مثيراً بالنسبة لنا هذه المرة ، فقد أخذ منا الإعياء مأخذه ، وكانت قلوبنا معلقة بالهدف النهائي ، موقع البحث ، الذي أصبحنا على مسافة ميلين فقط منه ، تجمهر مواطنو عسيلان حولنا لا ليتفرجوا علينا حسب ، ولكن للاستمتاع بالنظر لشاحناتنا الدودج ، وقد ألح علينا بعضهم أن يركبوا معنا إلى هجر كحلان ، وعندما انطلقنا نحو مستقرنا الأخير تسلق الأعراب على أطراف السيارات ووقفوا فوق الدعامات ورفارف الأبواب وهم في غاية النشوة والحبور .

= وفود من بلاد فارس والهند وتدمر وغيرها إلى شبوة للمشاركة في تلك الاحتفالات على مدى اتساع العلاقات الخارجية لمملكة حضر موت ومكانة شبوه العاصمة المرموقة آنذاك أما ماذكره المؤلف عن جدبها وقحولتها فتنفيه الاكتشافات الأثرية بما أثبتته من نشاط زراعي كبير بالمناطق القريبة من شبوه وما تشير إليه نقوش العقلة من رحلات الصيد البري التي كان ملوك حضر موت يمارسونها ضمن برامج الاحتفالات بالتتويج على العرش والتي تقام بتلك المناسبة و تحضرها الوفود الأجنبية المشاركة .(المراجع)

الفصل الخامس

الحفريـــــــــات

في صبيحة أول يوم لنا في بيحان أطل علينا مضيفنا الشريف عوض الذي استأجرنا منزله ، وطاف بنا حول الغرف السكنية والجناح الذي سنستخدمه كمكاتب ، وكان فخوراً بالتغييرات التي أجراها على القصر منذ زيارتي الإستطلاعية في العام المنصرم . فقد طُليت جدران الأدوار العليا طلاءً جيداً ، واعجبتنا كثيراً تلك الرسومات التي كانت تزين المجلس وبهو القاعة الكبيرة التي يستقبلون فيها الضيوف ويقدمون لهم الولائم ، وقد عكست اللوحات والصور روحاً ودية تجاه الثقافة الأمريكية والبريطانية كما عكست إلمام صاحب الدار بالمعارف والأحداث الدولية التي تتخطى عالم وادي بيحان المحصور ؛ كانت إحدى الرسومات عملاً كاريكاتيرياً يبرز الرئيس ترومان والملك جورج وهما يقصفان جوزيف ستالين بالقنابل النووية .

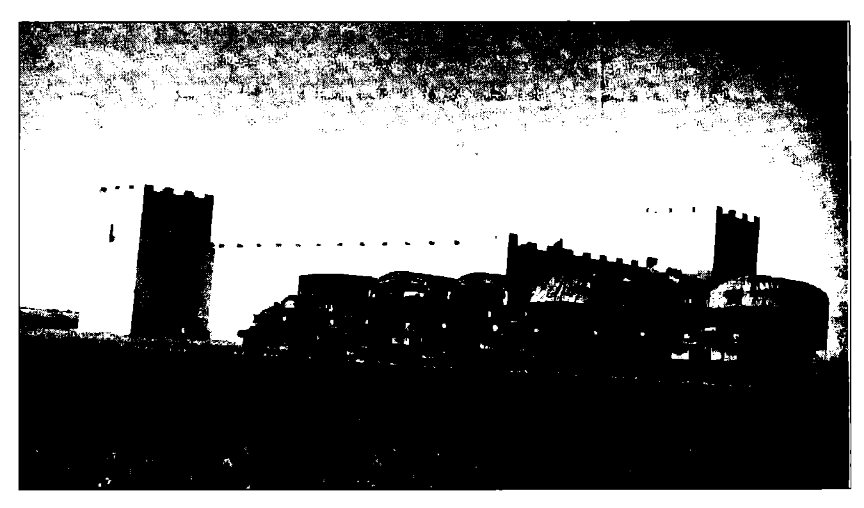
قدّم الشريف عوض لنا أقداح الشاي ، يُساعده في ذلك نفر من كرام الناس وعِلية المواطنين ، وقد استلقيت على السجاد مسترخياً ومددت يدي لكوب الشاي ، ولكن البيحاني الذي مدَّها لي مبتسماً غيَّر رأيه في آخر لحظة وسحب الكوب وهو مقطب الجبين لأنه رأى ذبابة خضراء تسبح في الشاي . عادت الابتسامة لوجه صديقي البيحاني بعد أن تمكن من إخراج الذبابة بسبَّابته التي تكدست عليها طبقات من الأوساخ ، ومدَّ لي الكوب مرة أخرى .

رغم أن برنامج الحفريات الرئيس سينتظر البروفيسور البرايت حتى يلحق بنا من سيؤن التي مكث بها مستشفياً ، فقد بدأنا نتفحص الموقع ونعدّ الخرائط المبدئية .



شبام، ناطحة السحاب، هذه البنايات شيدت من الطين اللَّبن عبر مئات السنين كقلاع ضد القبائل البدوية المهاجمة.

البعثة تعسكر ليلة في الطريق.



بئـر عسـاكر.

وكان من رأينا أن نشرع بأكثر المواقع سهولة عسى أن نُحقق كشوفات ملموسة في خلال ستة أسابيع ، قبل أن يشتد الحر ونتوغل في فصل الصيف. والمدينة التي نحن بصدد اقتلاعها من تحت الرمل تبلغ مساحتها ستين هكتاراً ، وتغطيها آلاف الأطنان من الرمال التي تحتاج ازالتها لعشر سنوات أو أكثر من العمل ، لذلك فقد قررنا أن نركز على بقعتين أو ثلاث مساحتها صغيرة، نستطيع أن نخرج منها بأكبر قدر ممكن من المعلومات الخاصة بمدينة تمنع التاريخية.

استقر رأينا على منطقة البوابة الجنوبية وبدأ شارلس إنج وكيني براون العمل فيها على الفور ؛ ومما أغرانا هو نتوءات الآثار التي ظهرت ذؤاباتها من بين الرمال والتي اكتشفت بها نقوشات قديمة من قبل ، ففي عام ١٩٣٦م مثلاً وجد ستيوارت بيرون الضابط السياسي المختص بمنطقة بيحان آنذاك نقوشاً قديمة في هذا الموقع تبدأ كالآتي (أنا ملك قتبان ، في مدينتي كحلان . . .)، وسرد أسماء المناطق التي زعم أنها تابعة له[١].

النقوش القتبانية مكتوبة بلغة تختلف قليلاً عن اللغات المسجلة آنذاك بالمناطق الأخرى في جنوب الجزيرة العربية . أقدم النقوش وأسماء أفراد الأسر الحاكمة مكتوبة بلغة هجين تتألف من اللهجات السائدة في ذلك الزمن السحيق في سبأ وقتبان ، وتشير الدلائل كذلك إلى أنه مرَّ حين من الدهر كانت سبأ تحكم فيه قتبان. واللهجة القتبانية كانت في حقيقتها أقرب إلى لغة أهل معين التي تقع إلى الشمال من قتبان واقرب كذلك إلى لغة حضرموت ، وتختلف قليلاً عن لغة السبئيين . نستنتج من ذلك أن الشعوب التي تحدثت بلغة معين وقتبان

---

(١) في عام ١٩٢٤م جمع الباحث النمساوي رودكاناكيس النقوش القتبانية وأثبت أن هجر كحلان في بيحان هو مدينة تمنع القديمة .(المراجع)

وحضرموت كانت تعيش في هذه المناطق قبل أهل سبأ الذين جاءوا غازين واقحموا مفرداتهم وأسماءهم في اللغات المحلية.

كانت الحروف الأبجدية المستخدمة في كتابة اللغة الحِمْيَرية القديمة ولغات الممالك العربية التي سادت في ذلك الزمان ، ساكنة وليس فيها حروف متحركة ، ويمكنك قراءتها بسهولة شديدة ، أكثر بكثير من اللغة العربية الحديثة ، ومازالت العربية المستخدمة بالجنوب العربى تستخدم حروفاً ساكنة وأصواتاً يعود تاريخها لآلاف السنين ، أكثر من اللهجات الأخرى ومازال الأثر الكنعاني واضحاً في اللغة العربية بجنوب الجزيرة العربية . وعلى سبيل المثال فإن حروف الهجاء العِبرية فيها أربعة وعشرون حرفاً، واللغة اليونانية أربعة وعشرون، فيها ستة حروف متحركة ، واللغة الإنجليزية فيها ستة وعشرون حرفاً منها خمسة حروف متحركة ، وعربية اليوم فيها ثمانية وعشرون حرفاً ، بينما كانت الأبجدية الحضرمية القديمة تتألف من تسعة وعشرين حرفاً ليس من بينها حرفاً متحركاً[1]*.

(١) اكتشف الحروف الأبجدية المستخدمة في الجنوب القديم عالمان المانيان كل بمفرده وذلك قبل مئة عام، وهما (ادفن دودفر) و(ولهم جسينيس) . وكان جسينيس هذا هو الذي أكمل فك طلاسم الأبجدية الفينيقية ذات الصلة القريبة بالعربية، وهو الذي أرسى القواعد العلمية لدراسة العبرية التي نزل بها الإنجيل. وأول قائمة كاملة بأسماء الأعلام المستخدمة في الجنوب العربي القديم نشرها البروفيسور ريكمانز من لوفان عام ١٩٣٤م وأول رصد لنحو لغة الجنوب كتبته د. ماريا هوفنر سنة ١٩٤٣م.

* القول بأن خط المسند العربي الجنوبي اشتق من الفينيقية لم يعد مقبولا في الوقت الحاضر إثر المعطيات الجديدة التي قدمتها الدراسات المتأخرة بناء على الاكتشافات الأثارية والنقشية التي تمت مؤخرا في اليمن ومع ذلك فالنظرية السائدة اليوم بأنتماء الفينقية والمسند العربي الجنوبي إلى اصل الفبائي سامي أم نشأ بدوره عن الخط السينائي مازالت تواجهها الكثير من الصعوبات وبالرغم من عدم توفر الأدلة القاطعة إلا أنه من غير المستبعد ان يكون خط المسند موازيا للخط السينائي في الأصل .(المراجع)

وقبل خمسين عام اكتشف عالم الآثار المصرية السير فلندرز بتري حروفاً أبجدية منسوخة في منطقة سرابت الخادم بسيناء لم تكن معروفة من قبل ، وأصبحت هذه الحروف الأبجدية مشهورة لأنها فكت طلاسم العلاقة الوثيقة بين لغات الجنوب العربي المسجلة في النقوش القديمة واللغات الكنعانية التي كانت سائده في الشمال الأقصى من الجزيرة العربية . مثلاً نجد أن حرف (ب) في أبجدية سرابت الخادم يشبه الحرف (ب) الموجود في نقوشات اللغات القديمة للجنوب العربي . ولقد أكد زميلنا البروفيسور البرايت هذه العلاقة من منطلق الدراسات التي قام بها قبل بضع سنوات عندما زار سيناء، وصعد إلى قمم جبال سرابت الخادم وزار مناجم الزمرد وقرأ النقوش المشهورة على جدرانها ، أوضح ألبرايت أن اللغة المستخدمة في تلك النقوش هي لغة كنعانية سادت عام ١٥٠٠ ق.م تقريباً وهي اللغة الأم التي تفرعت منها اللغة العبرية ، وكانت في الغالب اللغة التى تخاطب بها بنو إسرائيل عندما كانوا في مصر قبل أن يهربوا منها عبر البحر الأحمر بصحبة سيدنا موسى عليه السلام .

أخيراً وصل البروفيسور البرايت وسعدنا بحضوره بعد أن شفي من المرض تماماً، وإندفع البروفيسور بكلياته في العمل ، وتمنى لو أننا فرغنا من الشكليات والإجراءات البروتوكوليه قبل مجيئه حتى نكون قد تفرغنا لعملنا الأساسي ، ولكنه رغم ذلك ذهب معنا لزيارة الشريف حسين الحاكم الفعلي لبيحان في قصره ببيحان القصاب على مسافة سبعة عشر ميلاً إلى الجنوب من تمنع .

الشريف حسين بن أحمد هو أعلى الناس شأناً في وادي بيحان وماجاوره من مناطق ، إنه رجل طويل بهيُّ الطلعة ، يحب الرماية والطعام الجيد ومغرم بنسائه ويُفضل الملابس الزاهية الألوان ، وهو قائد ذو كاريزمية ولباقة وذكاء ، وقد أصبح

الحاكم الفعلي لشعب يتألف من نحو خمسة وعشرين ألف نسمة بقوة شخصيته وبفضل ماكان والده أحمد بن محسن يتمتع به من حكمة ومن مكانة لدى سكان المنطقة . ولقد تأكدت مكانة الشريف أحمد عندما توسط نزاعات قبيلة بلحارث في شمال بيحان مع قبيلة المَصْعَبين في الجنوب منها ، ونجح في إقناعهما بالجلوس إلى طاولة المفاوضات المبنية على الاتفاقية البريطانية مع القبائل العربية بعدن ، ونجح الشريف حسين في ذلك بعد محاولات مضنية ، فحل السلام في هذه المناطق وأحست كل الأطراف بأن ذلك أفضل من الحروب وسفك الدماء والثارات المتبادلة .

وعندما أناخ الكبر على الشريف أحمد واجه مشكلة الخلافة بعده ، فقد كان لديه ثلاثة أبناء ولكن الأجدر فيهم والأكثر مهابة أصغرهم سناً ، وهو الشريف حسين . هكذا أصدر الشريف أحمد مرسوماً قبيل وفاته عام ١٩٣٤م بأن يخلفه حفيده صالح بن حسين ، وبالفعل أصبح الحفيد حاكماً إسمياً بعد وفاة جده وأصبح الحاكم الفعلي هو أبوه الشريف حسين ذو الشخصية القوية والذكاء الحاد . وبهذه الطريقة ضمن الشريف أحمد أن يحكم الشريف حسين بيحان بعد موته دون أن يدخل إخوانه معه في نزاع وقتال . وفيما يبدو دخلت بيحان مع عهد حسين في مرحلة جديدة من السلام والاستقرار لم تشهد مثلها من قبل ، وأصبح ابنه يُلقب بالأمير وهو مازال دون العشرين .

وما إن وصلنا قصر الشريف حسين حتى أدخلونا إلى بهو إضاءته باهرة ، السجاد العربى الفاخر يُغطي الأرضية كلها ، والأرائك والطنافس على أطرافه ، وبعد أن احتسينا الشاى دُعينا إلى غرفة مجاورة لتناول الطعام بمختلف أشكاله وألوانه ، لقد كانت وليمة غيرّت رأيي في طعام الجنوب العربي الذي كنت أتهيبّه



وليام تيري المستكشف والمصور يستفسر عن الطريق حول شبوة.



بروفيسور ألبرايت عالم الآثار الرئيس بالبعثة يقيس طول جرة ماء قتبانية مهشمة.

بعض الشيء ، إذ وجدنا أنفسنا أمام شتى أنواع المشويات والمحمرات والمتبلات ، من لحم ضأن ودجاج وأرز وبيض وعسل وحساء ومرق وفاكهة . فكان لابد أن يجد كل واحد منا شيئاً يناسبه مهما اختلفت الأذواق وتعددت . بعد ذلك تحركنا إلى صالون ضخم حيث القى الشريف حسين على مسامعنا خطاباً مطولاً قام البروفيسور البرايت بترجمته ترجمة فورية . رحب فيه بمقدمنا لمدينته وأكد لنا مودته واستعداده لاستقبالنا في قصره في أي وقت نشاء ... إلخ . ورددت على الشريف بكلمة مناسبة جاءت عفو الخاطر ولم تكن معدة مسبقاً ونقلها للعربية البروفيسور البرايت ، ولعله جملها بالمحسنات البديعية.

وبعد الكلمات قدم الشريف لي ولبل تيرى خنجرين معقوفين (جنبية) عليهما نقوش مدهشة ، ويبدو أن الشريف لم يعط واحداً للبروفيسور لأنه لاحظ أنه أهم شخصية في البعثة، ومع ذلك لايبدو عليه أنه النوع الذي يحتاج، أو يستخدم سلاحاً كهذا . هذه الخناجر المحدوبة أصبحت نادرة في الآونة الأخيرة لأن صناعها الأصليين هم اليهود اليمنيون الذين هاجروا إلى فلسطين وتركوا الجنوب العربي بعد أن أقاموا فيه لعدة قرون .

وأخيراً دلفنا إلى ساحة واسعة داخل سور القصر حيث استمتعنا بالرقص الشرقي الذي أدته فتاتان من اليمن ورجعنا في لحظات إلى أيام شهرزاد وألف ليلة وليلة من خلال الناي والدف والأجسام التي تتمايس كضوء القمر المتلالئ ، وقد لبست الفتاتان حللاً زاهية الألوان وحملن أرتالاً من الحلي الفضية حول عنقيهما وأيديهما وأرجلهما ، وكانت تلك الأساور والعقود تصلّ صليلاً يتناغم مع حركة الرقص . وقف خلفنا حراس الشريف حسين بالمئات ، متمنطقين بالجنبية والبندقية، والأحزمة المعبأة بالجنجانة ، طوال الأجسام ، تبدو عليهم الصرامة

والشراسة كدنا أن ننسى أنفسنا في ذلك الجو الساحر ، حتى اقتربت مني أحدى الراقصتين وانثنت أمامى ، وكانت تنبعث من شعرها رائحة بول البعير الذي صفّفت به شعرها ، بعد ذلك خف بريق الرقص وأصابنا شيء من الضجر ، وبعد ساعتين لم يبق شيء يستحوذ على إعجابنا إلا صمود هاتين الفتاتين ومقدرتهما على الرقص المتواصل كل هذه الساعات .

كانت تجربتنا الأولى مع رقص الغجريات قبل عامين في لستراحة أبوزنيمة في سيناء عندما أقمنا احتفالاً لمناسبة اكتشافنا الموقع الذي عبر عنده سيدنا موسى عليه السلام البحر الأحمر ، حيث أبهجنا أثنان من العازفين وثلاث من الغانيات الغجريات اللائي رقصن ما يسمى بالرقص الشرقـــي ببراعة مذهلة . كانت كل واحدة منهن تتحكم في عضلات بطنها، وأردافها بصورة لايصدقها العقل ، فهي تستطيع أن ترفع بطنها إلى الجانب الأيمن الأعلى، ثم تقلبه إلى الجانب الأيسر، ثم تهبط به للمربع الأسفل الأيسر ، وتستمر هذه الحركة على شكل دوائر في اتجاه معين، ثم في الاتجاه المعاكس .وقد توجهت الراقصات نحو البروفيسور البرايت وتحلقن حوله وصرن يرقصن بجانبه ويتوددن إليه بنظراتهن لأن هنرى فيلد اخبرهن بأن البروفيسور رجل ثري ، فاحمرَّ وجه البروفيسور، وكاد يتوفي من الخجل ، وكل ماعلق به كان : (يا إلهى هذه سيطرة عجيبة على العضلات .)

أما الراقصتان اللتان جلبهما الشريف حسين فلم تكونا بمستوى راقصات سيناء. وبينما كانتا ترقصان إختلست قلاديس تيرى زيارة إلى قسم الحريم بالقصر مع الأمير ذى العشرين سنة والذي كان يتحدث شيئاً من اللغة الانجليزية، وانتظرناها بفارغ الصبر لتحكي لنا عن الحُسن والجمال المخبّأ في أجنحة النساء بالقصر ، خاصة وقد عرفنا أن الشريف حسين يعشق النساء الجميلات

ويختار زوجاته من كل أركان منطقة بيحان.

قالت قلاديس عن الحريم : (وجدت في إحدى الغرف اثنتي عشرة امرأة، ولم أتبين إن كنَّ زوجات أو كريمات صاحب الدار .).

إن الفتيات في بيحان قد يدخلن عالم الزوجية في سن مبكرة جداً ، بعضهن في سن الثانية عشرة ، وقد حدث في أيامنا ببيحان ان أحدهم جاء للشريف حسين ببنته ذات الأربعة عشر ربيعاً كهدية عيد ميلاد ، وتزوجها الشريف على الفور ، وكانت تلك زيجته العشرين . سألتُ قلاديس عن نساء الشريف ، كيف وجدتهن. قالت : « إنهن سمراوات البشرة كفاكهة الزيتون ،لهن أعجاز مكتنزة وعيون واسعة مكحولة ، وخجولات وجميلات ».

وذكرت قلاديس ان الأمر صالح قدمها لأكبر الزوجات سناً ، مثل أمه ذات الأربعين سنة ، ثم أجلسها على كومة من المساند في إحدى أركان الغرفة بين دهشة النساء، والفتيات المحتشدات ، وأخذ الجميع يتحلقون حول قلاديس ، وما كن يرتدين العباءة السوداء كسائر نساء بيحان في الشارع، بل كن في جلابيب جميلة الألوان ، وعليهن أحزمة ضخمة حول منطقة الخصر .

بعد فترة صمت طويلة خلصت إحدى الزوجات حزامها الفضي وناولته لقلاديس . إن العرب لا يعطونك هدية إلا عندما ينظرون لك نظرة مساواة من الناحية الاجتماعية ، وعندما يضعونك في المرتبة نفسها يتوقعون منك أن تبادلهم هدية بهدية ، عند ذلك خلعت قلاديس سوارها التركوازى المفضل لديها وقدمته هدية للمرأة التي أعطتها حزامها.

قضينا ليلتنا تلك في قصر الشريف حسين ، ثم غادرنا المكان في الصباح الباكر متوجهين نحو تمنع ، ولكن « بل وقلاديس » والآخرين الذين تخلفوا عنا قاموا

بتصوير الراقصتين مستعينيين بضوء النهار .

وأشار شارلس إنج ونحن في طريقنا إلى تمنع إلى تل يقع جنوب تمنع زهاء ثمانية أميال واقترح أن يبدأ بروفيسور البرايت حفرياته فيه ، وهو تل بيضوي ارتفاعه نحو سبعين قدماً ، عليه مسحة من حشائش هنا وهناك وبعض الشجيرات المحطوطبة عند سفحه ، يُسمى هجر بن حميد . قال شارلس : إن هذا التل كان موقعاً لمدينة مهمة في الماضي كما يبدو ، ولكنها أقل درجة من تمنع ، ويبدو انها كانت على مقربة من طريق البخور القديم الذي كان يتفرع منها إلى اتجاهين ، أحدهما نحو حضرموت، وظفار، والثاني نحو الموانئ القريبة من عدن.

هنالك حب غريزى عند البشر نحو الأمكنة التي نشأوا أو أقاموا فيها ، ومهما تهالك موقع معين أو تهدم فلا ينفك يجذب من تبقى من قاطنيه كالمغناطيس ، ويبنون مساكنهم الجديدة فوق الأطلال القديمة ، وهكذا تُبنى مدينة فوق مدينة إلى أن يتصاعد في النهاية تل الركام يغوص في باطن الأرض إلى أعماق سحيقة ، ونتيجة لذلك يسهل الأمر بالنسبة لعلماء الآثار والحفريات الذين يغرسون معاولهم حول هذه الأطلال ويبعدون عنها طبقات الرمال التي غطتها عبر آلاف السنين فيكشفون النقاب عن الحضارات البائدة التي جاءت الواحدة إثر الأخرى.

وجدنا أن عوامل التعرية أبادت جزءاً من هجر بن حميد ، ولكن عندما غصنا إلى أعماق التل وجدنا طبقات مترادفة لاثنتي عشرة مدينة تقريباً بنيت إحداها فوق الأخرى ، وتفتحت شهية بروفيسور البرايت للبقاء والاستقصاء في هذا الموقع.

قلت له : (كأنا نطل من شباك التاريخ ، ولكن حتى نقرأ القصة كلها من الداخل فذلك يحتاج لعمل كثير ومجهود مضنٍ ، أليس كذلك يابروفيسور؟)

هز البروفيسور رأسه مؤيداً كلامي، ولمحت بريقاً مبشراً في عينيه.

سألته: (إلى أي فترة تاريخية تقودنا هذه الطبقات عندما نصل إلى قاعها؟)

قال: (بالتأكيد ستقودنا إلى عهد سبأ وذروته التي كانت في القرن العاشر قبل الميلاد؛ وربما تذهب بنا إلى عصر سيدنا إبراهيم عليه السلام، وربما إلى أبعد من ذلك في أعماق التاريخ)

وقع اختيارنا على هجر بن حميد لكي يصبح موقع الحفريات الثاني، وهو حفر قطاعي معين يساعدنا على إلقاء الضوء على التسلسل الزمني للحضارة القتبانية القديمة؛ الموقع الأول كان بوابة تمنع الجنوبية، والثاني بقرب الحائط الشمالي للمدينة، وفي هذا الموقع كان قد عثر بدوي على حجر منقوش عليه بعض الكتابة وصورة بعير وهي عبارة عن تعاويذ موجهة لإله سبأ، ويبدو أنها كتبت في القرن الأول قبل الميلاد.

لقد حددنا مواقع الحفر، والخطوة التالية هي إيجاد الأيدي العاملة التي سنستخدمها في هذا المشروع.

الفصل السادس
جبالٌ وسُحُب من الرّمل

إنك تحتاج لعدد ضخم من الرجال إذا أردت أن تزيل الرمال التي تتراكم منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة ، ولكن الشريف عوض طمأننا إلى أن العمالة متوافرة بوادي بيحان .

وما إن أرسلنا في طلب العمال حتى جاءنا أكثر من مائة شخص، ولكن يبدو أن شخصاً ما أشاع في المدينة أن العمل مع الأمريكان لايتطلب عضلاً ولاعقلاً ، إذ وجدنا انفسنا أمام أعداد هائلة من الكُسَّح والمعاقين والمتخلفين عقلياً والأيفاع؛ حقيقة لو كانت هنالك مستشفيات في بيحان لقلنا إنها أُفرغت من المرضى لتلبية طلبنا .

ولكن عندما رفضنا الغالبية من المتقدمين جاءنا أعراب آخرون مناسبون، من حيث أشكالهم وقابليتهم للعمل. إن البدوي الذي يقطن الصحراء والأودية المنتشرة في تلك المناطق هو شخص حاد الذكاء، وقوي المراس ونحيف البنية في غير ضعف وحاذق وجاهز دائماً وسريع البديهة. وبعد قليل تجمّعت لدينا قوة عاملة تقدر بثلاثمائة رجل وشاب ، وانكبوا معنا على العمل بهمة ونشاط وشغف بما يدور حولهم ، ونشأت بينهم روح طيبة من التنافس والحماس لدرجة أن أحدهم قد يحمل حجراً ضخماً بمفرده ليبز الآخرين مما يجعلنا نتدخل أحياناً ونأمر آخرين من أقرانه أن يساعدوه في حمل الحجر ، وما كان العمل سهلاً بل كان مضنياً وشاقاً تحت لهيب الشمس وفي ظروف قاهرة .

أكبر جزء من العمل كان إزالة الرمال ، وبدأ العمال بالطريقة المتبعة في عدن

وهي جرف الرمل على أكياس ضخمة وحملها بعيداً ، ورأينا أنها وسيلة عقيمة وبطيئة فآثرنا استخدام السلال المصنوعة من السعف، التي طلبناها من قرية عسيلان المجاورة. وما إن بدأنا في الاستعانة بتلك السلال حتى شعرنا بالفرق وأصبح العمل أسرع وأسهل ، ولكن ثمة خلاف بسيط نشأ بيننا حول كيفية حمل السلة ، على الرأس أم الجنب ، أنا وشارلس إنج رأينا أن الرأس أفضل ولكن بروفيسور ألبرايت كان يرى أن الرمل يتساقط على الرأس وعلى الأرض ، وقد وافق العمال أنفسهم على رأي البروفيسور إذ إن طريقتهم المعتاده لحمل الأثقال من هذا النوع هي وضعها على الجنب فوق عظمة الحوض. ولكن حدث ذات مرة في غياب البروفيسور ، أن أقنعت أحدهم بحمل السلة على رأسه فوافق وتبعه الآخرون وأعجبتهم الفكرة ، ولما عاد البروفيسور وجد صف العمال من موقع الحفر إلى مصب الرمل وهم يحملون السلال على رؤوسهم ، ولم يعلق على ذلك واستمر الأمر على هذا المنوال.

إن عملية الحفر ثم التخلص من الرمل عملية صعبة كذلك ، لأنك عندما تحضر بحثاً عن الآثار القيمة وكنوزها المطمورة تحت الرمال لايجوز أن تترك للعمال الحبل على الغارب، بل يجب أن يكون الحفر تحت إشراف العالم الأثري الذي يعرف أين المكان ، وما هو عمقه ، وما هو نوع الآثار المحتملة في ذلك الموقع ، وفوق هذا وذاك فهو يعرف متى بالضبط يتوقف الجرف بالأدوات الحادة كالمجرفة. كنا في الحقيقة نأمل في جلب حمالين من صعيد مصر لأنهم تدربوا على هذا العمل منذ عدة أجيال ، منذ عهد السير فلندرز بتري رائد الكشوفات الأثرية المصرية ، ولكننا لم نجد وقتاً لذلك ، ها نحن على كل حال نستعين بسكان بيحان الذين تعلم بعضهم بسرعة فائقة وأخذنا نعيّنهم كمراقبين على زملائهم.

أهم واجب أنيط بهؤلاء المشرفين هو أن يتوقف الجرف بمجرد الإحساس بوجود مادة أو جسم أثري ، حتى يتسنى استخدام أدوات أكثر نعومة بعد ذلك كالفرشاة عندما تظهر أول الدلالات على خزف أو آنية أو أشياء ذات قيمة، وقد يبدو الشيء بلا قيمة لكثير من العرب : ماذا تعني نتفة من قدح أو كوب ؟ ولكن مثل تلك القطعة تمنح البروفيسور إلهاماً كبيراً ، يستطيع أن يعرف بموجبها التواريخ. قد يبدو التخلص من الرمل سهلاً منذ الوهلة الأولى ، ولكن في حقيقة الأمر كثيراً ما نختار مكاناً نلقي فيه الرمال والركام الناتج عن عملية الحفر ، ثم نعثر في مكان الحفر على دليل يشير إلى أن المكان الذي اخترناه للتخلص من الرمال إنما هو من الأهمية بمكان وهو موقع أثري يستحق أن نقف لديه ونبدأ الحفر فيه. وإذا أردنا أن نرسل الرمال إلى نقطة بعيدة جداً من التخوم الأثرية فإن ذلك هدر للوقت ، ولكنا آثرنا ذلك الحل واستخدمنا السيارات في نقل الرمال بعيداً عن المنطقة الأثرية. وكنا قبل ذلك قد حاولنا أن نلقي الرمال، من أعلى تل هجر بن حميد باتجاه القاع حيث يوجد مجرى جاف، لاتبدو عليه آثار ، ولكن العمال رفضوا ذلك وقالوا إن هذا المجرى يمتلئ في الخريف حتى حوافه بماء سلسل عذب ونظيف ، ويجب ألا نسده بالرمال والصخور والأتربة التي تفرزها حفرياتنا.

ولكن إذا كنت تجلس على قمة تل وأردت أن تتخلص من تلك الرمال والصخور ، ماذا تفعل سوى أن تهيلها نحو سفح التل مارة بجنباته ؟ وكلما غصنا في أعمال الحفرية اضطر عمالنا للتسلق حتى السطح ليلقوا بالرمال من فوق التل. لقد بحثنا في كل البدائل واستقر بنا الحال أخيراً على الاستمرار في إهالة الرمال والحجارة من أعلى التل ، ثم نأتي آخر اليوم ، ومرة أخرى نتخلص من الرمال التي تساقطت على مجرى الجدول بإبعادها إلى مكان آخر ، وقد اكتشفنا

أهمية هذا التصرف عندما هطلت الأمطار في وقتها وامتلأ الجدول بالماء.

في أول يوم خميس لنا بالموقع اصطف العمال لصرف رواتبهم، بينما استمر العمل في الحفر ونقل الرمال إلى الخارج بجزء آخر منهم ، وقد إضطلع بتلك المهمة بروفيسور الاسكندر هنيمان من جامعة سنت أندروز باسكتلندا . كنا نعطي العامل ثلثي ريال ماريا تريزا في اليوم بالنسبة للرجال ونصف ريال للصبيان ، وكانت دخولاً جيدة في ذلك الجزء من العالم . بالإضافة إلى ذلك كنا ندفع الإكرامية لكل من يعثر على شيء ثمين كالنقوش وقطع الخزف والآنية أو أي شيء مهم للباحثين ، وقد فعلت الإكرامية فعل السحر بالعمال وجعلتهم يقظين ومتحفزين كالنسور، وهم يبحثون في الركام عن الآثار .وقد زادت حسابات الإكرامية من مسئولية بروفيسور هنيمان ، وكان البحث عن « الخردة » والعملات الصغيرة أمراً عسيراً . كنا نستخدم « البكشة » بسبعة احجام مختلفة : نصف بكشة ، بكشة . بكشتان ، بكشتان ونصف ، أربع بكشات ، خمس بكشات ، عشر بكشات .إن ريال ماريا تريزا يساوي أربعين بكشة وذلك يعني نصف دولار أمريكي.

في ذلك الخميس قارب اليوم نهايته ، وغابت الشمس ، وكان بعض العاملين يساعدون هنيمان بينما وقفت أطمئن على سير العمل وهو يقترب من نهايته لذلك اليوم. كاد البروفيسور الصراف يفرغ من مهمته وانصرف العمال في مجموعات صغيرة يتنافسون ، لاحظت أن إحدى حلقاتهم بها نقاش مضطرب ويدعو للشك . اقتربت من تلك المجموعة بهدوء ، ولاحظت أن كثيراً من الرجال والأولاد غاضبون ساخطون وقد بدت عليهم ثورة مكتومة من شيء ما في ذلك المكان. أرسلت أحد عيوني ، وهنالك دائما نبع لاينضب من الجواسيس في

الجزيرة العربية ، وجاءني بالخبر اليقين . هناك شيخ كبير في السن استطاع أن يخلق لنفسه وضعية تسلطية على العمال واستطاع أن يحصل بالابتزاز على بكشة واحدة من كل صبي وشاب وبعض الرجال بمجرد صرفهم لاستحقاقاتهم. لم أكن طلقاً في العربية ولم استطع أن أتفهم الأسباب التي دعته لأخذ تلك المبالغ، ولكنني قررت إيقاف ذلك الأمر فوراً .

ذهبت نحو الشيخ متخفياً بعض الشيء بخلع قميصي والاختفاء وسط العمال المحيطين به وكنت أعبث بالبكشات (العملة المحلية) التي في جيبي حتى يسمع صوتها ، ولما اقتربت منه وسمع رنين العملات التي كنت أحملها بين أصابعي مدَّ يده بسرعة وبصورة غريزية وحاول أن ينتزع بكشة من يدي ، ولكنه فوجئ بقبضتي القوية وعادت يده خالية ونظر نحوي بدهشة ، ثم انقلبت إلى فزع شديد لما عرفني ، وأطلق ساقيه للريح ولم يعد مرة أخرى لذلك المكان أو لتلك العادة ، وكان الأولاد ينظرون نحوي بكثير من الإعجاب والامتنان لأنني أنقذتهم من هذا الرجل ، ولكنني لم استطع أن أعرف حقيقة ذلك الرجل وما الذي يجعلهم يدفعون له تلك الضريبة أو الجزية أو الإتاوة القسرية .

ومرّ علينا شيخ مسن آخر من نوع يختلف عن جابي الإتاوات ، بدأ يعمل في فريق بروفيسور ألبرايت بهجر بن حميد ، ومضت ثلاثة أيام قبل أن نكتشف أنه أعمى مائة بالمائة ، ولكنه في حقيقة الأمر مجد ومخلص في عمله ، فقررنا الاستفادة منه ، فاعطاه البروفيسور فرشاة بعصا لينظف الحيطان الحجرية للمباني الأثرية التي تبرز لنا من بين الركام ، وعليه أن يفعل ذلك بكل رفق حتى لا يصيب الآثار أي ضرر أو تلف ، وقد برع الشيخ في هذه المهمة ، ولكنه ذات يوم أوشك أن يودي بحياتنا عندما أزال كل الرمال من قاع إحدى الحيطان المائلة التي كنا

نجلس تحت ظلها ، ولولا العناية الإلهية لانهار المبنى كله فوق رؤوسنا.

كان هجر بن حميد مليئاً بالمفاجآت بالنسبة للبروفيسور ألبرايت وزملائه مثل د. ألبرت جام من جامعة لوفان العالم البلجيكي الذي توقع أن يعثر تحت الكومة على بعض الخزف والأواني ، فإذا به منذ أول عملية حفر يكتشف حيطان منازل وربما معبداً ، وبقدرما كان هذا الكشف مثيراً فلقد خفنا من جانبه السلبي إذ ربما يعطّلنا ذلك عن هدفنا الأساسي وهو الحفر القطاعي من القمة للقاعدة الذي أردنا أن ننجزه في موسم واحد. كانت الطبقة العليا التي تكشفت لنا عبارة عن فترة العصور الوسطى ، بين عام ١٠٠٠ و١٤٠٠م ، وليست الفترة الحميرية كما توقعنا. لقد أزدهرت الحضارة الحميرية في القرن الأول الميلادي وارثة للممالك القديمة في الجنوب العربي مثل قتبان وسبأ ومعين.

الهدف الرئيسي لعمل بروفسور ألبرايت في هجر بن حميد هو إيجاد الأدلة العلمية للتسلسل التاريخي للحضارات الجنوبية العربية القديمة مثل قتبان وأخواتها . ولو عثرنا على منازل قديمة ومعابد ورسومات ونقوش لهو أمر جيد. ولكننا لانرغب في إخراج مدينة تاريخية كاملة للعراء ، فقط جانب واحد ضمن فتحة واحدة من فوق إلى تحت ، كأنك تحفر بئراً وتأخذ عينات من طبقاتها المختلفة، وهذه الفتحة مساحتها ستون قدماً مربعاً ، تؤخذ منها القطع الأثرية من خزف وغيرها وتنقل لمكاتبنا .عند ذاك يقوم الدكتور ريتشارد بوين المهندس وعالم الآثار من جزيرة رود برسم خريطة لكل قطاع أجرينا فيه تنقيباً أثرياً ، ويقوم أوكي رومين بتصويره من الزوايا كلها. بعد ذلك نطلب من البروفيسور أن يذهب للمعسكر ويخلد للراحة حتى يستمر العمال في حفرهم وإزالة الرمال.

إن العمل في التنقيب مع البروفيسور ألبرايت ليس بالأمر الهيّن ، فهو دائماً

يصحو نشيطاً في الخامسة صباحاً وبعد دقائق معدودات يوقظ كل النيام في المعسكر ، وبما أنه من النوع التقليدي فهو ضد الأشياء الاستهلاكية التي لاداعي لها إذا كان الإنسان لايحتاج لها تماماً ، وهو لايحب الإسراف والبذخ.

تتم عملية الحفر تحت إشراف شارلي ماكولم وجورج فارير حيث يزيل العمال الحجارة من الحيطان التي برزت للسطح ، أي الحجارة التي تسد المنافذ والمداخل ، ثم يزيلون الرمال والركام حتى يصلوا المستوى المطلوب في اليوم المُعَين. بعد ذلك يأتي دور البروفيسور ليدرس المكان الذي تم تنظيفه وإعداده لفريق علماء الآثار.

المراحل نفسها التي يمر بها عالم الآثار يمر بها كذلك عالم المتحجّرات في دراسته لبقايا الحيوانات والطيور المتحجّره منذ آلاف السنين ، فهو أولاً يحاول أن يثبت التسلسل التاريخي المفترض في موقع معين ، ويقوم ثانياً بمقارنة استنتاجاته من ذلك الموقع مع أماكن أخرى في مناطق مختلفة ومتباعدة . فإذا وجد بقايا حصان متحجر من نوع (اليوهيبوس) تابع للمرحلة التاريخية المسماة (يوسين)، في أمريكا ، ثم إذا وجد حصاناً كهذا في مكان آخر بأفريقيا يستنتج أن الصخور في المنطقتين تنتميان للعصر الجيولوجي نفسه ، وذلك لأنه عرف من علوم أخرى أن هذا النوع من الخيول عاش في فترة واحدة فقط من تطور الأرض الجيولوجي ، وهي الخيول ذات الأظلاف الأربعة بكل حافر ، وجاءت بعدها ذات الأظلاف الثلاثة ، ثم الخيول ذات الظلف الواحد في كل أرجاء العالم ، كما عرف أن الحصان بأربعة أظلاف لم توجد بقاياه في العصور الجيولوجية الأخرى ، وهكذا فإن عالم آثار الحيوانات المتحجرة يدرس تطور فصيلة الخيل عبر تطورها قبل ستين مليون سنة أي أنها تفقد ظلفاً كل عشرة ملايين سنة تقريباً حتى أصبحت حوافرها ذات ظلف واحد ، واستطالت أرجلها وأسنانها حتى أخذت شكلها

الحالي أمّا بالنسبة لهذا العالم فإن متحجرات الخيول التي يعثر عليها ، أو البقايا المتحجرّه لأي حيوان آخر ، هي مؤشر للعصر ويستطيع بموجبها أن يؤرخ للمنطقة التي عثر فيها على تلك البقايا ، وهذا ما نسميه « بمؤشر المتحجرات » .

أما عالم الآثار فهو يمتلك « مؤشر الخزف » ، بيد أنه يستخدم أساليب أخرى عديدة لتحديد التواريخ الصحيحة ، مثل دراسة النقوش والحروف الأبجدية والمواد الأثرية الأخرى وكيفية نحت واستخدام الأدوات الحجرية وغيرها ، بالإضافة التي الطريقة العلمية الحديثة وهي فحص الإشعاع الكربونى لبقايا الفحم والرماد الذي يعطي مؤشراً واضحاً للتاريخ الذي ينتمي إليه ذلك الفحم أو الرماد .

يبقى « مؤشر الخزف » آلية مهمة لتحديد التسلسل التاريخي ، وكان من أهم الكشوفات الأثرية التي أنجزها ونجح فيها البروفيسور ألبرايت معرفة المراحل التاريخية المختلفة لفلسطين من خلال خزفها الذي يمثل فترات وأماكن متباينة . وهو الآن يريد أن يتوصل لمعرفة المراحل المتسلسلة لتاريخ الجنوب العربي من خلال ما يعثر عليه من خزف الذي سيصبح مرجعاً لمن سيأتي من بعده من باحثين ومؤرخين .

إن عملية استكشاف التواريخ من قطع الخزف، والتي تتم في غالب الأحيان بدرجة عالية من المصداقية، هي عملية دقيقة وعلمية، وتتطلب إلماماً بمعارف مختلفة، ومهارة عالية وخبرة غزيرة . دعونا نضرب مثلاً على الكيفية التي يتم بها هذا النوع من الدراسات ، لقد ثبت لنا أن صنع الأواني الفخارية بمساعدة عجلة دوارة لا باليد المجردة فقط، عرف أولاً في فلسطين وسوريا في القرن التاسع قبل الميلاد، واستمرت هذه الوسيلة حتى القرن السادس الميلادي ، وكان الجنوب العربي على صلة وثيقة بفلسطين خلال تلك الفترات القديمة ، ولكن انتقال تقنية

صناعة الفخار بالعجلة أخذت بعض الوقت حتى انتقلت التي الجنوب . لذلك عندما تم العثور على خزف من النوع المصنوع بالعجلة وبالأشكال المتعارفة نفسها في أرض الشام في آثار الجنوب العربي ، أصبح من الممكن تخمين تاريخ المنطقة التي عثر فيها على تلك القطع الخزفية بعد إضافة الفترة الزمنية البسيطة التي أخذتها تلك التقنية لتنتقل من الشمال إلى الجنوب ، وبالطبع فإن هنالك وسائل علمية أخرى تستخدم لتدعيم ذلك التخمين.

بعد الطبقة الأولى في هجر بن حميد دلفنا إلى الغور الثاني حيث وجد البروفيسور ضالّته من خزف أشبع كثيراً من تطلّعه، وتمكّن أيضاً من اكتشاف حائط ينتمي إلى العهد الحِمْيَري. كان من أجمل ما وجدنا حتى ذلك الوقت؛ برأي البروفيسور - أن الحائط ربما كان جزءاً من معبد بحكم ارتفاعه الذي يبلغ تسع أقدام، فبدأتُ العمل بنفسي لمعرفة المزيد عن ذلك الحائط.

بينما كنت أشرف على الحفر بقمة هجر بن حميد هبّت عاصفة رملية لم أشهد مثلها في حياتي رغم تجاربي العديدة والعريضة في أنواع المناخات كافة. بدأت المسألة بنسيم هادئ ، ثم زادت سرعة الرياح جالبة معها حبات الرمل لترتطم بوجوهنا وأيدينا، ثم اكفهر الجو وتلبدت السماء بغيوم داكنة اللون حجبت ضوء الشمس ولفنا دخان كثيف من الغبار والرمل الذي كانت حباته تتطاير بسرعة الطائرة النفاثة.

هنالك شيء واحد تستطيع عمله في العاصفة الرملية وهو أن تختبئ في مكان آمن وتغطي جسمك من لسع الرمال، وإذا تركت فتحة للتنفس فإن الغبار سيتسلل منها. كنت أرتدي عمامة سوداء فوق رأسي فأرخيتها على وجهي مثل النقاب، واحتمينا بأحد الحيطان وشاهدنا الرمال وهي تغطي الأماكن التي كنا قد

نظفناها فعرفنا كيف تقوم الرمال بدفن مدن كاملة في وقت وجيز إذا كانت في قلب الصحراء، ورأيناها كيف تسد الفجوات وتعبئ الفراغات وتنتقل كأنها سائل أو كأنها طوفان مائي لا يبقي ولا يذر.

هبت تلك العاصفة لمدة أربع ساعات ولكنها بدت لنا كأنها أربع وعشرون ساعة، وبعد أن توقفت بدأنا عملنا مرة أخرى. قبيل المغرب ظهر لنا ما خبّأته الأقدار كمكافأة على صبرنا وصمودنا وتحدينا لتلك الظروف المناخية القاهرة، فقد عثر أحد الأعراب العاملين في فريقنا على مائدة قربان من المرمر الأبيض مزخرفة في جانب منها بصف من رؤوس الوعل، وكان لهذا الحيوان مكانة خاصة لدى سكان الجزيرة العربية القدماء وكانت صوره دائماً تزين الأواني التي يقدمون عليها القرابين لآلهتهم ؛ وكذلك وجد نفس العامل أساور ثقيلة الوزن من النحاس.

مع نهاية الأسبوع كنا قد فرغنا من تنظيف جنبات المبنى الذي ظن البروفيسور أنه معبد، ووجدناه مقسماً إلى غرفتين، ثم كشفنا النقاب عن الأرضية فظهر لنا بلاط من الجبس برتقالي اللون مساحته عدة أقدام مربعة يشبه حوض الحمام. هل وجدنا مكاناً يستخدم للاستحمام؟ على كل حال دلت الأدلة التي عثرنا عليها بعد ذلك أن تلك الغرفتين لهما علاقة بالطقوس الدينية . وبينما نحن ننظف ونبحث داخل الغرفتين صاح أحد العمال قائلاً إنه عثر على كنز؛ وأزلنا الرمال عن تلك البقعة فوجدنا حجراً جميلاً منقوشاً بعبارات موجهة إلى إله القمر.

كان القمر هو الإله الأساسي لدى عرب جنوب الجزيرة، وهو أمر طبيعي لما للقمر من سحر في تلك المناطق الصحراوية وما تمثله من مفارقة محبوبة بعد حر الشمس القائظ طوال النهار حين يأتي المساء بنسائمه العليلة والقمر يتلألأ في كبد السماء . وبعكس الديانات القديمة التي سمعنا عنها فإن إله القمر لدى

العرب كان ذكراً. بينما إله الشمس أنثى، وهي زوج القمر. والإله الثالث من حيث الأهمية هو ابن القمر والشمس وهو نجم الفجر الذكر، الكوكب الذي نعرفه باسم الزهرة.

كان هناك أعداد هائلة من الآلهة الأقل شأناً، وبالإضافة لذلك كان لكل أسرة إلاهها الخاص الذي يعبدونه داخل منزلهم لا في المعابد. ذلك تقريبا كل ما عرفناه حتى ذلك الوقت عن المعتقدات الدينية والاحتفالات والطقوس المرتبطة بها في قتبان وغيرها من ممالك الجنوب الغربي. وكان من أهم أهداف بعثتنا جلاء هذه الحقائق وتسليط الضوء على ديانات الأقوام السابقة لأن ذلك يفتح الطريق لمعرفة الشخصية العربية القديمة؛ وفي هذا الاتجاه فإن مائدة القربان التي وجدناها لم تكشف لنا أسراراً أو تضيف معلومة، ولكنها فتحت شهيتنا فقط أننا في الدرب الصحيح وأننا لابد أن نجد أنفسنا ذات يوم وجهاً لوجه مع معبد حقيقي لأهل قتبان القديمة، نستطيع بما نجد فيه من أدلة وبراهين أن نتصور كيف كانوا يتعبدون وماهي رؤاهم الدينية وفلسفتهم واشواقهم الروحانية.



الفصل السابع
وَهَن العظـــــام

ليس كل مـا يعنينا في بعـثـة الاسـتكـشـاف هو الآثـار، ولكنّا حـرصنا عـلى اهتمامات أخرى كذلك، مثل إدخال بعض معطيات الحضارة الغربية إلى هذا العالم الذي ينتمي التي القرون الوسطى. البنزين مادة ضرورية لبعثة تعتمد على السيارات والآليات كهذه، وليست هنالك محطات وقود في هذه البلاد التي تعتمد على الجمال والخيل في ترحالها. جاءتنا شحنات البنزين من عدن بطائرات الداكوتا التابعة للخطوط العدنية، حاملة ذلك الوقود في خزاناتها لأن الطائرات من هذا النوع لا تستطيع حملة باي طريقة أخرى ، كما حملت لنا تلك الطائرات البريد والأشخاص.

وبعد بضعة أسابيع من بداية العمل وصلني خطاب غير متوقع من القاهرة ، جاء فيه :-

(بعد التحية - إنني بريطاني الجنسية . أود أن أعرفك بأنني أمتلك بعض الكتب العربية عن الأماكن الأثرية بعدن، وإنني على استعداد لمدك بهذه الكتب شريطة ان تدفع مبلغ خمسين الف دولار كتأمين. وإذا ضللتك هذه الكتب أو سببت فشلاً لبعثتك فإنني سأرد لك التأمين وإذا نجحت مهمتك فإن ذلك المبلغ يصبح من نصيبي . وأرجو كذلك ان توضح لي برقيا ما القطع الأثرية التى حصلت عليها وهل الأمور تسير على مايرام أم غير ذلك وإذا وافقت على هذه الشروط يمكننا ان نبرم العقد عن طريق القنصلية البريطانية في بورسعيد . مع قبول فائق احترامي وتقديري.)



الشريف حسين بن أحمد — حاكم بيحان .



الراقصتان الزائرتان لبيحان من اليمن – شعرهما الطويل الفاحم

ينقع في بول البعير لكي يتجعد ويلمع.

لقد اعجبت بالهدف السامي الذي وضعه هذا الشخص لنفسه، وهو ذلك المبلغ الضخم من المال، فهو لا يتحدث عن المبالغ التافهة الصغيرة، ويبدو انه يظن ان الامريكان كذلك لا يتعاملون إلا بالمبالغ الكبيرة . على كل حال، لم تسمح لي الظروف ان استفيد من تلك الفرصة ، وانتهى أمر الكتب إلى غير رجعة.

غادرنا النقيب مبارك وفريق الحراس العرب بأول طائرة داكوتا وصلتنا من عدن، بعد ان أوصلونا بسلام وأمان وسلمونا لأشراف بيحان دون ان يضطروا لإطلاق طلقة واحدة، اللهم إلا للتحية والبروتوكولات. كما غادرنا أيضاً بل ومعه قلاديس تيري للحاق ببعثة جبل سيناء ، تخصصهم الأساسي، وقد كانا معنا لمهمة عارضة ومؤقتة.

وقد جاءنا في إحدى الطائرات دكتور لويس كراوز من جامعة ميريلاند في زيارة تستغرق ثلاثة أسابيع، وبالطبع فإن دكتور ماكنش فرح بمقدمه فرحاً شديداً لأنه كان يحتاج ليد تساعده في تقديم الخدمات الطبية الممكنة لأعضاء البعثة ولأهل بيحان عامة الذين أكثروا من زيارة الطبيب بسبب وبلا سبب. انضم دكتور كراوز لزميله الشاب في الغرفة الكئيبة المهترئة في طرف منزلنا التي أحالها دكتور ماكنش إلى عيادة ميدانية وكتب على بابها: (مستشفي جامعة ميريلاند، الجناح العربي) بعد ان كانت جزءاً من مخازن قديمة بركن المنزل.

عندما أحس البدو البيحانيون بوجود طبيب آخر بالعيادة كثرت الأمراض والشكوى بينهم، وكان يزور العيادة كل أسبوع مئتان منهم يقولون بأنهم يعانون من أمراض عديدة. ورغم ان الكثيرين منهم كانوا متصنّعين أو ممن يحسب ان المرض نوع من الموضة، إلا ان سبعين في المئة منهم كانت حالاتهم جادة في رأي الطبيبين؛ وقد أنقذ الطبيبان عدة أشخاص من براثن الموت وخففوا الآلام وعالجوا

الأسقام وجعلوا من المرضى يحتفظون بعيونهم وأطرافهم التي ربما كانت تبتر لولا الإسعافات والعلاجات التي قام بها الطبيبان. كل هذه المجهودات أسهمت كذلك في بث دعاية طيبة عن بعثتنا وعن أمريكا نفسها، وتلك محمدة لا تقدر بثمن، ولقد تناهت أخبار عيادتنا وأطبائها إلى أماكن عديدة بالجنوب العربي.

أما النساء العربيات اللائي زرن مستشفى ميريلاند فقد كن خجولات للغاية ولم يفصحن عن شكواهن، ولكن الدكتور كراوز والدكتور ماكنش عرفا كيف يتعاملان مع النّسْوة بصبر وطول بال واستطاعا أن يستخرجا منهن الكلام، فانهارت جسور الخجل والتهيّب وأخذن يثرثرن بلا توقف ويشتكين من أمراض ومشكلات بلا حصر، وإذا لم يناولهن الطبيب كمية ضخمة من الأدوية فهن يشتكين مرَّ الشكوى ويثرثرن لفترة طويلة جداً ويهدرن وقت الدكتور. كان عامة المواطنين يشتكون من الأعراض نفسها، مثل الصداع الذى عالجه الطبيبان بحبوب الأسبيرين؛ وقد اشتكى أحدهم من «وهن العظام» مما حيّر الطبيب كثيراً ولم يعرف تماما كيف يتألّم الإنسان من ضعف عظامه، ولكن دكتور ماكنش عالج تلك الظاهره باعتبارها نقصاً في الفيتامينات، فأعطى المريض حبوبا حمراء جميلة الشكل؛ عندئذ أصاب الناس كلهم «وهن العظام» وجاء معظم سكان وادي بيحان يشتكون من ذلك الداء المبهم واستمر الطلب على حبوب الفيتامينات الحمراء لعدة أسابيع حتى نضبت.

وفي مرة أخرى اكتشف دكتور ماكنش أن إحدى النسوة تعاني من المرض الجنسي «الزهري»، وعالجها بعدد من الحقن؛ بعد ذلك جاءه العديد من النسوة يشتكين من «الزهري» بكل جرأة حتى يعالجن بالإبر، ويبدو أنهن ما كن يشتكين من ذلك المرض اللعين ولا يدرين ماذا يعني وكيف يصيب الإنسان. وبالطبع فإن

وخز الإبرة مؤلم بعض الشيء ، ولكن ذلك الألم نفسه جعل ذلك النوع من العلاج أكثر شعبية، باعتبار أن الدواء الذي يؤلم هو الذي يعالج تماماً ويزيل المرض إزالة كاملة، وفي ذلك يلتقي العرب البدو مع أناس كثيرين في جميع ارجاء العالم، فهي ظاهرة عالمية.

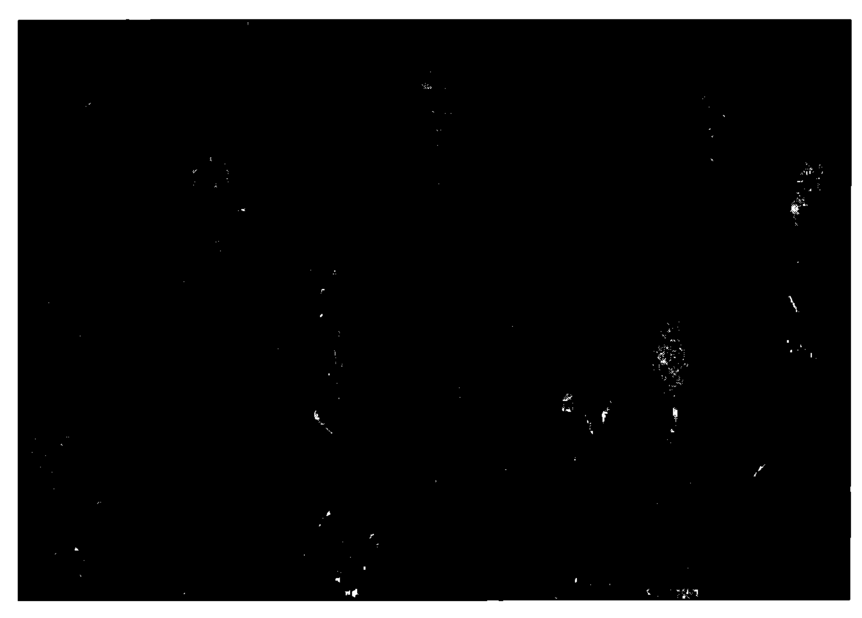
ومن التجارب المدهشة أن كثيراً من نساء ورجال بيحان كانوا يظنّون فعلاً أنّهم مصابون بداء الزّهري ، بينما لم يعثر أطباؤنا في كل ذلك الموسم إلا على حالتين أو ثلاث. ومن أغرب ما حدث أن أحد الرجال ادعى الإصابة بالزّهري وقال إنه لن ينجو منه على كل حال لأنه مارس الجنس مع كل النساء بقريته؛ قال ذلك بأعلى صوته ودعّم قوله بالإشارات المناسبة بأصابعه وأماكن أخرى من جسمه.

أما الأمراض المتفشية فهي أمراض العيون والأمراض الجلدية؛ فأمراض العيون كانت غالبيتها الرمد والتراخوما والماء الأبيض والأسود واللحمية ؛ كانت تمر علينا خمس أو ست حالات ماء في العيون في اليوم . أما الأمراض الجلدية فكانت طفيفة، ولكنا شهدنا حالة جذام، وقد ذكر الدكتور كراوز أن جذام اليوم يختلف عن ذلك الذي جاء وصفه في الكتب السماوية كالإنجيل، والدكتور حجة في تاريخ الطب وفي أنواع الطب والأمراض المذكورة في الكتاب المقدس. كثيراً ما يقول الإنجيل مثلاً: (رجل مجذوم أبيض كالجليد) ، ولكن المجذومين في هذا العصر لا يصبحون بيضاً بسبب مرض الجذام، وفي أغلب الظن أن الجذام الذي يتحدث عنه الإنجيل يشمل كل الأمراض الجلدية مثل البرص الذى هو فعلاً يُحيل البشرة إلى سطح أبيض.

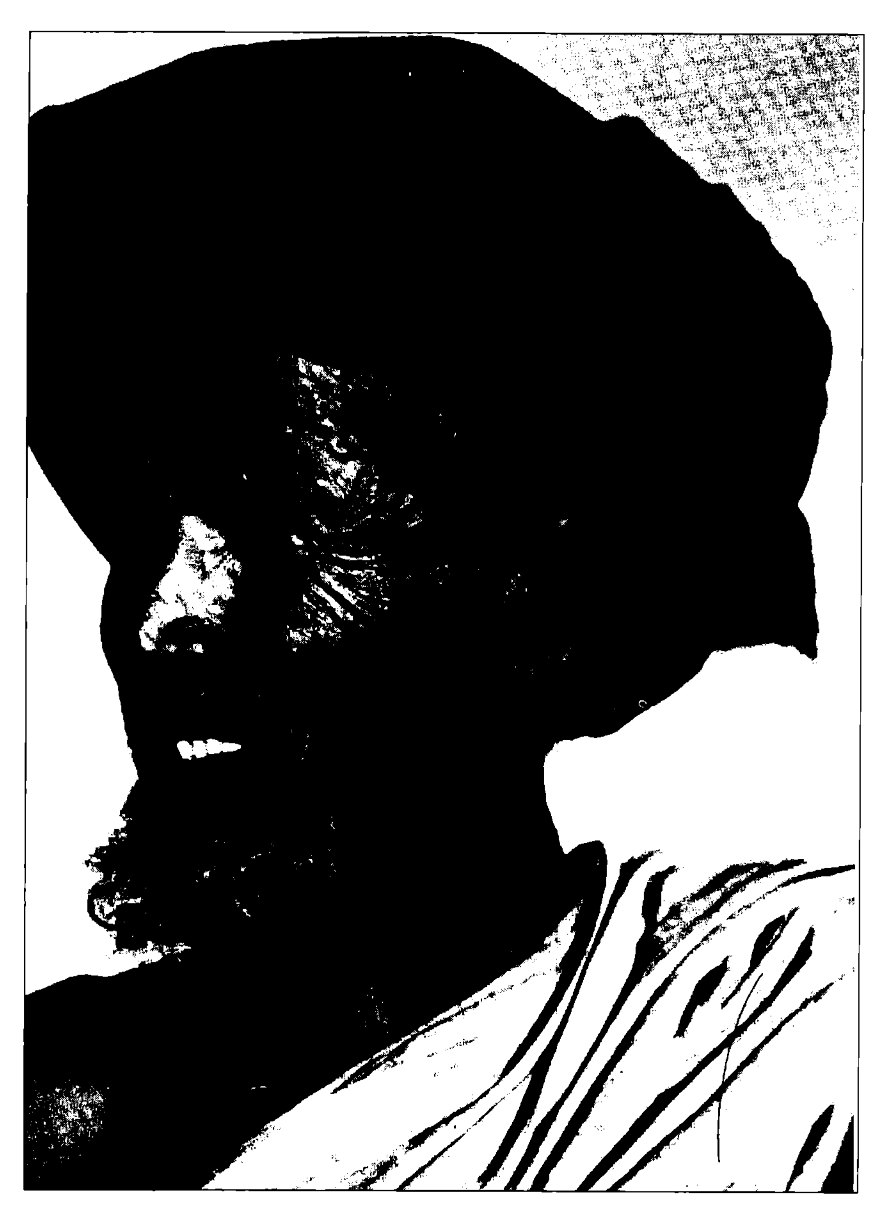
كانت نسبة الوفيات بين الأطفال الرضّع أكثر من الثلث قليلاً ، وهي نسبة ضئيلة بالنسبة لمنطقة تعاني ذلك القدر من التخلف. عندما كنا في البعثة



جورج فارير يسجل أغاني الغجريات المتنقلات في بيحان



أسرة بيحانية تقيم حفلا خاصا



أحد أكفأ عمال الحفر البيحانيين

الأفريقية وجدنا أن النسبة في السودان مثلاً كانت زهاء ٥٠٪ ، وفي الكونغو وجدنا أقزام غابة ايتوري وأطفالهم يموتون بنسبة أربعة من كل خمسة.

وحدث ذات مرة أن جاء راعي إبل اسمه عبد الله بن حسين، وعمره خمسة عشر عاماً، جاء إلى العيادة ويده، أو ما تبقى منها، متورم ومتعفن وملتهب للغاية. قال عبد الله إن بعيره عضه قبل ثمانية أسابيع وظلت يده متدلية تمسكها عصبتان لمدة عشرة أيام ثم انفصلت ووقعت، ولم يفعل اي شيء لذلك الجرح سوى غسله ببول الجمل. قام الدكتور ماكنش بقطع العظمتين اللتين بقيتا من اليد ونظّف الجرح ، ثم أعدّ الغلام لعملية جراحية أجراها على الفور وأزال ما تبقى من الذراع؛ وهكذا فقد الولد يده كاملة ولكنه تخلّص من الآلام المبرحة التي كان يعاني منها، بل كتبت له حياة جديدة، وأدرك ذلك هو نفسه.

وجاء ذات صباح رجل يطلب النجدة لأحد في قريته التي تقع جنوب بيحان القصب بسبعة أميال ، وقريبة من الحدود مع اليمن. تحرك الدكتور ماكنش، وبعد ساعتين بالسيارة من عبور الأودية والتلال الرملية وجد الرجل الذي كان قد جرح في معركة قبلية حدودية؛ اخترقت رصاصة خصيته اليسرى وخرجت من إليته اليمنى، رغم ذلك وقف ذلك الرجل الشجاع على أرجله ومشى أربعة أميال فوق الجبال حتى وصل قريته حيث حاولوا أن يعالجوه ببول البعير «لتطهير» الجرح وبالرمل لوقف النزيف.

كان علاج الرجل على يد دكتور ماكنش صعباً في بادئ الأمر لأنه لم يسمح للدكتور أن يفحص مناطقه الحساسة التي مزقتها الرصاصة، فاضطر الدكتور لاعطائه بعض الأدوية دون أن يلقي نظرة على الجرح؛ ولكن أحس بعد ذلك ببعض التحسن وزال عنه الخجل وسمح للطبيب أن يفحص جروحه كما يشاء،

وبالفعل تمت معالجته بصفة شاملة وشفيت جروحه تماماً.

وجاءت فتاة صغيرة مع أمها ذات يوم للمستشفي وكانت الأم تعاني من آلام في مفاصلها ولا تستطيع ان تطلق أو تبسط أصابعها . كشف دكتور ماكنش على المرأة العجوز ووجد ما ظن أنه المشكلة من البداية، مرض النقرس الذى يعاني منه بدو بيحان كما كان يعاني منه أولئك الحواريون الذين خاطبهم المسيح عليه السلام يوم السبت في المعبد : (انظر إلى تلك المرأة التي عذب روحها المرض لثماني عشرة سنة وقوّس ظهرها وأقعدها،) وذلك وصف لمرض النقرس. وهذا المرض اللعين موجود في هذا المناخ الصحراوي الجاف ببيحان كما هو موجود بالمناطق الباردة والرطبة، على عكس ما يشاع حوله.

وكانت الأدوية والعلاجات المحلية لا بأس بها في نظر الطبيبين كراوز وماكنش، مثل بول الجمل الذي لا غبار عليه كمطهّر للجروح رغم أنهما لم ينصحا باستخدامه. ويستخدم العرب الكحل بغزارة في عيونهم ويظنون أنه يمنع عنها المرض كما أنه يجمّلها ويزينها ، وكان العرب يفعلون ذلك منذ آلاف السنين.

وكذلك يستخدم العرب الكي لعلاج الآلام التي تهدأ في بعض أنحاء الجسد، وقد شاهد الدكتور كراوز مريضا بالقلب يكوي فوق صدره بقطعة حديد وضعت في النار حتى احمرّت كالجمر، وقد تركت أثرها فوق صدر الرجل ، ولكن في تلك الحالة بالذات لم يتم علاج المريض ولم يُجْدِ الكيُّ فتيلاً.

المشكلة الكبرى التي تشغل بال العرب تجسدت في رجل يبلغ الثمانين من عمره جاء للدكتور ماكنش يطلب علاجاً عاجلاً لمسألة ملحّة، وهي عجزه عن إرضاء زوجاته جنسياً كما كان يفعل من قبل. ورغم أن أطباءنا لا يعالجون مسألة العجز الجنسي ولم تخطر ببالهم إلا أن أفواج الرجال شدت إلينا الرحال، راجلين

وعلى جمالهم، طوال المدة التى قضيناها بينهم، يطلبون العون في هذه المعضلة.

كان زميلنا كيني براون يقود السيارة من هجر بن حميد إلى تمنع ذات يوم عندما رأى فتاة صغيرة عمرها عشر سنوات تقريباً تلوح له بشدة. أوقف كيني سيارته وتقدمت منه الفتاة وطلبت أن يأخذها معه للحكيم ماكنش، وفرح كيني لأن تلك فرصة للمزيد من التدريب على التحدث باللغة العربية. ولكن الفتاة لم تجب عن أسئلته، وجلست إلى جواره في السيارة دون أن تنطق حرفاً واحداً؛ كانت فقط تهز رأسها وتحدق في الطريق أمامها. ولكنه اكتشف بعد قليل أن تجربة ركوب السيارة كانت غريبة على الفتاة وأصابها دوار وغثيان، وأوقف كيني السيارة لكي ترتاح البنت قليلاً، ثم واصلوا رحلتهم، وكانت بعد ذلك تدعو الله لكيني أن يحفظه ويحفظ أبناءه وزوجاته وقبيلته كلها. وفي تمنع نزلت الفتاة من السيارة وقبّلت يد كيني وتوجهت نحو باب العيادة ومازال لسانها يلهج بالثناء والدعاء لكيني.

ثمة زائر آخر لعيادتنا لن ينساه أي منا؛ إنه صبي عربي بلا وجه، أو بقي شيء لا يشبه الوجه على رأسه؛ كان لديه فك وبعض الأسنان وثقبان في المكان الذي كان عليه الأنف، ولحم متعفن حول المنطقة كلها. بقيت له عينان واسعتان فقط، والجبهة فوقهما.

نظر الصبي بعينيه الواسعتين إلى دكتور ماكنش الذي قال إن هذا المرض اسمه داء العليق وأنه أكل وجه الصبي*. وبينما كان الدكتور يفحص الغلام رأيت في ركن الغرفة أعرابياً طويل القامة كان دائماً يعكر صفونا في موقع الحفر بالبوابة الجنوبية، وقال الدكتور إن هذا الرجل ظل يتردد على المستشفي يومياً طوال الشهر

*داء العُلَّيق مرض جلدي معد ينتشر في المناطق الحارة. (المراجع)

المنصرم طالباً علاجاً كثيراً من الأمراض الحقيقية والمتوهمة، ولم يكلف نفسه سوى اليوم أن يحضر معه هذا الصبي الذي هو شقيقه الأصغر حتى استفحل مرض اليوز فوق وجهه لهذه الدرجة الخرافية ، انصرف الدكتور لعلاج الصبى وطلب مني أن أوافيه العام القادم بأخباره إذ لا ينوي الدكتور ماكنش الحضور معنا.

ومن المشكلات التي صادفتنا، وليست لها علاقة بالحفريات أو بعالم الطب، الحشرة الصغيرة المسماة بالعنكبوت . إن العنكبوت الذي وجدناه في بيحان ضخم الجثة، يبلغ عرضه ثماني بوصات أحياناً، مستدير الشكل ومشحم ومليء بالشعر، وله أرجل في حجم أعواد الثقاب. كنت أجلس في مكتبي ذات يوم اتحدث مع شارلس إنج عندما لمحت مخلوقا ضخما يمشي على الحائط قريباً من رأس شارلس. صرختُ: «العنكبوت»! وأخرجت مسدسي ذا الطلقات الست «الكولت» ، ولكن شارلس قفز بعيداً كالسهم وجرى كالإعصار، ولعله كان خائفاً من مسدسي أكثر من العنكبوت. لقد انفجرت ضاحكاً من تصرف شارلس وسرعته الرهيبة، وفي هذه الأثناء هرب العنكبوت واختفى خلف الحائط.

لقد أكد لنا أهل بيحان أن العنكبوت غير سام، ولكن ذلك لم يقلل من خوفنا منه بسبب حجمه وشكله الفظيع. وبالطبع فإن المنشة العادية التي تقتل بها الذباب لا تفعل شيئا لهذه العناكب، فلجأنا لإطلاق النار عليها، وعندما تصوّب وتطلق النار على عنكبوت مهرول فوق الحائط فإن ذلك أفضل تدريب للرماية على هدف متحرك. ولكن الأفضل من ذلك كله والأكثر سلامة كانت قدم صبي عربي معنا في المعسكر اسمه ناصر تبناه كين براون وأقام معنا بالمنزل، وقد أطلق عليه دك بوين لقب «نوسيه» والكلمة برغم صوتها القريب من كلمة «ناصر» إلا أنها تحمل معني الغثيان، ولعله قصد (الشخص الذي لا يخشى الغثيان) لأن

ناصر كان يقتل العناكب برجله وكان لا يمانع في أداء أي مهمة نطلبها منه، مهما كانت شاقة على النفس.

كنا جالسين ذات مساء في بهو ضخم بقصرنا وكان البروفيسور البرايت يكتب على منضدة قريبة منا. فجأة رأى أحدهم عنكبوتاً ضخماً على الحائط وصاح بأعلى صوته. ظهر ناصر من حيث لا ندري وانقض على العنكبوت برجله الحافية وطبعه على الحائط، وأخذتنا جميعاً المفاجأة وحركة ناصر المباغتة، إلا البروفيسور الذي لم يرفع راسه من عمله ولم يحس بما حدث لنا وللعنكبوت.

وكان البروفيسور دائماً هكذا، لا يلقي بالاً للعنكبوت البتة، خاصة عندما يخلع نظارته، فهو قصير النظر، والعناكب تسرح وتمرح بجانبه دون أن يراها. وفي إحدى الليالي مررت أمام غرفته بعد أن آوى إلى الفراش، كان جالساً على طرف السرير ونظارته موضوعة على المنضدة. عقدت الدهشة لساني عندما رأيت عنكبوتا بيحانيا ضخماً يمشي على رجل البيجامة التي كان يرتديها البروفيسور دون أن يحس بها. وجدت نفسي أتحسس مسدسي، ولكن كيف أطلق النار على العنكبوت دون أن أصيب رجل البروفيسور. تركت الحشرة تمشي على مهلها، وانزلقت من بيجامة البروفيسور ومشت نحو غرفتي، بينما استغرق البروفيسور في نوم عميق، ربما تخللته أحلام الشرائح الفخارية المنقوشة.

وحتى في الجنوب العربي واجهتنا مشكلة المالك والمؤجر، وقد استطالت المفاوضات المالية مع صاحب القصر الطيني الذى استأجرناه منه، وهو الشريف عوض، وكانت المفاوضات تتم على وفق الطقوس المعقدة المتّبعة في هذه المنطقة، ورغم ذلك فلم نتوصل لإيجار محدد. جاءني الشريف عوض ذات يوم يطلب الإيجار، ولكنني انتهزت الفرصة لأتفق معه على إيجار محدد، ودفعنا للشريف

مبلغ ثلاثمائة ريال ماريا تريزا كقيمة الإيجار عن كل الموسم. ثم ذكرني الشريف بخدمات أخرى قدمها لنا وهو يستحق عليها أجراً: لقد كان الوسيط في شراء تسع عشرة سلة وفي ايجار أربعة ثيران استخدمناها في نقل الرمال من البوابة الجنوبية. أعطينا الشريف سبعة وثلاثين ريالاً إضافيا نظير تلك الخدمات، وهكذا افترقنا وكلنا سعداء بما حسمناه من أمور معلقة، باستثناء مسؤولنا المالي، جورج فارير.

ما كان لجورج حقيقة أن يغضب أو يستغرب لطريقة الشريف وإلحاحه في المسائل المالية، إذ إن هذه هي الطريقة البيحانية في إدارة الأعمال ، ومن المفروض أن يكون جورج قد تعود على هذه الأشياء بعد أن قام بكل مشترياتنا منذ بداية المشروع. كان جورج يذهب إلى السوق مرة في الأسبوع مصطحباً معه جمعة الصومالي، وكانا يتسوقان في عسيلان ومدينة بيحان القصب، تلك الحاضرة الخضراء الجميلة. وقد رافقهما كيني براون في إحدى رحلاتهما للسوق لشراء تيس، وقد كادت الدهشة تقتل كيني مما رأى وسمع في سوق الماشية.

عندما عثروا على التيس المناسب من حيث حجمه وعمره وشكله، أخذ جورج وجمعه يساومان صاحب التيس في سعره، ولما عرف الأخير أننا أمريكان رفع السعر لأقصى حد ممكن ، إذ طالب بخمسة عشر ريالاً ، لبهيمته. كان رد جورج هو أن عرض فقط خمس ريالات، فلجأ صاحب التيس لسرد قصة مطولة عن ظروفه الاقتصادية وكيف أن زوجاته وأطفاله، يمرون بمجاعة، فرفع جورج وكيني المبلغ إلى سبعة ريالات؛ لم يقتنع الرجل بذلك وواصل الشكوى واتهم جورج وكيني بأنهما يحاولان تجويع أسرته وإفقاره وإفلاسه ، وكان هنالك جمهور ضخم شاهد على هذه المساومات. عند ذاك أشاح جورج وكيني بوجهيهما وتظاهرا

كأنهما يغادران المكان، فما كان من صاحب التيس إلا أن أمسك بهما متوسلاً بصوت رخيم وحنون: (خلاص يا أمريكان ! لقد ربحتم التيس. إنه ملككم مقابل ثلاثة عشر ريالاً). ولكن حتى ذلك لم يترك الأثر المنشود لدى كيني وجورج ، فرمى الرجل بورقته الأخيرة على الطريقة العربية المعروفة، إذ جر التيس من شعر عنقه وقدمه لجورج قائلاً بصوت مجلجل تناهى إلى كل الحضور: (هذا التيس الممتاز، الأفضل في قطيعي كله، هدية لك بلا مقابل، هديتي للأمريكان.) وهكذا أصبح جماعتنا مالكين للتيس، فالعرف العربي لا يسمح برفض الهدية؛ ولكن العرف يستدعي أن ترد للشخص هديته بهدية أخرى وبالقيمة نفسها وهكذا فإن كيني وجورج أعطيا صاحب التيس مبلغ عشرة ريالات ماريا تيريزا كهدية من عندهما، فابتسم الرجل ابتسامة عريضة وصفق الحاضرون الذين بلغ عددهم خمسين من أهل المدينة. في نهاية الأمر ، استطاع الرجل أن يكسب المناورة ولكنه لم يتمكن من غش جماعتنا.

وحدث ذات مرة أن سُرق منا مسدسان ؛ كانا في حقيبتي ملفوفين في صندوقيهما الأصليين، واكتشفت ذات صباح أنهما اختفيا. عندما أخبرت جمعة بذلك حزن حزناً شديداً واصابته نوبة حادة من تأنيب الضمير لأنه المسؤول عن تعيين الخدم. ومرت الأيام دون أن نهتدي لخيط يقودنا لسارق المسدسين، فابلغت الشريف عوض بالأمر، فانفعل واهتم بالموضوع وأخبر شقيقه الشريف حسين الذي هز رأسه ووعد بالبحث في هذه المسألة، وعندما يعد الشريف حسين وعداً كهذا في بيحان فهو لا محالة عند كلمته.

مرت أيام أخرى عديدة، وأخيراً جاءني جمعة في غرفتي قائلاً إن الشريف حسين موجود بدارنا يحتسي الشاي في البهو الرئيس ويدعوني إلى النزول في

الطابق الأسفل. بعد أن صافحته وجلست، أخرج الشريف لفافة ثقيلة الوزن ووضعها على المنضدة بطريقة مسرحية. مددت يدي وفككت المنديل الضخم ووجدت المسدسين بحالة جيدة، ولكن يغطيهما الرمل والغبار، ومعهما خراطيش الرصاص كما هي. ولما سألت الشريف عن هوية اللص الذي قام بهذا العمل هز رأسه متألماً، ولكنه أشار نحو صدره وقال بكل شجاعة إنه هو الذي قام بذلك العمل ، ثم راجع نفسه وندم على فعلته وها هو يرجع المسدسين المسروقين. لم تكن رواية الشريف مقنعة بالطبع، وكلنا عرفنا من هو اللص الحقيقي الذي حاول الشريف أن يستره لسبب من الأسباب . اللص الحقيقي هو غالباً الخادم الذي كان قد جاءنا مستشفياً من الجدري الذي أكل معظم وجهه والذي اختفي فجأة قبل يوم مجيء الشريف ولم يعد ثانية حتى لقبض راتبه.

كانت هذه النهاية مخيبة لآمال بعض من رفاقنا الذين كانوا يريدون أن ينتهزوا هذه الفرصة لمعرفة سرٍّ جديد، إذ كان الشريف عوض قد وعد بإحضار أحد المشائخ من اليمن يقوم بطقوس معينة يكشف بمقتضاها اللص، أهمها وضع قطعة من الحديد على النار حتى يصبح جمرة حمراء، ثم يصطف المشبوهون ويبرز كلّ منهم لسانه لكي توضع عليه قطعة الحديد المحمرة، ومن يصرخ منهم فهو المذنب. وقد شرح لنا الشريف عوض هذه الطريقة قائلاً بأن المذنب لا شك يعرف نفسه، لذلك فإنه يكون مرعوباً، فيتوقف فمه عن إفراز اللعاب ويجف لسانه، وعندما تلامسه قطعة الحديد الساخنة فإنه سيتألم أكثر من الآخرين الذين ليس لديهم ما يخيفهم. المسألة كلها بهذه البساطة على حد قول الشريف عوض.

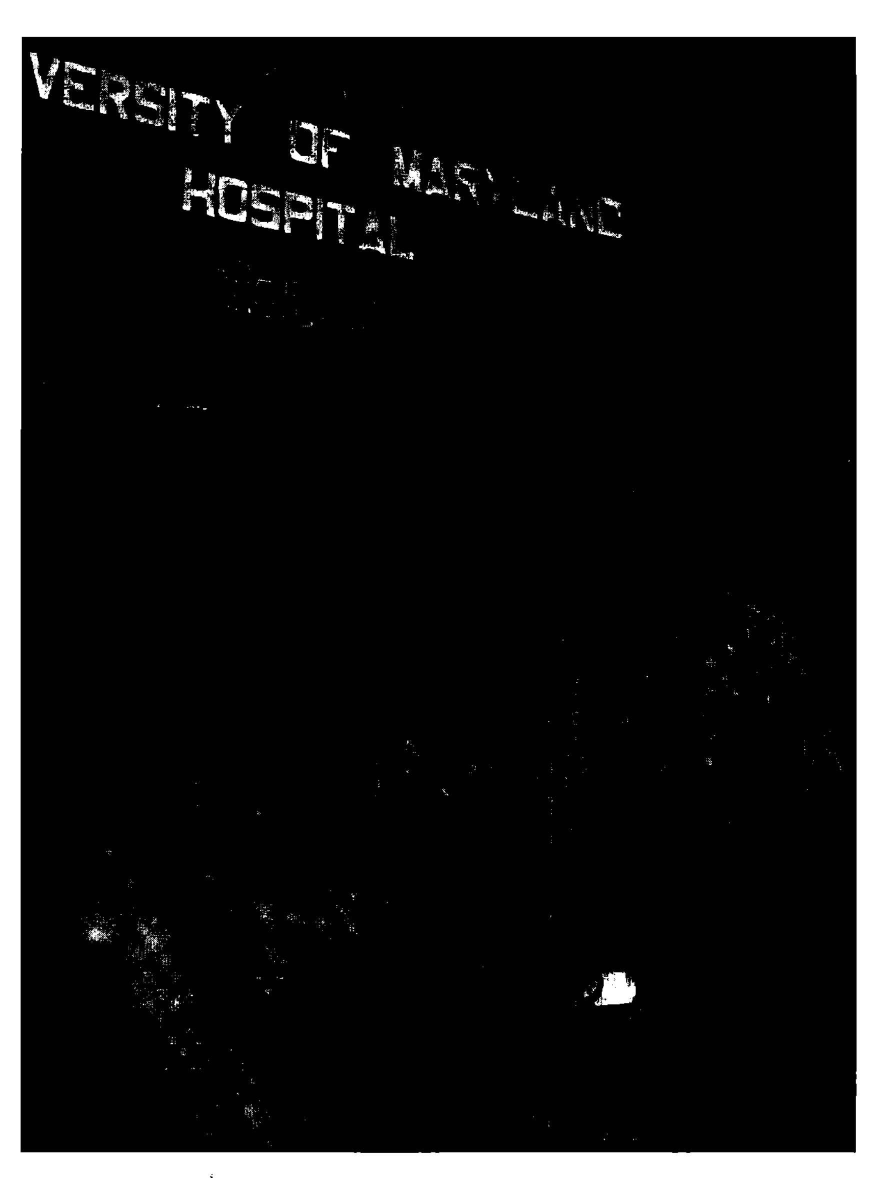
الفصل الثامن

قبيلة بلحارث

كان منظراً مالوفاً ان تاتي قوافل الجمال المحملة بالملح من الشمال وتتوقف لدينا بعض الوقت لتتزود بالماء ثم تواصل مسيرها جنوباً نحو اليمن حيث يبيعون ملحهم. ويأتي ذلك الملح من مناجم عند فوّهة وادي بيحان في منطقة تابعة لقبيلة بلحارث. لقد ظل الملح عاملاً هاماً بالنسبه لاقتصاديات بيحان منذ مئات السنين، كما نحسب أنه مهم أيضاً من الناحية الجيولوجية، وقد فكرنا في زيارتها ولكن منطقتها صعبة المنال، حتى الشريف حسين لم يذهب لتلك المناجم في حياته كلها، بيد أنّه شجّعنا على زيارتها ووعد بأن يرافقنا بنفسه.

قرر ثمانية منا أن يتوجهوا نحو المناجم، بصحبة الشريف حسين والشريف صالح بن ناصر والنقيب الان دني الضابط القائد للحرس الحكومي بمنطقة بيحان ، وفي صبيحة يوم الاثنين أقلتنا أربع من سياراتنا متجهين صوب الشمال. توقفنا أولا في قرية عسيلان حيث انضم إلينا الشريف عوض ومعه خمسة من حراسه ومعهم تيس ، أما الحراس كما قال الشريف فهم لحراستنا، وأما التيس فهو لعشائنا.

الثلاثون ميلاً الأولى كانت في غاية السهولة مما جعلنا نستغرب الروايات التي تتحدث عن وعورة الطريق، ولكن الأميال السبعة الأخيرة جاءتنا بالتفسير اللازم ، فهي كثبان رهيبة من الرمال أقنعتنا بأن الجمل هو الوسيلة المناسبة التي خلقها الله لمثل هذه البقاع، رغم أن سياراتنا «البورواقون» وإطاراتها الـ« كود يير» العريضة أبلت بلاءً حسناً ، وكانت السيارات تمخر عباب الرمال تماماً كما تفعل الفلك في



دكتور ماكنش مع الصبي البيحاني الذي أكل وجهه داء العُليق، وقد عالجه الطبيب بالمضاد الحيوي.

مناظر من بوابة تمنع الجنوبية :

العمال يلقون رمال الحفريات.



الصبيان يحملون السلال لنقل الرمال.

البحر، حتى أوشك أن يصيبني دوار البحر، ولكننا فجأة وصلنا منحدراً مسطحاً صلباً قادنا إلى سلسلة جبال ليست عالية الارتفاع ، وبعدها نزلنا باتجاه القاع الذي بدا لنا كأنه صحن ضخم. هنا كانت مناجم «عيادين».

هنالك خمس فجوات واسعات بأرضية السهل هي مناجم الملح، اثنتان منها جديدتان ، مازال فيهما بعض العمال يحفرون بالطريقة نفسها التي ظل أسلافهم عليها منذ قرنين من الزمان. تركت آثار معاولهم خطوطاً على حيطان المناجم كأنها لوحات سريالية، ولكن بمقاييس التعدين لدينا فإن عملهم يحتاج لعملية تحديث ضخمة. كان هنالك صفوف من رجال يهوون بفؤوسهم على حائط الملح، وتكومت قطع الملح تحت أرجلهم، ثم ينقل الملح في أكياس إلى خارج المنجم. كانوا مجدّين بتلك الأدوات البدائية، ولكن في الحقيقة ، إذا استخدمنا الآليات الحديثة والديناميت لمدة شهر واحد فإنه سيعادل ما بذله هؤلاء الرجال من عنت وعرق طوال المئتي سنة المنصرمة.

وحسب رأي خبير الجيولوجيا في فريقنا فريزو هايبروك فإن هذه المناجم تحتوي على ملح جوراسي نظيف مخلوط بصخور زيتية، وفعلاً بمجرد دخولنا هذا الوادي صافحت أنوفنا رائحة كرائحة القار صادرة من الزيت ينزّ فعلاً من هذه المناجم في فصل الصيف ، ويأتي سكان المنطقة ويضعون خرقا من القماش لتمتص الزيت الذي يستخدمونه كوقود.

ليست هنالك قوة عاملة نظامية، إنما نجد أفراد قبيلة بلحارث يأتون لهذه المناجم للعمل فيها بصورة عشوائية لمدة تتراوح بين شهر وثلاثة أشهر، وقد تصل اعدادهم الأربعين بالمنجم الواحد، بينما وجدنا فقط اثني عشر رجلاً عندما زرناها. الأجر الذي يتلقاه العامل يساوي ربع ريال لحمل الجمل الواحد الذي

يعادل نحو ثلاثمائة رطل . يغادر عيادين خمسمائة جمل محمل بالملح في الشهر نحو بيحان واليمن، وذلك يعني أن مجهوداً ضخماً يبذله العمال ولكن بعائد ضئيل. رغم ذلك فإن الدخل الإجمالي لا بأس به لقبيلة معزولة في وسط الصحراء مثل قبيلة بلحارث، وأعتقد أنهم يحصلون على مليونين ونصف المليون رطلاً من عائدات الملح في العام، أي ما يعادل أربعة وعشرين ألف ريال ماريا تيريزا، وذلك يساوي اثني عشر ألف دولاراً أمريكيا بسعر ذلك الزمن.

ولا يتم بيع كل الملح بالريال، إذ تتم مقايضة جزء منه بحاجات العمال من ماء عذب وخلافه ، فتعود الجمال محملة بقرب الماء، كما يختطف بعض الملح قطاع الطريق من القبائل الحضرمية واليمنية، رغم ان قبيلة بلحارث لديها خمسمائة فارس مدجج بالسلاح.

قبيلة بلحارث تربي الجمال ولديها قطعان ضخمة منها تؤجرها في حمل البضائع بين حضرموت واليمن، وهي قبيلة تحب الترحال والأسفار، وتدعي أنها تنحدر من منطقة نجران التي عاش فيها أسلافهم قبل بضعة قرون، وليس ذلك مستغرباً فإن أشكالهم تشبه أعراب الصحاري الشمالية الضاربة في أعماق الجزيرة العربية. تتنقل هذه القبيلة طلباً للماء والكلأ فوق المناطق الخصبة من وادي بيحان التي تمتد إلى رملة السبعتين. وفي أحيان نادرة تصل السيول منطقة بلحارث فتخضر أرضهم ويزرعون القمح وترعى إبلهم حتى حدّ التخمه . وإذا كان السيل خفيفاً فهو لا يصل ديار بلحارث، والواقع الذي يتعايشون معه هو المَحْل الدائم مما يضطرهم للبحث عن الحشائش في مناطق أخرى، وهكذا فهم يرصدون الآفاق بعيون حاذقة وحيثما تهطل الأمطار تجتذبهم بعد حين ؛ أو عندما يسمع البدوي أن بقعة ما قد رويت يطلق جماله من عقالها ويسرع بها نحو ذلك المكان لترعاه

قبل أن تجفف الشمس ما نبت فيه من حشائش . وفي غالب الأحيان تعيش تلك الإبل على شجيرات الصحراء المسماة بالراك* وهو طعام كافٍ ولكنه ليس بالجيد إذ أنه يجعل مذاق حليبها مرّاً كما أنه يسبب لها الإسهال ولذلك فرن البدو يستخدمونه لعلاج الإمساك .

إن هذه البقاع المجدبة التي يعيش عليها بلحارث، والظروف المناخية الصعبة والرمال التي تشقق أرجلهم، ورياح السموم التي تلسع الوجوه كالسياط، والشمس التي تصب عليهم شواظها طوال اليوم، كل هذه المعطيات قوت شكيمة بلحارث وجعلتهم أقوى عوداً وأصعب مراساً، مثل كل البدو الذين يعيشون في الصحراء. والبدوي من هذا النوع يتحمّل الصعاب ويعتمد على نفسه ومستقل الرأي . إن النضال الذي لا يتوقف من أجل مقاومة الجفاف والأمراض، وغارات اللصوص وقطاع الطرق، والحروب القبلية المستمرة، كل ذلك أضفي على البدوي عناداً وشجاعة وقسوة وأحياناً دهاءً ومكراً. وقد فرض واقع الصحراء طرائق معينة للتعامل بين عربانها، وطوروا مفاهيمهم الخاصة المتعلقة بالشرف والنخوة والكرم والشهامة ، ومن الضروري أن نتفهم الفرق بين بيئتهم ومرجعيتهم القانونية وقوانيننا وأعرافنا. فهم فطّون وعمليون ولديهم مفاهيم أخلاقية خاصة بهم، وقد تجد بينهم ميولاً رومانسية، ولكن الواقع المرير الذي يحيط بهم يجعل القصص العاطفية لديهم مثل زهرة تحيط بها الأشواك الحادة.

وشيخ قبيلة بلحارث هو الشيخ علي بن مُنَصَّر الحارثي ذو الستين عاماً، وقد

---

* هكذا أوردها المؤلف Rak أي شجر الأراك ويقصد بذلك أوراقه ولكن الأراك ليست أهم الأشجار التي تتغذى الجمال منها إذ هناك شجر السنا والهِرْد والحمضة والوضْعة والشويلة والسدر والسلم وغيرها .(المراجع)

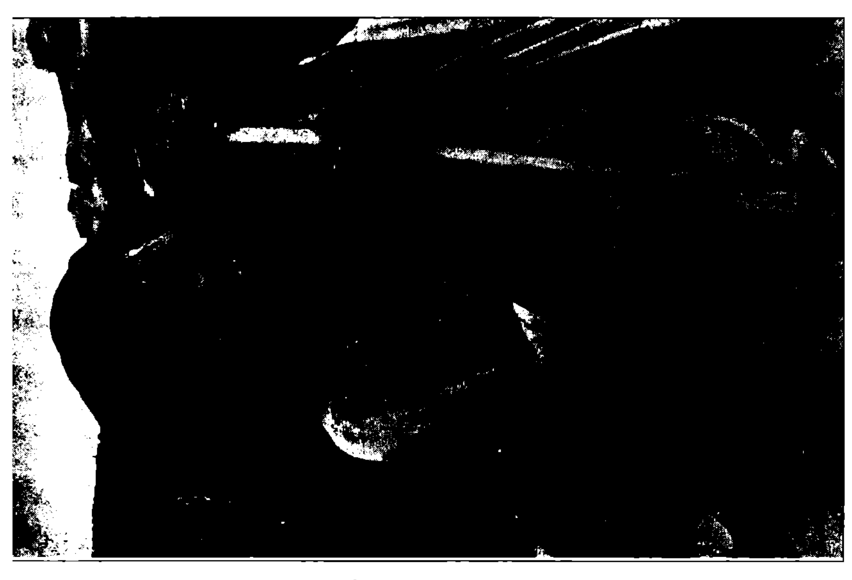
أخبرني هذا الرجل أن قبيلته تتألف من نحو أربعة إلى خمسة آلاف شخص، ظلّوا يتنقلون في وادي بيحان منذ أحد عشر جيلاً، وأخذ الشيخ علي في ذكر أسماء أجداده: ابن مُنَصَّر بن علي بن أحمد بن حِسَيِّن بن محمد بن زيال بن بدر بن جسار بن محمد بن حثير بن الحارثي.

والقبيلة الأخرى المهيمنة بوادي بيحان هي «المصعبين» الذين يعيشون في الجنوب، عند رأس الوادي، وبينما نجد أن قبيلة بلحارث هم عبارة عن بدوٍ متنقلين فإن المصعبين قبيلة مستقرة إلى حدّ كبير، تعيش فوق التلال السهلية؛ ورغم أن بلحارث ينقسمون أحد عشر فخذاً وبطناً من مختلف الأحجام والنفوذ، فهم قبيلة موحدة ومنظمة تنظيماً إدارياً مركزياً. أما المصعبين فهم مشتتون في الجبال والهضاب وما بينها من أودية خصبة، وليسوا بنفس القدر من التوحد والتنظيم الذي تتمتع به قبيلة بلحارث. وبينما يعيش بلحارث في الخيام السوداء المصنوعة من وبر الغنم فإن المصعبين يعيشون في بيوت من الحجر. وأفراد قبيلة بلحارث طوال وسود الشعر، يرتدون الثياب الصحراوية الفضفاضة، والمصعبين يرتدون العمائم الملونة والإزار العدني، أحجامهم أصغر ويخالط بعضهم دم الزنوج العبيد.

المصعبين أكثر عدداً من بلحارث لكنهم منقسمون على أنفسهم تفتك بهم الصراعات والحروب فيما بينهم، ورغم أن السلام قد ساد ديارهم في السنوات التسع الأخيرة فإن العداوات والمرارات مازالت تعصف بهم إذ إن الثارات قديمة قِدَمَ الزمن نفسه. هنالك فخذ منهم، على سبيل المثال، يتألف من ستة أشخاص فقط على قيد الحياة، ولكنهم مازالوا على خصام وشقاق مع ثلاث عشرة مجموعة أخرى من جيرانهم. وهناك قبيلة في وادي عين بقي منها غلام واحد، وهو شيخ



فتاة بيحانية تستعرض آخر صيحات الجنوب العربي في تصفيف الشعر



شيخ ضرير، كان أحد القتلة الكبار في بيحان



الكثبان الرملية بالجزيرة العربية .



تعدين الملح في عيادن والأخاديد المتوازية الجميلة التي خلفتها المطارق .

انقرضت قبيلته عن بكرة أبيها. ورغم أن المصعبين أهل زراعة ورعي واستقرار فإن صراعاتهم البينية لا تقل ضراوة ودموية عن بلحارث الشرسين، ولكنهم يكظمون الغيظ ولا يفصحون عن عداواتهم، لذلك فهم يظهرون بمظهر العقلانية والبرود؛ إنهم يقدمون على معاركهم ومؤامراتهم ضد الآخرين بهدوء يختلف عن رعونة واندفاع الحوارث. والمصعبين أكثر براعة في إخفاء مشاعرهم الحقيقية وأكثر إجادة للأساليب الماكرة والخبيثة.

بالإضافة إلى القبيلتين الأساسيتين بوادي بيحان، بلحارث والمصعبين، هنالك نحو ألف عبد بالمنطقة رفضوا العتق بمحض اختيارهم وفضلوا أن يعيشوا في كنف أسيادهم بأسرهم وبهائمهم ؛ وبما أن تجارة الرقيق في منطقة البحر الأحمر قد توقفت ، فإن أعداد العبيد أخذت في التناقص المستمر. العبيد الذين اعتقوا منحوا قطعاً من أراضي أسيادهم نصبوا عليها خيامهم وزرعوا قوتهم وعند الحصاد كانوا يقسمون جزءاً منه للسيد؛ وقد عمل كثير من العبيد المحررين كحرفيين ينسجون السجاجيد ويصبغون الأقمشة ويعملون كصاغة للحلي الفضية، وهكذا يدخلون شيئا فشيئا ليصبحوا جزءاً من الطبقة الوسطى.

عندما وصلنا إلى بيحان كان فيها اثنان فقط من اليهود ، أحدهما كبير في السن وقد توفي ، والثاني هو ابنه الأصغر الذي تبناه الشريف حسين وأدخله الإسلام.

تلك هي الشرائح البشرية التي كان يتألف منها مجتمع بيحان والتي ألف الشريف بين قلوبها وأشاع بينها السلام والأمن . وقبل ثماني سنوات كان الوضع في بيحان مختلف جداً، ولا تستطيع أن تغادر منزلك في وضح النهار وأنت مطمئن القلب، وكانت الفئات المتحاربة تتحصن في مواقعها وتطلق النار على

خصومها بطريقة عشوائية، أو تغير كل مجموعة على الأخرى وتنشر الموت والدمار والخراب في طريقها.

لقد تغير كل ذلك في خمس سنوات؛ وتوقفت الحروب والفتن واستحالت العداوات إلى نوع من المودة المشوبة بالحذر . قد تسمع إطلاق النار بين الفينة والأخرى، لكنها حوادث متفرقة وطفيفة ، أو جماعة من خارج بيحان أغارت على الوادي، جاء هذا التغيير بفضل قوة حكومية تتألف من خمسين جندياً حكومياً ومعهم مشغل لاسلكي وضابط سياسي وهو بيتر ديفي. هذه القوة الرمزية لم تدخل في حرب مع الآخرين ولكنها تحت تصرف شريف بيحان، فتوقفت الإحن والمشاحنات والمعارك، ولكنها استمرت في شكل حرب باردة استخدمت فيها أساليب المناورات السياسية والمكر والمؤامرات . كان الشريف حريصاً على عدم إراقة الدماء لكي لا تتجدد الثارات وتتفجر المعارك مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً قرَّب الشريف بين الفئات ووحَّد بينها، وكانت تلك فاتحة عهد جديد بالنسبة لسكان الوادي، وأدرك الناس أن في السلم خيراً وبركة.

وبعد بضع سنوات نُقل بيتر ديفي إلى منطقة «الضالع» أي في عام ١٩٤٧م، حيث وجد مهمته أصعب بكثير من بيحان. حاكم الضالع مختلف جداً عن شريف بيحان إذ كان يحكم بقوة الحديد والنار مما نجم عنه حالة من عدم الاستقرار والحروب الأهلية المستمرة. قام بيتر ديفي بإقصاء هذا الحاكم المستبد المسمى الأمير حيدر وأخذ في تنظيم الأمور بمنطقة الضالع وسط معارضة زعماء العشائر، خاصة الشيخ محمد عواس شيخ قبيلة الأحمدي. وأخيراً قرر ديفي أن يجعل من هذا الشيخ المتمرد عظة وعبرة للأخرين فقرر اعتقاله وخرج إليه مصحوباً بمجموعة من الجنود، وكان ذلك في منتصف الليل حتى يأخذوه على حين غرة. كان

محمد عواس في أحد الحقول ولكنه عندما أحس بمقدم الجند تحرك نحو قاع الوادي ومعه نفر من أبناء قبيلته. توقف ديفي أمامه وأعلن مباشرة: (لقد أتيت لاعتقالك) . لم تكن هنالك أي مناقشات أو مساومات. رفع الشيخ محمد بندقيته فجاه وأطلق طلقة أصابت ديفي، وأردفها أحد عبيد الشيخ بطلقة أخرى. أطلق أحد الجنود النار وأصاب الشيخ واخاه، وتبودلت النيران لفترة من الزمن انسحب في أثنائها جنود الحكومة وسحبوا معهم ديفي.

الضالع هي المصدر الكبير لنبات القات الذي كان يستخدم في غرب محمية عدن، والقات هو من فصيلة المخدرات جاء إلى الجنوب العربي من الحبشة قبل عدة قرون وأصبح واحداً من المصائب التي ابتلي بها ذلك الجزء من العالم؛ ورغم أن إنتاجه كان ممنوعاً في العديد من المناطق، مثل بلاد العوذلي ويافع والفضلي وبيحان، إلا أن استخدامه للأسف لم يكن ممنوعاً.

القات مخدر موجود في أوراق الشجيرة الخضراء المسماة (كاثا اديوليس) ، وعندما «يخزّن» الشخص، أي يمضغ هذه الأوراق الخضراء، يظن أنه أصبح متيقظاً وواثقاً من نفسه ولكنه بالتأكيد يصبح ثملاً وميالاً للحديث الكثير. وفي صبيحة اليوم التالي لا يكون الشخص مريضاً كما لو احتسى كمية هائلة من الخمر ولكنه بالتأكيد يصبح في حالة مزرية للغاية ويتعطل مخه تماما لبضع ساعات. ومع مرور الزمن وكثرة الاستخدام يعاني الشخص من فقدان النوم والشهية والإمساك المزمن، ويمكن معرفة المدمن بسهولة من شحوبه وتقلص بشرته. وكثيرٌ من إطلاق الرصاص الذي يسمع في بيحان سببه أن أحد مدمني القات تنتابه نوبة من الغرور الكاذب ويحسب أنه يستطيع أن يصفي حسابه ليس مع الخصم المباشر فحسب وإنما مع البشرية كلها.

جرائم القتل أمر عادي في الجنوب العربي، وهنالك محترفون يتقاضون أجراً في

تصفية الآخرين، كما يحدث حتى في أكثر البلدان رقياً في العالم. أجر القاتل في الجنوب العربي يتراوح بين بضعة آلاف من ريالات ماريا تيريزا، وكثيراً ما تحدث تعقيدات في ساعة دفع الأجر. هنالك الدية وهي ثابتة وقدرها ٧٠٧ ريالات، وتدفع بالإنابة عن القاتل، ويعتبر القاتل الأبي النفس أن قبول الدية فوراً بعد تنفيذ القتل عيباً لكنه يقبل اللوم أو «الحُشْم» الذي يمكن إعتباره دفع الشرف، وقد يرتفع السعر في حالة السلطان أو الشريف الحاكم إلى عشرين ألف ريال، وشيخ القبيلة المهم سعر رأسه ثلاثة آلاف ريال، والزعيم أو رئيس الفخذ يتراوح بين مائة وألف ريال ، ورأس ابن القبيلة العادي من خمسين إلى خمسمائة ريال. وهكذا فإن السعر يتوقف على الشخصية والنفوذ الذي يتمتع به الشخص المطلوب اغتياله، كما يتوقف على مكانته بين الناس والظروف الماثلة آنئذ.

أقمنا معسكرنا بالقرب من عيادين، ووضع آلان ديني بندقيته سريعة الطلقات في موضع مناسب، ولا أدري أي نوع من القتال كان يتوقع، إذ إن منطقة مناجم الملح التي نزلنا بها مشهورة بسلامها وأمنها. كان المعسكر بديعاً فوق أحد التلال المطلة على المناجم، بعيداً عن المكان الذي تناخ فيه الجمال لكي تحمّل بالملح لأنه موبوء بالحشرات والديدان التى تعيش في جسم الجمل. نصبنا الخيام وأوقدنا نار الفريق واخذنا في شرب الشاي بينما كان آخرون يسلخون التيس ببراعة فائقة ويعدون اللحم للشواء. ورغم أن الظلام بدا يطل علينا فإننا لم ننس أن نعد المسدسات والبنادق لمنافسات الرماية اليومية بينناو بين أصدقائنا من أهل بيحان، مثل الشريف حسين والشريف عوض، والهوايتان المحببتان لدى البدوي هما شرب الشاي والرماية، وكثير منا كان يشارك البدو في حبهم للأسلحة النارية والتسديد الصائب ، ولقد أحضرنا معنا في هذه البعثة كميات هائلة من الأسلحة الجديدة

إن أفضل الهدايا التي أحضرتها البعثة إلى بيحان هي البنادق الكبيرة والصغيرة والمسدسات.

إن الرماية السديدة في بيحان ليست فقط وسيلة للصيد وجلب الطعام أو للمتعة الشخصية، ولكنها قد تعني الفرق بين الموت والحياة في بعض الأحيان. كان ذلك هو الحال في بيحان حتى وقت قريب، لذلك فإن أهلها دائماً جاهزون ومتمنطقون بما تيسر من سلاح. عندما يزورنا الشريف عوض يأتي ببندقيته على الدوام، ويسندها على الحائط ويجلس بجوارها، ولو اضطر للذهاب لغرفة أخرى كغرفة الحمام فإنه لا ينسى أن يأخذ بندقيته معه.

علّمنا الشريف حسين في تلك الليلة طريقة جديدة للرماية في الظلام، فقد أشعل ناراً في عيدان على مسافة تسعين ياردة منا، ووقفنا صفاً وأخذنا نطلق الرصاص باتجاه تلك العيدان لنرى من يستطيع أن يطفئها. وقد أبدع الشريف صالح بن ناصر أيما إبداع وأصاب الهدف والبندقية موضوعة على رأسه.

أعدوا لنا وجبة العشاء وجلسنا حول النار لنأكل في تلك الليلة المقمرة، تحت سماء صافية تماماً إلا من نجومها التي تتلألأ كالزمرد. بعد أن استرخينا قليلاً جاءنا فوج من رجال بلحارث العاملين في المناجم، يصفقون ويرقصون ويغنون بأصوات شجية منسجمة تماماً مع سحر الليل في الصحراء وهدوئه الرهيب.

غادرنا أولئك الأعراب، واستلقينا لنستمع لبعض القصص التى رواها لنا الشريف حسين، وكان ترجمانه الان ديني. تحدث الشريف عن محطة للجمارك أقامها في الحدود مع اليمن لكي يجمع الضرائب الجمركية على الملح الخارج من بيحان والبضائع القادمة من اليمن. ولكن السلطات اليمنية، ممثلة في شخص رجل اسمه الشامي، حاكم البيضاء، قال إن هذا عمل عدواني. رد عليه المستر

جون ألن نائب المعتمد البريطاني آنذاك ، قائلا إنه ليس عملاً عدوانياً، بل عمل قانوني وجائز جداً وهو عبارة عن مسألة إدارية داخلية خاصة ببيحان.

رد اليمنيون على المحطة الجمركية ببناء قلعة الهدف المعلن منها هو منع محطة الشريف من أداء مهمتها، ولكن حسب رأي البريطانيين فإن القلعة بُنيت على أرض بيحانية، رغم أن اليمن لم تعترف بخط حدودي فاصل في تلك المنطقة. وبعد مفاوضات مطولة ومناقشات دارت في حلقة مفرغة، قصف سلاح الجو الملكي البريطاني تلك القلعة بالطائرات لأنها محصّنة في موقع استراتيجي ويصعب وصول القوات البرية لها ، ودمرت القلعة بلا خسائر في الأرواح ، هنالك شخص واحد فقط جرح في خده من جراء الشظايا الحجرية المتطايرة .

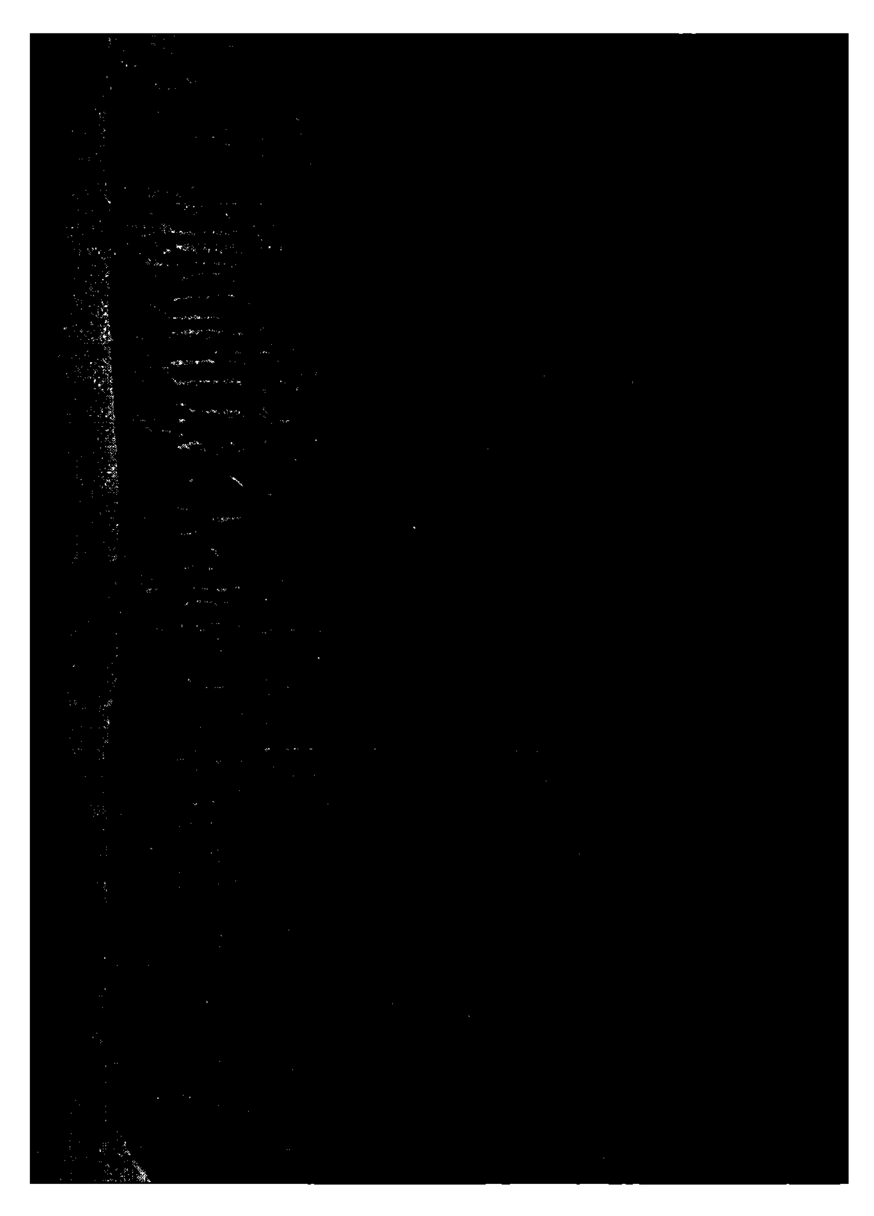
جاء زحف القوات الأرضية في بادئ الأمر نحو القلعة، وقد اشترك فيه مئتا جندي، واستمر تبادل إطلاق النار بين الطرفين مدة ثلاثة اسابيع بدون أي قتل في كلا الجانبين، وربما كان السبب في ذلك أن الجيشين بعيد بعضهما عن بعض، وكذلك ليست هنالك رغبة جادة لدى أي من الطرفين في أن يسبب أذى للطرف الآخر.

وقبل أن يتم قصف القلعة بالطائرات كان هناك تبادل ظريف للرسائل والبرقيات بين المستر الن والشيخ الشامي مما يلقي ضوءاً جديداً على الملامح المتفردة لشؤون السياسة والحرب في هذه المناطق. بدأت الاتصالات بزيارة قام بها المستر ألن وزوجته وضابط سياسي بريطاني آخر إلى مدينة البيضاء في اليمن حيث قضوا ليلة بها في محاولة لإيجاد تسوية سلمية لمسألة القلعة. في نهاية المناقشة الطويلة في تلك الليلة قال الشامي لمستر الن إن الإنجليز مخطئون تماماً في هذا الموضوع من أوله إلى آخره، ولكن هل يمكن أن يرسل له طبيب من عدن ليعالج ابنه المريض.

بمجرد رجوع ألن لعدن أرسل طبيباً للشامي صديقه الحميم وقال له: «من المؤسف أننا لم نتوصل لاتفاق، ولكن ما هي أخبار ابنك وكيف صحته الآن.».

عاد الطبيب إلى عدن يحمل خطاباً من الشامي يقول فيه إن مستر ألن دكتاتور ومعتد أثيم، ولكن في أسفل الخطاب أضاف سطراً بالأحرف الصغيرة يشكره فيه للغاية على إرسال الطبيب الذي عالج ابنه الرضيع.

بعد ذلك أرسل الن برقية للشامي يقول فيها إنه بكل أسف قد يضطر لاتخاذ الإجراء الجوي المناسب إذا لم تُسحب القلعة، مضيفاً بأسفل البرقية إنه سعيد بتحسن صحة الطفل. ثم أرسل المستر الن طائرة أسقطت منشورات على منطقة القلعة مطالبة الجميع بمغادرة المكان قبل ان يبدأ القصف الجوي. كانت إحدى هذه الأوراق ملصقة على طرد صغير معنون للشامي وبه حلوى لابنه. بعد ذلك بوقت قصير أرسل الشامي خطاباً للمستر الن شاكراً له على الحلوى وداعياً إياه لزيارة البيضاء مع زوجه وأطفاله، وفي آخر الخطاب سطر صغير يقول بأن الغارة الجوية المزمعة غير قانونية وغير مقبولة البتة.



نموذج لنقوش قتبانية وجدت في « منزل يفش »



الفصل التاسع

أُســــود تمنــــع

تقع المقبرة الأثرية بمدينة تمنع بجوار تل حيد بن عقيل على بعد ميل ونصف من الموقع الأثري للمدينة نفسها. ورغم أن المقابر التاريخية هدف جيد للاستكشافات الأثرية فإننا لم نبدأ عملنا هنا حتى الآن لما وجدناه من بدائل أخرى آثرنا أن نبدأ بها، ولما سمعناه من أن هذه المقابر تحديداً كانت الأكثر عرضة للنهب والسرقة على نطاق واسع في الزمن القديم وفي العصر الحديث أيضاً.

قمت بصحبة شارلي ماكولم بفحص المقابر وبدأنا الحفر في أحد الأركان فيها التي بدت لنا مشجعة وواعدة، وقد ساعدنا في الحفر أبوبكر حارس الأثريات من قبيلة يافع، الذي كان خبيراً في حفر القبور. وبعد أن غصنا إلى أعماق أول قبر فتحناه وجدنا أنه أنتهك ونُهب نهباً شديداً قبل عدة قرون، ولكن رغم ذلك عثرنا فيه على ثلاثة عشر نقشاً جديداً.

لم يقدنا عملنا في الموقع الشمالي بتمنع إلى نتيجة تذكر، وما ظن بروفيسور هنيمان أنه معبد ، إنما كان مجموعة من المنازل فقط؛ لذلك آثرنا أن نركز على المقبرة، رغم أنها كانت قد تعرضت للنهب والسلب، لذلك بدأ البروفيسور العمل في موقع حيد بن عقيل بجدية .

وفي اليوم نفسه الذي بدأنا فيه العمل بهذا الموقع سمعنا أن رئيس الحراس قد نقل إلى مكان آخر، وفي اليوم التالي أرسل لي هذه الرسالة باللغة العربية:

عزيزي المحترم،

أود أن أخبرك يا صديقي العزيز بأنني قد وصلت بيحان القصب الساعة العاشرة

والنصف من صباح اليوم منقولاً لها، وأود أن أشكرك شكراً جزيلاً على معاملتك الطيبة والتي ستنغرس بذور عرفانها في قلبي إلى الأبد.

والسلام - مخلصكم / عبد ربه علي.)

كان عملنا في البوابة الجنوبية مبشّراً ومنعشاً منذ بدايته، وأول مهمة كانت بالقرب من البوابة مباشرة حيث أخذ كل من شارلس إنج وكيني براون في إزالة الرمال والأتربة من ذلك المكان، وبدأوا في حفر حفرة عرضها أربعون قدماً وطولها مائة قدم؛ وبعد إزالة بعض الرمال من واجهة البوابة وصل شارلس وكيني التي طبقة الطوب فكان محروقاً وأكثر صلابة، هنا وجدوا كنوزاً من القطع الأثرية مثل القطع الفخارية والعقود والحجارة المنقوشة وقطع البرونز والحديد. وجدنا طبقات من الرماد بينها طبقات من التراب والرمل ثم طبقة أخرى من الرماد تتخللها حجارة منقوشة وقطع من الرخام مع صفوف من رؤوس الوعول منحوتة بمهارة فائقة وغير ذلك من الأشياء. وقد ظهر لنا من البداية أن مدينة تمنع قد تعرضت بلا أدنى شك لكارثة زلزالية كبرى مصحوبة بحرائق دمرتها تدميراً رهيباً.

وبعد أن تكشّفت لنا حيطان البوابة وأبراجها كاملة ظهر العديد من النقوشات على صفحاتها، كان أحدها لغزاً محيراً إذ احتوى على الكلمة «WBLQS» أي: «و ب ل ق س»، وهي كلمة إذا أضفنا لها الحروف المتحركة المناسبة تصبح «بلقيس» الاسم المعروف لملكة سبأ*. وبدا للوهلة الأولى كأن هذا التحليل

---

* لا علاقة لهذا اللفظ ببلقيس وإنما يتحدث النقش عن عملية بناء وإنشاء لبوابة (ذي شدو) وجدارها وتشذيب ل (اب ن - س) أي احجارها، و (ب ل ق - س) أي بلقها [والبلق هو الحجر الكلسي]، و (ع ض - س) أي خشبها أنظر نص هذا النقش المكسور وكذا صورته في:
(CORPUS DES INSCRIPTIONS ET ANTIQUITES SUD- ARABES, TOME I SECTION I LOUVAIN, 1977, P. 109 - 116.) (المراجع)

مناسب حيث إننا فعلا في منطقة سبأ ؛ إذ كانت تحكم هذه الملكة الجميلة، ، ولكن عندما دققنا في الأمر وجدنا أننا لم نغص بعد للأعماق المناسبة التي توصلنا لعهد بلقيس، وكان استعجالنا للقياها وتعرف آثارها هو الذي جعلنا نتعجل الحكم؛ فلما استعنا بالبروفيسور البرايت قال إن اسم « وبلقس » المنحوت ليس « بلقيس » إذ ليس هنالك أي علاقة بين باقي الكلام المنقوش وبينها أو بين عهدها. ربما نتعرف على معنى هذه الكلمة بعد توافر أدلة أخرى إضافية، ولكننا بالتأكيد لم نصل لأي شيء له علاقة بمملكة سبأ.

احبطنا قليلاً بهذه التجربة، ولكننا واصلنا العمل كأن شيئاً لم يكن. وفي حقيقة الأمر فإن الكتابات التي اكتشفناها في البوابة الجنوبية لها أهمية كبرى، مع أنها لم تلفت النظر كثيراً. معظم تلك النقوش كانت مراسم ملكية ترصد أسماء العديد من الملوك الذين حكموا قتبان، أحدهم يدعى « شهر يجل يهرجب » وقد حكم قتبان عندما كانت في أوج عظمتها زهاء عام ٧٥ق.م.

بعد أن أزلنا المزيد من الرمال حول البوابة الجنوبية أشار علينا المهندس دك باون ببناء سياج واق حول الحفرة التي حفرناها حتى لا تنهار علينا حيطانها، وبالفعل كان هذا الخطر ماثلاً، خاصة في جانب عمودين مليئين بالنقوش آيلين للسقوط. على كل حال استمر ساندي هنيمان في عمله تحت الشمس المحرقة ونقل كل النقوشات بخط اليد على ورقة، وتم تصوير النقوش بالكاميرات. ثم بعد ذلك وضعنا هيكلاً من الأعمدة الخشبية لتثبيت الحيطان المائلة والتي يمكن أن تنهار ، واستمر الحفر حتى تم إخراج هيكل البوابة كله ومعه حائط طوله خمسة وسبعون قدماً.

وبعد ثلاثة أسابيع من الحفر نظفنا كل المنطقة المجاورة للبوابة الجنوبية ومعها

البرجان اللذان شيدا بالحجارة المربعة الضخمة «البلكات» . طريقة البناء لا بأس بها ولكن ينقصها الإتقان الجمالي مما يدل على أنها بُنيت قبل ازدهار الحضارة القتبانية التى شهدت معماراً أكثر جودة وإتقانا . هذه البوابة وأبراجها بنيت قبل القرن الخامس قبل الميلاد، وقد وجدت نقوشات كثيرة على بلكات البرجين، وهنالك فتحات صغيرة كانت تقف عليها أعمدة خشبية لم يبق منها إلا رمادها .

كانت تلك إطلالتنا الأولى على مدينة تمنع التاريخية؛ وعندئذ قرر شارلس إنغ الذهاب لعدن لقضاء بعض الأمور، وصار كيني براون مشرفا على الحفر في البوابة الجنوبية بديلاً عن شارلس، وكل ذلك بالطبع تحت قيادة بروفيسور البرايت . لقد تخطينا البوابة بمساعدة العمال العرب وها نحن نقترب من المدينة نفسها . وبعد المزيد من الحفر وإزالة الرمال والأتربة والحطب المحروق والحجارة وصلنا إلى ممرّ مرصوف بحجارة مربعة منتظمة مازال بحالته الأصلية الجيدة، وتابع الحفارون ذلك الممر إلى جهة الشمال حتى مشارف المدينه، وبعد أن وسعوا الممر وجدوا أنفسهم في ساحة مرصوفة في واجهة المدينة، خلف البوابة الجنوبية مباشرة، وهناك على جانبي الساحة تم اكتشاف مقاعد حجرية طويلة ملتصقة بأرضيتها، ولابد أنه ميدان عام صغير كان يجتمع فيه كبار المدينة، أم لعلها منطقة تسوّق، أو ربما كان يلتقي هنا المحاربون القدامى ليتحدثوا عن معاركهم مع الممالك المجاورة : سبأ ومعين وحضرموت .

بعد البوابة مباشرة اتجه كيني براون بحفره يساراً وأصبح أعوانه وعماله ينظفون الممر الذي قادهم إلى حائط لم يتصدع أطلقنا عليه اسم (المبنى أ) ، ولكنا بعد قليل أسميناه «منزل يفعم» وهو الاسم الذي وجدناه في النقوش كما وجدنا اسم الملك الذي بنيت تلك الأبنية من أجله . ثم أزلنا الرمال عن سرداب واسع يقود

باتجاه الشمال حتى وصلنا (المبنى ب) الذي تسميه النقوش « منزل يفش » ، ثم اتجه السرداب شرقا ثم شمالاً مرة أخرى، وكان ذلك بتعليمات من بروفيسور البرايت الذي يقرر اتجاه الحفر، وفي هذه الأثناء مرض كيني براون بحمّى شديدة وأخذت مكانه في الإشراف على عمال الحفر بالبوابة الجنوبية.

لقد حفرنا جزءاً من فناء لمنزل وكنا نهدف إلى إيجاد قاعدة عريضة ننطلق منها في الحفر إلى أسفل، وحفرنا لمسافة أربعة أقدام في كل نفق من الأنفاق الموجودة في السور المحيط بذلك الفناء . هنا قرر بروفيسور البرايت أن ننظف معظم الساحة ونغوص إلى أسفل، وكان ذلك الموقع يتطلب عملاً حاذقاً ودقيقاً إذ إننا بصدد العثور على آثار ومخلفات لا بد من الحفر حولها بعناية فائقة؛ وقد أصبح عمالنا مدربين على هذه الأمور تدريباً جيداً وأصبحوا يقدرون أهمية المحافظة على الشرائح والآنية الفخارية التي نعثر عليها ويقدرون قيمتها. أحد هؤلاء العمال وهو سالم الذي أحضرناه معنا من المكلاّ كسائق سيارة، أصبح رئيساً لمجموعة من العمال بأمر البروفيسور وقد أثبت جدارته بالبوابة الجنوبية يوماً بعد يوم.

في هذا الوقت أصيب العديد من أفراد البعثة بسلسلة من الأمراض المختلفة ، أولهم كيني براون، ثم تبعه دك باون، ثم بروفيسور البرايت ، ثم دكتور جام. أصبح قصرنا المصنوع من الطين عبارة عن مستشفي ميداني أكثر منه مكاتب لبعثة آثارية ، ولكن العمل لم يتوقف بتاتاً، وإن أبطأنا الخطى قليلاً؛ ضاعف الأصحاء من نشاطهم رغم الظروف القاهرة، وكان لابد أن تنشأ العديد من التعقيدات .

آويت إلى غرفتي في أحد الأيام وكنت مرهقاً، وفجأة أتى الصومالي جمعة إسماعيل يصيح بالعربية والانجليزية والصومالية، وقفزت نحو الباب مسرعاً حتى

اصطدمت بالعتبة، فإذا بي أجد (سالم) رئيس العمال وهو يحمل تمثالاً ضخماً أخضر لأسد يجلس على ظهره كائن آخر، وكان سالم يصيح بأعلى صوته :-

- صاحب ! صاحب ! صاحب فيليبس!

- أين وجدته ؟

- في منزل يفش.

ساعدت (سالم) وهو يضع التمثال الثقيل الوزن على سرير خشبي ، وهرولت لأحضر الباقين من غرفهم، بروفيسور البرايت ودكتور جام وكيني براون ودك باون.

وعندما جاء البروفيسور لم يندهش لهذا الكشف العظيم بقدر ما انزعج للطريقة التي تعامل بها معه سالم، فقد كانت تعليمات البروفيسور الا تحرك اي شيء كهذا من مكانه قبل أن يعاينه الخبراء ويشرفوا هم على اقتلاعه حتى لا يتهشم أو يتلف جزء منه في عملية التحريك . وكان سالم دائماً يتبع التعليمات ولكنه هذه المرة ظن أنه عثر على شيء بالغ الأهمية وأراد أن يطلعني عليه أولاً بأول. من حسن الحظ أن ذلك التمثال كان مصنوعاً من معدن صلب ولم يتأثر بالمعاملة التي تعرض لها.

بعد أن نبهنا البروفيسور لهذا الدرس الهام، وهو أن نضبط اعصابنا والا ننفعل بما نكتشف ونتعامل مع هذه القطع بحذر حسب النظم والأسس المتفق عليها، بعد ذلك ألقينا نظرة ثانية فاحصة على تمثال الأسد . كان مصنوعاً من البرونز، وكان يجلس عليه الفتى كويبيد، يحمل سهماً في إحدى يديه ولجاماً حديدياً مقطوعاً في الأخرى، الجزء الآخر من اللجام موصل بطوق حول عنق الأسد، وفي قاعدة التمثال كانت هناك نقوش كثيرة بالخط القتباني . في تلك اللحظة جاء

بروفيسور ساندي هنيمان من الموقع واشترك مع الآخرين في فحص الأسد . وبعد أن تفرس العلماء الثلاثة، البرايت وجام وهنيمان ، في هذا الكشف الأثري، رفع البروفيسور البرايت رأسه وقال :-

- وندل، لقد وجدناها، بحق السماء وجدناها! وأومأ دكتور جام وهيمان برأسيهما موافقين ، وهما يبتسمان ، وكان بروفيسور البرايت منتشياً للغاية .

قلت له : -

- وجدنا ماذا يا بروفيسور؟

قال :-

- التاريخ . انظر !

مال البروفيسور نحو قاعدة التمثال مرة أخري وقرأ :-

- « ثويبم وعقربم ذوي مهسنعم شيمو يفش »* .

وواصل البروفيسور :-

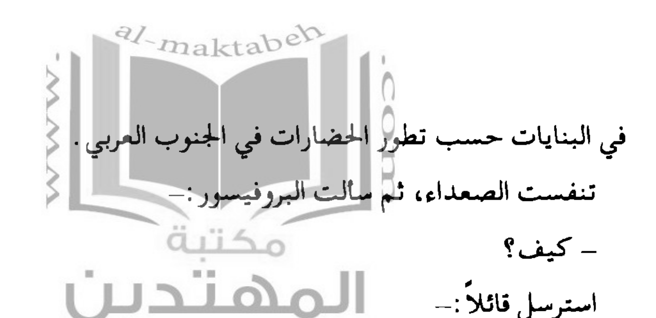
- ذلك يعني أن ثويبم وعقربم أعضاء أسرة مهسنعم الذي صمم رسومات ونقوش منزل يفش، وهو الذي صمم هذا التمثال، أو أمر بصنعه .

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني ذلك أن هذا الكشف فريد من نوعه في سجل آثار الجنوب العربي، وسيلقي الضوء على موضوع التسلسل التاريخي ويساعدنا في تحديد الزمن الذي حكم فيه كل واحد من ملوك قتبان ونستطيع أن نعرف كل نوع من أنواع الطابوق

---

* نقش الاسد هو النقش الذي نشره البرت جام فيما بعد تحت رقم جام١٢٠ (Ja 120) والفعل (شيم) هنا لايعني هنا صمم وزخرف وإنما معناه: اقام ، شيد أنشأ والصيغة (شيمو) هي هنا صيغة المثنى .(المراجع)



في البنايات حسب تطور الحضارات في الجنوب العربي.

تنفست الصعداء، ثم سألت البروفيسور:-

- كيف؟

استرسل قائلاً:-

- هذا الأسد نسخة من الأصل اليوناني (الهيليني)* ومن المحتمل أن يكون هذا التقليد قد تم قرابة عام ١٥٠ق.م . حيث إن اليونانيين بدأوا نحتها ، أي نحت مثل هذه التماثيل، في ذلك الوقت. وإذا أمر الملك شهر يجل يهرجب بإعادة تصميم الديكور لمنزل يفش ،كما عرفنا الآن، فلا بد أن ذلك هو الوقت الذي أمر فيه بنصب هذا التمثال لأن النحاتين نفسيهما قاما بالعمليتين نفسيهما. لذلك فإن الملك يهرجب عاش في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد، وليس الخامس أو السادس أو حتى الثامن كما أشيع من قبل . وبهذه الطريقة نكون قد توصّلنا لحل المعضلة الأساسية الخاصة بالتسلسل الزمني.

لقد كان تصريح البروفيسور من الأهمية بمكان وكان حافزاً لنا لكي نعود للبوابة الجنوبية بشغف أكثر حتى نفحص المكان الذي تم فيه اكتشاف الأسد. أشار سالم للمكان بالتحديد، بالقرب من حائط منزل يفش، وكان التمثال مدفونا تحت كوم من الرماد والحطب المتفحم، وبذلك فيما يبدو كتبت له النجاة من الغزاة والباحثين عن الغنائم ، وإلا فكان مصيره أن يؤخذ ويذاب بواسطة النار للاستفادة من البرونز الذي صنع منه.

أراد جميع رفاقنا أن يذهبوا للموقع رغم المرض، وذلك من فرط الحماسة التي

---

* الهيلينية هي فترة في تاريخ الحضارة اليونانية تبدأ في القرن الرابع ق. م. وتنتهي بالقرن الأول ق.م.(المراجع)

أصابتهم بعد العثور على تمثال الأسد، ولكن دكتور ماكش أصر على البرايت وجام أن يعودا لسريريهما ، وكذلك كيني الذي عمل معي لبعض الوقت ثم آوى إلى فراشه في منتجعنا.

بعد نصف ساعة من ذهاب كيني صاح عبد الله وهو من أفضل العمال:-

- بقشيش ! بقشيش ! يا صاحب!

ذهبت نحوه ببطء وهدوء إذ إنني لم أتوقع كشفاً ثانياً في يوم واحد بالأهمية نفسها وكل ما توقعته هو نقش صغير أو أسورة متحجرة. عبد الله كان يشير بيده نحو قطعة من الحديد خضراء اللون ظهر طرف منها من بين ركام الرماد الذي يغطيها ، في مكان يقع على بعد بضع أقدام إلى الأسفل من حيث وجدنا تمثال الأسد.

بدأت في إزالة الرمل عن الجسم الذي اكتشفه عبد الله، والتف حولي كل العاملين بالموقع مما أغضب سالم رئيس العمال وكادت تنشب معركة بينه وبينهم. استخدمت الفرشاة بحرص لإزالة الأتربة والرماد ، وصار الجسم الأخضر أكبر، ثم واصلت التنظيف ، والجسم يكبر. في هذه اللحظة لحق بنا شارلي ماكولم بعد أن فرغ من تشحيم سيارات «البوار واقن» ، وشارك معي في إزالة الرماد عن الجسم الأخضر. أرسلنا في طلب كيني براون ليحضر هذا الكشف الجديد لأنه لم يحضر ما سبقه بسبب المرض، وكذلك طلبت أوكي دومين ليصور الحدث بكاميرته سبيد قرافك. في هذه الأثناء قام شارلي بأخذ قياسات الجسم الأخضر بالنسبة لحائط منزل يفش، وعندما وصل كيني وأوكي كنا قد أكملنا عملية إزالة الرمال، واكتشفنا أن الجسم مكسور.

حجم الجسم وشكله قبل أن يخرج كله من الرمال مشابه للأسد الذي عثرنا

عليه صباح ذلك اليوم نفسه. كان مدفونا ووجهه إلى أسفل، وأخيراً تمكنا من رفعه لنكتشف انه أسد برونزي مطابق للآخر، ومعه كيوبيد إله الحب، الفرق الوحيد أنه كان منصوباً في اتجاه معاكس للأسد الآخر؛ رغم الإصابات الطفيفة فإن هذا التمثال كذلك بحالة ممتازة كان جميلاً ومكتملاً. كان ذلك يوم النصر للبعثة بحق.

عدنا إلى المعسكر ووصفنا ما حدث لألبرايت الذي قال إن هذه الأسود بكيوبيداتها قلّدها القتبانيون من المصريين الذين ظهرت عندهم في العصر اليوناني الثاني (الهيلينستي). هنالك تفاصيل متعلقة بطريقة النحت وضحت للبروفيسور الفترة الزمنية التي تم فيها صنع هذه التماثيل. موضوع التمثالين كان شائعاً في بومبيي* وفي غيرها من الأماكن إبان العصر الهيلنستي، وهو الحب الجنسي الذي يرمز له كيوبيد الذي يروض أسداً متوحشاً ويركبه بعد أن يلجمه بسلسلة حديدية يقوده ويوجهه بها.

فكرة كيوبيد والحب جعلتنا نظن أن هذا الصرح المسمى منزل يفش ربما كان يستخدم كمعبد لممارسة الدعارة باعتبارها أحد الطقوس الدينية. كانت هناك طقوس وثنية يمارس خلالها الجنس مع راهبات متفرعات في كثير من مناطق العالم القديم. فهل كانت هذه الطقوس تمارس في قتبان ؟ هل كان منزل يفش محرابها؟ هذه الأسئلة وغيرها كثير نامل أن نحصل على أجوبة لها من خلال

---

* بومبي Pompeii مدينة أثرية إيطالية بالقرب من نابولي عند سفح جبل فيزون تعرضت عام ٧٩ ميلادية لحمم بركانية من الجبل المذكور اصابت بعض أجزائها.(المراجع)



أحد الأسود البرونزية التي وجدت في تمنع (٧٥ ٥٠ ق م) أسهم اكتشافها في إعادة النظر في كرونولوجيا أو التسلسل التاريخي للعربية الجنوبية.



البروفيسور هنيمان يمسك رأسا من المرمر لإمرأة (القرن الأول ق.م) أجمل نحت لإنسان في الجنوب العربي. أطلق عليها اسم (مريم)

عملنا القادم*.

كانت المهارة التي صُمّم بها التمثالان عالية جداً، وقد صُبّا بطريقة يسميها الفرنسيون « سيربردو » كان يعرفها القدماء، ثم انقطع أثرها لبضعة قرون ثم أعيد اكتشافها بواسطة النحّات الإيطالي الشهير بنفنوتو سيليني الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي. كما يؤكد الإتقان الفني الذي يعكسه التمثالان ما قاله الرحالة اليوناني استرابو الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد عن براعة أهل الجنوب العربي في ذلك الزمن؛ هذا العمل الفني أكثر من أي شيء آخر عثرنا عليه حتى الآن يؤكد ما قاله استرابو بأن عرب الجنوب ماهرون في صبّ المعادن لدرجة بعيدة.

تحدث البروفيسور البرايت إلينا جميعاً في المساء ومرة أخرى حول أهمية الأسدين، وقال بأنهما يدللان على أن الملك الذي أمر بنحتهما لم يعش قبل عام ١٥٠ ق.م، وقد وجد البروفيسور في الكتابة المنقوشة في قاعدتي التمثالين اسم الفنان الذي صمم منزل يفش كله الذي بني في عهد الملك شهر يجل يهرجب، وهو بالتأكيد سليل أسرة حكمت وتعدّدت ملوكها، وقد ضُربت عملة ذهبية في عهود ثلاثة من أولئك الملوك، وكانت تلك العملات تقليداً لعملات العهد اليوناني الثاني (الهيلينستي). الفنان واسمه ثويبم كما هو منقوش على الأسدين، منقوش اسمه أيضاً على جدار منزل يافاش ضمن الكتابه التي تتحدث

* لقد تبين أن بيت يفش كان قصرا خاصاً لأحد ملوك قتبان وأما بخصوص ما يرمز إليه كل من الأسد والطفل في التمثالين المذكورين فإن الأسد يرمز للشمس وأما الطفل فيرمز لابن الشمس وهو الإله عشتر. وبالتالي فلاصحة ولادليل على ما ذهب إليه المؤلف من تفسير حول الغرض من بناء بيت يفش. (المراجع)

عن إعادة تصميم المنزل في عهد الملك شهر ياقل يوهارقب.

في الجانب المقابل لمنزل يفش هنالك منزل يفعم أي يفع الذي يحتوي على طابوق ونقوشات تاريخها أحدث من يفش. الاكتشافات اليومية التي نعثر عليها والأسدان تعطي في مجملها فكرة عن التسلسل الزمني ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والتاريخ الذي دمرت فيه تمنع في عهد المسيح عليه السلام أو قبله بقليل.

وهكذا فإن العربية السعيدة القديمة أخذت تتكشف لنا رويداً رويداً من تحت ركام الزمن، ولأول مرة أصبحت معلوماتنا عن تاريخ حضارات العربية الجنوبية مبنية على أساس علمي صلب.

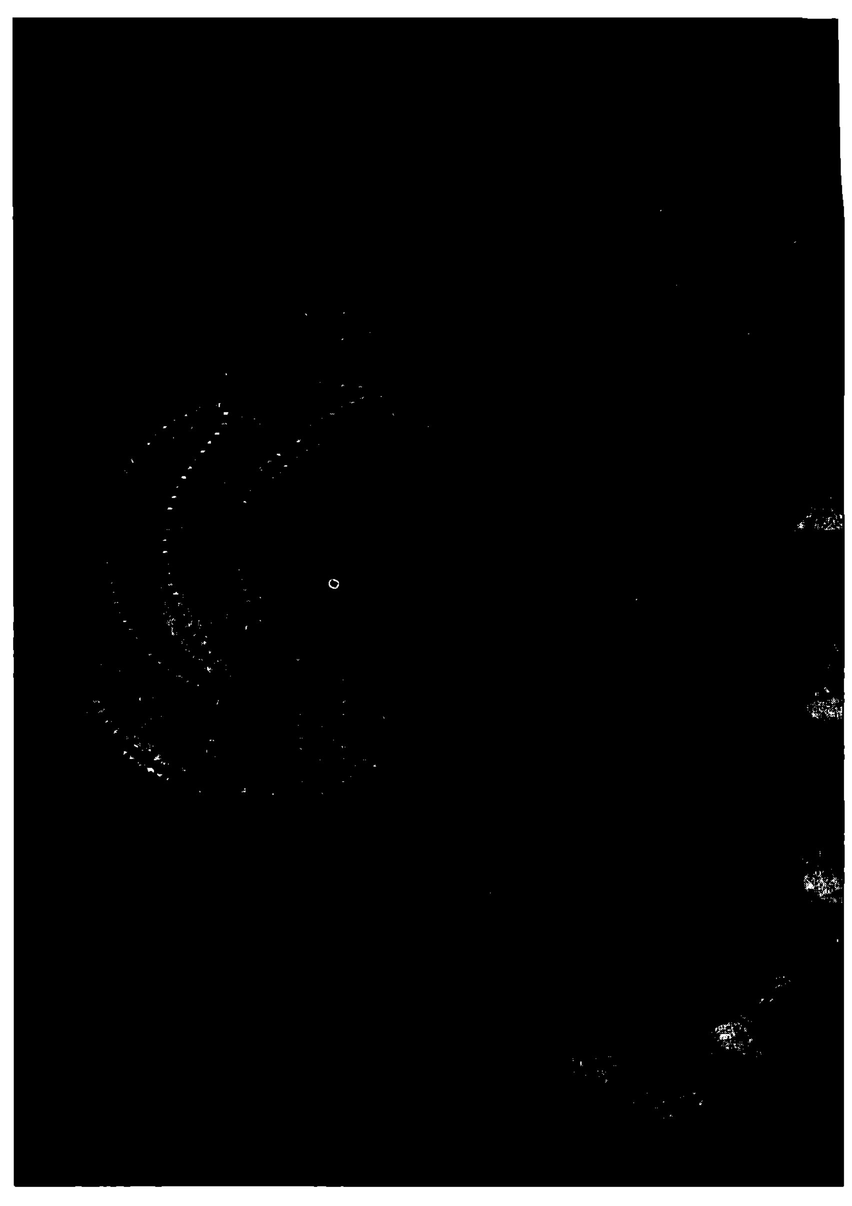
الفصل العاشر

ملكــــة ســــبأ

في الصبـاح البـاكـر لأحـد الأيام أخـذ الدكـتـور بوين في استطلاع بعض التلال الأثرية الصغيرة إلى الشمال من هجر بن حميد، عندما اقترب منه أعرابي رث الثياب حاول أن يطلعه على أمر هام باللغة العربية مشفوعة بلغة الإشارة ؛ ولم يهتم بوين بالأمر لأنه شك في مقدرة ذلك الأعرابي على معرفة المهم من غير المهم في عـالم الأثريات ، ولكنه أيضـا يدرك من تجاربه أنه من الضروري ألا يهمل الآثاري أي خيط يتناهى إليه، بل عليه أن يدرسه ويتفحصّه.

قفز «بوين» إلى سيارته «البور واقون» وأومأ لأَعرابي أن يركب معه وانطلقا في الاتجاه الذي أشار إليه الأعرابي . سارت السيارة لمسافة ثلاثة أميال باتجاه الشمال فوق الوادي، ثم إنعطفا يساراً عبر وادٍ صخري ضيّق ، وما فتيء ذلك الوادي يضيق حتى عجزت السيارة عن المضي فيه فتركاها وواصلا سيرهما راجلين. قاد الأعرابي الطريق عبر درب أكثر ضيقا من سابقه تحف به صخور، إلى أن وصلا إلى معلم أكثر ندرة من الآثار التاريخية، وهو العديد من عيون الماء التي حجبتها الصخور العالية عن الشمس وحفظها الوادي الضيق في نطاق محدود هذا هو «وادي الفرع» وهو المكان الوحيد الذي تتوافر فيه بحيرات للماء العذب في كل منطقة بيحان، وواحدة من المناطق القليلة من نوعها الموجودةفي كل منطقة الجنوب الغربي للجزيرة العربية.

قاد الأعرابي «دك» نحو أعلى تل شديد الانحدار ، إلى أن وصلا إلى صخرة عليها نقوش قتبانية، وأدرك دك أن النقوش لا بد أن تكون مهمة، ولكنه في



عقد ذهبي نادر بسلسلة اكتشف في مقبرة تمنع يرمز الهلال لإله القمر القتباني



قبور تمنع الأثرية



إحدى عشرة تحفة مرمرية في قبر بتمنع

الحقيقة كان سعيداً بالأشياء الأخرى التي لاحظها على جدران ذلك الوادي السحيق. أعداد ضخمة من الرسومات المنحوتة على الصخر، من النوع الذي يكتبه صبية اليوم على الحيطان (المخربشات)*، وكانت عليها كتابات على شكل جمل قصيرة من النوع الذى نقرأه اليوم على الحيطان والأشجار، مثل: (كلروي كان هنا - تذكار من كلروي!). هذه هي المواد البسيطة والمباشرة التي قد تشكل كنوزاً آثارية هائلة في كثير من الأحيان.

قفل «دك بوين» راجعاً بسرعة للمكتب لإحضار دكتور «جام» عالم النقوش، وفي عصر اليوم نفسه عاد بوين مصطحبا جام لوادي الفرع، ولقد فرح جام أيضاً بهذه الكشوفات التي جاءت بمحض الصدفة وقضى باقي النهار يدرس كتابة المخربشات التي وجدها على تلك الصخور. وفي المساء أعلن جام أنه اكتشف نوعاً من الكتابة في «وادي المخربشات» لم يعرف مثلها من قبل. كان المخربش على ثلاثة أسطر، من اليسار إلى اليمين بخلاف النوع المعروف حتى ذلك الوقت حيث كان السطر الأول يقرأ من اليمين إلى اليسار، والسطر الثاني من اليسار إلى اليمين، وهكذا، وتلك هي طريقة الكتابة الشائعة في الجزيرة العربية القديمة. وكما لاحظ البرايت فإن الرسوم التي وجدها جام هي مثال لأقدم أنواع الكتابة التي عرفتها الجزيرة العربية حيث كانت من اليسار إلى اليمين، كما هو الحال بالنسبة لليونانية واللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة.

المخربش الذي عثر عليه دكتور جام هو أقدم شيء عرف حتى الآن من المملكة القتبانية القديمة، ويعود تاريخه في الغالب للقرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد.

---

* المخربشات عبارة عن رسوم أو نقوش مكتوبة بطريقة الحفر بواسطة آله حادة على الصخور أو الأبنية. (المراجع)

وقد احتوى المخربش على ثلاثة أسماء مذكورة في الإنجيل: «نَباط» هو الاسم العبري لوالد «جيروبوم» أول ملك لإسرائيل، «علي» هو نفس الاسم بالعبري «إلي» القس الأكبر المذكور في الفصل الأول من «صمويل الأول»، «ياقور» هو اسم موضع في يهودا. إن العلاقات الوطيدة بين الجنوب العربي ومناطق بني إسرائيل المذكورة في الإنجيل أصبحت أوضح من ذي قبل عندما سمعنا صدى هذه الأسماء بين ما تضمّنه المخربش*.

قام نفر منا بزيارة وادي الفرع في الصباح الباكر من اليوم التالي بغرض دراسة هذه الكتابات المسماة بالمخربشات، وما إن وصلنا حتى جلس الدكتور جام متكئاً على حجر صفوان وهو يقرأ الكتابة على الحائط الصخري المقابل مستخدماً منظاراً مكبراً. إن المخربشات لا تحفر بعمق في الصخر ويصعب تبيّنها والعثور عليها. وبينما استرسل جام في مهمته أخذنا نحن نمشي هنا وهناك في الوادي بحثا عن القبور أو غيرها من الآثار التي قد تدلنا على معلم أو أثر هام. وبعد ساعتين رجعنا إلى الدكتور جام لنجده في المكان نفسه الذي تركناه فيه جالساً القرفصاء والنظارة المكبرة في يده يحدق باهتمام وبشيء من الغضب في الحائط الصخري المقابل.

وعندما سأله دك عن الخطب قال جام إنه فقد المخربش الثمين، ولم نصدق آذاننا. كيف يمكن أن يختفي حجر كبير صلد يحتوي على هذه النقوش وهو جزء ثابت من حائط صخري على أحد جنبتي الخور؟ ثم حدث شيء مدهش بعد ذلك. فجأة تمكن جام من رؤية المخربش على الحائط، ولم تكن المسالة معجزة، ولكنها فقط الزاوية التي نظر منها على الحائط وكمية الضوء المتوافر. تمكن جام

---

* لاصحة لما ذكره المؤلف من وجود علاقة بين الأسماء التي وردت في المخربش ومواضع لبني اسرائيل ورد ذكرها في العهد القديم.(المراجع)

من رؤية المخربش فجأة لأن أحد الأشخاص تحرك وحجب الضوء عن الصخرة ، ويبدو أن المخربش لا يظهر إلا مع الضوء الخافت؛ عندما رآه دك وجام عصر البارحة كانت الشمس آيلة للمغيب وضوؤها خافت .

هتف جام سعيداً : (وجدتها!) ، وأخذ في قراءة الكتابة القتبانية، وربما تكون هذه أول مرة يتحدث شخص هنا بالقتبانية منذ ثلاثة آلاف سنة استمر الدكتور جام في دراسة النقوشات الأخرى التي بلغ عددها مائة وخمسين مخربش على صخور وادي الفرع، وكان بعضها قديماً للغاية ومفيداً من حيث قيمته التاريخية، وقد برز فيها حرف « الألف » وهو أول الحروف الأبجدية باللغات السامية، الأقرب للحرف A في اللغة الإنجليزية؛ وقد رأينا في هذا الحرف، وفي حروف كثيرة غيره، تشابهاً قوياً مع الحروف الأبجدية الكنعانية القديمة التي انحدرت منها الفينيقية والعبرية ولغات الجنوب العربي . ومنذ زمن طويل ظل البروفيسور البرايت يزعم بأن اللغة المكتوبة في الجنوب قد انسلخت من الكنعانية التي كانت سائدة في الشمال في القرن الثالث عشر قبل الميلاد؛ وهذا المخربش بالذات تشبه حروفه اللغة الكنعانية ويبدو أنه كتب في زمن قريب من ذلك الانسلاخ من اللغة الأم* .

حملتنا الحفريات التي أجريناها إلى القرن الأول والثاني والثالث والرابع قبل الميلاد، إلى الزمن الذي تهدمت فيه تمنع، ولكن وادي المخربشات حملنا إلى أبعد من ذلك بخمسة أو ستة قرون حتى شارفنا عهود الأنبياء الأوائل وزمن بلقيس ملكة سبأ التي عاشت في مأرب ، وتلك منطقة تبعد عن وادي بيحان نحو أربعين ميلاً فقط . لم تمر بنا من قبل آثار أو شواهد تعود بنا لعهد بلقيس الذي كانت ذروته في عام ٩٥٠ ق.م تقريباً، والآن رأينا في هذا المخربش ما يشير إلى أنه كتب

---

* انظر ما أوردناه في حاشية الصفحة رقم ٨٨(المراجع)

في ذلك الزمن، فما كان غريبا أن نعقد المقارنات ونفكر في العلاقة الوثيقة بين الحضارات التي نشأت في مملكة سبأ والحضارات الأخرى التي سادت جنوب الجزيرة وشمالها الأقصى.

لقد كثرت الأساطير التي تتحدث عن بلقيس ملكة سبأ ، ولكنها ذُكرت أول مرة في الكتب السماوية في سفر الملوك الجزء العاشر حينما رويت قصة زيارتها للنبي سليمان عليه السلام في بيت المقدس . كان النبي سليمان، الذي يعتقد البروفيسور ألبرايت أنه عاش بين عام ٩٦١ و٩٢٢ ق.م ، كان يدير تجارة نشطة ما بين البحر الأحمر والمحيط الهندي. وكما جاء في سفر الملوك فإن بلقيس جاءت من سبأ إلى القدس في قافلة من الجمال، وكانت لزيارتها أهمية تجارية كبرى وقد أهدت سليمان: (١٢٠ سلسلة من الذهب، وكمية ضخمة من التوابل والعطور والحجارة الكريمة ، لم يكن لها مثيل من قبل).

وليس من قبيل المصادفة أن هذه الزيارة حدثت بفترة وجيزة بعد تمكن الإنسان من إستئناس الجمل وما تبع ذلك من توسع هائل في التجارة عن طريق قوافل الجمال؛ أو كما جاء في الزبور: ستأتي من مدين وايفاه، وستأتي من سبأ تحمل الذهب والبخور وتسبح بحمد ربها.)

حتى الآن لم نجد دليلاً يشير إلى وجود قوافل للجمال قبل القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وأول رسومات لرجل على ظهر بعير ظهرت في القرن العاشر قبل الميلاد.

ذهب بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن ملكة سبأ هي في حقيقتها ملكة شمالية لقبيلة بدوية متنقلة في شمال الجزيرة العربية ، وليست مليكة أمة عاشت في

الجنوب العربي وعاصمتها مارب*. ورغم أن الملكات اللائي ورد ذكرهن في النقوش المسمارية الآشورية أكثر عدداً من الملوك الرجال ما بين عام ٨٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م، إلا أن ذلك لا يعني وجود الملكات في شمال الجزيرة فقط، كل ما أشارت إليه تلك النقوش هو أن العرب في تلك الأيام كانوا يفضلون الملكات النساء على الرجال. وكثير من الشعوب تعطي أهمية أكبر للنسب من ناحية الأم لأنه أسهل في التحديد من ناحية الأب، وكثير من الشعوب تتوارث فيها العروش عن طريق الأم، مما يزيد من عدد الملكات النساء.

ربما كانت بلقيس ملكة للسبئيين عندما كانوا متنقلين بدواً وقبل أن يستقروا في مأرب، ولكن ليس هنالك دليل على أنها أقامت في الشمال ولا في الجنوب. الجزء الأول من سفر التكوين يتحدث عن السبئيين كقبيلة من قطاع الطرق: (وجاءهم السبئيون غازين واختطفوهم، إلا أنهم ذبحوا الخدم بحد السيف، ونجوت أنا فقط لأقص عليكم نبأهم.)

كل ما نعرفه عن بلقيس ملكة سبأ هو ما جاء في الإنجيل، ولم نجد نقوشاً في الجنوب العربي ولا حتى في مأرب تشير إلى أي ملك لسبأ قبل القرن الثامن قبل

---

* لقد قدمت الاكتشافات الأثارية التي تمت في اليمن في السنوات الأخيرة وخصوصا اكتشافات مدينة بلا الأثرية السبئية التي يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثاني ق. م. الأدلة القاطعة على ان موطن مملكة سبأ الاصلي هو منطقة مَأرِب باليمن وقد وصف القرآن الكريم ملكة سبأ وشعبها وما بلغه من تقدم حضاري بما لاينطبق إلا على مملكة سبأ التي عاصمتها مَأرِب أرض الجنتين كما وصفها القرآن وجاءت النقوش السبئية المكتشفة بما يؤيد ذلك الوصف وبالتالي تتهاوى كل الادعاءات والمزاعم التي تجعل من بلقيس ملكة شمالية (اي في شمال الجزيرة العربية) أو حبشية أو غير ذلك مما هو مبني على ماتردده الروايات الاسطورية التي حاكتها خيالات الشعوب.(المراجع)

الميلاد، أي بعد قرن ونصف من عهد بلقيس التي ورد ذكرها في الزبور والإنجيل والقرآن. أول حكام ورد ذكرهم في النقوش هم «المكرّبيون»* أي الذين يقربون الأشتات ويجمعون الشمل، وهم حكام جمعوا بين الزعامة السياسية والدينية في كل ممالك الجنوب العربي القديمة، وقد حكموا قبل ملوك سبأ بثلاثمائة عام على الأقل. وهكذا فإن بلقيس تنتمي إلى فصيلة معينة من الملوك عرفها العرب الأقدمون ، بيد أنها حظيت باهتمام خاص وشاب سيرتها كثير من المبالغات التي لا تسندها البراهين الآثارية، بينما تجمع كل القصص المسندة منها وغير المسندة على سحر هذه المليكة وجمالها الفاتن الأخَّاذ وعظمتها وأبهتها.

تقول إحدى الروايات إن سليمان سمع الإشاعة التي سرت في قصره بعد أيام قليلة من زيارة بلقيس له والتي تقول بأن لها رجلي عنزة كثيفة الوبر. ولكنه بالطبع ما كان يريد أن يحرجها بأن يطلب منها رفع إزارها وكشف ساقيها، ففكر في خطة ذكية: طلب من مهندسيه المعماريين أن يرصفوا أرضية قصره ببلاط شفاف من الكريستال يشبه الماء تماماً. وفي ذات يوم دعا سليمان ضيفته لذلك الجناح من القصر، ووقف بانتظارها على البلاط الكريستالي ، وعندما اقتربت الملكة من البلاط ظنت أنها فعلاً أمام سيل من المياه فلملمت أطراف إزارها ورفعته استعداداً للخوض، عند ذلك تمكن سليمان من رؤية ساقيها الجميلتين العاديتين، فليس هنالك شعر ولا وبر ولا ساقان كساقي العنزة.

* المكرب هو لقب لرئيس اتحاد قبلي في الفترة القديمة التي سبقت استخدام لقب "ملك" ونعرف من خلال نقش صرواح الكبير أن ذلك الانتقال من استخدام لقب "مكرب" واتخاذ لقب "ملك" قد حدث بالنسبة لسبأ في القرن السابع ق.م. وهو التاريخ الذي يعود إليه النقش والذي ورد فيه ذكر لقب "مكرب" ثم لقب "ملك" للعاهل السبئي صاحب الحملات العسكرية الواسعة كرب إيل وتر. (المراجع)

وحسب الأسطورة الأثيوبية فإن الملكة بلقيس كانت امرأة محصنة وعفيفة وطاهرة، وقد أشاحت بوجهها عن دعوات الملك سليمان. وفي ذات ليلة أطعمها مضيفها سليمان وجبة دسمة كثيرة البهارات، ووضع إناء الماء البارد بجوار سريره، بينما ترك كوباً بلا ماء قرب سرير بلقيس. عندما جنّ الليل عطشت بلقيس فدخلت غرفة سليمان على أطراف أصابع رجليها بحثا عن الماء، ولكنها بذلك وقعت في شباكه إذ كان ينتظرها وهو يقظ وشبق*.

قد تشطح الروايات والأساطير، ولكن ليس هنالك سبب يجعلنا نتشكك في وجود شخصية اسمها بلقيس ملكة سبأ، وهذا ما ستؤكده الكشوفات الأثرية في المستقبل. إننا نأمل أن تعيننا الأبحاث المستقبلية على كشف النقاب عن قصة بلقيس كاملة مثلما فعلت مع العديد من الشخصيات والروايات الواردة في الكتب السماوية عن عهد الملكة بلقيس؛ لقد أظهرت لنا الكشوفات الحديثة مثلاً مدينة سليمان المليئة بالعربات التي تجرها الخيول، وكان ذلك في أثناء حفريات منطقة «مجدو»، كما تم اكتشاف أفران صهر النحاس الخاصة بالملك سليمان في «تل الخليفة»، كما تم العثور على العديد من الشواهد التي تثبت انتشار الفينيقيين في القرن العاشر قبل الميلاد بمنطقة البحر الأبيض المتوسط.

وكشفت البحوث الآثارية كذلك عن براهين ووثائق تتحدث عن رحلات الملك سليمان إلى «أوفير». يصف الإنجيل «أوفير» بأنها أرض الذهب ويقول بأن السفن كانت تقلع من فلسطين وتأخذ ثلاث سنوات لتبلغ أوفير. وفي عام ١٩٤٨م اكتشفت قطعة فخار بتل القواصلة في ضاحية تل أبيب عليها نقوش تعود للقرن الثامن قبل الميلاد، وتتحدث عن ثلاثين قطعة من العملة الذهبية

* هذا قول لا يليق في حق نبي معصوم اصطفاه الله واجتباه لإعلاء كلمة التوحيد في عصره. (المراجع)

جاءت من أوفير، وكان ذلك أول ذكر مكتوب لأوفير وذهبها في غير الكتاب المقدس.

هنالك خلط شائع بين كلمة «أوفير» وكلمة «بلاد بونت»* ، وتستخدم الكلمتان كأسماء للجنوب العربي. ولكن في الواقع كلمة «أوفير»** هي كلمة عبرية تعني «الصومال» وما جاورها من مناطق، أما «بنت» فهو الاسم الذى أطلقه قدماء المصريين على منطقة الصومال نفسها، وليس هنالك أي دليل أو سند يجعلنا نفترض أن الاسمين (أوفير وبونت) يشملان الجنوب العربي كذلك. وكان البروفيسور البرايت قد أشار قبل ثلاثين عاماً من الآن إلى أن «القردة والطواويس» التى جلبت من أوفير، كما ورد في الجزء الثاني والعشرين من سفر الملوك، ما هي إلا نوعان من القردة جلبها قدماء المصريين من بلاد بونت. استخدام كلمة طواويس كان تخليطاً غير مقصود ناجماً عن الظن الخاطئ بأن أوفير هي جزء من شبه القارة الهندية المشهورة بالطاووس.

---

* بونت Punt اختلف الباحثون في تحديد مكانها فمنهم من يجعلها في بلاد الصومال على الساحل الأفريقي الشرقي وآخرون يرون أنها تشمل الساحلين العربي والأفريقي الواقعين جنوبي باب المندب بما في ذلك جزيرة سقطرى. (المراجع)

** أوفير Ophir : هذا الاسم الذي ورد ذكره في كتاب العهد القديم مازال موضع خلاف بين المختصين فبينما يميل البعض إلى اعتباره ساحل جنوب الجزيرة العربية من عدن وحتى ظفار يرى آخرون أنه الساحل الشرقي لأفريقيا. (المراجع)



الفصل الحادى عشر

مريم وعقد الذهب

كانت مقبرة تمنع بمنطقة حيد بن عقيل مصدراً جيداً لدخل بعض الأعراب لفترة طويلة من الزمن. فرغم أنه لم تكن هنالك حفريات أثرية رسمية باستثناء بعثة «جيرترود كاتون توميسون» بحريضة وبعثتنا هذه بتمنع، إلا أن الأعراب البدو ظلوا ينقبون بطريقتهم الخاصة ويحفرون الرمل حيثما أحسوا بوجود كنز، وظلوا يعثرون على قطع ثمينة من الحلي والأواني والقطع الأثرية النادرة، وظلوا يبيعونها في الأسواق منذ زمن طويل إذ إنها مرغوبة والطلب عليها لا يفتر.

في عدن مثلاً كانت هنالك مجموعة أثرية ممتازة بحيازة الثري الهندي «المستر كيكي منشرجي» الذي عرضها ذات مرة على متحف أمريكي مقابل مائة ألف دولار. وقد رأيت بنفسي العديد من القطع النادرة في أيدي الباعة، ورأيت ما يثبت أنها من منطقة البوابة الجنوبية بتمنع، ومن مقابر حيد بن عقيل الأثرية.

قمت بزيارة أحد مشاهير لصوص القبور الأثرية بتمنع، ولما أردت أن أنصرف من منزله مدَّ يده وناولني بعض القطع الأثرية القيمة كهدية لي، وأشار إلى المكان الذى وجدها به، وهو مقابر تمنع.

معظم العرب المقيمون ببيحان لا يعرفون العصور التاريخية التي تنتمي إليها الآثار الموجودة حولهم، ولا يولونها أي اهتمام، والسبب الأساسي لهذا الموقف السلبي هو أن تلك الأشياء تتعلق بأيام الجاهلية السابقة للإسلام، وهي في رأي المسلم العادي لا تستحق الاهتمام لأنها أوثان مجوسية. وحتى أولئك العلماء العرب والمسلمون الكبار الذين عاشوا في العصور الإسلامية الذهبية في القرون الوسطى

لم يكلفوا أنفسهم أي مجهود يتعلق بدراسة والنقوش واللغات السابقة للإسلام*.

وحدث في إحدى المرات أن هنيمان عنَّف أحد العمال العرب على تعامله غير الحذر مع جمجمة أثرية في تمنع، فقال الأعرابي إنه لو كان حذراً لهذا الحد لما وجد الجمجمة بهذه السرعة. رفض البروفيسور هنيمان هذا التبرير ووضح للأعرابي أن هذه الجمجمة ظلت بهذا المكان منذ ألفي سنة ويمكنها أن تنتظر نصف ساعة أخرى. ولكن الأعرابي لم يكترث لذلك ولم يحس بقيمة الأثريات التي يقتلعونها من بين الركام والرمال.

رغم النهب المستمر للمقابر الأثرية فإن حفريات هنيمان استمرت وأفرزت الكثير المثير والمدهش بأكثر من توقعات الباحثين. بدأ هنيمان بدراسة قبور معينة منتقاة بعضها في أسفل التل وبعضها بالقرب من قمته، مصمما على فحصها بدقة واحداً بعد الآخر كنماذج تغنيه عن دراسة كل القبور الموجودة بذلك المكان.

وفي عصر أحد الأيام، والشمس آيلة للمغيب ، والعمال يغنون جماعياً وهم على وشك الانتهاء من عملهم ، صاح أحدهم فجأة: (يا صاحب!). جاء هنيمان مسرعاً من قبر آخر كان يعمل فيه ليرى جزءاً من أذن بشرية واضحة بين

---

* هذا النفي القاطع غير صحيح فقد قدم لنا ابن الكلبي (توفي سنة ٢٠٤هـ وقيل سنة ٢٠٦هـ) مؤلفات عديدة اهتمت بتاريخ العرب قبل الإسلام وذكر انسابهم وخصوصا مؤلفه الذي افرده لديانة العرب قبل الإسلام والمسمى "كتاب الاصنام" ثم جاء بعده لسان اليمن ابو الحسن الهمداني (٢٨٠ - ٣٦٠هـ) وكتب مؤلفات عديدة لا يتسع المجال لتعدادها منها كتاب الإكليل في عشرة أجزاء عُرفت منها اربعة أجزاء ومن بينها الجزء الثامن والذي أَفْرَدَهُ لمحافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها وهو بحق مسح أولي للمواقع الأثرية باليمن حاز به الهمداني قصب السبق. (المراجع)

الرمال، وظهرت كأنها مصنوعة من الشمع.

تولى هنيمان الحفر بحرص شديد حتى يستخرج تلك الأذن وما تبعها دون أن تنهار عليها الرمال أو الحجارة، وأفرغ الرمال من حولها بمساعدة العامل أبوبكر، إلى أن أخرجا من بين الرمال وجهاً جميلاً صقيلاً لامرأة فاتنة، منحوتاً من المرمر الشفّاف. استبدت الفرحة بهنيمان ولكنها لا تساوي شيئا إزاء السعادة التي عمت أولئك العمال العرب؛ ليس ذلك بسبب البقشيش ولكن بسبب هذا التمثال الجميل الذي طالعهم، فهم لم يشهدوا وجهاً منحوتاً بهذا الجمال من قبل. أطلقوا عليها اسم مريم وقالوا إنها ابنة البروفيسور هنيمان، وبعد نقاش ساخن قرروا أن يزوجوها للفتى كيوبيد الذي يمتطي الأسد الأخضر الذي عثروا عليه في تمنع.

هنالك العديد من الملامح غير العادية التي تحلت بها مريم؛ شعرها مضفور في ضفائر تتدلى خلف رأسها بالطريقة المصرية ورغم أن جزءاً من أنفها مكسور إلا أنها مازالت تبدو جميلة للغاية، لها نونة في ذقنها ولون وجهها فاتح كالقشدة. أذناها مخرومتان للأقراط وهنالك خرم في المرمر الذي نحت منه الشعر ليعلق منه العقد. أما عيناها فهما المعجزة بعينها مازالتا بكحلهما ودلالهما وهو النوع نفسه الموجود في النقوشات والرسومات المصرية القديمة.

هنالك على كل صدغ من صدغيها فصدة بين العين والأذن، وهنا أخذت قطعة صغيرة مستطيلة من المرمر ووضعت أخرى بلون مختلف في مكانها، وهذه الفصود كانت رائجة بين أهل قتبان كما هي رائجة اليوم بين بعض القبائل العربية، ولا بد أنها كانت مثلما هي اليوم لعلاج بعض الالتهابات بالعيون أو كعلامة مميزة للقبيلة أو للمجموعة.

لقد جلبت مريم الحظ معها لعمال المقبرة لأنهم صاروا يعثرون على كميات هائلة من الأثريات بعد ذلك . ففي اليوم نفسه الذي خرج فيه تمثال مريم للوجود، عثر العمال على ملابس وأخشاب وقطع فخارية ومرمرية متاكسدة. ثم لفت أحد العمال نظر البروفيسور هنيمان لشيء أصفر يتلألأ في الرمال. وبعد عمل دقيق بالفرشاة حول ذلك الجسم وبعد فترة وجيزة أخرج البروفيسور ذلك الشيء.

كاد العمال يطيرون من الفرح عندما وجدوا ان الجسم هو عقد من الذهب، يتألف من سلسال ومدلاته في غاية الروعة والجمال. الواسطة تتألف من هلال تحف به ضفيرة من السلك الذهبي الدقيق، كتب عليها بالحروف القتبانية اسمان ، أحدهما لامرأة (هاجرلات) والآخر غريب بعض الشيء وهو (عالي فرعت) .

هذه الفتاة هاجرلات سوت شعرها بالطريقة المصرية واتخذت المساحيق اللازمة لعينيها ، وأجرت الفصود على خديها، ولكن الأنف والذقن ليسا مناسبين لها إنما هي من خيال المثال الذي صمم ذلك الوجه.

ثم كانت هناك الاكتشافات الأثرية الهامة للغاية التي قام بها البروفيسور هنيمان والتي مكنته من الاهتداء إلى الطريقة التي كان القتبانيون يدفنون بها موتاهم. كانت مقابرهم معقدة التركيب ومحكمة البناء، يتألف الواحد منها من مدخل وممر أمامه يقود إلى غرفتين أو أربع غرف، وكل غرفة لها حيطان مبنية من الحجارة التي تستخدم في أرضيات الغرف. وقد وجد البروفيسور هنيمان أكواماً من العظام في هذه السراديب ولكنه لم يجد هيكلاً عظمياً كاملاً لإنسان، وكانت كثير من العظام محروقة ومتفحمة تخالطها آنية مكسرة وحبات عقود مبعثرة ونتف من شواهد القبور.

وجدت الأثريات والتحف الجميلة التي تم اكتشافها خارج سراديب المقابر ،

وغالبا في الممر الملاصق للبوابة، وهي دائماً شواهد منقوش عليها وآنية فخارية سليمة في بعض الأحيان، وهنا وجد الرأس الذي أطلق عليه اسم مريم. ويعتقد البروفيسور هنيمان أن الغرف داخل القبر ليست لدفن الموتى ولكنها مخزن للعظام (مَعْظَمة)، وكان الممر الملاصق للبوابة مكاناً تمارس فيه الطقوس الدينية الخاصة بالمتوفي. ويقول البروفيسور البرايت إن محتويات هذه القبور تختلف عن مثيلاتها بمصر وفلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين. في تلك الدول الشمالية كان القبر متكاملاً، الجثمان أو العظام والجرار السليمة كما هي والحلي والأثاث والأشياء الأخرى الخاصة بالمتوفي. أما في مقابر حيد بن عقيل فإن الآنية مكسرة والعظام مبعثرة، وكان هذا هو الحال حتى بالنسبة للقبور التي لم يظهر أنها تعرضت لاقتحام أو سرقة.

من المحتمل أن تكون تلك الآنية قد كسرها القتبانيون أنفسهم كجزء من طقوسهم الخاصة بالدفن؛ وربما كانت العادة السائدة عندهم أن يدفنوا مع الميت آنية جديدة ولكنها مهشمة عن عمد، أو ربما كانوا يدفنون الميت مع نتف وأجزاء صغيرة لآنية، كما كانت العادة لدى كثير من الأمم السابقة.

وربما تهشمت الآنية في أثناء عمليات النهب التي تعرّضت لها القبور في وقتها، أي قبل آلاف السنين، بفترة وجيزة بعد الدمار الذي حاق بتمنع وما تلا ذلك مباشرة من قرون، ولكن هذا الاحتمال ضعيف لأن تكسير الأواني يشمل كل القبور حتى القبور التى لم ينهب منها أي شيء. لقد كانت عمليات السرقة من القبور واسعة الانتشار، خاصة في أثناء القرون الوسطى، حيث إن هنالك ذكراً في جميع النقوش للأشياء الثمينة التي كانت تدفن مع الميت، مثل الذهب والفضة وغيرها من الهدايا المقدمة للآلهة، دون أن توجد هذه الأشياء في القبور

كـمـا هو متـوقع. كـذلك فـإن المؤرخين العـرب الأوائـل كـثـيـراً مـا أشـاروا للـكـنوز والأمجاد التي تسربلت بها الممالك القديمة في الجنوب العربي ، وكان ذلك حافزاً لمئات المغامرين الذين انطلقوا يبحثون في بطون القبور عن الثروات المخبأة.

لم نجد في ذلك القبر كنزاً أو أشياء ثمينة بخلاف ذلك العقد الذهبي، ولكن ما عثرنا عليه من أدلة ونقوش وأثريات لها قيمة لدينا أكبر بكثير من الذهب والفضة التي نهبت من تمنع في الأزمان الغابرة. ونحن نتعامل مع أثرياتنا بحرص شديد وإجراءات معينة لانحيد عنها؛ أولا، قام دك بوين برسم خرائط لمدينة تمنع وحيد بن عقيل وهجر بن حميد، ثم أخذ يضيف لها كلما حدثت مستجدات في أثناء الحفريات. وهكذا أمكن تحديد المكان الذي وجدت فيه كل قطعة أثرية بدقة، وكانت تؤخذ صور عديدة من زوايا مختلفة لكل أثر أو تحفة يتم العثور عليها في المكان الذي وجدت فيه.

عندما نحضر إحدى التحف لمكاتبنا نعطيها رقماً متسلسلاً ونضعها ضمن القائمة المناسبة وتوضح التفاصيل والتوصيفات الخاصة بها ثم نرسلها لاستديو التصوير. الاستديو كان عبارة عن غرفة صغيرة أرضيتها من الطين الجاف ملاصقة لقسم الخدم بالفيلا تقع تحت الدرج الذي يقود للطابق الثاني. كلما صعد شخص على السلم تساقطت الأوساخ والحجارة الصغيرة على المواد الكيماوية المستخدمة في التحميض . لما اتضح أن غرفة الاستديو صغيرة وغير مناسبة أضفنا له نصف غرفة الطعام، فاستمر عمل التصوير والطباعة بلا مشكلات. في هذه الغرفة يتم تصوير النموذج أو التحفة مرة أخرى من كل الزوايا، وإذا كانت القطعة ذات أهمية خاصة فإننا ، بالإضافة للتصوير، نعهد بها للبروفيسور البرايت أو مساعده محمد هادي ليرسماها بالقلم والفرشاة.

أخيراً ، تُحمل التحف او القطع الأثرية إلى غرفة الشحن التي يشرف عليها شارلي ماكولم وجورج فارير لما لهما من مهارة وخبرة في هذا المجال، ويقومان بوضع الأشياء داخل الصناديق بحرص وتؤدة بغية ترحيلها إلى عدن.

الشيء الوحيد الذي ما كان من الممكن شحنه هو المسلة التي عثرت عليها في تمنع ؛ إنها حجر طويل منحوت في شكل عمود ذي أربع صفحات مليئة بالكتابات المنقوشة. أزلت الرمال من جنباته بمساعدة عدد من العمال، وسار الحفر على مايرام، وفي هذه الأثناء بدت لنا العديد من الشظايا النقشية والأدوات المعدنية، وبدا لنا كذلك المزيد من النقوش على المسلة ونحن نحفر باتجاه قاعدتها. أخيراً برزت لنا المسلة كلها مسنودة ببعض الحجارة في منطقة القاعدة، وكانت المسلة عبارة عن مرسوم رسمي يرجع تاريخه لعام ٣٠٠ق.م مكتوب على هيئة إعلان للعامة والمنطقة التي نصب عليها ذلك العمود هي منطقة السوق الرئيسة للمدينة*.

لقد غطينا الرسومات والنقوشات الموجودة على المسلة وعلى غيرها من الحجارة والصخور بمادة لاصقة حتى ننقلها على الورق بصورة جيدة، بعد أن صورناها ورسمناها ونقلناها بخط اليد، وقد استخدمنا الطريقة التي اخترعها البروفيسور

---

* هذا النقش القتباني الهام تناوله المختصون بالدراسة والفحص وقدم لنا البروفسير الراحل أ. بيستون تفسيرا كاملاً لنصه يمكن القول من خلاله إن النقش عبارة عن مرسوم ملكي ينظم ويبين أحكام التجارة في سوق تمنع ويحدد حجم الضرائب التي تأخذها الدولة ويعطي لمواطني قتبان مميزات على غيرهم بما يسمح بتركيز التجارة في أيديهم ويعطي القانون الحق للملك قتبان في الإشراف على جميع البضائع التي ترد إلى السوق ويمنع ممارسة التجارة في السوق ليلاً إلى غير ذلك من الأحكام التي تعكس أهمية مدينة تمنع التجارية آنذاك ومدى التقدم الذي حققته مملكة قتبان خصوصا في مجال تنظيم العمل التجاري. (المراجع)

جورج كاميرون من جامعة ميتشيجان حيث استخدم مادة اللاتكس المطاطية لتسجيل نقوشات بهستون المشهورة للملك دارا الأول ملك فارس . وأضفنا بعض الأمونيا المركزة والماء لمادة اللاتكس حتى نلينها، ثم نطلي النقوش المراد نقلها بهذه المادة، وبعد قليل تَجف المادة، ثم تُطلى بطبقة أكثر كثافة من المادة نفسها ثم نغطيها بقماش من القطن الخفيف (شاش) ونطليه بالمادة نفسها مرة أخرى. بعد ثلاث أو أربع ساعات نضيف اليها طبقة أخرى كثيفة من اللاتكس ونغطيها بالشاش ثم نضع عليه طبقة أخرى من اللاتكس. بعد أن تَجف كل هذه الطبقات فإنها تنزع من الصخرة أو المسلة بحرص شديد لتجد أننا حصلنا على قطعة القماش صورة طبق الأصل من النقوش، ستظل ثابتة على ذلك القماش لفترة طويلة جداً من الزمن.



الفصل الثاني عشر

البروفيسور ألبرايت

كان العمل في هجر بن حميد وئيداً وعسيراً ولم يتمخض عن الكميات المتوقعة من الأواني الفخارية، وكلما صار العمل أكثر صعوبة شمّر البروفيسور عن ساعد الجد أكثر وضاعف من جهوده، وهو أصلاً محب لعمله ولا يكل منه ولا يمل. ولقد طبقت شهرته الآفاق حتى أخذ البدو يضربون له أكباد الإبل ليلقوا نظرة على هذا الصاحب العجوز الأصلع الذى يعمل بلا توقف من الصباح حتى المساء ، ومع اقتراب نهاية الموسم صار البروفيسور يعمل لساعات أطول كلما وجد أشخاصاً يعاونونه حتى لو أدى ذلك العمل لدوامين متصلين في يوم واحد .

لقد أصابني شيء من القلق على صحة البروفيسور وكان لابد أن نحافظ عليه تماماً إذا قدر لبعثتنا أن تنجح في مشروع هجر بن حميد أو في غيره من المشاريع. ولقد تعلمنا من طول المعاشرة مع البروفيسور كيف نتعامل معه وكيف نهيئ له الجو المناسب للعمل. وفي أثناء عملنا معه في البعثة الاستكشافية الأفريقية قبيل عامين ونصف تبلورت علاقتنا معه وعرفنا كيف نستدرج البروفيسور ليقص علينا تجاربه ويعلمنا الكثير عن الآثار والتاريخ والجغرافيا والظواهر الطبيعية وغيرها.

حاولت أن أثني البروفيسور عن الاستمرار في العمل بهجر بن حميد بعد كل هذا الموسم المتعب على أن نواصل في العام القادم، بعد الإنجاز الذي حققناه بحفر ثلاث طبقات واحدة إثر الأُخرى، وبعد ما حققناه من اكتشافات أثرية من حجارة منحوتة وأدراج من الحجر وحمامات المرمر الأبيض والعديد من النقوش القيمة. ولقد غصنا إلى عمق خمسة عشر قدماً من مجموع خمسين قدماً التي هي ارتفاع

تل هجر بن حميد، وتكشفت لنا الطبقات : « أ » و« ب » و« ج » . الطبقة « أ » كشفت للبروفيسور معلومات جمة عن أعراب القرون الوسطى الذين سكنوا في هذه الديار والذين لا يعرف عنهم الكثير. ذكرنا البروفيسور بهذا الإنجاز حتى يقتنع بتجميع العمل للموسم القادم، ولكنه أشار إلى أننا أساساً أتينا لبيحان لندرس تاريخ القتبانيين القدامى لا عرب القرون الوسطي.

الطبقة « ب » احتوت على العديد من الاكتشافات ذات الصلة بالفترة التي نرومها ، من القرن الخامس ق.م إلى القرن الأول ق.م؛ هنا وجدنا نقوشاً وزخارف مشجرة من العهد البيزنطي من القرن الرابع الميلادي، ولقد توصلنا إلى أن الشعب الذي سكن في هجر بن حميد إبان الدمار الذي حدث لتمنع أصابه الخمول والكسل، وربما كان ذلك سبب الغزو الذي دمر تمنع ، ويدلل على ذلك اقتلاعهم للحجارة من المنازل القديمة ليبنوا منازلهم بها، وقد وضع أحد هذه الحجارة بنقوشه رأساً على عقب الطبقة « ج » نقلتنا للقرن الثالث ق.م مع تفاصيل كاملة عن نوع الطابوق المستخدم والطريقة المعمارية التي راجت عند القتبانيين خلال تلك الفترة. ذكرت هذا الإنجاز للبروفيسور أيضاً عله يقتنع برأيي، لكنه أشار إلى أنه لم يتمكن حتى ذلك الوقت من تحديد التسلسل التاريخي للأواني الفخارية المكتشفة ولابدَّ أن يتوصل إلى ذلك من خلال دراسة آثار هجر بن حميد. وقال البرفيسور إنه سيجد ضالته لا محالة في الطبقة « د »، وذكر بأن ذؤابات الحيطان التابعة للطبقة « د » برزت مغرية بمواصلة العمل حتى نصل لقاعها ونرى ما فيها.

أخيراً وصلت مع البروفيسور لحل وسط بعد أخذ وردّ: وافق البروفيسور أن لا يتحرك من غرفته لمدة يومين أقوم خلالها بتنظيف الركام حتى أصل للطبقة « د » ،

ثم يأتي البروفيسور ليفحص ما قمنا به من عمل.

ومن النتائج التي توصل لها البروفيسور ، وذلك ما أثبتته اكتشافاتنا اللاحقة، أن القتبانيين القدامى استخدموا أواني فخارية أقل مما استخدمه أهل سوريا وفلسطين ومصر وبلاد ما بين النهرين، ولكن حفريات الجنوب العربي أفرزت نقوشاً كثيرة جداً، وما عثر عليه حتى الآن فقط أكثر بكثير مما وجده طوال عمله المكثف في فلسطين.

بدأنا العمل في الطبقة «د» حسب الاتفاق، وعثرنا هنا على كمية هائلة من الفخار المكسر، أكثر مما وجدنا في الطبقات السابقة. وقد كان البروفيسور محقاً في إحساسه بأن الطبقة الرابعة ستعطيه بعض الخيوط، رغم أني لم أفهم كيف سيستنبط خيوطه من ركام الفخار الذي أعددناه له.

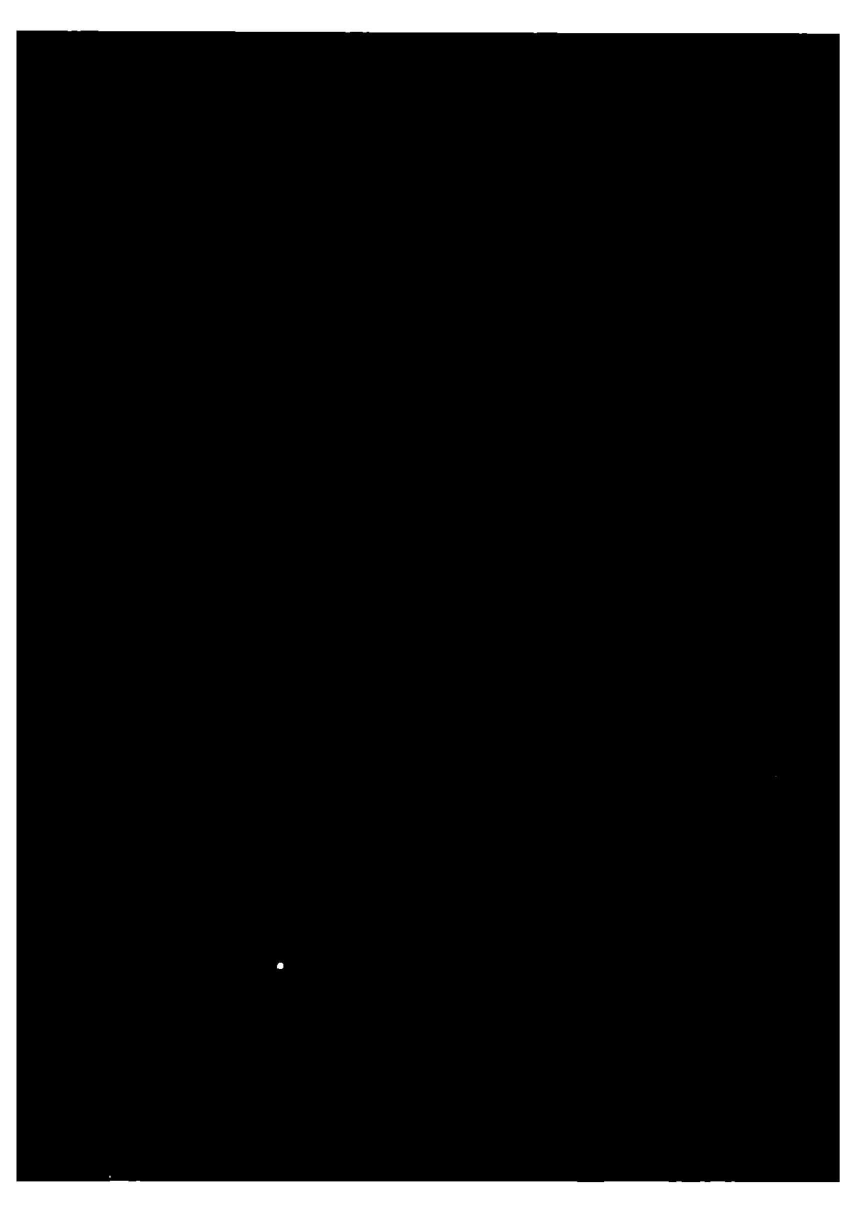
وبعد يومين من الأسترخاء جاء البروفيسور لموقع العمل بهجر بن حميد، وألقى نظرة ملؤها الرضى على حيطان الطبقة «د»، ثم أخذ يمشي على أكوام الفخار المهشم.

صاح البروفيسور : -

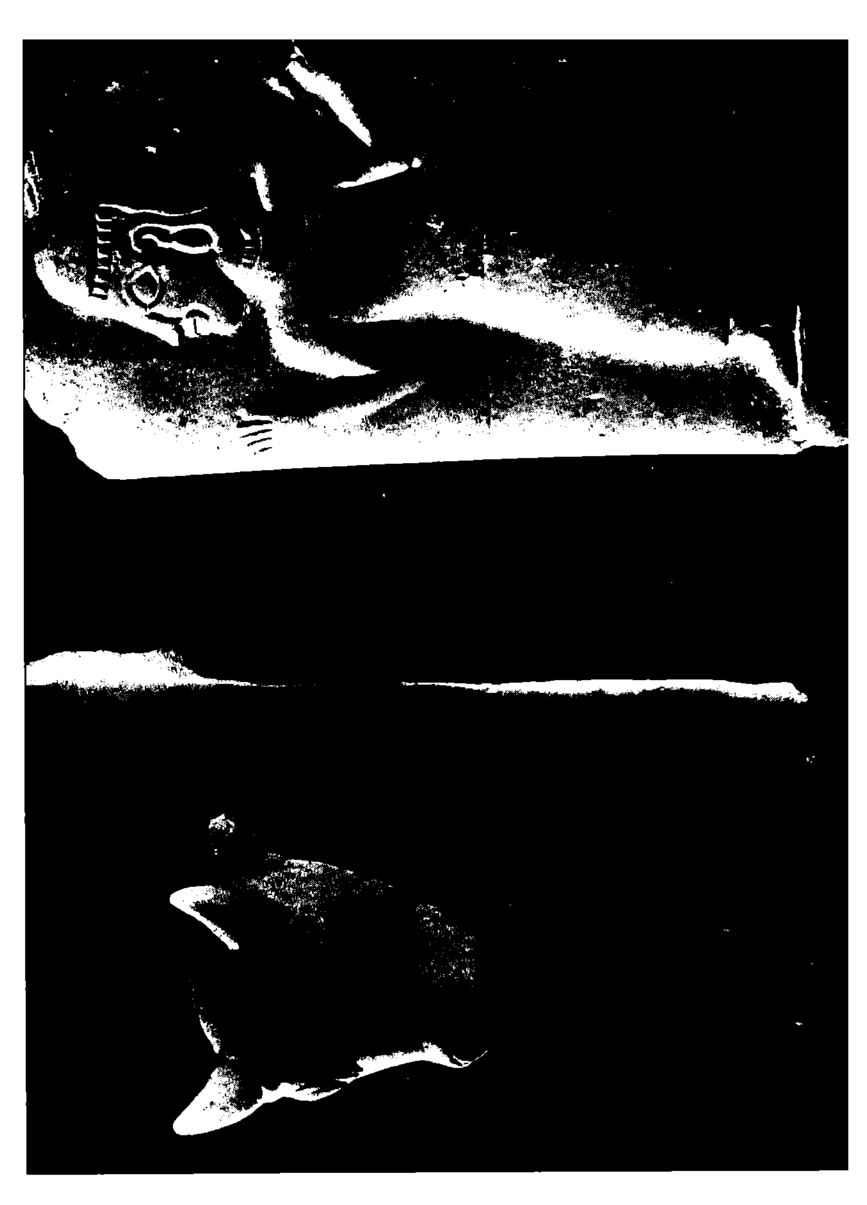
«الحمد لله! وجدنا ضالتنا».

لقد سُعد البروفيسور لأن العديد من نتف الفخار كان عليها نقوش، وهذا هو الفخار الذي كان يحلم به البروفيسور؛ إنه يستطيع الآن أن يعرف تاريخها بالضبط وفي أي سنة تقريباً من القرن الثالث ق.م؛ النقوش هي النقوش نفسها التي وجدناها في مقابر سابقة بهذه المنطقة. وقد فرح البروفيسور لدرجة أنه أخيراً وافق على تجميد العمل في هجر بن حميد حتى الموسم القادم، رغم أنه مازال

يشعر بالرغبة في مواصلة العمل حتى قاع هجر بن حميد وهو الآن على بعد خمسة وثلاثين قدماً بها سبع طبقات على الأقل، ومن المؤكد أننا عندما نصل لذلك العمق نكون قد بلغنا القرن العاشر ق.م .



تمثال من المرمر لـ (جبأم) من أسرة هنعمت من مقبرة تمنع، يعود للقرن الأول أو الثاني ق.م.



تماثيل مرمرية من مقبرة تمنع

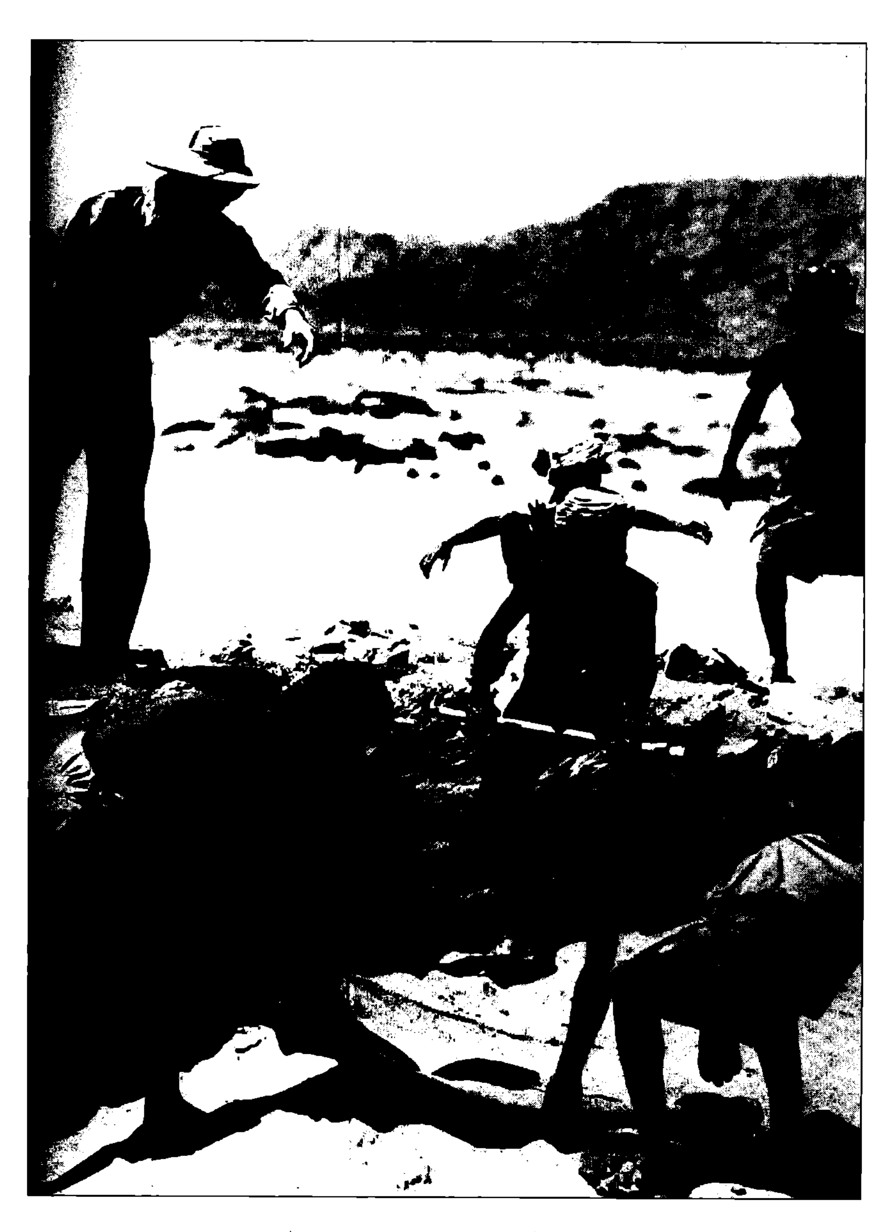
الفصل الثالث عشر

ســــلام للرئيــــس

تسـارعت خطى العـمل بالبـوابة الجنوبيـة في الأسـبوعين الأخـيريـن من نهـاية الموسم. بعـد اكـتـشـاف الأسـدين المصنوعين من البـرونز. اسـتـمـر كـيـني براون ومجـمـوعـته في الحـفر بالميـدان المتاخـم لـلبـوابة ، ومن هـذا المخـزن الضـخـم للأثريات استطاعـوا أن يحصلوا على العـديد من حبـات الخرز وأدوات الزينـة البـرونزية وآنيـة الطهي والعـديـد من الصـواني والآنيـة الرخـامـيـة والمناضـد وبعض القـطع البـرونزية المنقوشة ، والكثير من هذه الأشياء مازالت بكاملها وبحالة جيدة.

رأى بعض من أعضاء الفريق أنه ليس هنالك وقت لبـدء عمل في اي موقع آخر، ولكن يبـدو أن كـيـني كـان له رأي آخر، فـقـد كـان مـهـتـماً بأحـد الكـثـبـان الرملية العـاليـة خلف الميـدان المطل على البـوابة، وظن أن هذا التل الرملي مـاهو إلا بـناية هامة غطتها الأتربه، فـذهـب نحـوه ومعه مجـموعـة من العـمال دون أن يخطرنا. بعد ربع سـاعة فـقط من الحـفر ظهر لهم جـانب من حـائط بديع مبـني من طابوق مـتـقـدم جداً ومعـه بلوكـات ضـخـمة يبلغ حجـمـها أربعة اضعـاف البلوكـات التي مرت علينا من قبل، والمادة التي تتخلل طبقـات الطابوق «الخلطة الجيرية» ممتازة للغاية. وقـد أحسسنا بأن هذا المبنى من الأهمية بمكان، وقررنا أن نتابع الحـفر بهـذا الموقع رغم ضيق الزمن.

تحولت معظم قوتنا العاملة نحو هذا الموقع الجديد وبدأوا فى حفر جدول عرضه ثمـانيـة اقـدام يتـجـه شـمـالاً بمحـاذاة السـور الغـربي لمنزل يفـش حـتى نربط المـيـدان بالبـوابة الجنوبيـة وبهـذا المبـنى الجـمـيـل الجـديد الذي أطلقـنا عليـه اسم (البناية



البروفيسور ألبرايت يوجه العمال العرب في أثناء عمليات الحفر في هجر ابن حميد.



دير القديسة كاترين الذي يقال إن الملكة هيلينا أم قسطنطين الأكبر هي التي شيدته في الموقع الأسطوري لنار الأفونيموس

« ج »)، أخذ بعض من عمالنا يزيل الرمال التي تسربلت بها هذه البناية منذ مئات السنين ، فكانت لها حماية من الرياح والأمطار، ونتمنى أن تكون حماية كذلك من اللصوص والمتطفلين.

سرت عدوى الحماسة بين جميع العاملين وتجدد نشاطهم، وأمكن في زمن وجيز ربط البناية « ج » مع الميدان والبوابة الجنوبية، وأمكن أيضا تنظيف الواجهة الجنوبية للبناية. عند ذاك تبدت لنا آثار الدمار الذي تعرض له هذا الموقع فيما يشبه غزواً وحرباً وحرقاً إذ أن؛ الحجارة الضخمة متناثرة هنا وهناك، وآثار النيران في كل مكان، من أخشاب محروقة ومناضد مهشمة وأشكال برونزية غير مكتملة لعلها كانت ذات يوم تعكس المستوى الفني الرفيع لحضارة زمانها، ثم اندثرت تحت الرمال.

وجدنا أمام البناية « ج » بهواً مهشماً على أرضيته بلاط جميل من حجارة خاصة ملساء وملونة بألوان الزهور، وفي أطرافه الحفر المتراصة للأعمدة، حول هذا البهو من الخارج هنالك صف من المصاطب الحجرية التي لا زالت بحالة جيدة رغم أنها تبعثرت قليلا. وبينما كنا نبحث عن الطرف الجنوبي للممر وجدنا حائطاً مبنياً من الشرق إلى الغرب، طوله خمسة عشر قدماً، ثم اتجهت جنوباً لمسافة عشرة أقدام، وهنا وجدنا نقوشاً توضح اسم صاحب المنزل، وكان واضحاً أن شخصاً حاول أن يمحو ذلك الاسم؛ وهكذا وجدنا اسماً للمبنى « د » هو منزل حدث. الطابوق الذي بُني به هذا المنزل من نوع أكثر قدماً من ذلك الذي بنيت به البناية « ج »

عند نهاية الموسم استطاع البروفيسور البرايت أن يعقد مقارنات بين أنواع الطابوق واللبّن والكتابات كافة ويربط بينها لدرجة أنه يستطيع أن يحدد تاريخ

أي مبنى أو نقش بمجرد ظهورها من بين الرمال. إن الطابوق السبئي المخرم الذي وجد في صرواح باليمن يعود تاريخه على الأقل لأول ملك لسبأ* في القرن الخامس قبل الميلاد؛ وكان أكثر الطابوق قدماً هو الذي وجدته الآنسة كاتون توميسون في حفرياتها بحريضة في حضرموت. أما طابوق مملكة قتبان فهو شبيه بالسبئي ، ويعود تاريخه لعام ٥٠٠ إلى ٣٠٠ ق.م. أما أقدم طابوق ظهر هو الموجود في البوابة الجنوبية وفي بوابات دك بوين القديمة، وكذلك مباني معابد تمنع . وهنالك مؤشرات إلى أننا قد نعثر على هذا النوع من الطابوق القديم تحت البوابة الجنوبية.

إن الطريقة التي استقرت عليها الأرضية وبعض المصاطب الحجرية بين طرفي البوابة الجنوبية تشير إلى أن مانراه على السطح إنما يستند إلى هيكل ضخم تحته، اي أنه بُني فوق مبنى آخر كبير جداً.

تخلصنا من معظم العمال عندما اقترب الموسم من نهايته، واحتفظنا ببعض منهم ليساعدونا في شحن الأثريات وترتيب المعسكر والموقع بمناسبة الإجازة الطويلة التى سنذهب لها. ومن حسن الحظ أن شارلي ماكولم وجمعة سيبقيان في بيحان وسيحرسان الموقع حتى لا يأخذ البيحانيون الحجارة التي أخرجناها من باطن الأرض.

نظمنا حفل عشاء دعونا له الشريف حسين وعوض وصالح بن ناصر بمناسبة سفرنا، وقد كانت وليمة فاخرة جمعت أروع الأطباق الأمريكيه والعربية. وبعد

---

* لعل المؤلف أراد القول بأول من تلقب بلقب (ملك) في سبأ وترك لقب "مكرب" غير اننا نرى ان ذلك يعود للقرن السابع ق. م. على أقل تقدير وليس القرن الخامس كما ذكر. (انظر الحاشية في صفحة ١٦٧) .(المراجع)

العشاء صعدنا للطابق العلوي وجلسنا في الغرفة التي كان يستخدمها كيني وشارلي وجورج، وكانت نظيفة وجميلة ومغطاة بالسجاجيد العربية والوسائد المريحة.

وعندما حانت اللحظة المناسبة ألقيت كلمة مطولة ومحترمة، فالتقاليد العربية تتطلب خطباً طويلة في مثل هذه المناسبات ، معبراً عن عظيم امتناننا على ما لقيناه من حفاوة وكرم فياض من قِبل الشريف حسين طوال إقامتنا في دولته المضيافة.

وقد رد الشريف على كلمتي بكلمة مرتجلة قال فيها إنه لم يكن متأهباً لإلقاء خطاب أمام الضيوف الأعزاء ، رغم ذلك فإن الواجب يفرض عليه أن يقول كلمة بسيطة، ثم أخرج من جيبه ورقة من صفحتين، ووقف على رجليه وقرأ كلمته بصورة عاطفية مؤثرة، وكانت كلمة وداع رائعة صاغها الشريف بلغته العربية السلسة والشعرية.

وبعد أن فرغنا من تبادل الكلمات بدأنا تبادل الهدايا، فتقدمت للشريف بمولّد كهربائي ماركة فيربانكس موريس ومعه ثلاجة ومصابيح وأسلاك كهربائية وهي جزء من الإسهام الذي قدّمه لنا رئيس شركة جنرال الكترك العالمية، وقد فرح الشريف بالمولد الكهربائي لأنه ظل يحلم لفترة طويلة بتوصيل تيار كهربائي إلى قصره في بيحان القصب. وتقدمت كذلك بهدايا أخرى، مثل العديد من صناديق الكوكاكولا ومنتوجات شركة كولجيت ومذياع ماركة « زينيت » وبندقية بمنظار ومسدس « كولت ٣٨ » وكمية من جنجانة « ونشستر». كل هذه الأشياء قدمناها للشريف حسين عرفانا لدوره الممتاز في إنجاح مهمتنا.

أما بالنسبة للشريف عوض والشريف صالح بن ناصر والأمير الصغير الذي كان

في زيارة إلى عدن، فقد تقدمنا لهم ببنادق ومسدسات وكميات معقولة من الذخيرة. كنت أحس بأن الشيء الوحيد الذي سيسعدهم تماماً هو السلاح الجيد، ولكن من الصعوبة بمكان التعرف على ما يفضله الشريف البيحاني إذ إن هؤلاء الأشراف مؤدبون لدرجة بعيدة. وقد ساعدني جون ألن نائب المندوب البريطاني الذي كان موجوداً معنا، ساعدني على تفهم رد الفعل الحقيقي، وأكد لي في وقت لاحق أن الأشراف كانوا سعيدين للغاية بما تلقوه من هدايا ، كما قال إن سمعة الأمريكان في بيحان تمر بأحسن حالاتها.

في صبيحة يوم ١٩ ابريل سافرنا بالطائرة أنا وجورج فارير إلى عدن لاستكمال اجراءات سفر أفراد البعثة خارج الجنوب العربي، وقمنا بتسديد الفواتير واجراء الحجوزات اللازمة بالسفن والطائرات ، كما قمنا بالعديد من الزيارات للتحية والمجاملة للعديد من الموظفين المتنفذين الذين أسهموا في نجاح موسمنا الأول. وغادرنا عدن راجعين لبيحان بالطائرة لكي نحضر باقي المجموعة، وقد كان الأمير صالح وشارلي وجمعة في مطار عدن لوداعنا.

وعندما أوشكت الطائرة أن تهبط في مطار بيحان كان هناك جملان يتناولان وجبة افطارهما مما اضطر كابتن الطائرة للتحليق بها حول المطار حتى فرغا من وجبتهما. وفي المطار لحق بنا باقي أفراد البعثة، وناولني الشريف عوض خطاباً مكتوباً فيه الآتي :-

« من بيحان بالربع الخالي إلى مدينة واشنطن الامريكية.

٢٢ إبريل ١٩٥٠م الموافق ١٥ رجب ١٣٦٩هـ، من الشريف عوض بن أحمد إلى صاحب المعالي رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. »

« حضرة صاحب المعالي الرئيس المحترم!

أدام الله عزك وأطال عمرك في خدمة العدالة والحرية!

أنتهز هذه الفرصة لأبعث إليكم بأطيب التحيات لكم ولصديقي وندل فيليبس ورفاقه الكرام.

إننا نحمد الله الذي أتى بهم لبلادنا حتى يروا بأنفسهم حالة بلادنا المزرية والبائسة مما جعلها تتمسك بالعادات القديمة التي لا خير فيها.

نرجو بهذا أن نتقدم لفخامتكم ببعض الهدايا التي تتألف من سراج ومنجل ومحبرة وقلم وهي ترمز لأعلى ما وصلناه من رقي.

نتمنى أن نحظى بشيء من عطفكم ورحمتكم. ونرفق أيضاً هنا قصيدة موجهة لفخامتكم.

في النهاية نرجو أن تتقبلوا فائق احترامي.

حفظكم الله والسلام عليكم.

مخلصكم الشريف عوض»

ناولني الشريف عوض الخطاب والقصيدة والطرد الذي يحتوى على المنجل وبعض الهدايا للرئيس. وفجأة تقدم الشريف حسين بهدية وداع وهي عبارة عن سوارين جميلين من الفضة أخذهما من أعزّ وأقرب زوجاته إلى نفسه، وطلب مني أن أقدمهما لشقيقتي مارلين في كاليفورنيا عندما أذهب لها.

عندما أقلعت الطائرة كان الشرفاء يطلقون النار في الهواء تحية لنا، وكنت أتصورهم وهم يحاولون أن تأتي طلقاتهم بأقرب ما يمكن للطائرة كنوع من الاحترام والمعزة لنا. ألقينا نظرة أخيرة من شبابيك الطائرة على قصرنا المبني من الطين اللبن وعلى هجر بن حميد، لما أظهره لنا من أسرار، والذي مازال يحجبه عنا تحت خمسة وثلاثين قدماً من الرمال من حيطان دارسة وآنية فخارية وربما أشياء

أخرى تكشف لنا النقاب عن قتبان وما أدراك ما قتبان. والنقاب الرملي نفسه والهالة السحرية تلف موقعاً آخر مجاوراً وهو البناية «ج» إلى الشمال من بوابة تمنع الجنوبية ، كما تلف مقبرة حيد بن عقيل. غصنا بخيالنا فى تلك الرمال التي سنعود لحفرها بعد بضعة أشهر ، وداعبتنا أحلام برزت فيها تماثيل مرمرية لامعة واشكال برونزية مكتملة ومقابر ومنازل حرستها الملائكة فلم تُنهب وأكوام من الشظايا الفخارية المنقوشة وأسطر عرضها عدة ياردات من الكتابة المنحوتة على الصخر.

طرنا فوق اليمن، وتوقفنا قليلا في جزيرة كَمَران*، وتزودنا بالوقود فى ميناء بورسودان، ونزلت بنا الطائرة في مطار الماظة بالقاهرة عند غروب الشمس. استقبلنا في المطار قلاديز تيري والعالم المصري المعروف البروفيسور عزيز عطية، ورافقانا إلى مقر إقامتنا بالقاهرة حيث كان لدينا مكتب خاص بإدارة عمليات الاستكشاف في جبل سيناء . وحيث إن تلك العملية مازالت في أوجها، بل على وشك الانتهاء منها، فقد قررنا أن نزور الموقع ونقدم يد المساعدة خلال الأيام المتبقية من إنجاز المشروع، وكنا فريقاً مكوناً من شخصي وجورج فارير واوكي رومين – أما باقي المجموعة القادمة من عدن فقد كانوا ذاهبين لقضاء عطلتهم، وقد التقينا بهذه المناسبة على عشاء بحدائق السطوح بفندق سميراميس الذي يطل على نهر النيل.

لقد آلينا على أنفسنا طوال الموسم المنصرم أن نلتقي يوميا عند الوجبات

---

* جزيرة كمران ورد ذكرها عند الهمداني في كتابه (صِفَة جزيرة العرب) وتقع بالقرب من ميناء الصليف على البحر الاحمر يبلغ طولها نحو ١١ ميلاً وعرضها نحو ٥ أميال ونظراً لاهميتها الاستراتيجية تعرضت للاحتلال في فترات تاريخية مختلفة. (المراجع)

الرئيسة وأن نتناولها سوياً مهما كنا مشغولين ومهما أحاطت بنا من الهموم والمشكلات. وفي تلك الليلة بسميراميس تآنسنا واستمتعنا بوقتنا، ولكن مسحة من الحزن خيمت على الجو لأننا على وشك وداع البروفيسور ألبرايت ودكتور ماكنش الذاهبين إلى بالتيمور، ودك بوين المتوجه إلى جزيرة رودس، وساندي هنيمان المغادر إلى اسكتلندا، وألبرت جام في طريقه إلى بلجيكا، وفريزو هيبروك المتوجه إلى هولندا، وكيني براوان الذي سيغادر إلى كاليفورنيا. وكنا ندرك أن البروفيسور ألبرايت ودكتور جام بالذات سيعودان إلينا في بيحان الموسم القادم، ولكن الآخرين لن يعودوا، وسيأتي خبراء جدد في مكانهم.

ومهما نحاول أن نستبدل هذا بذاك فإننا لن نجد الأشخاص المناسبين الذين سيملأون الفراغ الذي خلفته قلاديز تيري وبل. حين ينتهيان من عملهما في سيناء سيذهبان إلى بالتيمور بالولايات المتحدة بعد أن ظلا يعملان معنا منذ أربع سنوات، منذ بداية البعثة الأفريقية. قرر بل أن يحقق حلماً ظل يراوده منذ عدة سنين وهو الالتحاق بجامعة هوبكنز لدراسة الطب، أما قلاديز فقد قررت أن تحقق حلمها أيضاً، ولكنه من نوع آخر.

الفصل الرابع عشر

جبـــل ســـــيناء

عاش الأب براخوميوس لأكثر من خمسين سنة في دير القديسة كاثرين على سفح جبل سيناء، وكان ذلك الدير العتيق معزولاً عن العالم لدرجة أن القس البريء براخوميوس ذهل عندما أخبره أحد زواره النادرين بأن هنالك حرباً نشبت ثم وضعت أوزارها اسمها الحرب العالمية الثانية ؛ بيد أن الذي صعقته المفاجأة تماما هو ذلك الزائر نفسه عندما عرف أن الأب براخوميوس لم يسمع قط في حياته كلها بحدث اسمه الحرب العالمية الأولى، ناهيك عن الثانية.

كان لدينا مشروع رائد في هذا الدير ، وهو تصوير المستندات كلها على أشرطة المايكروفيلم، وذلك بالتعاون مع مكتبة الكونغرس وجامعة الإسكندرية، وكان فريقنا يتألف من ثمانية عشر عالماً من أمريكا وأوروبا والشرق الأوسط . قصة هذه البعثة تستحق كتاباً منفصلاً، وبالتأكيد فإن مئات الكتب ستسطرها الأقلام بوحي ما قمنا به إذ إن البعثة يسرت الأطلاع على أكبر مادة بحثية وجدت في مكان واحد وصورت في عملية واحدة ثلاث آلاف وأربعمائة وثيقة تاريخية مكتوبة بإحدى عشرة لغة تم تنظيمها وتحليلها وجدولتها وتصويرها بالمايكروفيلمات. هذه الكنوز التي تفجرت من منجم المعرفة بجبل سيناء ستظل لسنوات عديدة قادمة تلقي الضوء على التاريخ القديم لثلاث ديانات ولشعوب الشرق الأوسط، وليس هنالك مكان كهذا في العالم يجمع الآثار التي تهم كلاً من المسيحيين واليهود والمسلمين في الوقت نفسه لقد بنت هذا الدير الملكة هيلينا والدة قسطنطين العظيم عام ٣٣٧م، وقد بنته تحت الموقعالذي يقال إنه مكان النار

الذي كلم الله فيه موسى، ويقف فوق الدير جبل موسى الذي صعد عليه سيدنا موسى عليه السلام ليتلقى الوصايا العشر.

عندما جئت لهذا الوادي المقدس شعرت كأنني أعيش في «العهد القديم» الذي تنزّلت فيه التوراة والأسفار السماوية الأخرى. رأيت الشجرة المقدسة التي نمت من عصا هارون كما تقول الروايات . صعدتُ جبل الطور فرأيتُ على جانبه كنيسة صغيرة في الموقع الذي يقال بأن الغربان أطعمت فيه النبي إلياس ، ويقال بأن الكنيسة بنيت فوق الكهف الذي آوى إليه هرباً من إزابيل الشريرة.

على قمة الجبل ، بعد أن صعدتُ ثلاثة آلاف وخمسمائة قدم، أحسست بوجود خالق الكون نفسه، وأحسست كأني في قمة العالم كله. إلى الجنوب يقع المكان المسمى «رأس محمد» ، أي طرف شبه جزيرة سيناء؛ وإلى الشرق، خلف الجبال ، يستقر خليج العقبة، ومن هناك أبحرت سفن سيدنا سليمان عليه السلام للتجارة مع بلاد بونت؛ وإلى الشمال يمتد القفر المقدس، وإلى الغرب تمتد أرض الفراعنة التي أخرج منها موسى عليه السلام بني إسرائيل بعد أن كسر قيودهم وحرّرهم.

على قمة الجبل يقف معبد موسى جنباً إلى جنب مع مسجد للمسلمين . وبجانب المسجد هناك كهف موسى الذي يقال بأنه مكث فيه أربعين يوماً وليلة. وتقول الروايات التي يتناقلها الناس إن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) زار دير القديسة كاترين قبل غزو العرب لمصر الذى تم عام ٦٤٠م، ويقال إنه منح الرهبان المسيحيين بالدير عهداً بأن تكون أرواحهم وممتلكاتهم في أمان* . وهنالك

---

*لاشك أن هذا غير صحيح، وإن كان من الممكن أن تصح نسبة هذه القصة لأحد من الفاتحين العرب فهي لفاتح مصر عمرو بن العاص لكنني لم أقف على ما يشير إليها من قريب أو بعيد .(المراجع)

مسجد صغير آخر داخل ساحة الدير بجوار الكنيسة الرئيسة، وتقول النقوش الكوفية التي تزيّن منبره أنه شيد في عام ١١٠٣م.

ظل هذا الدير يتلقى الدعم طوال القرون المنصرمة من الأباطرة والملوك والأحبار الحاكمين في الفاتيكان، وكان من أولهم البابا جريجوري الأكبر (٥٩٢-٦٠٤م)، وقد أرسل الملك شارلس السادس ملك فرنسا كأس العشاء الأخير عام ١٤١١م، وكذلك أرسل الملوك والحكام الأوروبيون هداياهم وعطاياهم للدير؛ حتى الملكة إزابيلا ملكة إسبانيا وجدت وقتاً لترسل دعمها للدير رغم أنها كانت مشغولة ببعثة كرستوفر كولومبس مكتشف أمريكا. كان الدير يعتمد بشكل أساسي على دعم الأباطرة الروس في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادية . هذا وقد أدلى نابليون بدلوه عندما جاء على رأس بعثته إلى مصر عام ١٧٩٨م فأضفى بركته ونعماءه على الرهبان وأمر بترميم جدران الدير.

لم يكتسب الدير اسم القديسة كاترين إلا بعد قرون من تشييده؛ تقول الأسطورة : إن القديسة كاترين حُكم عليها بالإعدام إبان الحملة التي تعرض لها المسيحيون على يد الإمبراطور ماكسمتيوس الثاني. وتقول الأسطورة إنهم أرادوا قتلها بعربة تجرها الخيول فإذا بالعجلة تنفصل عن العربة في آخر لحظة، عند ذاك قرروا قتلها بطريقة أخرى فقطعوا رأسها، ولكنها قبل أن تموت سألت ربها الا يجدوا جسدها، وكاستجابة لدعائها حملتها الملائكة إلى جبل سيناء. وبعد عدة قرون من ذلك وجد نفر من المسيحيين المصريين بقايا جثمان على طرف جبل إلى الجنوب الغربي من جبل الطور، وأحضروه للدير حيث أُعلن في الحين أنه جسد القديسة كاترين، ولهذا فإن الرهبان ظلوا يقدسونه حتى اليوم. جمجمتها ويدها المغطاة بالحلي والجواهر محفوظتان في صندوقين من الفضة ولا تَعْرِضَان للجمهور

إلا في مناسبات خاصة جدا.

خلال الأربعة عشر قرناً الماضية جاء الحجيج لدير القديسة عبر رحلة الصحراء الشاقة وتركوا بصماتهم على شكل نقوش وكتابات على الجدران وغيرها بالعربية واليونانية واللاتينية والروسية . وهنالك آثار لمحاربي الحروب الصليبية في كل أرجاء الدير حيث نقشوا على الحجر والآجر والطابوق أشكال أسلحتهم ورموزهم.

ذكرني الدير ببعض المباني التي تعود للقرون الوسطى التي رأيتها في مناطق أخرى من العالم؛ من أهم معالمها أن كل شبر فيها موظف لأقصى مدى ممكن . حتى وقت قريب يدخل الزوار للدير بطريقة غريبة، فهم يُحملون في إناء كالدلو يسحب إلى أعلى السور لارتفاع ثلاثين قدماً ثم يُنزل داخل الدير. نحن على كل حال سمح لنا بالدخول من البوابة الكبيرة التي تقود إلى ساحة الدير عبر ممرّ ضيق سقفه منخفض يفضي إلى ثلاثة أبواب سميكة مغطاة بصفائح الحديد المسمرة بمسامير حديدية كبيرة. عندما بلغنا الساحة الرئيسة وجدنا حدائق غنّاء مليئة بأشجار الفاكهة والزيتون والعنب والخضروات كالواحة فى قلب الصحراء. زرت المقبرة المجاورة التي يدفن فيها الرهبان، وبما أنها لا تتسع لأكثر من ست جثث فى وقت واحد فلا بد أنهم ينبشون القبور القديمة وينقلون ما تبقى فيها من عظام لمكان آخر، وهي بالتحديد «المعظمة» حيث ترمى الجماجم في جانب وباقي الهياكل في الجانب الآخر مرصوصة بدقة كأنها حبل نسج من خيوط صغيرة. أما الأساقفة والشخصيات المرموقة الخاصة فيحفظ رفاتهم في صناديق خشبية أو يوضع داخل كوات على الجدران.

حدث في قديم الزمن أن أخوين شقيقين من مدينة بروفين بفرنسا قتلا عمهما،

ثم أصابهما ندم شديد وأرادا أن يكفرا عن ذنبهما فقررا المجيء إلى سيناء مروراً بروما ومدينة القدس. وهنا قضيا باقي عمرهما ناسكين مقيمين في كهفين متجاورين بالجبل، وربطا أنفسهما بسلاسل توصلهما ببعض. والآن ترقد عظامهما ومازال القيد يلفّها داخل صندوق كبير يسع رفاتين. إن صاحب أشهر هيكل عظمي هو القديس ستيفانوس الذي كان يحرس الطريق المؤدية إلى قمة جبل الطور طوال حياته، وحتى عند مماته كانت آخر كلمات قالها هي إنه يتمنى أن يحرس ديره الحبيب إلى الأبد . كان ذلك في عام ٥٨٠م، ولكن حتى اليوم يجلس هيكل القديس ستيفانوس العظمي ، بجلبابه وقلنسوته الأرجوانية ومسبحته وعصاه، يحرس باب مقبرة الرهبان. إنني مازلت أذكر منظر القديس الذي حفر لنفسه مكاناً في ذاكرتي وهو جالس تحت ضوء شموع خافتة والجو عبق ببخور العود واللُّبان.

كان الدير يحتاج لحراسة طوال قرون عديدة خلت لأنه كثيراً ما تعرض لهجمات شرسة من القبائل البدوية. يروي أحد القسس ، وهو الراهب أمونيوس من قرية كانوبوسى، في خبره أنه كان شاهد عيان لإحدى تلك الهجمات على الدير، وهي هجمة السراسنة عام ٣٧٣م. وتقول الرواية إنه لما استيأس الرهبان وأوشكوا أن يقعوا في أيدي الغزاة، إذا بجبل الطور يتفجّر حمماً وناراً متأججة في قمته، ففرّ السراسنة مذعورين* .

تتفاوت أعداد الرهبان بالدير من قرن إلى قرن ؛ ففي القرن الرابع عشر مثلاً كانوا

---

* المعروف أن هذه التسمية Saracens كان يستخدمها الصليبيون لوصف العرب والمسلمين إبان الحروب الصليبية ويبدو من هذا النص القديم السابق لظهور الإسلام أنها في الأصل لفظ كان يطلقه الرومان على القبائل العربية البدوية. (المراجع)

أربعمائة، بينما اليوم لا يزيد عددهم على عشرين. يعيش الرهبان حياة تقشف وتصوف وفقر شديد، ويقضون الوقت إما في الفلاحة والعمل اليدوي أو في الصلاة والتعبّد. تدق الاجراس ثلاثاً وثلاثين مرة كل فجر في تمام الساعة الثالثة وخمس وأربعين، كل دقة ترمز لسنة من عمر المسيح عليه السلام، وهذه الأجراس هي بمثابة أذان لصلاة جماعية يؤديها الرهبان في إحدى الكنائس الخمس عشرة المتناثرة بالدير.

عندما كنا في سيناء تلقى طباخنا العجوز عرض زواج من بدوية يقيم أهلها في ذلك المكان القفر، وطباخنا المسمى قمر يبلغ من العمر ستاً وستين سنة وهو جد لعدة أطفال. كان المهر المطلوب جنيهين فقط بلا أي شروط أو التزامات أخرى. كان ذلك في شهر رمضان، شهر الصيام عند المسلمين ليس فقط عن الأكل والشرب ولكن عن ملامسة النساء من الفجر إلى المغرب، كما تصادف أن أبواب الدير تقفل عند غروب الشمس وبعد ذلك لا يسمح لأحد بالدخول، فكانت تلك مصيبة على رأس العريس المزمع قمر. غير أن قمر تأسّى بما سمعه عن عادات البدو بسيناء، ومنها أن العروسين يقضيان ليلة عرسهما (الزفاف) سوياً، وفي اليوم التالي تذهب العروس لترعى الأغنام بعيداً لمدة أربعين يوماً، بينما يبقى العريس وحيداً في بيته فى فترة نقاهة واستجمام . ومن أغرب ما عرفناه عن تلك العروس التي تقدمت بنفسها لجمعة هي أنها أرملة وأم لسبعة أطفال، وتتباهى بأنها لم تستحم طوال حياتها ولم تغتسل ولم تتوضأ مطلقاً، فغيّر قمر رأيه ولم تتم الزيجة ، فتنفسنا الصعداء.

كانت المكتبة تفتح أبوابها لنا بإشراف الأب جواشيم في الساعة الثامنة صباحاً، والأب جواشيم ظل حارساً لكنوز الدير من وثائق وكتب لمدة ثمان وعشرين سنة.

كان الأب جواشيم يعد المجلدات والملفات والمخطوطات كل يوم ليتم تصويرها بإشراف والاس ويد من مكتبة الكونغرس. استخدم الفريق كاميرتين لمدة ثماني ساعات في اليوم لتصوير ٥٠٠٠ صفحة كل يوم، وكان العديد من المخطوطات معقدة التركيب مما استدعى التاني في تصوير كل صفحة منها، كما أعطى الفريق رقماً متسلسلاً لكل صفحة حتى يسهل الرجوع لها مستقبلاً.

كان هذا الدير مهداً للإنجيل المشهور «كودكس ستيتيكس» المكتوب باليونانية والذى يرجع تاريخه للقرن الرابع ، ولقد اكتشف ذلك الإنجيل عام ١٨٤٤م بواسطة العلامة الألماني فون تشيندورف الذي أخذ وقتاً حتى تمكن من إقناع الرهبان أن يعيروه ذلك الإنجيل الذي تلف العديد من صفحاته ، ثم قام بإهدائه لإمبراطور روسيا مما جعل الرهبان يستشيطون غضباً لأنهم كانوا يصرون على أن الإنجيل معار فقط، ومازالوا حتى الآن يتحدثون عن تشيندورف باعتباره لصاً ليس إلا. وأخيراً وافق الرهبان على تسلم مبلغ من المال من الإمبراطور كثمن للمخطوطة ومعه حافظ فضي ليضعوا فيه عظام القديسة كاترين. عندما اندلعت الثورة البلشفية الروسية تدخل المتحف البريطاني واشترى هذه المخطوطة بمبلغ مئة الف جنيه إسترليني وهي موجودة في المتحف إلى يومنا هذا.

منذ حادثة تشيندورف صار الرهبان لا يتركون مكتبتهم بلا حراسة بتاتاً ، وهم مصممون على المحافظة على كنوزها ، مثل «الكودكس سرياكس»، وهي مخطوطة جلدية من النوع الذي كان به كتابة فمسحت، ومازالت آثارها موجودة ويمكن قراءتها ، وهي مكتوبة بالسريانية وتحكي حياة بعض القديسات الشهيدات ،وكتبت عام ٧٧٨م؛ وهنالك طبقة أخرى من الكتابة تحت هذه يمكن تبينها كذلك وهي تعود للقرن الرابع، وربما كانت هناك طبقة قبلها أيضاً باللغة

السريانية . ومن ضمن هذه المخطوطات واحدة باللغة اليونانية لجزء من إنجيل يوحنا يعود تاريخه للقرن الرابع الميلادي . وهنالك مخطوطات عديدة متوافرة هذه الأيام باللغة السريانية لأجزاء من الكتاب المقدس، ولكن « الكودكس سرياكس » هي أقدمها جميعاً والأقرب لروح وخطاب الزمن الذي عاش فيه المسيح عليه السلام.

ورغم أن هدفنا الأساسي كان تسهيل عمل الباحثين من بعدنا إذا ارادوا دراسة هذه الوثائق الموجودة في المكتبة، إلا اننا سعينا لتحقيق اكتشافات جديدة إذا أمكن. وقد كان أهمها في يوم ١٢ يونيو ١٩٥٠م عندما اندفع البروفيسور عطية إلى غرفتي وطلب مني أن أتبعه إلى غرفة العمل لأرى بنفسي ما عثر عليه؛ إنها مخطوطة تحكي عن حياة القديسين ، كتبها شخص معاصر لشارلمان بالخط الكوفي الوسيط في القرن الثامن. وبالإضافة لهذه المعلومات المنعشة عن القديسين والشهداء الأوائل، احتوت تلك الوثائق على أقدم الترجمات العربية لقصة سيدنا أيوب وسِفره. وقد تخلل سطور الخط الكوفي الوسيط هذا وحواشيه خط كوفي آخر أكثر قدماً يعود تاريخه في الغالب للقرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي) . وفي بعض الصحائف ظهرت كذلك خطابات باللغة اليونانية هي عبارة عن جزء من خطابات « بولين »، ترجع إلى بداية القرن السابع وتختلف بعض الشيء عن النسخة اليونانية المعتمدة.

وأخيراً ، وجدنا في آخر صفحات المخطوطة الجلدية السريانية عمودين من أعلى إلى أسفل، وفي بعض هذه الصفحات الأخيرة يمكنك أن تلاحظ الطبقتين المترادفتين من الكتابة بسهولة، وأقدم هاتين الطبقتين تحتوي على إحدى أقدم ترجمات الإنجيل الموجودة في كل العالم. والفحص الأولي لهذه النصوص يشير إلى فرق واسع بين إنجيل مرقص ونصوص « بيشيتا » التي تعود إلى القرن الخامس،

لذلك يمكننا القول بأن الترجمة القديمة التي وجدناها للإنجيل مبنية على ترجمة أقدم منها، تعود إلى القرن الثاني، وهكذا عدنا بالدراسات الإنجيلية لأقدم عصورها. إن هذا النص السرياني أقدم من «الكودس سرياكس» الذي كان يعتبر أعظم كنز ظل الدير يحتفظ به حتى أخذه إمبراطور روسيا. النص الذي وجدناه يعود بنا إلى عهد أقرب إلى المسيح عليه السلام وحوارييه من أي إنجيل آخر معروف في العالم. على كل حال فهذه المخطوطة التي اكتشفناها ، والتي أطلق عليها البروفيسور عطية اسم «كودكس أرابيكس»، هي بالتأكيد واحدة من أندر القطع في تاريخ المخطوطات في العالم كله.

انتهت بعثة سيناء من مهمتها والكل راضٍ تمام الرضا؛ إذ إنها لم تنجز أهدافها التي سعت لها فقط، ولكنها ذهبت الى أبعد من ذلك واكتشفت «كودكس ارابيكس»، مما فاق توقعاتنا كثيراً.

عدنا الى القاهرة ، في طريق عودتنا الى الولايات المتحدة، وفي القاهرة احتفى بنا الأسقف بودفيريوس الثالث، أسقف سيناء، ومنحنا وساما قيّما لا يمنح إلا نادراً وهو «وسام الفرسان للقديسة كاترين». وكذلك وصلتني رسالة أضحكتني وأسعدتني من دكتور لوثر افانز مدير مكتبة الكونغرس والمدير الحالي لمنظمة اليونسكو :– تقول الرسالة

«عزيزى وندل!

«لقد حققتم نجاحاً باهراً ونجحتم في كل ما راهنا عليكم به. إننا مستعدون لدعمكم في كل الأوقات، حتى لو فكرت في إنشاء «مؤسسة لدراسة النساء» فإننا مستعدون للاستثمار معكم بنسبة أكبر».

عدت للولايات المتحدة، ولما استقر بي المقام في نيويورك وجدت أن الحرب

الكورية قد أدخلت تغييرات كثيرة على أمريكا، وما عادت أمريكا هي أمريكا التي أعرفها. وهكذا فإن الأشهر الثلاثة التي خصصناها للاستعداد لموسمنا القادم في بيحان بتعيين خبراء جدد وتأمين التمويل والأجهزة امتدت لستة أشهر . كانت تساعدني في نيويورك سكرتيرة جديدة اسمها ايلين سلامة، عمرها عشرون سنة، كنت قد التقيتها في القاهرة وعملت معنا في بعثة سيناء. إيلين من أصل فرنسي ولكنها ولدت في مصر، ولها شعر أسود فاحم كسواد الغراب، وعندما ترى جمالها وصغر سنها فإنك تعجب لنشاطها وجدارتها الفائقة ، فهي تتحدث الإنجليزية والفرنسية والإيطالية وعدة لهجات عربية. لقد كانت عوناً عظيما لنا في بعثة سيناء وتحملت تلك الظروف القاسية في الصحراء والجبل برباطة جاش وروح عالية من المرح. وكما أثبتت الأيام فإنها أيضا أصبحت عوناً لنا في بعثاتنا الأخريات وأنقذتنا من مآزق عدة بسبب معرفتها للغة العربية ولأنها متمكنة منها وراجحة العقل، وذلك ما سيأتي ذكره لاحقاً.

أصبح المسؤول الإداري للحملة الثانية ببيحان هو جورج فارير الذي أبحر نحو عدن بالباخرة «ستيل كمست» ، يحمل المؤن والمعدات التي لا تتضمن وابور الزلط الذي طالب به سلطان المكلاّ ، ولكنها تتضمن ما هو افضل - جرّافة طرقٍ ماركة لوتورنو قيمتها خمسة وعشرون الف دولار؛ وكنت أدرك أنها ستسعد موظفي الجمارك في المكلاّ، غير أنني لم أتحسب للمشكلات التي سبّبتها لنا الجرّافة في مكان آخر. فبمجرد نزولي من الطائرة في بيحان عرفت ان مشكلة حدثت في عدن فرجعت لها على الفور لمقابلة الشريف حسين الذي كان في زيارة لتلك المدينة الرائعة.

آخر شخص كنت أتوقع أن يسبب عرقلة للبعثة هو الشريف حسين، فقد كان

عونا ونصيراً ثابتاً لنا طوال الموسم الاول واصبح صديقاً شخصياً لي. ولكن يبدو ان الشريف سمع اننا بصدد إهداء الجرّافة ماركة لوتورنو لسلطان المكلاّ وبالطبع فإنه لا يأبه للدافع الذي حدا بنا لذلك، وهو إظهار حسن النوايا لحكومة المكلاّ، ولكنه يتساءل فقط: إذا كانت البعثة الأمريكية على استعداد لإهداء آلية سعرها ٢٥٠٠٠ دولار للمكلاّ فقط من أجل المرور عبر جماركها، فكم تستحق حكومة بيحان من أجل السماح للبعثة بالعمل في أراضيها لموسمين على التوالي؟!

عندما تحدثت مع الشريف ادركت ان جهة ما قد حرّضته ضدنا لدرجة بعيدة. سلمني الشريف إنذاراً يتالف من خمس عشرة نقطة خطّيرة: كل السيارات تعطى للشريف حسين بمجرد الفراغ من عملنا في بيحان. كل الذهب والفضة التي نعثر عليه في الحفريات يذهب للشريف. وهكذا تسير قائمة المطالب بما لم نجده مقبولاً.

كنت اشك في أن الشريف سيصر على هذه المطالب، إنها حيلته فقط في الحصول على ما يريد منا، وهو أقل بكثير من تلك القائمة المستحيلة. وبعد مفاوضات بسيطة معه تخلّى عن معظم ما جاء في الإنذار، اتفقنا على أن نتقاسم ما نجد في الحفريات من تحف آثارية مناصفة بيننا. أما موضوع الذهب والفضة فقد أرجانا الحديث حوله لوقت لاحق. وهكذا افترقنا مرة أخرى كاصدقاء حميمين وراهنّا على دعمه لنا مرة اخرى.

قفلتُ راجعاً لبيحان بعد أن أخذت معي في الطائرة ثلاثة من اعضاء البعثة، الدكتور جام وجرار بالاموديان الفنان والقانوني الأرمني الأصل، وقس فان بيك إخصائي الخزف وتلميذ البروفيسور البرايت بجامعة جون هوبكنز. وصلنا إلى قصرنا المبني من اللبن والمطل على تمنع القديمة في منتصف فبراير ١٩٥١م منشرحين مستبشرين بالموسم الجديد في هذا الموقع.



الفصل الخامس عشر

إيلـــــين

بعد بضعة أيام في المعسكر استقرت الأمور وانتظم العمل؛ ثم زارنا الأمير صالح وهو ابن الشريف حسين وتناول معنا وجبة العشاء، وكدنا نفقد إيلين في أثناء هذه الزيارة حيث كانت تلك هي المرة الأولى التي يقع فيها نظر الأمير عليها. كانت تلك أيضا أول مرة يتناول فيها الأمير معنا طعاماً، ويبدو أنه استمتع بوقته تماماً وارتاحت نفسه لهذا الفريق المتجانس من الخبراء والعلماء. وبعد العشاء ذهبنا لغرفتي حيث استمع الأمير وطرب كثيراً للأغاني الأمريكية من كروبا وقودمان وليونيل هامبتون، كما شنّف آذانه بالعزف على الجيتار الذي قدمه إليس بيركو، أحد خبراء الآثار الجدد معنا الذي جاء من معهد سميثونيان، وكان قبله في كلية ميريفيل بتنيسي.

وفي اليوم التالي ردت سكرتيرتنا إيلين زيارة الأمير بزيارة لزوجته في قرية نقب. إيلين فتاة مازالت في ميعة الصبا وجذابة ولكنها تذوب خجلاً أمام الغرباء كسائر نساء الطبقات العليا العربيات، ولكنها عندما زارت بيت الأمير انسجمت مع مضيفاتها بسرعة، وقد أدهشتها زوجة الأمير الشابة التي بدت متحررة وقوية الشخصية ومستقلة وشجاعة. كان على جبهة الأميرة وشم يتألف من هلال أخضر تحف به كواكب صغيرة بيضاء. وكذلك اندهشت إيلين من خادمة الأميرة، وهي أَمَةٌ ذات ثمانية عشر ربيعاً، تفيض حيوية وجاذبية وخفة ظل، كأنها حيوان صحراوي بري جميل، لها قوام رشيق صقلته التمارين اليومية منذ بداية حياتها وهي حمل جرة الماء على رأسها والمحافظة على توازنها. هذه الفتاة المتوثبة والمتدفقة بالسحر تومئ بجسمها كأنها ترقص وتتلألأ عيناها بذكاء فطري بينما لا

تفارق البسمة فمها.

تبحث إيلين دائماً عن المشاهد التي تستحق التوثيق بالكاميرا، وتنبهت على الفور إلى أنها أمام مادة مغرية، يساعدها في ذلك أن الفتاة مسترقّة وهؤلاء يسمح لهن بكشف وجوههن وبالوقوف أمام الكاميرا، كما وافقت زوجة الأمير شخصياً على تصوير خادمتها تلك. اغتنمنا هذه الفرصة وذهبنا في اليوم التالي مع إيلين لزيارة قصر الأمير وتصوير الخادمة. ولما رأت الفتاة جمعنا ترددت قليلاً وأصابها شيء من الحياء، ولكنها فرحت لاهتمامنا بها، ثم أخذت تنطلق شيئاً فشيئاً، حتى استقامت لجميع اللقطات التى أردنا أن نأخذها لها، وهي تضحك أو تمشي أو تقوم ببعض النشاطات ، خاصة بعد أن همست إيلين في أذنها باللغة العربية، وأخذت تطالع عدسة الكاميرا بابتسامتها البراقة وعينيها الساحرتين.

لقد تعلمت إيلين الكثير من زياراتها لأجنحة النسوة بالقصور وأجرت معهن ومع أزواجهن حوارات مطولة تعرفت منها على عاداتهم وطقوسهم الخاصة بالزواج والحياة الأسرية في الجنوب العربي حيث لا تُسأل الفتاة عن رأيها في الرجل الذي يطلب يدها، فكلمة الأب نافذة، ولكن في كثير من الأحيان تؤثر زوجته على قراره. وبالطبع فليس هنالك شيء اسمه الحب قبل الزواج ، وقد لا تعرف العروس شيئاً عن شخصية عريسها إلا بعد دخوله عليها كزوج. وحتى بعد الزواج فهي لا تعرف عنه الكثير إذ إن الرجل العربي لا ينظر لزوجته كَندٍ له ولا ينظر للزواج كمؤسسة تتألف من طرفين يمتلك كل منهما خمسين بالمائة من الأسهم فيها. إنه لا يتناقش مع زوجته في أي موضوع جادّ مثل المسائل الاقتصادية أو السياسية ، ولا يطلعها على كل أحاسيسه وتطلعاته، ولا يشاورها حتى في الأشياء التي تخص الأسرة أو تتعلق بمستقبلها. الزوج هو رب الأسرة وهو الآمر الناهي ، وأي تعليمات يصدرها تصبح قانوناً يُطاع ويُنفذ ولا يُناقش.



ظل العرف بين قساوسة الدير على مر القرون أن ينبش القبر بعد فترة وجيزة وتؤخذ عظام الميت وترص بهذه الطريقة في (بيت الموتى)



القديس ستيفانوس الذي توفي عام ٥٨٠ م يجلس في نفس المكان مرتديا نفس الملابس وممسكا بعصاه ومسبحته حارسا عند مدخل (بيت الموتى) إلى هذا اليوم

إنك قد تستغرب والحالة هذه: كيف يمكن أن تعيش المرأة في العالم العربي حياة سعيدة؟ ولكن معظمهن حقيقةً في غاية السعادة ، تماماً كالمرأة في العالم الغربي. الحياة التى يعشنها هي الحياة الطبيعية في نظرهن، ولم يسمعن بغيرها ، وقد تربّين على طاعة الزوج وتلبية رغباته وممارسة حياتهن الزوجية بالكيفية التي يراها الرجل. جميع الناس هنا يؤمنون بأن الرجال قوامون على النساء، وعندما تلد المرأة ولداً فإن أباه يطير من الفرح والعزة، خاصة إذا كان أول جنين لهما. الرجل العربي الذي تنجب زوجه بنات فقط يشعر بكثير من الإحباط والخيبة والخذلان، والمرأة من هذا النوع أو التي لا تلد بالمرة ينصرف عنها الزوج، إما يتركها أو يطلقها أو يتزوج أخرى غيرها.

يدفع العريس المرتقب مهراً لأب العروس، وهذا المهر يتراوح حسب وضعه المالي وعمر الفتاة المخطوبة وجمالها وحالة أبيها الاقتصادية ؛ وكلما كانت العروس صغيرة وجميلة ارتفع مهرها. والمهر كذلك يتفاوت من مكان لآخر في الجزيرة العربية، فهو قد يكون فقط عشرة ريالات ماريا تريزا في مكان أو ألف ريال في مكان آخر. تقوم العروس بإعداد «الجهاز» ، وجمال ومستوى ذلك الجهاز يتوقف على مقدار المهر الذي تناهى إلى والدها وعلى وضعها الاجتماعي والطبقي. جهاز العروس التي يكون والدها ثرياً يتالف من بنود وكميات هائلة، من جلابيب الحرير الفاخر والثياب المطرزة والمجوهرات الغالية. على العريس أن يجهز بيته وأثاثه، ولكن في بعض الأحيان تقوم العروس بوضع اللمسات الأخيرة على البيت بنفسها ومن مواردها ، مثل الأغطية والملاءات والستائر ولوازم المطبخ وآنية الأكل والشرب.

وبما أن الأب هو الآمر الناهي في موضوع الزواج فليس غريباً أن تعطى فتاة في السادسة عشرة من عمرها لرجل عمره ثمانون عاماً ، وغالباً ما يتزوج الفتى العربي

فتاة لا تزيد على نصف عمره؛ وقد يحدث أحياناً أن يتزوج الشخص بنتا في سن العاشرة من عمرها ولكن نظرياً لا يقر بها الزوج إلا إذا بلغت. يجب أن تكون العروس عذراء، ويجب أن تبرهن العروس ذلك ليس فقط لزوجها ولكن لكل أفراد أسرته الذين ينتظرون خارج غرفة العروسين ليلة زفافهما. تخرج أم العروس بملاءات السرير وتعرضها على الحضور الذين لن يرضوا إلا إذا كانت هناك بقع دم تشير إلى أن البكارة قد أزيلت في تلك الليلة بواسطة العريس. وإذا لم يكن هنالك دم فإن العار يكون قد حل بالعروس والعريس وأهل العروس. وليس أمام العريس إلا حل واحد في هذه الحالة، إذا أراد أن يحتفظ بماء وجهه، وهو أن يطلق عروسه في التو والحين. إنَ بعضهم يفعل ذلك وبعضهم يؤجل الموضوع لأسبوع أو أسبوعين ثم يعيد العروس مطلقة إلى أهلها. أما إذا كان العريس يحب عروسه وأراد أن يحتفظ بها فإن الأمر يصبح معقداً وشائكاً للغاية.

وإذا لم تثبت العروس أنها عذراء فإنها قد تتعرض للضرب من قبل زوجها وأهلها ، وقد يطردها أهلها من البيت ويقطعون صلتهم بها. إن من حق الرجل المسلم أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع، والعصمة بيده ويستطيع أن يطلق دون حاجة لإبداء السبب أو المبرر ، كل ما يقوم به هو أن يناديها باسمها ويقول لها أنت طالق. بعد ذلك يبلغ المحكمة بالأمر ويستلم منها ورقة الطلاق التي تشبه وثيقة الطلاق في النظام الغربي. ولا تستطيع الزوجة أن تحصل على الطلاق من زوجها بدون موافقته إلا إذا أثبتت أنه عاجز تماماً عن كفالتها وإعاشتها ويتم ذلك بواسطة المحكمة الشرعية* .

وإذا تزوج الرجل من عدة نساء في آن واحد فعليه الإنفاق عليهن حسب موارده

* لايخفي على القارئ ما في هذه المعلومات التي تلقاها المؤلف سماعياً من عدم دقة وتعميم مخل.(المراجع)

المالية. فإذا كان ميسور الحال يُسكن كل واحدة منهن في منزل منفصل ويقضي معها يوماً أو يومين في الأسبوع؛ بهذه الطريقة فإن المشكلات والحساسيات بينهن تقل. أما إذا كان متواضع الحال فهن يعشن معه تحت سقف واحد على أن تكون لكل واحدة غرفة، وقد تكون الغرفة ضيقة في بعض الحالات. وفي هذه الحالة تشترك الزوجات في العمل المنزلي الذي يقتسمنه بينهن، وتقف كل واحدة على متطلبات أطفالها بنفسها . وهنا لا مفر من الاحتكاك ، خاصة إذا كان الزوج يفضل واحدة على الأخريات، وهي دائما تتمتع بنفوذ أكبر من زميلاتها. أما إذا لم تنجب الأولى أطفالاً فإن الزوجة التي تنجب هي المقربة وصاحبة النفوذ، وقد يعطي الزوج هذه المكانة لزوجة أخرى، الثالثة أو الرابعة أو غير ذلك، لأسباب أخرى: إذ قد تكون أصغرهن سناً أو أجملهن أو لأنها تريحه لسبب من الأسباب. كلمة الزوج فوق كل شيء وأمره مطاع، ولكن شيئاً واحداً لا يستطيع قمعه أو إيقافه وهو العراك والجدل بين زوجاته.

وعندما تسوء حال الرجل الاقتصادية يكتفي بزوجة واحدة أو اثنتين ، وبعض الضرر أخف من بعض إذ إن الاحتكاك بينهن ليس بخطورة الاحتكاك بين أربع زوجات تحت سقف واحد. وإذا توفيت إحداهن فإن الأخريات يرعين أطفالها، وذلك قد يجلب نوعاً آخر من المشكلات.

قالت إيلين :-

« قالت لي إحدى العربيات ذات مرة، إذا لم يستطع الزوج أن يعدل بين زوجاته فيجب ألا يتزوج أكثر من واحدة ، والعدل يعني أن يحبهن بالقدر نفسه، وينام مع كل واحدة ساعات متساوية، ويضحك الضحكات نفسها. ويجب أن يظل مع التي يهجع معها ليلاً حتى الصباح، ولا يخرج من هذه ليذهب إلى تلك. »

وأردفت إيلين قائلة :-

«ومن محاسن تعدد الزوجات أنه ليست هنالك عوانس في الجزيرة العربية، من هذه الناحية فإن النساء العربيات أكثر سعادة وأقل كبتاً من مثيلاتهن في أوروبا.»

لقد كنت أخشى ألا تجد إيلين منزلنا الطيني مريحاً، ولكنني تذكرت أنها تحملت ظروف الصحراء والجبل في سيناء ويمكنها أن تتعايش مع الآخرين في منزل من اللبن في بلدة نائية بالجنوب العربي. إيلين جاءت من أسرة راقية في مصر، لديها عدة خدم وعمال بالمنزل، ولم تعرف كيف تغسل ملابسها بنفسها، لكنها على كل حال تعلمت ذلك الآن وهي تقوم بذلك بكل حماسة.

كان منزلنا في تمنع مجهزاً بالكثير من أسباب الراحة التي جلبناها معنا من الولايات المتحدة: التيار الكهربائي، الثلاجات، البرادات، الطعام المعلب والمجمد.. إلخ. ومع ذلك فإن البيت المبني من الطين والزبل والقش يظل بيتاً مصنوعاً من الطين والزبل والقش، حتى لو غطيناه بالصبغ. ومازالت مشكلة العناكب قائمة، بل يبدو أنها قد صارت أكبر حجماً في الأشهر الثمانية الماضية.

وعموماً، كانت إيلين سعيدة بمنزلنا، وقد أدخلت بعض التحسينات على غرفتها إذ صنعت لها ستائر من الناموسيات، كما أدخلنا لها سريراً محترماً في غرفتها، بفضل العطف الذي حظيت به من جمعة رئيس الخدم الذي أحضر لها سريراً خاصاً من عدن.

أما الحمام فإن إيلين كانت تنظر لجوانبه الإيجابية وتقول بإنه الحمام الوحيد في العالم الذي تستطيع أن تستحم فيه وتنظر إلى الخارج وتستمتع بالمناظر المحيطة به فهو مفتوح من جانبه الأعلى وليس له سقف.

المشكلة الوحيدة في الحمام هي أن الصبي الذي يعبئ الخزان بالماء على سقف المنزل لابد أن يمر بجانب الحمام، ولكن الفتى العربي الذي كان يقوم بذلك حلّ المعضلة بما له من كياسة وأدب، إذ كان يطرق باب إيلين وهو صاعد بجراب الماء، فإذا كانت موجودة بغرفتها فهو يواصل مشواره صاعداً بقرب الحمام، واذا لم تجب فمعنى ذلك أنها في الحمام، فيجلس بالبهو وينتظرها حتى تفرغ من حمامها ثم

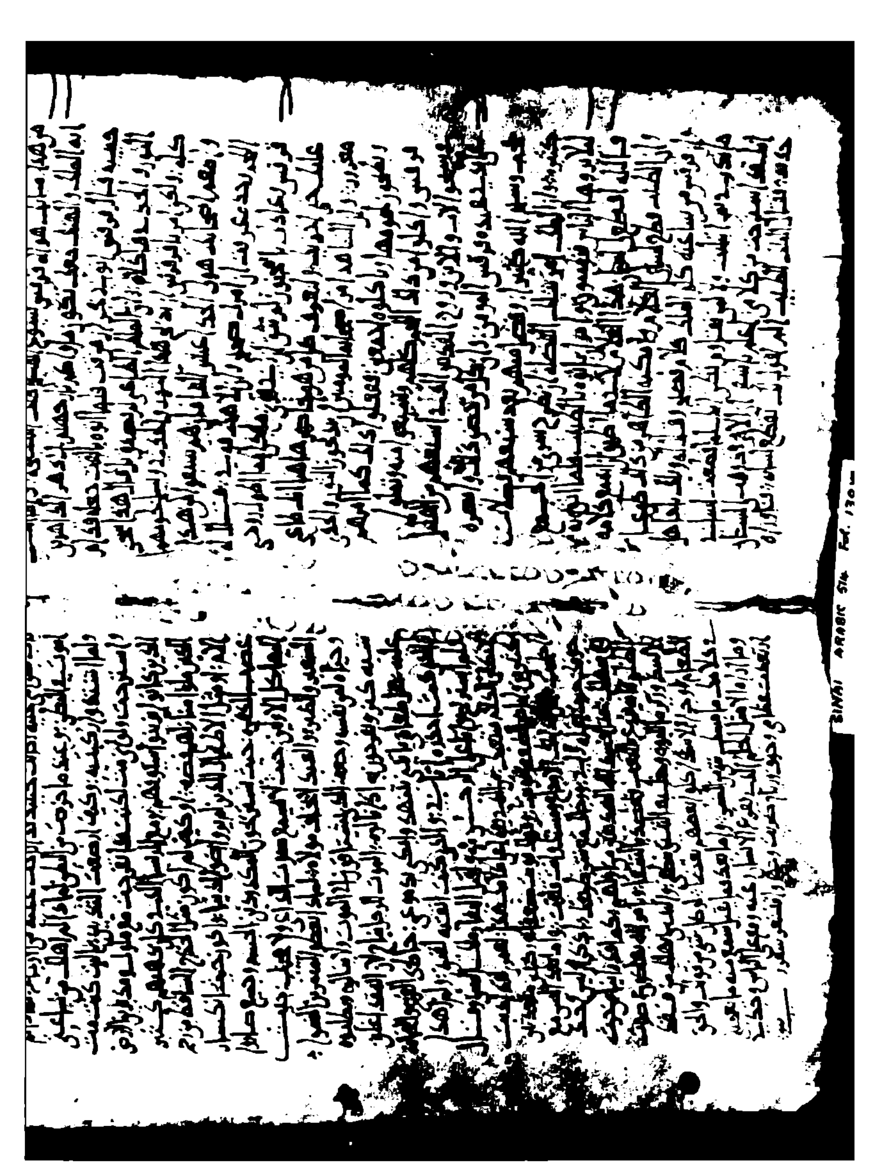
يقوم إلى الخزان ويعبئه بعد عدة مشاوير بالدلو. لهذا السبب فإن إيلين تعتقد بأن الرجال في الجنوب العربي هم أظرف الرجال في العالم وأكثرهم أدباً ووقاراً.



الأب باخوميوس فنان الزخرفة الذي لم يغادر الدير منذ خمسين سنة



الأب جواكيم أمام مذبح الكنيسة



جزء من المخطوطة «كودكس أرابيكوس» التي وجدت في مكتبة دير القديسة كاترين، وفيها خطوط بالسريانية في الهامش



الفصل السادس عشر

المستر سكيف وحرمه

ما إن جمعنا أطراف القوة العاملة كلها حتى بدأنا الحفر والجرف والكب مرة أخرى. وبعد يومين من البداية جاءتنا برقية من الشريف عبد الله حاكم عسيلان ترجونا السماح لأربعة من الصبية بترك العمل للرجوع لمدرستهم ففعلنا. ولكنهم عندما جاؤوا ليأخذوهم الى المدرسة قاوموا ذلك إلى أن ربطوهم بالجنزير ، ورغم أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا أصغرهم بذلك، وهو بدوي في السابعة من عمره من قبيلة بلحارث . قال الصبي :—

«إنني طائر حر طليق من طيور البيداء، كيف تضعونني في حبس المدرسة! إذا فعلتم ذلك فإنني سأذوي وأموت من الغم.»

المدرسة في بيحان للأولاد فقط، وفيها يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون بعضاً من سور القرآن. البنات يمكثن في البيوت حيث يتعلمن كيف يطرّزن ويطبخن ويؤدين الواجبات المنزلية الأخرى.

من الأولاد الذين أوليناهم العناية والاهتمام كان ذلك الصبي الذى أكل داء العليق نصف وجهه والذي طلب منا دكتور ماكنش أن نراقب حالته ونوافيه بتقرير عنها ليرى ما فعلته علاجاته به. جاءنا هذا الصبي في الموسم الجديد بحالة صحية ممتازة بعد أن يئست منه مهنة الطب في أمريكا لما رأوا صوره. لم تنم خلايا جديدة في وجهه لتملأ تلك التي التهمها المرض، ولكن توقف المرض ولم يأكل خلايا جديدة. طبيبنا الجديد، دكتور فالنتين دي مقنارو ، عاين الصبي وفحصه جيداً وقرر انّه عوفي تماما، فأرسلنا تقريراً بذلك إلى الدكتور ماكنش في أمريكا ولابد أنه رضي به تمام الرضا.

بدأ دكتور فالنتين العمل في العيادة منذ أول يوم لمجيئه ، قبل أن نبدأ عمليات الحفر نفسها. لقد استعرنا هذا الطبيب الممتاز من مستشفى برسبيتيريان هوليود، وهو من اصل روسي وفرنسي ، ولد في روسيا، وقد فقد زوجته وطفليه في أثناء غارات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة حيث لم يتمكن في بادئ الأمر من إيجاد وظيفة مناسبة رغم مؤهله كطبيب ورغم الست عشرة لغة التي يتحدثها ، فعمل في جني ثمار البرتقال في جنوب كاليفورنيا. وأخيراً وبعد لأي استطاع أن يجد فرصة لممارسة مهنة الطب والجراحة. ولكن رغم اللغات الكثيرة التي يعرفها فإن معرفته بالإنجليزية ضعيفة، وكثيراً ما يعتمد على الإشارات وتعابير الوجه التي برع فيها للغاية.

وبعد أسبوع من وصولي لبيحان جاء شارلي ماكولم بعد رحلة عاجلة إلى المكلاّ لإحضار ما تبقى من أعضاء البعثة، وهم: والاس ويد الذي كان مسؤولاً عن التصوير في بعثة سيناء يحتل الآن الموقع نفسه في حملتنا الثانية ببيحان، وروبرت كارميان ميكانيكي السيارات والطالب بجامعة ردلاندز ، وجون سمبسون مساعد خبير آثار من متحف كارنيجي وقد أحضر شارلي معه كذلك وحدة التبريد السريع الجديدة لحفظ الأطعمة وكميات هائلة من المأكولات والمشروبات. وفي يوم الأحد أقمنا أول صلواتنا الأسبوعية بقيادة القس قس فان بيك وبروفيسور البرايت.

واصلنا الحفريات في أربعة مواقع في الوقت نفسه وكان أهمها الحفر القطاعي بهجر بن حميد عسى أن يساعد البرايت في استكمال موضوع التسلسل الزمني لحضارات الجنوب العربي ، وذلك مما سيسهل الربط بين الاكتشافات الأثرية المختلفة. وقد اختار البرايت لهذا الموقع دونالد دراقو عالم الآثار من جامعة انديانا

والبالغ من العمر خمساً وعشرين سنة، يساعده قس فان بيك المناط به تسجيل مستويات وتواريخ الخزف.

وكان المسؤول عن موقع حيد بن عقيل هو روبرت شالكوب من معهد سميثونيان، وبكل أسف فقد تعرض هذا الموقع لهجمة في غيابنا من البدو الباحثين عن الكنوز المدفونة، وبالطبع لم يجدوا شيئاً ذا فائدة، ولكنهم دمروا ما كان مهماً وذا قيمة بالنسبة لنا.

الموقع الآخر الهام هو البوابة الجنوبية بابراجها والفناء الملاصق لها، تحت إشراف إليس بيركو.

والموقع الرابع هو وسط مدينة تمنع وهو أكبر المواقع التي تنتظر الحفر، وكثير من الصخور ناتئة من بين الرمال مما يشير إلى أن هذا المكان ربما كان أكثر مناطق تمنع إزدحاماً بالعمران. بدأت العمل في هذا الموقع بمعاونة جيمس سويقر من متحف كارنيجي، وكنا نظن أننا ربما نعثر في ذلك المكان على معبد ضخم أو قصر ملكي.

بدأ العمل في المواقع الأربعة المذكورة بطريقة هادئة وسلسة، يحدونا الأمل في المزيد من الاكتشافات الأثرية لهذا الموسم. وكنا نتوقع زيارة هامة من شخصيتين ما كنا نستطيع أن نستأنف هذا العمل لولاهما المستر الان سكيف وزوجته سارة، من مدينة بتيسبيرغ، اللذان قدما لنا مساعدات مالية جبارة. وبتيسبيرغ مدينة صناعية رائدة في الولايات المتحدة ولعائلة الان سكيف جذور ضاربة فيها ونفوذ اقتصادي واسع، وقد كان والد سارة، رتشارد ميلون، أحد الأعمدة الصناعية والمالية العبقرية بهذه المنطقة، وكذلك عمها المشهور جداً أندرو ميلون، اللذان لولاهما لما بلغت بتيسبيرغ نفسها ما بلغته من شهرة وعظمة.

عَمَّ المكان جلبة واضطراب استعداداً لاستقبال الضيفين الكبيرين، ليس من

جانبنا حسب إنما كذلك من جانب الشريف حسين وحكومته. ذهبتُ لعدن لاستقبالهما في اليوم المحدد وقد وصلا قبل الموعد ببضع ساعات، فأرسلت رسالة مستعجلة من عدن للشريف حسين بوصولهما حتى يكون على اهبة الاستعداد .

وبعد وصولهما قررنا السفر لتمنع على طائرتهم الداكوتا المؤجرة. وبينما كنا في الجو لمح الطيار قلعة «القارة» المتفردة التي تقع على قمة جبل ضخم قمته مسطحة. لكن الان سكيف لاحظ بعض الوميض تحتنا مباشرة وتساءل عنه. ذلك الوميض كان في الحقيقة نيران البنادق التي انطلقت في اتجاهنا كموقف عدواني، فصعد الطيار بطائرته إلى أعلى وولينا الأدبار تاركين القارة وحالها.

بعد ذلك ببضع دقائق هبطت بنا الطائرة في جوالملح، وهو المطار الذي يبعد عن تمنع سبعة أميال. وبعد زيارة سريعة لمنزلنا توجه ركبنا نحو مقر الشريف حسين حيث أعد حاكم بيحان عرضاً خاصاً للضيفين المرموقين؛ فقد أصر ان يستقبلهما استقبال الملوك. كان هناك ثلاثة آلاف فارس عربي مصفوفين على جنبات الميدان الرئيس، من مختلف الأفخاذ والقبائل، بملابسهم الزاهية الألوان، وقد استقبلنا عند أول الميدان كل من الشريف حسين والأمير صالح والرائد بازل سيقر المعتمد البريطاني وباقي الحاشية، ثم وقفنا جميعنا، ضيوفاً ومضيفين، على جانب من الميدان لنشهد العروض.

بدأ الاحتفال بإشارة من الشريف، وكانت أول فقرة للخيالة الذين ركضوا باتجاهنا بسرعة فائقة وهم يطلقون النار من بنادقهم في الهواء ، وهم يصيحون صيحات الحرب بأعلى أصواتهم، وعندما تصل الخيل على بعد خطوات منا يغيرون اتجاهها فتحدث سحابة من الغبار. ثم جاءت مجموعة ضخمة من قبيلة المصعبين، عليهم طلاء أزرق من صبغ النيلة، وأيديهم متماسكة، يرقصون رقصة

غريبة ويغنون بأعلى أصواتهم ، وكانت هناك مجموعات أخرى تنسلُّ من بينهم وتطلق الرصاص في الهواء وتقفز وتتصايح، وآخرون يلعبون بالخناجر كأنهم يقطعون خصماً وهمياً إرباً إربا، والخناجر تعلو وتهبط في حركة دائرية سريعة .

جاءت كل هذه المجموعات من الجانب الآخر للميدان باتجاه المكان الذي وقفنا فيه، واقتربوا منا للغاية احتفاء بنا وفضولاً لرؤية الضيوف القادمين من الولايات المتحدة، وكانوا يحيوننا بالطريقة العربية التقليدية وهي إطلاق الرصاص في الهواء، على مقربة من المحتفى به، عند ذاك شعرت ببعض القلق، وتساءلت في سري: ترى هل يستطيع الشريف حسين أن يضمن ثلاثة آلاف مقاتل من جميع قبائل المنطقة؟ الا يجوز ان يكون بينهم من يحمل نحونا شعوراً عدائياً؟ على كل حال، وكنوع من التحوط، قفزت ومعي جورج فارير إلى رأس إحدى السيارات حتى نستطيع أن نكشف الميدان كله من هناك ونحمي ضيوفنا اذا تعرضوا لأي هجوم أو سيناريو غير متوقع. ولقد ازداد قلقي عندما رأيت الرائد سيقر يقف بجانب سارة وألان سكيف، وتذكرت أن هنالك قبائل معادية من الجنوب الغربي أهدرت دم الرائد سيقر وأعلنت عن جائزة ضخمة لمن يأتي برأسه. بدا لي أن هذه لحظة مناسبة لمغامر من النوع الذي يطمع في تلك الجائزة.

رأيت الرائد سيقر وهو يرتدي حزاماً حول وسطه يتدلى منه مسدس فشعرت بارتياح شديد.

عندما وصلت للجنوب العربي أول مرة كنت مثار تندر وسخرية الجالية البريطانية بسبب المسدس الذي كان يتدلى من خصري، وكانوا يرمزون لي باسم «فيليبس راعي البقر» أو «بيلي ذا كيد». والآن رأيت المسؤول البريطاني الأول عن الأمن والأرواح بالمحمية قد أصبح هو أيضاً «راعي بقر»، متمنطقا بأعظم وثيقة

تامين على الحياة ، وهي المسدس.

ربما كان المسدس الذي يحمله الرائد على جنبه هو السبب الذي جعل من فكر في اقتناص الجائزة على رأس الرائد أن يفكر مرتين. على كل، انتهى العراك وتفرق الحشد وقادنا الشريف حسين إلى داخل مقره حتى بلغنا مجلساً مستطيلا مفروشاً بالسجاد والطنافس والأبسطة . بعد تبادل الخطب بين الشريف وضيوفه، أهدى الان سكيف كاميرا بيلارويد للشريف حسين، الذي أهدى بدوره خنجراً مذهباً لالان. في هذه الأثناء دخلت سارة بصحبة إلين إلى جناح النساء اللائي أكرمن ضيفتهن وقدمن لها الهدايا. وعندما عادت سارة من جناح الحريم كانت تحمل حزاماً فضياً مصقولاً أهدته إياها ابنة الشريف حسين . وبعد العشاء تقدمت بهدية للشريف حسين وابنه وهي عبارة عن مسدسين، وبعد ذلك توجهنا نحو تمنع ونحن في غاية التعب بعد يوم حافل في بيحان القصب.

وقد حدث قبل بضعة شهور، وبالتحديد في اليوم السابق لعيد الميلاد، أن كان الرائد سيقر يتمشّى ليلاً في شوارع الضالع ومعه زوجته إذ لمح رجلاً يمشي مع بعض رفاقه وهو من مدينة أخرى. وقف الرائد سيقر ليسأل الرجل من أي مدينة جاء، فرد الرجل بأنه من الضالع. عندما قال الرائد بأن هذا غير صحيح استلَّ الرجل جنبيته وجرح الرائد في خده قرب العين ثم غرس الخنجر في صدر الرائد، وكانت المعجزة أن الخنجر وصل قريبا من القلب ولكنه لم يمسه. في هذه الأثناء أمسك الرائد بصاحب الخنجر وطرحه أرضاً فوقع على خنجره . وقطع أربعاً من أصابعه من جذورها. عند ذاك وصل حراس الرائد وأردوا المهاجم قتيلا ونشبت معركة بينهم وبين رفاق ذلك الرجل سقط فيها موتى من الجانبين. وخلال تلك المعركة ظلت زوجة سيقر هادئة ومتماسكة بجانب زوجها وكانت ترمي الجماعة

المهاجمة بما تجده من حجارة. مضى زمن طويل قبل أن يصل الطبيب ويسعف الرائد سيقر وينقذ حياته، ولولا شجاعته لكان في عداد الموتى.

كان اسم الرجل الذي حاول أن يغتال الرائد سيد عبد الدايم ، وقد جاء إلى الضالع خصيصاً ليقتل الرائد سيقر، وكان من المفترض أن يقوم بفعلته في وقت متاخر من الليلة نفسها، ولكنه عندما التقى ضحيته مصادفة في قارعة الطريق قرر على الفور أن يقدم الموعد وأن يهاجم الرائد سيقر.

وفي صبيحة اليوم التالي أخذت آلان وسارة وطفت بهما حول مواقعنا الأربعة ، ثم ركبا طائرتهما متوجهين إلى حضرموت . وكان شارلي ماكولم وبوب كارميان قد سبقانا بالسيارات ومعهم معدات ومؤن تكفي لمدة خمسة أيام . وبعد أن أقلعت الطائرة رجوت ملاحها أن يوجهنا نحو أرض مأرب المحرمة ، وليس غريبا أن تضل طائرة طريقها وتخترق المجال الجوي اليمني؛ إذ إن حدود اليمن مازالت موضع نزاع وأخذ وردّ ، وغالباً لن يعرف أحد أننا دخلنا الحدود اليمنية. كانت تداعبني فكرة الحفريات في عاصمة مملكة سبأ ، ورغم أنه احتمال بعيد، وكذلك عندما يرى آلان وحرمه هذا المشهد الرائع لمأرب من الجو فإنهما سيندهشان ويفرحان به للغاية. وفعلاً طار ودار بنا الطيار فوق بقايا سبأ عدة مرات وقام ولاس ويد بأخذ لقطات عديدة وسجّل أشرطة سينمائية لذلك الموقع العتيق ومعه السد الشهير، سد مأرب.

وما إن اتجهت الطائرة صوب حضرموت واستقرت في الجو تماماً حتى قررنا أن نحلّق حول مدينة أخرى تعذر علينا السفر إليها بالبر، وهي مدينة شبوة الممنوعة أيضاً . وهكذا تمكنا في خلال بضع ساعات من رؤية ثلاث عواصم لممالك عربية جنوبية مشهورة: تمنع عاصمة قتبان، مأرب عاصمة سبأ، شبوة عاصمة حضرموت.

واجه الملاح مشكلة في تحديد موقع شبوة ، وهي ليست واضحة تماما أو لافتة للنظر من الجو. وفعلاً تساءلت سارة عن سرّ شبوة، فقلت لها إن هذه المدينة الغامضة هي مدينة(سابوتا)التي كان بها ستون معبداً وزارها المؤرخ بليني ، وكانت هي دائما السر الخفي الذي لا يفصح عنه أي مستكشف زار الجنوب العربي. وهنالك روايات لا حصر لها عن المعابد والقصور والكنوز المخبأة تحت تلك الرمال مما جعلها أكثر نقطة تتركز حولها الأنظار. نحن أول من رأى هذا المكان من الأمريكان رغم اننا لم نره الآن إلا من الجو.

هبطت طائرتنا في القطن، ومن هناك قادنا شارلي وبوب بالسيارات إلى سيؤن حيث تناولنا الشاي مع السيد أبوبكر الذي كنا قد أقمنا بقصره في رحلتنا الأولى إلى بيحان. وفي اليوم التالي أصابتني حمى شديدة ومعها نزلات برد جعلتني ارتجف ، وفي صباح اليوم التالي هدتني الحمى تماماً. وعندما جاء وقت لقائنا مع السلطان كنت في أسوأ حالاتي.

ذهبنا لسلطان سيؤن، حاكم الدولة الكثيرية، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، وجلسنا معه داخل قصره الأبيض العجيب ، وهو – قطعاً – أكبر وأجمل مبنى في حضرموت. قضينا معه يوماً كاملاً وانصرفنا مع تباشير فجر اليوم التالي، بعد أن وقفنا مع السلطان لنأخذ صوراً عديدة أشرف عليها والي ويد. في تلك الأثناء كانت النسوة تطالعننا من إحدى الشرفات بالنظارات المكبرة.

في صبيحة اليوم التالي كنا في المطار لوداع الان وسارة وهما في طريقهما إلى أمريكا عبر بيروت. قال كلاهما عند باب الطائرة: (اعملوا حسابنا معكم للعام القادم، سنزوركم في الموسم الجديد إن شاء الله.) قالا كلمتهما «إن شاء الله» باللغة العربية.



بيين سلامة، سكرتيرة البعثة ومترجمتها مع الشيخ عبدالله بحري في أرض قبيلة بلحارث



والاس ويد يطعم غزالته الأليفة

شارلس ماكولم ممتطيا فرسه العربي المفضل في بيحان

الفصل السابع عشر

مـــدن الموتـــى

عندما كنا منهمكين في العام السابق بمقبرة حيد بن عقيل لاحظنا شواهد عديدة تدل على أن الجزء الغربي من التل يحتوي على بناية ضخمة مطمورة تحت الرمال. بدأ بوب شالكوب العمل في هذه النقطة وأخذ يزيح الرمال التي تراكمت عبر ألفي عام، وبعد قليل وصل إلى سور خارجي كبير وعريض وطويل ، شكله مستطيل وفيه نتوءات وكوّات متتالية. علّق البرايت على ذلك الشكل بأنه في الغالب محاكاة للمعمار البابلي المتأخر وبأن هذا المبنى هو نوع من المعابد لدفن الموتى، وربما بني أصلاً كنوع من الأهرامات. بعد أيام أخرى من الحفر وإزالة الرمال اتضح أن الحيطان من الداخل مبنية من الطين اللّبن.

اكتشف بوب في إحدى الغرف ثقبا في الأرضية فوهته مستطيلة ، ومبنياً بالحجارة الدقيقة، كأنه مهوى مصعد. قاد هذا الاكتشاف لأضخم عملية حفر في الموقع، لإزالة الحجارة والرمال والركام الذي كان يغطي تلك البئر الحجرية، ونصب بوب صقالة حول فوهة البئر ووضع عليه بكرة لتمر الحبال منها وهي تنقل الحجارة والرمال من البئر بواسطة دلو. وكلما هبط بوب وعماله إلى أسفل البئر غرقنا في التخمينات حول مكنوناتها، وكنا نتمنى أن نعثر على مكان للدفن آمن ولم تطله يد الناهبين والسارقين للقبور، ولكنه أمل ضعيف؛ إذ إنه ليس من عادات القدماء في الجنوب العربي أن يدفنوا موتاهم في آبار سحيقة العمق.

لما بلغ بوب عمق تسعة أقدام وجد نقشاً قديماً على حجر مرمر مكتوباً من اليمين إلى اليسار ، فيه ذكر لاسم (مكرّب) حكم في القرن السادس قبل الميلاد.

هذه الكتابة أضافت إلى الأدلة التي تواترت من جهات أخرى بالمبنى بأن هذه البئر وما يحيط بها من هيكل يشبه الضريح تنتمي لعهد «المكاربة» وهم الحكام الكهنة الذين حكموا قتبان قبل أن تتبلور فكرة الملوك لديهم.

بعد عشرين قدماً تغير شكل البئر ليصبح دائرياً بعد أن كان مستطيلاً ، وأصغر حجما بكثير. أصبح الحفر أكثر صعوبة ولكن العمال واصلوا بهمة، رغم أنهم ظنوا أن ما بلغوه الآن هو مجرد بئر ماء، ولكن وجود بئر في ضريح لدفن الموتى أمر غريب بعض الشيء.

وبينما ظل الحفارون يعملون في البئر ، واصل آخرون عملهم في الجوانب الأخرى حيث وجدوا ضريحاً ثانياً أكثر قدماً من سابقه فيما يبدو ولكن ليس به حفرة عميقة مثله. ووجدوا داخل الضريح مصاطب كثيرة مصنوعة من اللبن ربما رصت لتوضع عليها القرابين والعطايا للموتى . وهنالك شواهد على أن هذا الضريح تعرض لاحتلال ثلاث مرات في أزمان مختلفة، وأن محتليه شيدوا فوقه مساكن من الطين اللبن.

تم اكتشاف ضريح ثالث في ذلك الموقع وفي مستوى أعلى من سابقه على صفحة التل، بينما يلامس أحد حيطانه ذلك الضريح. الطوب الذي بني منه هذا الضريح ومادة البناء الأخرى أكثر قدماً من الضريحين الآخرين، وهنا اكتشف أحد العمال غرفة لها أرضية من الحجارة المرصوفة وحيطانها الداخلية مغطاة بالمرمر الأبيض. كانت الغرفة مجهزة بمجارى للصرف محفورة داخل الحيطان ولديها دَرَج، وهي تعود للقرن السابع أو الثامن قبل الميلاد.

اكتشف العاملون مع بوب أحد عشر قبراً أُسرياً يتألف كل واحد منها من عدة غرف مستطيلة ومتلاصقة وبه ممر في الوسط ، وكل قبر عرضه ثلاثون بوصة وطوله ستة أقدام ونصف، وهنالك ثماني غرف على كل جانب.

مع كل هذه الحفريات وكل هذه الأضرحة والقبور لم يتم العثور على اكتشافات أثرية ذات بال؛ وجدوا فقط مجموعة من الآنية المرمرية في الممر الخارجي لأحد القبور، كما وجدوا منحوتات أخرى لرؤوس بشر وثيران وأشكال اخرى ومناضد صغيرة لتقديم النذر والهدايا للآلهة ، كلها مرصوصة على خط واحد.

مازال بوب وعماله يحفرون في البئر الأولى، وكلما غاصوا إلى أعماقها وجدنا نقوشاً على بعض الحجارة التي خرجت منها، كما عثرنا على تمثال صغير هو الأقدم حتى الآن في كل الحفريات العربية الجنوبية ؛ العيون في ذلك التمثال منحوته بالطريقة المصرية والفينيقية وذلك يعني انه لا يمكن أن يتخطى القرن الرابع قبل الميلاد.

وأخيراً وصل بوب إلى قاع البئر التي كانت على عمق ستين قدماً من السطح كانت آخر أقدام فيها منحوتة من صخر القاع بطريقة خشنة مما يدل على أنه كان عملاً شاقاً على القتبانيين . ليس هنالك فتحات في البئر لدفن الموتى، ولم تكن بئراً في حقيقة الأمر لأن قاع هذه الحفرة مازال بعيداً جداً عن المياه الجوفية . والتفسير الوحيد لهذه الحفرة هو أن الشخص المدفون في الضريح فوق الحفرة أراد ان يستخدم هذه الحفرة لتنزل روحه عن طريقها لعالم الموتى في أسفل السافلين. المهم في الأمر هو أن هذه الحفرة لها علاقة بالطقوس الدينية القتبانية المتعلقة بالموت ودفن الموتى.

وبعد أيام من ذلك، وبينما كنا في طريقنا إلى «ممر مَبْلَقَة»، ذلك الأخدود الضيق والوعر بين الجبال المؤدي لقرية حريب اليمنية، مررنا على مدينة أخرى للموتى ، أي مجموعة اضرحة ومقابر. وخلف ذلك الممر الضيق ، وعلى مقربة من

حدود اليمن مع محميات عدن الغربية التي لم تكن واضحة تماماً، كانت هناك آثار المدينة القديمة المسماة هجر حنو الزرير. كان معنا الأمير صالح بن الشريف حسين وكنا على ظهور الخيل والجمال.

تحركنا نحو هذا الموقع في الساعة الرابعة صباحاً، وكانت رحلتنا سرية لدواعٍ أمنية، حيث إننا قريبون من الحدود اليمنية، ورغم ذلك عمت الأخبار وأتى الكثيرون لوداعنا إذ لا يوجد شيء اسمه السرية في الجزيرة العربية.

في قرية النقوب لحق بنا حراس بيحانيون، ثم اتجهنا بسياراتنا نحو هجر بن حميد، ثم اتجهنا غرباً في وادي مبلقة، ثم أخيراً وصلنا قرية صغيرة اسمها بير هجره حيث تركنا سياراتنا، وهنا لحق بنا المزيد من الحراس، وزودنا بتسعة خيول وأربعة حمير وثلاثة جمال، وكان معنا شارلي ماكولم ودكتور جام وولاس ويد ودكتور دي ميقتارد وشستر ستيفنز وجمعة، وكنا نحس بالأمن والاطمئنان.

صعدنا الممر راكبين أحياناً وأحياناً راجلين وكلما توغلنا فيه زاد عجبنا واندهاشنا. هذا الممر هو من صنع البشر في قديم الزمن للربط بين وادي بيحان ووادي حريب، وطوله ثلاثة أميال، يرتفع حتى يبلغ ألف قدم في بعض المناطق، متعرج وله حائط صغير للحماية على الطرف الآخر للجبل، وعرضه من اثني عشر إلى خمسة عشر قدماً، ومرصوف بحجارة منبسطة كبيرة على شكل سلّم عندما يكون المنخفض حاداً. مشينا على هذا الطريق متبعين تعرجاته يمنة ويسرة ونظرنا إلى أسفل نحو الحجارة التي كانت حوافر الخيل وأخفاف الجمال تضربها، فهي الحجارة نفسها التي مشت عليها قوافل البخور منذ خمسة وعشرين قرناً خلت.

كان ممر مبلقة* حلقة وصل هامة بالنسبة «لطريق البخور» القديم ، وأحد الطرق الرئيسة التي مرت من خلالها بضائع الشرق متجهة نحو الغرب، وبالعكس .

عندما اقتربنا من ذروة الممر أصبح الانحدار حاداً لدرجة أن بناة الممر الأصليين في الزمن القديم عجزوا عن بناء الحيطان الواقية في تلك المنعرجات الحادة التي تقود لقمة الممر، وما عادوا يبنون أرضية من الحجارة الملساء، ولكنهم نحتوا ما تبقى من الممر على الصخر مباشرة، دون إضافة أرضية عليه، وصار عرض الشارع هنا خمسة عشر إلى عشرين قدماً . لا بد أنه كان جهداً عظيماً أن ينحت الأولون هذا الشارع في قمة الجبل بأدواتهم البدائية، كأنك تحفر نفقاً بشوكة. ولقد تساءلنا لماذا تعب القتبانيون كل هذا التعب ليحفروا الصخر هنا، بينما على بعد أميال بسيطة إلى الشمال من هذا الموقع هنالك سهل مسطح غرب تمنع ، وكان أسهل بالنسبة للجمال أن تمشي عليه إلى وادي حريب ومأرب. الإجابة عن هذا التساؤل هي أن القتبانيين أرادوا أن يتحكموا في طريق البخور تماماً لأن مملكتهم بنت حضارتها وازدهارها على الضرائب التي كانت تجبيها من قوافل البخور التي كانت تمر بأراضيها، ولعلها كانت مستعدة للقيام بأي اجراء أو تصرف يمنع الثغرات ويسد الفجوات.

---

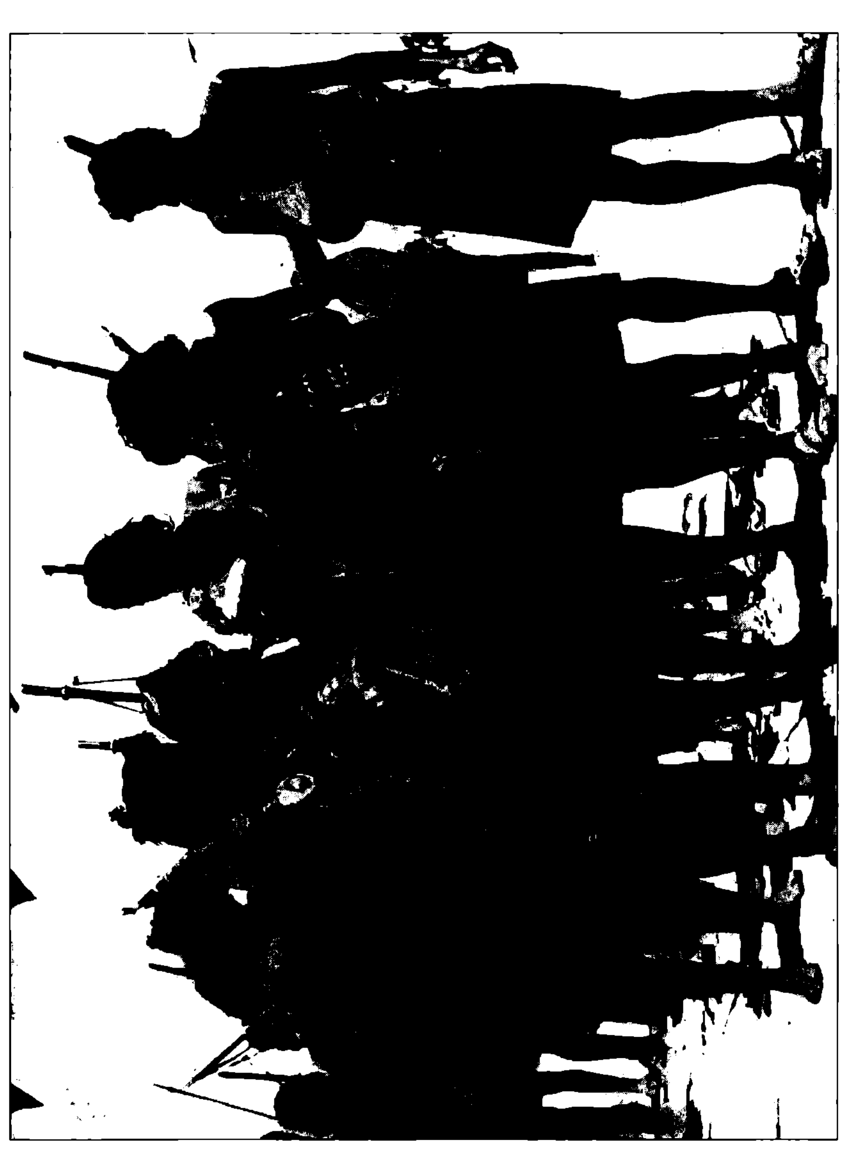
* لدينا من قمة ممر مبلقة نقشان معروفان ومنشوران من قبل يخلدان هذا العمل الهندسي الجبار الذي تم إنجازه في القرن الثاني ق.م. أحدهما هو النقش (R. 3550) ويمثل هذا النقش التسجيل الرسمي لهذا العمل باسم المكرب القتباني يدع أب ذبيان بن شهر أما النقش الثاني فهو الموسوم بـ(Ry 390) وقد كتبه كبير مهندسي قتبان الذي قام بتنفيذ هذا العمل واسمه (أوس عم بن يصرعم) من سلالة (مدهم) ، وقد انتهز (أوس عم) تلك المناسبة ليشير إلى الأعمال الأخرى التي سبق له تنفيذها فذكر منها معبد الإله (ود) والقصر الملكي (ذقلي). (المراجع)

بعـد قـمـة الجبـل انحـدر بنـا الممـر في الجانـب الآخـر الى سلسلـة من المنعطفـات الممهـدة، إلى أن بلغنا قرية بئر جوينه. وقـادنا الطريق نحـو الشمال من جبـل شكله كـالطبق يـسـمى جبل قـرن عبـيـد، ثم نزلنا باتجاه وادي عين وهو مـتـفـرع من وادي حريب، ثم صعدنا نحو التل والخرائب التي يتألف منها هجر حنو الزرير.

هذه المدينة القـتبـانيـة القـديمة تـختلف عن غيـرها لأن العديد من أبنيـتـها بقـيت سالمة تقريباً ولـم تـنهـال عليها الرمال وتغطيها . لسبب أو لآخر لم تأت الرياح لهذا المنحنى مـشبـعـة بالرمـال، ولكن هنالك جانـب مظلم لذلك، وهو أن تلك الأبنية ظلت مكشوفة لعوامل التعرية الأخرى من رياح وأمطار وبشر لعدة قرون.

وبمجـرد وصـولنا للخـرائب أخـرج دكـتـور جام دفـاتره وصار يـسـجل النقـوش الموجـودة على الصخور، بينمـا أخذ «والاس» و«شـسـتر» في تـصوير الأطلال . أما باقي أفراد البعثـة، فقـد تجولوا في الموقع مصحوبين ببعض الحراس. رأيت تلاً على البعـد بدا لي كأنه مـدينة مـدفـونة وشعـرت بالـرغـبة في استكشـاف ذلك الموضع. وعندمـا اقتربنـا من التل توقف الحراس وتـهـامسـوا فيـمـا بينهـم ورفضوا التـحرك معنـا أبعـد من ذلك . أما نحن فـقـد صـمـمنا أن نواصل السـيـر نحـو التـل مهـمـا كـلفنـا ذلك. ولـم نتوقف.

وعندمـا وصلنا التل وجـدنا كـمـية من الخرائب ومناضـد القـرابين المهـشـمة وغيـر ذلك من الأثريات التي تـشـير إلى أننا وصلنا إلى مقـبرة تاريخيـة، أي مدينة أخـرى للمـوتى، وهي بلا شك مقـبـرة مـدينة حنوالزريـر. أخـذنا بجـمع الشـرائح والخزف وفجأة ظهر لنا فريق من الأعراب ببنادقهم من الجانب الآخر للتل. بدا أنهـم يريـدون بنا شراً ووقـفوا مـسـتعـدين ببنـادقهم لانفـلات من نوع مـعين، ولكـنهـم فـقط سـألونا كـم من الزمن ننوي الإقـامـة في اليـمن. عندئـذ ابتـسـمنا في وجـوههـم، وأدركنا أننا في بلد آخر، فلوّحنا لهم مودعين، وتقـهقرنا راجعين من مـدينة الموتى.



رجال القبائل المجتمعون للاحتفال بضيوف الشريف حسين في بيحان

القصاب المليونير ألان سكيف وزوجه عام ١٩٥١م

الفصل الثامن عشر
السـيدة برأت

قال البروفيسور ألبرايت : --

« وندل! هذا أهم اكتشافاتنا حتى الآن في رأيي. أهم حتى من أسدي البرونز. »

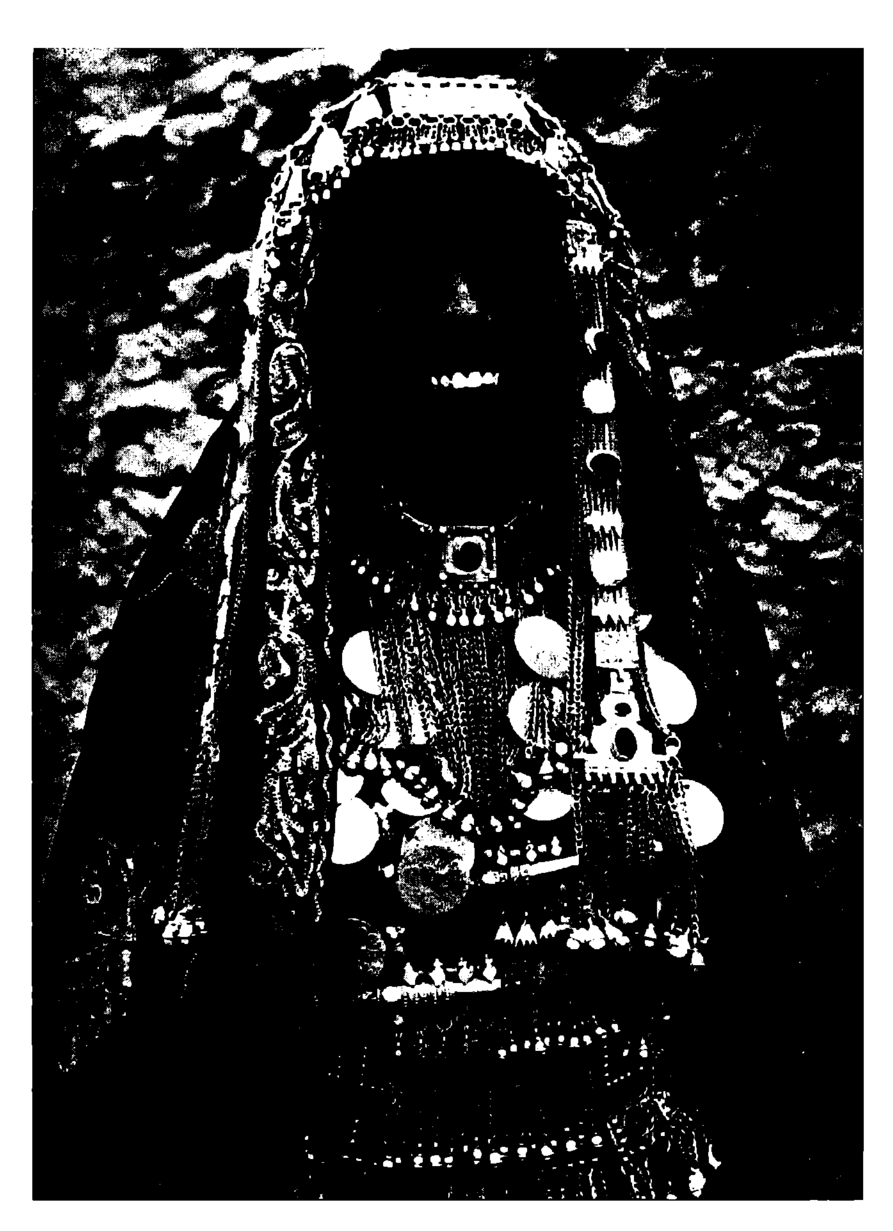
كان ذلك بعد عودتنا من ممر مبلقة. يبدو أن البروفيسور كان منتشيا باكتشاف حققوه في غيابنا.

« إنه سيضيف كثيراً لما نعرف عن طقوس الدفن والقرابين والنذر للموتى »، قال البروفيسور ذلك وهو في قمة السعادة بما حقّق.

ولما سألت البروفيسور عن حقيقة الأمر سرد لي القصة الآتية :

لم نعثر في العالم الماضي على شيء ذي قيمة تذكر في منزل يفش، ثم استمرت عمليات الحفر هذا الموسم حتى خرج منزل يفش كله إلى العراء، وقد وجدنا ثلاث غرف في جناحه الشرقي كما هي ، وذلك ما لم يحدث من قبل البتة في جميع حفريات الجنوب العربي ، مما أتاح لنا الفرصة كاملة لنلم بما كان البيت القتباني يحتوي عليه قبل ألفي عام. لقد وجدنا العديد من الأشياء، مثل المرايا البرونزية وصناديق البخور، التي كانت عوناً عظيماً لنا وكشفت لنا الكثير، رغم انها لم تكن بخطورة الأسدين البرونزيين في تمنع.

قال البروفيسور إن العمل في منزل حدث أعطانا فكرة عن الترتيب الزمني بالمقارنة مع منزل يفش. منزل حدث هو البناية « د » التي تم اكتشافها في نهاية الموسم الماضي، واستمر العمل فيها بالموسم الجديد.



سبية الخدابة وصيفة أمير بيحان ولقد تزوجت وطلقت مرات ثلاثا ولما تزل في الثامنة عشرة

واستمر البروفيسور في روايته عن الاكتشاف الجديد : في الساعة الحادية عشرة والنصف صباح البارحة كنت أقف تحت سور منزل حدث عندما صاح الريس جيلاني طالباً مني الصعود ليطلعني على تمثال من البرونز جالس على قاعدة حجرية في غرفة الطابق الأرضي بمنزل حدث. ورأيت في أحد أركان الغرفة أن جزءاً من البلاط المرمري مازال كما هو. وقد ظهر لي بعد المزيد من الفحص أن هذا التمثال كان قد هوى من علو شاهق في أثناء الدمار الذي تعرضت له تمنع، وانغرس في الطين لعدة سنتيمترات بينما بقي الوجه فوق بلاط المرمر دون أن يتهشم. قضينا بعض الوقت مع هذا التمثال حتى أزلنا الرمال من حوله مستخدمين المُدَي ثم الفرش الناعمة . كانت اليد منفصلة عن التمثال ولكنها موجودة على مقربة منه . أما اليد الثانية فسقطت عنه لما حركناه من مكانه، غير أننا أعدناه إلى حالته الأولى بعد عملية صيانة بسيطة.

تبعت البروفيسور لأرى هذا التمثال في المخزن. واتضح كذلك أنهم وجدوا بالإضافة إليه قطعتين من الفخار بجواره، إحداهما تحمل طابع النحات اليوناني ليونتيس ويمكننا أن نعرف بعد الآن تاريخ تدمير تمنع بالضبط.

تفحصت التمثال البرونزي الذي صنفه البروفيسور كأهم قطعة عثرنا عليها حتى الآن. التمثال عبارة عن جسم امرأة جالسة على حجر، ارتفاعه ثلاثة أقدام. لم تكن هذه السيدة بنفس جمال مريم (التي وجدناها في الموسم الماضي) ، ولكن ربما يعود ذلك للفرق بين البرونز والمرمر. السيدة الجديدة عليها هالة من الوقار الارستقراطي لافتة للنظر ، وتعطيك انطباعاً بأنها من أسر قتبان الراقية.

الأثر الهيلينستي واضح ليس فقط في طابع النحت ولكن في شكل وسمت المرأة: شعرها مصفف بطريقة معقدة ولها ضفائر دقيقة من النوع الذي كان في

العهد اليوناني الثاني في القرن الأول قبل الميلاد. وطريقة تفصيل فستانها وخطوط الموضة المتبعة هي أيضا يونانية، وباختصار فإن كل ما يحف بالتمثال له علاقة بالعصر الهيلينستي.

إن أكثر ما لفت نظر البروفيسور هو الكتابة المحفورة على قاعدة التمثال التي ورد فيها اسم السيدة صاحبة التمثال . اسمها: (السيدة برأت) واسم الملك(ورأيل غيلان يهنعم)ابن (سهر يجل يهرجب) الذي صُنع في عهده تمثالا الأسد البرونزيان. أما الكتابة المنقوشة فهي عبارة عن إهداء للسيدة برأت، وبها معلومات عن طقوس الدفن والنذر المقدمة للميت، مع شجرة عائلتها وأسماء الآلهة الذين وهبت الكتابة المنقوشة بالقتبانية لهم.

إن الاستنتاج الذي كان قد خرج به البروفيسور عن التاريخ الذي تهدمت فيه تمنع هو عام ٥٠ ق.م، ولكن هذا التاريخ عدّل الآن إلى وقت أقرب نسبياً ولكنه أكثر دقة وذلك بفضل السيدة برأت وقطع الفخار التي وجدت بالقرب منها. الفخار المعروف باسم « تيراسيقيلاتا » أو « التراب المختوم » كان روماني الأصل وجاء إلى الشرق بواسطة أوغسطس بين عامي ١٣ق.م و١٤م، وقد استخدم هذا الأسلوب لفترة محدودة، ومع حلول عام ٧٠م كانت عادة ختم اسم الصانع على الأواني قد تلاشت. وكان البروفيسور يدرك أيضا من خلال أعماله الحفرية في الشمال أن الخزف ماركة « تيرا سيقيلانا » استخدم في فلسطين في أثناء حكم هيرود ملك الجزء الجنوبي من فلسطين أيام المسيح عليه السلام.

إن ماجاء من دليل على زمن دمار تمنع من التمثال أكدته قطع الفخار، وكذلك تصفيف الشعر والهندام اليوناني لعام ٥٠ق.م؛ وإذا تصورنا أن هذه الأشياء اخذت بضع سنوات لتقطع المسافة بين البحر الأبيض المتوسط والجنوب العربي،

فإننا نجد أنفسنا مرة أخرى في زمن المسيح أو قبله ببضع سنوات: ذلك هو التاريخ المحتمل لدمار تمنع.

لقد شرع البرايت في المقارنة بين هذه الأدلة التي عثر عليها في تمنع مع كل الأدلة السابقة، وما يعرفه عن تاريخ الجنوب العربي من معلومات وردت بمصادر أخرى. نتيجة لكل ذلك أصبحت الصورة أكثر وضوحاً فيما يختص بالتسلسل الزمني لتاريخ الحضارات العربية الجنوبية.

لقد أفرزت حفريات منزل حدث قطعاً برونزية أخرى هامة ومتفردة؛ وجدت إحدى هذه القطع تحت السيدة برأت وهي لوحة معدنية منقوشة وبها فتحة صغيرة تمتد منها يد ممسكة بصحن مسطح. الكتابة على هذه اللوحة توضح أنها عبارة عن إناء يحرق عليه البخور المقدم كهدية للآلهة، واليد الممدودة تعبر تعبيراً صارخاً وبليغاً عن تقديم الهدية. وكذلك وجد العمال المصريون الذين أحضرناهم معنا، وبعضهم عمل في مجال الحفريات لعدة عقود، وجدوا رأس ثور برونزي بقرنين منفرجين، ويبدو أنه كان معلقاً على حائط وهنالك ثقب بين القرنين يدل على ذلك.

وهنالك درج بدرابزين مصقول مازال بحالة جيدة في الجزء الأسفل منه، لارتفاع أربعة أقدام من البلاط، وهو يبرهن على أن منزل حدث كان يتألف من طابقين. وفي غرفتين من المنزل مازالت الحيطان والأرضية المرمرية كما هي، وهنالك ثقبان في إحدى الغرف من المحتمل أنها كانت مجاري صرف صحي حتى انهارت تمنع وما عليها.

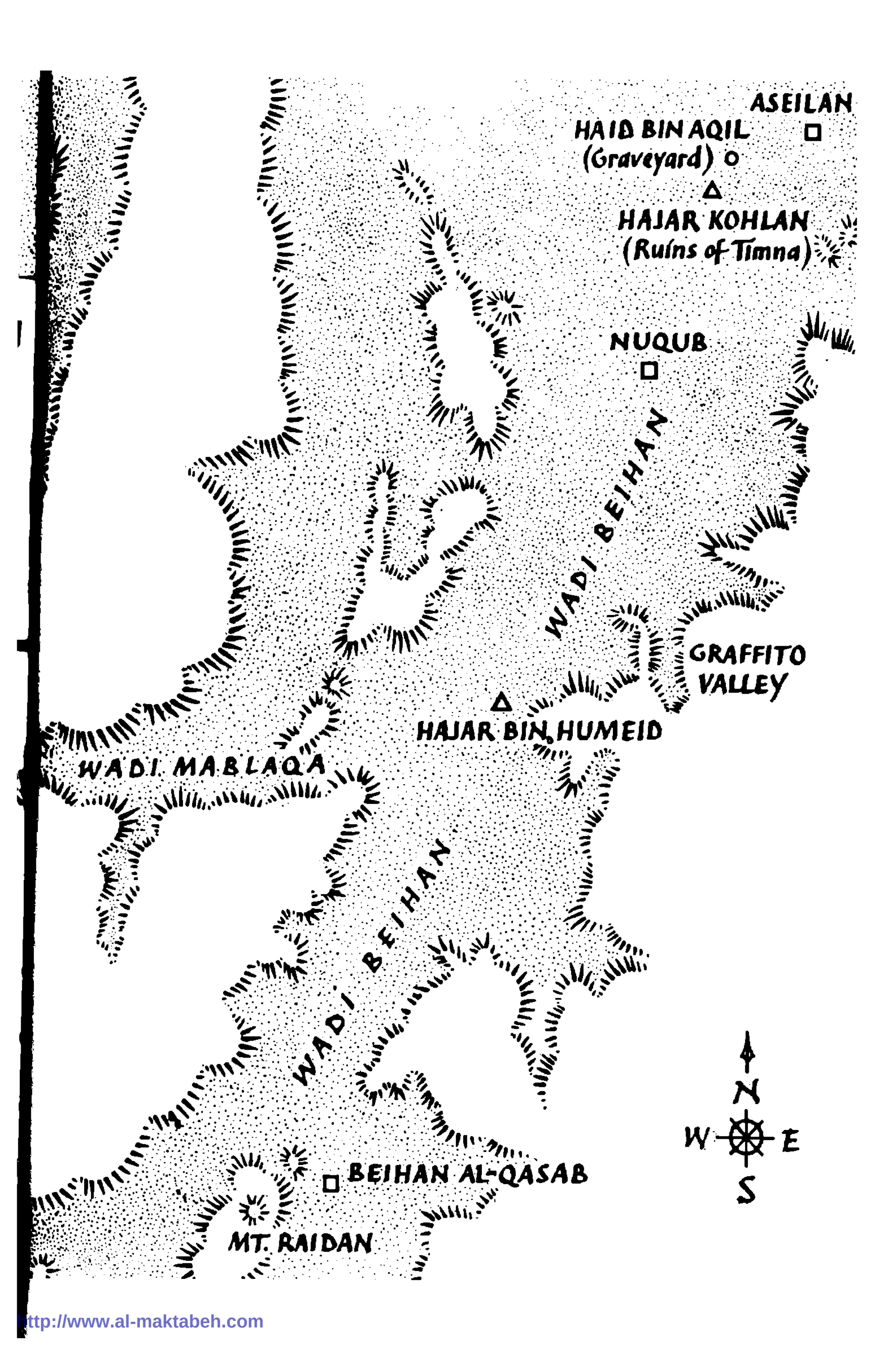
بالإضافة لمنزل حدث ومنزل يفش، هنالك إنجازات أخرى هامة في البوابة الجنوبية خلال الموسم الثاني. البناية «ج» التي اكتشفت أيضا قرب نهاية الموسم

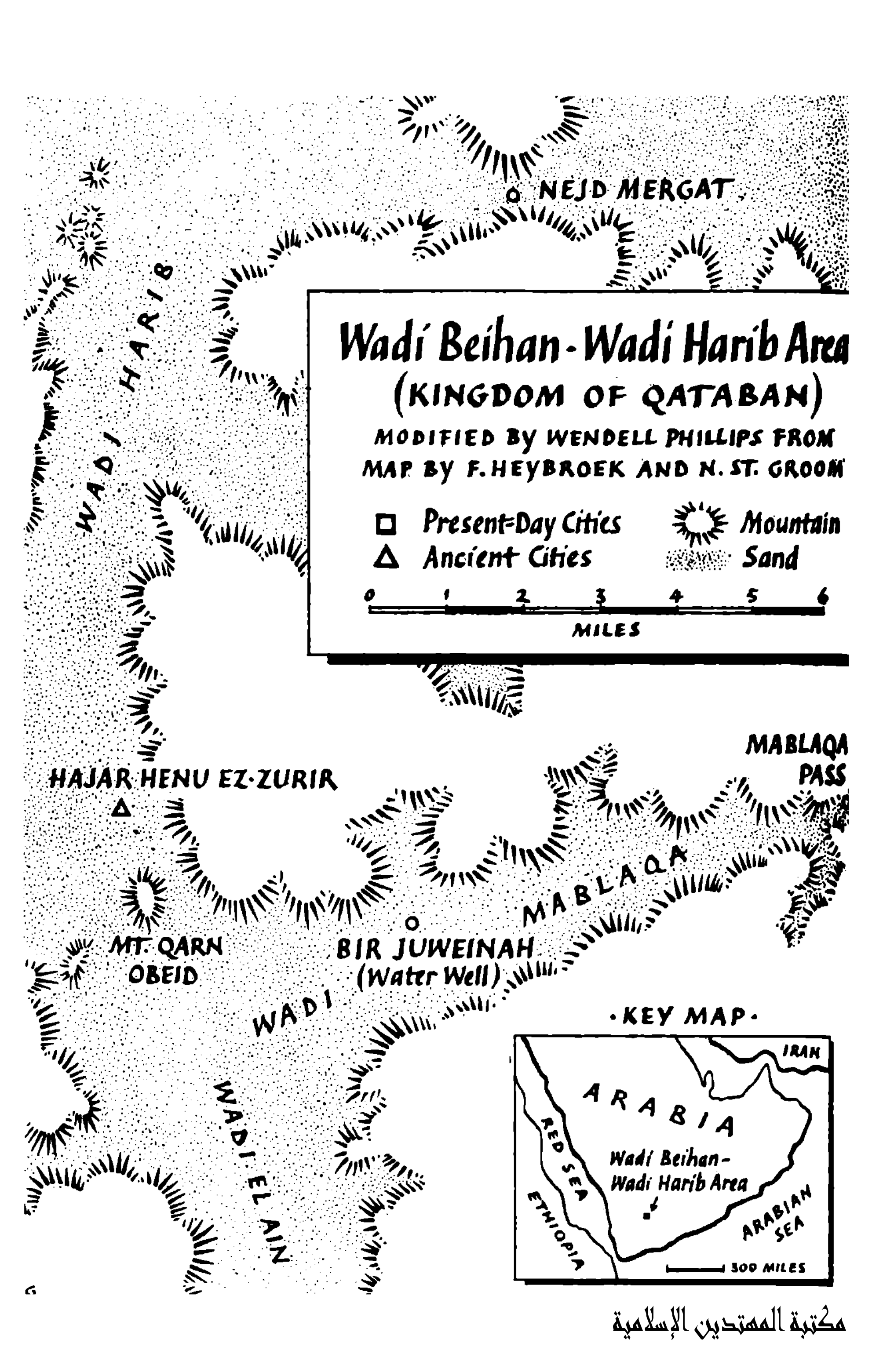
الماضي تم تنظيفها واتضح انها شيدت على أساسات عالية وبها درجان يقودان إلى داخلها من الجنوب ومن الشرق. وفي الجانب الشمالي من البناية وجد الحفارون سلسلة من الحفر المرصوفة بالحجر بعضها عمقه عشرون قدماً ، الغرض منها ليس واضحاً . إن الطوب والمواد المصقولة التي بنيت بها هذه البناية وحجمها وموقعها الاستراتيجي ، بالإضافة لصفوف المصاطب بقرب بوابتها تشير إلى أنها كانت محكمة، في رأي البرايت، ومعها رئاسة الشرطة وبداخلها مخفر وسجن. وهنالك ايضا ما يشير إلى أن هذه البناية استخدمت مرتين متتاليتين بعد سقوط تمنع. ورغم أن هذه المدينة لم تقم لها قائمة بعد تدميرها المذكور، وهو قبل زمن المسيح بقليل، إلا أن هذا المبنى تمت الاستفادة منه بشكل مؤقت في مناسبتين ، وكان ذلك منطقياً إذ إنه الوحيد الذي بقي عالياً وشامخاً فوق الرماد والحطام من حوله بعد انهيار تمنع.

عند نهاية الموسم الثاني بلغت الحفريات بالبوابة الجنوبية مساحة منظفة طولها ٢٠٠ قدم وعرضها ١٧٥ قدماً. البوابة نفسها والحيطان الملاصقة لها وباحة المدخل وطريقان مجاوران للمنطقة، بالإضافة لستة مبانٍ أساسية بتمنع كلها خرجت للعيان وأزيلت عنها الرمال. بقيت هناك عدة مبان أخرى بدأ العمل فيها ولم يكتمل بعد عند نهاية الموسم.

حدثت بعض الوقائع بالبوابة الجنوبية مما لا يدرج تحت باب الفتوحات الآثارية . وجد الريس جيلاني ذات مرة عقرباً ضخمة بين حجرين قرب البوابة، ووضعناها ضمن العينات المحفوظة بالمخزن.

وفي مرة من المرات فكر والاس ويد في تصوير العناكب بشريط سينمائي ولكنه أراد أن يقف إنسان ما بجوار أحد العناكب ليبين الفرق بين حجميهما ولتصبح


ASEILAN
HAID BIN AQIL
(Graveyard)
HAJAR KOHLAN
(Ruins of Timna)
NUQUB
WADI BEIHAN
GRAFFITO
VALLEY
HAJAR BIN HUMEID
WADI MABLAQA
WADI BEIHAN
N
W
E
S
BEIHAN AL-QASAB
MT. RAIDAN



Wadi Beihan - Wadi Harib Area
(KINGDOM OF QATABAN)
MODIFIED BY WENDELL PHILLIPS FROM
MAP BY F. HEYBROEK AND N. ST. GROOM
Present-Day Cities
Ancient Cities
Mountain
Sand
0 1 2 3 4 5 6
MILES
NEJD MERGAT
WADI HARIB
HAJAR HENU EZ-ZURIR
MABLAQA
PASS
MT. QARN
OBEID
BIR JUWEINAH
(Water Well)
WADI MABLAQA
WADI EL AIN
KEY MAP
IRAN
ARABIA
RED SEA
ETHIOPIA
Wadi Beihan-
Wadi Harib Area
ARABIAN
SEA
300 MILES

المقارنة ومعرفة حجم العنكبوت سهلة، فطلب مني أن أكون ذلك الإنسان ولكني اعتذرت بدعوى أن لديّ موعداً مسبقاً في مكان آخر. وكذلك اعتذر الآخرون، إلا الشاب شستر ستيفنز الذي تطوع لهذه المهمة فأخذ عنكبوتاً بكل هدوء ووضعه على ذراعه لتتم عملية التصوير.

وحدث مرة أن جاءنا صبي صغير أمام البوابة الجنوبية في وقت الغروب، وبرك على أرجله ويديه وكتب كلمة «فلبس» بالإنجليزية على الرمل بأصبعه، وصاح مشيراً نحوي «صاحب فلبس»! ، ولقد أعجبت بخطه وتعجبت لهذه المواهب العجيبة التى تحيا وتموت في قلب الصحراء ولا تجد فرصة في الحياة أكثر من مجرد الأكل والشرب.

وبسبب البوابة الجنوبية كذلك فقد توصلنا أخيراً لاتفاقية مع الشريف حسين بخصوص اقتسام الذهب والفضة بيننا وبينه ، وهو موضوع كنا قد أجلناه في بداية الموسم. وقد حدث شيء ولم أعرف حقيقته إلا بعد الاتفاق ، فقد سرت إشاعة تقول بأننا أوقفنا العمل في البوابة الجنوبية لأننا على وشك العثور على كنز ضخم من الذهب، وفضلنا أن نجمد العمل ريثما نتوصل لاتفاق مع الشريف حسين. وفي الحقيقة فنحن لم نتوقع أن نجد أي ذهب يذكر في البوابة الجنوبية، ولكننا توقفنا عن العمل لأن المشرف على الموقع ايليس بيركو وثلاثة من عماله كانوا مرضى.

طلب الشريف مقابلتي، وسعدت لذلك إذ إننا يجب أن نتحوط لكل شيء، فقد نجد شيئا من الذهب في مكان آخر. إن موقفنا في هذا الموضوع مختلف من موقف الشريف. نحن نفكر في القيمة الآثارية لمثل هذه الكنوز، والشريف تهمه فقط قيمتها المالية. ولم نعثر على ذهب سوى العقد الذى وجدناه في الموسم الأول

وهو فنياً تابع للشريف حسين.

جلسنا للمفاوضات حول الذهب مع الشريف وكانت إيلين تقوم بخدمة الترجمة، واستغرق النقاش ثلاث ساعات، وكان الشريف يصر على أن تأخذ البعثة فقط عشرين في المئة من أي ذهب يتم العثور عليه في الحفريات ويذهب الباقي له . وأخيراً اتفقنا على أن تأخذ البعثة ٢٥٪ كما يكون لها الحق في شراء ٢٥٪ أخرى، وتذهب ٥٠٪ للشريف. قام البرايت بإعداد العقد بهذا الاتفاق ووقعنا عليه مع الشريف.

لم يترك لنا سارقو القبور عبر مئات السنين ذهبا نجنيه من الحفريات . وفي الحقيقة لم نعثر على شيء سوى ذلك العقد المذكور، وقد تنازل الشريف عن ملكيته لنا.



الفصل التاسع عشر

عودة لعام ١٠٠٠ ق.م

في موقع هجر بن حميد قضى دون درافو الأسابيع الثلاثة الأولى يزيد من المساحة التي تسمح له بالعمل لأنه لن يتسنى له أن يحفر حفراً قطاعيا بدون مساحة مريحة. وفي هذه الأثناء عثر دون على نقش كبير قديم أعيدت عليه الكتابة بواسطة أقوام عاشوا بعد ذلك. وبعد الفحص عرفنا أنها أحدث مرسوم ملكي قتباني عثرنا عليه في حفرياتنا هذه، ويعود تاريخه لما قبل ميلاد المسيح عليه السلام بقليل، ربما في الزمن الذي انهارت فيه تمنع.

وصل الحفر للطبقة «د» ثم «هـ» ثم «و» ، وخرجت لنا كميات هائلة من شرائح الفخار التي تفحصها قس فان بيك جيداً واحتفظ بها ضمن المجموعة. اتفق قس والبروفيسور على أن فخار الطبقة «و» ينتمي للقرنين السادس والسابع ق.م ، لذلك ارتفعت آمالهما في المزيد من الفخار المفيد الذي سيعود بهم القهقرى في التاريخ كلما غاصوا إلى أسفل ، حتى يصلوا الألف الثانية ق.م.

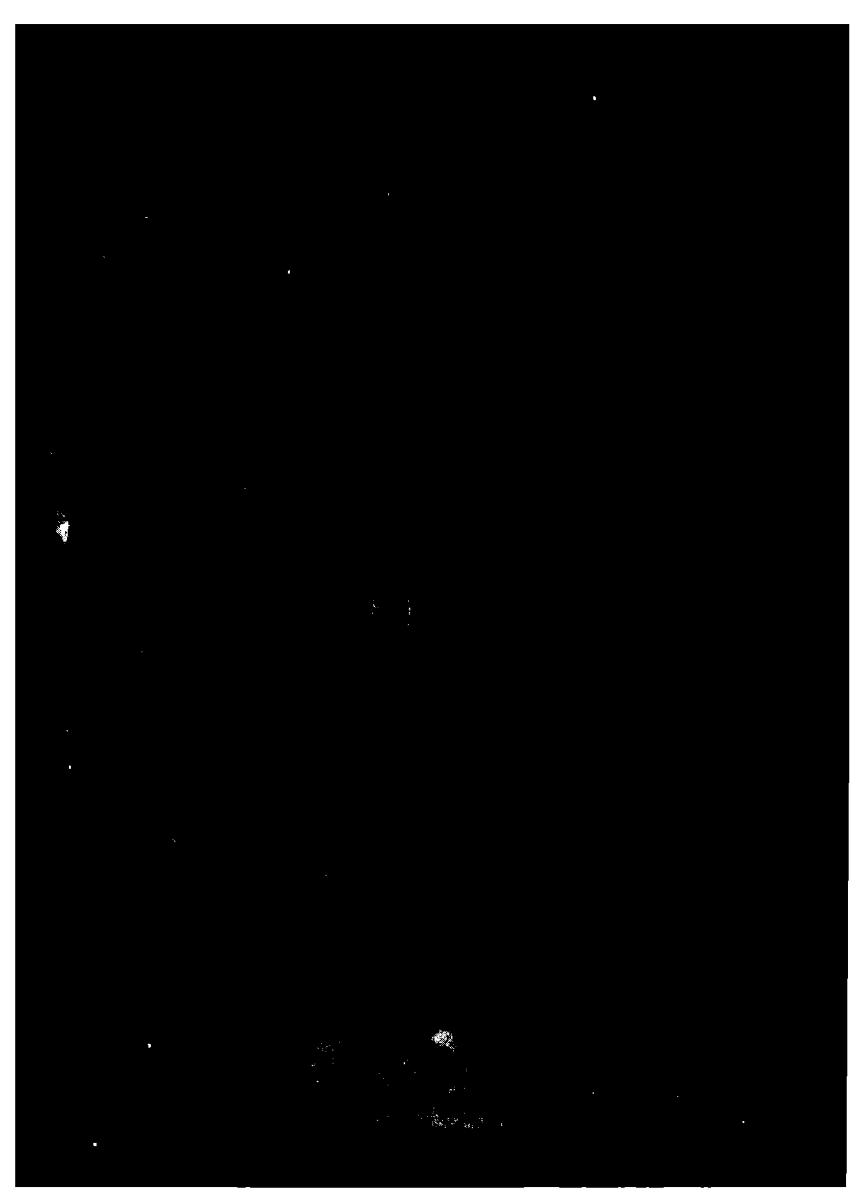
توقف العمل مرة في هجر بن حميد بسبب الفيضانات التي سببتها الأمطار وامتلأ هذا الوادي الجاف بالمياه وأصبح مثل نهر المسيسيبي في أوج فيضانه. استمر السيل لأيام عديدة يحمل معه الرمل والحجارة والطمي بسرعة هائلة . حتى أكبر الناس سناً في بيحان لم يشهدوا فيضاناً كهذا في حياتهم. بعد أن نفدت المياه التي ابتلعتها الرمال العطشى بسرعة، واصلنا الحفر في هجر بن حميد، خطوة وراء خطوة وطبقة وراء طبقة. وعندما أوشك الموسم أن ينصرم ارتطمت المعاول بأرض صلبة، وهي الأرضية الأصلية التي بنيت عليها أول مدينة هنا قبل قرون

عديدة. لقد حفروا واحداً وخمسين قدماً من الركام والرمال، وهي ما تعادل عشر طبقات - من «أ» إلى «ن» - سكنت فيها احدى عشرة مجموعة. وعندما غاصوا إلى أسفل وجدوا أدلة كثيرة تشير إلى مدن بنيت فوق أنقاض أخرى. وبينما كانت المباني في الطبقات الثلاث العليا من الحجر فإن البنايات في الطبقات السفلى كانت فقط تبنى فوق أساس من الحجر ثم تبنى حيطانها بعد ذلك من الطين اللبن.

اكتشف قس فان بيك أن الطبقات العشر التي مرت عليهم توازيها مراحل عشراً من مراحل صناعة الخزف والفخار، بما في ذلك أنواع لافتة للنظر. فالمراحل المبكرة مثلاً شهدت استخدام قطع الفخار الأحمر المصقول لتنظيم وتجميل المنازل. وصقل الفخار وتلميعه يعكس الاحتكاك الذي تم مع الحضارات الأخرى في فلسطين وسوريا خلال العصرين الحديدي الأول والثاني، العام ١٠٠٠ق.م إلى ٦٠٠ق.م . كانت هنالك أيضاً كمية كبيرة من الفخار الملون بلون احمر وبني مما أعطى فكرة عن نوعية التذوق الفني لتلك العصور، وهنالك زخارف محدودة، مثل الزخرفة التي تشبه ريشة الطير.

ليس هنالك رسومات على الفخار، بل كتابات ونقوش فقط، والحروف تحفر حفراً في الطين، وفي أحيان أخرى كانت الحروف بارزة على الطين الذي صنعت منه الآنية الفخارية. ومن الزخارف المتكررة أشكال معينة، مثل صف من الثيران المستلقية، تكون على اغطية الآنية دائماً أو على حوافها. ومن أظرف الأشياء التي وجدناها كان رأس جمل من الطين المحروق يعود تاريخه للقرن الثامن ق.م ، وقد انفصل من الكأس التي كان ملصقاً بها.

ساعدت حفريات هجر بن حميد على معرفة التسلسل الزمني للآنية الفخارية الذي كان البروفيسور ألبرايت يبحث عنه منذ البداية، وأصبح ذلك مرجعية لكل



تمثال مرمري مكسور لرأس ثور من ممقبرة تمنع



دراسات الآثار بجنوب الجزيرة . الطبقات الأكثر قدماً تشير إلى أن المدينة الأولى بنيت بين عام ١١٠٠ ق.م و٩٠٠ ق.م . وربما تأتي دراسات فخارية أخرى مستقبلاً لتحدد التواريخ بعينها التي بنيت فيها المدن أو غير ذلك من الأحداث.

أما دكتور جام فقد اكتشف خلال الموسم الثاني مخربشاً أكثر قدماً من ذلك الذي وجده في الموسم الماضي؛ هذا المخربش الذي اكتشف مؤخراً يعود لعام ١٠٠٠ ق.م على الأقل، وذلك تقريبا هو الوقت الذي نشأت فيه أول مدينة في هجر بن حميد. الحروف هنا مكتوبة بأوضاع مختلفة، بعضها رأساً على عقب، بعضها ترقد على جنباتها، وبعضها يميل نحو اليمين أو اليسار. هذه خاصية شوهدت من قبل في الحروف الكنعانية القديمة في الشمال التي سجلت في القرن الثاني عشر ق.م. وهكذا نرى أن المخربش قد عاد بنا إلى زمن أكثر قدماً من زمن بلقيس ملكة سبأ التي جاء ذكرها في الإنجيل.

مازال هذا اللغز المسمى بلقيس يحيرنا وظللنا دائماً نتمنى أن نعثر على أي خيط يقودنا لحقيقتها بطريقة علمية. ولكنا الآن. ومع نهاية الموسم، أصبحنا نفكر في مشاريع الموسم القادم، ومن خلال عملنا في الموسم الثاني ببيحان ادركت أننا سنصل لقاع هجر بن حميد، وأننا قد حفرنا ما فيه الكفاية بحيد بن عقيل لكي نعرف كل ما نريد من تلك المقبرة. إن التل الذي تختفي تحته تمنع قد يأخذ سنين عديدة حتى يتم حفره كله، ولكن ما فعلناه نحن، على كل حال، في البوابة الجنوبية والمعبد، وما سنقوم به حتى العام القادم - ١٩٥١م - سيحكي لنا القصة الأساسية لتاريخ الجنوب العربي القديم، وسيمنحنا التسلسل الزمني الذي نستطيع من خلاله أن ندرس تاريخ ممالك تلك المنطقة بصورة أسهل وأوضح.

سيكون الموسم القادم فرصة لدراسة الممالك الأخرى بالطريقة نفسها التي تعرفنا

بهـا على التـاريخ القـتـبـاني. وأول هذه الممـالك في ذهني هي سبـأ أرض الملكة بلقيس الجميلة، تلك المملكة التي ازدهرت في الجنوب العربي لعدة قرون. أذكر أني كنت أقف على قمة تل هجر بن حميد ذات يوم في أواخر فبراير أحدق في اتجاه الشمال الشرقي. هناك، على بعد أربعين ميلاً فقط، تقع مأرب عاصمة سبأ وهناك السد الذي هو، أحد عجائب الدنيا، إذ أوجد جزيرة خضراء في قلب الصحراء . ولكن بيني وبين تلك البقعة أرض محايدة وغير محددة المعالم تسبب مشاكل حدودية بين اليمن ومحمية عدن الغربية.

إنني أتمنى أن تتمكن بعثتنا من إماطة لثام الرمال عن تلك المدينة ، مأرب . لذلك ، ورغم يأسي من هذا الموضوع، فقد كتبت خطاباً للأمير عبد الله وزير خارجية اليمن بمكتبه في صنعاء – ولم أخبر زملائي بالبعثة عن هذا الخطاب، وما كنت أتوقع عليه رداً في حقيقة الأمر.

على كل حال، وحتى لا نكون قد تمسكنا بسراب خلّب ، وحتى لا نضيع الوقت في انتظار رد الحكومة اليمنية ، فقد أخذنا نفكر في البدائل العملية والممكنة للعام القادم. فكرنا في عمان، ولكنه لغز كبير. هنالك مملكة معين ، ولكني حاولت الوصول إليها من قبل ولم أستطع، إنها في مكان وعر داخل العربية السعودية*. على كل حال لماذا لا نحاول مرة أخرى. لذلك كتبت خطابات أخرى طالباً الإذن بدخول السعودية. بالإضافة للخطابات الرسمية، كتبت مرة أخرى لصديقي، الشخصية المرموقة جون فلبي الصديق الحميم للملك عبدالعزيز آل سعود، والمقيم بالرياض. كتبت كل هذه الخطابات وأرسلتها بالبريد فوراً، وطردتها من ذهني في الوقت الحاضر، إذ إننا مازلنا مشغولين في موقع المعبد بتمنع.

* سبق وأن أشرنا إلى أن مملكة معين موطنها بلاد الجوف من أرض اليمن . أنظر الحاشية في صفحة ٤٦ .(المراجع)

الفصل العشرون

معبـد فينـــــوس

ما كدنا نحفر لبعض الوقت في موقع المعبد خلال الموسم الثاني حتى تأكد لنا ما كنا نحسه منذ وقت مبكر وهو أن هذا المكان به أكبر مبنى في تمنع القديمة. إنها فعلاً أول بناية ضخمة يتم اقتلاعها من براثن الرمال في كل الجنوب العربي، إذ إننا حفرنا ما مساحته ١٦٠ قدماً طولاً + ١٣٥ قدماً عرضاً دون ان نغطي البناية كلها. إنها في الحقيقة مجموعة بنايات متصل بعضها ببعض وتشكل معبد «عثتر» وهو الاسم العربي «لفينوس».

وجدنا في إحدى القاعات الضخمة بالمعبد آثاراً واضحة للخراب والحرائق والدمار الذي حاق بتمنع. لقد كانت النار متأججة بعنف غير عادي، لدرجة أنها أذابت كتلاً صخرية ضخمة وأحالتها إلى رماد ورمال ، مما سهّل عملنا فنقلناها بالدلاء والرافعات إلى سياراتنا التي نقلتها إلى مكان بعيد. بعد ذلك أزلنا الرمال التي تغطي القاعة الرئيسة ذات الأرضية المرمرية الوردية وهنالك أدراج حجرية بكل جنبات القاعة مما يشير إلى أنها منخفضة عن باقي جنبات المعبد، وكذلك هناك درج من المرمر الجميل عرضه واحد وعشرون قدماً من مدخل المعبد، وتبدو اطرافه متآكله بعض الشيء من كثرة الاستخدام في ذلك الزمن القديم.

الحيطان الحجرية المحيطة بالقاعة فيها النتوءات والتعرّجات نفسها التي شهدناها في الأضرحة الكبيرة في حيد بن عقيل مما يشير إلى أثر بابلي قوي ومما يسهل مهمتنا في ايجاد التواريخ الخاصة بهذه الحفريات.

لقد لفت نظري الوجه الشرقي لسور المعبد. كان المشرف على العمل هنا جم

سويقر، ومن بعده جاك سمبسون، بينما كنت أشرف شخصياً على منطقة صغيرة محددة. استمر الحفر في هذه المنطقة حتى بلغنا عمق عشرين قدماً حيث وجدنا أن الطبيعة المعمارية تغيّرت تماماً صارت الحجارة المستخدمة في البناء أصغر ومقطوعة بصورة غير مستوية. هنا المبنى الأساسي الذي بنيت المباني الأخرى فوق هامته، لدرجة أن بعض حيطانه تشقّقت من ثقل الحمل عليها. واصلنا الحفر حتى عمق ثلاثين قدماً. ومن هذه الأعماق التي وصلناها حصلنا على خزف مصقول لامع باللون الأحمر والبني يعود تاريخه للقرن الثامن ق.م وبه أثر سوري وفلسطيني قوي.

بعد أن تبلورت صورة المعبد لدينا استنتجنا أنه مرّ بأربع مراحل تشييد؛ أقدم هذه المراحل تمثلها أقصر حيطان المعبد، وكانت في عهد المكرب (الحاكم الكاهن) الذي حكم تمنع في أول أمرها قرابة القرن الثامن ق.م. وتمثل المرحلة الثانية الحيطان ذات النتوءات والتجويفات المبنية بحجارة ضخمة، وهي في عهد المكرب أيضاً، في القرن السادس ق.م . أما القاعة الرئيسة وأدراجها فتعود للمرحلة الثالثة عندما جاء عهد الملوك بتمنع ، والبناء هنا متأثر بالحضارة الفارسية، في الجزء الأخير من القرن الرابع ق.م . والمرحلة الرابعة والأخيرة هي التي شهدت الأثر الهيلينستي وكان ذلك في أثناء حكم الملك شهر يجل يهرجب صاحب الأسود البرونزية. كان ذلك في القرن الأول ق.م ، قبيل سقوط تمنع. وقد وجدنا كثيراً من النتف الفخارية المنقوشة من هذه الفترة داخل المعبد وخارجه.

وجدنا مجموعة ضخمة من الغرف التي تعود لهذه الفترة نفسها على طول الجانب الغربي للقاعة المرمرية الوردية، وكانت بحالة أحسن من المعبد نفسه. الكميات الضخمة من النتف الفخارية التي وجدت في هذه الغرف تشير إلى أنها

كانت تستخدم كمخازن للمعبد في عهوده الأخيرة.

هنالك درجان ظهرت عليهما آثار عهدين من البناء بوضوح شديد مما يدل على أن القتبانيين أعادوا تصميم المباني وتوسيعها كما نفعل اليوم. وهنالك درج يؤدي للقاعة من الناحية الجنوبية مبني من حجارة صغيرة مقطوعة في شكل بلوكات (مكعبات) منتظمة تشبه الطوب الفارسي ، ولكنها ملاصقة لإحدى المنعرجات التابعة لفترة مبكرة من البناء كانت تستخدم فيها الحجارة الضخمة.

وقبيل نهاية الموسم عثرنا على درج آخر في الجانب الشمالي من المعبد ، وكان واسعاً ولافتاً للنظر ولابد أنه كان المدخل الرئيس أيام الملك شهريجل يهرجب. والطوب هنا ليس مختلفاً فقط ولكن الدرج منفصل عن المبنى القديم وليس جزءاً منه. وخلف هذا الدرج هناك فناء آخر، فقمنا بالحفر هنا حتى عمق خمسة وعشرين قدماً من الدرج، ثم توقفنا عند هذا المستوى.

لابد أن هذا المعبد كان مبنى جميلاً ومهيباً، فقد وجدنا فناءً في وسطه كما وجدنا أساسات لستة صفوف من الأعمدة الضخمة جداً ، كل صف به خمسة أعمدة . لا بد أن القادم من شبوة، بعد عناء السفر وكآبة المنظر، يجد في هذا المعبد ما يدخل البهجة والمسرة إلى نفسه، فهو صرح عملاق ، يسنده خمسون عموداً في شموخ وعظمة وسحر وجمال أخاذ.

والفناء الغربي للمعبد قدم لنا اكتشافا مدهشاً بمحض المصادفة . كان ذلك في أثناء زيارة قام بها لنا نائب حاكم عدن، مستر قود وزوجه. أعد الشريف حسين استقبالاً رائعاً للضيفين تضمن الكثير من إطلاق الرصاص في الهواء وإلقاء الخطب والغناء والرقص. أخذنا الضيف بعد ذلك في جولة حول المعبد، وفي أثناء مطالعتنا للحيطان من الخارج لاحظ حاكم عدن بعض الرموز المنقوشة على الطوب

في الركن الشمالي الشرقي من العمدان، موجودة في ثلاثة جوانب من القاعة الرئيسة . ورغم أن هذه العلامات وجدناها كثيراً في البلاط والحجارة المتناثرة إلا أن هذه أول مرة نجدها في حيطان قائمة .

بدأ بروفيسور ألبرايت ودكتور جام دراسة هذه الظاهرة في اليوم التالي على الفور . ولاحظا أن هذه الحجارة الموسومة مرصوصة في صفوف منتظمة وكل واحدة منها يحتوي على حرف من حروف لغة الجنوب العربي حينذاك. ثم دقق البروفيسور في الحروف ليرى ما هو النظام الذي يتبعه كل صف منها، فاكتشف على الفور مجموعتين في الصفين الأول والثاني تتبع الترتيب نفسه الذي تتبعه اللغة الأمهرية، لغة الأثيوبيين.

كان هذا الاكتشاف على درجة خطيرة من الأهمية. القتبانيون القدامى الذين رصفوا بلاط هذه القاعة نقشوا حروفهم الأبجدية حولها. لم نكن قبل ذلك نعرف ترتيب الحروف الهجائية للغات الجنوب السامية؛ ولكننا الآن وجدناه. ومن الواضح أن ترتيب الحروف الأبجدية للعربية الجنوبية مشابه تماما لترتيب الحروف في اللغة الأمهرية التي ظهرت في وقت متأخر .وفي الحقيقة فإن أقدم إشارة معروفة على ترتيب الحروف تفصل بينها وبين تاريخ الحجارة التي وجدناها في معبد تمنع مسافة زمنية قدرها ١٥٠٠سنة* .

استمر العمل في موقع المعبد، وفي آخر شهر مارس تلقيت رسالة من جون فلبي رداً على استفساري عن إمكانية الاستكشاف في العربية السعودية في موقع حضارة معين القديمة . لم أكن أتوقع رداً إيجابياً من الرياض، وكثيراً ما كنا نعاني

* لقد تاثرت الأمهرية بخط المسند وليس العكس ذلك لان التواجد السبئي في أرض الحبشة يعود إلى عصر ماقبل الميلاد كما دلت على ذلك الشواهد النقشية والأثارية ومازالت اللغة الحبشية إلى يومنا هذا تكتب بحروف المسند . (المراجع)

من الإحباط بسبب سوء الفهم الذي نلقاه من وزارة الخارجية الأمريكية. صحيح هنالك مساعدات تقدمها لنا الوزارات المختلفة، عينية كانت أو نقدية، ولكن وزارة الخارجية بالذات كانت تشكك في نشاطنا ولا تدرك مدى أهميته من ناحية علمية ومدى إسهامه في إعلاء شأن الامريكان وتحسين صورتهم. لكن الصورة اختلفت عندما وصلت لأحد قناصلهم في منطقة نائية بالشرق الأوسط هو جون فلبي ، فقد كانت معاملته لي طيبة رغم أن موقف وزارة الخارجية مني لم يتغير.

إنني من الذين يؤمنون بأن الفعل يجب أن يصدق القول، وبأن حسن النوايا الامريكية يجب أن يظهر في طريقة معاملتنا ومعايشتنا للشعوب الأخرى لا بالمعونات والقروض التي نقدمها لتلك الشعوب فقط. ولدي خاصية أخرى تعلمتها من أبناء عمومتنا الإنجليز وهي أن مصلحة بلدي أولاً . نعم قد أتعاطف مع بيحان أو اليمن أو عمان ولكنني لا اقدم أياً منها على بلدي.

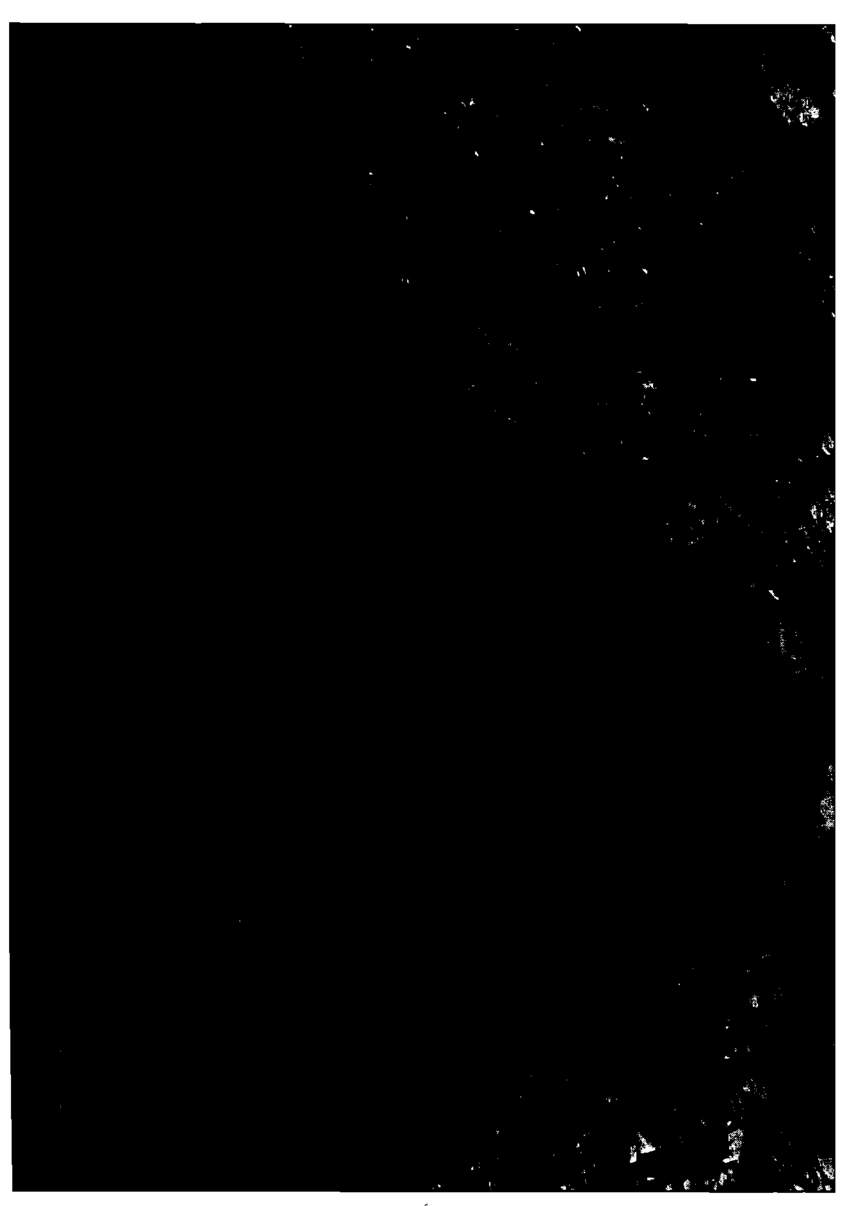
بالنسبة لزيارة السعودية، فقد حدث قبل عامين أن رفضت وزارة الخارجية الامريكية أن تسمح لي بذلك؛ لأسباب لم تكن مقنعة. والآن يرفضون للمرة الثانية ولا أدري لماذا. لقد جاء خطاب فلبي ليؤكد مخاوفي من الخارجية الامريكية.

كتب فلبي يقول : -

«عزيزى السيد فيليبس!

كنت مسافراً منذ نوفمبر وعدت الآن لأجد خطابك، وسعدت بأخبار نجاحاتكم في الجنوب العربي. وكذلك تلقيت تقرير بروفيسور البرايت عن سير العمل وفرحت به كثيراً.

«والآن أعود لموضوع رغبتك في زيارة جدة ونجران. لقد اجتمعت بالسفير



فريق الاستكشاف من البعثة وهم يرتقون جزءاً من طريق البخورالقديم عبر ممر (مبلقة) الجبلي.



تمثال من البرونز للسيدة برأت وجد في أسفل (منزل حدث) بالبوابة الجنوبية بتمنع

الأمريكي الجديد في جدة قبل أيام وعلمت منه أنه لم يتلق أي تعليمات لكي يتقدم بالإنابة عنك لتأشيرة زيارة للعربية السعودية. وقد علمت كذلك، بطريقة سرية، أن السلطات السعودية قد تلقت إخطاراً بأنك موجود في المنطقة وقد تحاول دخول المملكة بطريقة غير مشروعة. إنني لم أستطع ان أفهم لماذا تسلك وزارة الخارجية هذا السلوك، ولكن على كل حال تفسر تصرفاتها هنا على أنها لا ترغب في مساعدتك على المجيء إلى السعودية.

ربما تكون الخارجية متأثرة بالإشاعات التي يطلقها أعداؤك بأنك تعمل لصالح اليهود. حتى هذا، يجب ألا يحول دون قدومك للسعودية، فقد رأيت عالماً يهودياً إنجليزياً سمح له بالسفر داخل السعودية لتصوير الطيور، وقد استقبله الملك والمسؤولون بكل ترحاب.

لذلك فإنني أعتذر عن عدم مقدرتي على مساعدتك لزيارة السعودية وأرجو أن تحاول إقناع الخارجية بذلك»

مخلصك جون فلبي

لخص فلبي الأمر في جملة واحدة تقول بأن الإنجليز يشجعون رعاياهم للقيام بمثل هذه النشاطات الاستكشافية أما حكومتنا فتثبط الهمم. ياله من وضع مؤسف! ألم يكن من الأفضل الاستفادة مما لدي الآن من علاقات مع الزعماء والحكام العرب. لقد سافرت كثيراً وعملت في حفريات متعددة بالعالم العربي وأجد الترحاب حيثما ذهبت، ولكن لسبب أجهله يحرمونني من زيارة البلد العربي الوحيد الذي لم تطأه قدماي حتى الآن. وجدت نفسي في القائمة السوداء السعودية؛ لأن الخارجية الأمريكية رفضت أن تساندني ، رغم أنني قابلت وزير الخارجية السعودي الشيخ يوسف جاسم في مصر قبل سنتين ورحب بي أيما ترحيب عندما قدمني له رئيس الوزراء المصري النقراشي باشا قائلا (هذا ابني الأمريكي).

عدت للعمل بالمعبد وهنالك سؤال ظل يدور في رأسي: «من هو المستفيد من إبعادي عن السعودية؟»

مرَّ شهر كامل قبل أن نسمع أو نتلقى أي رد خاص بالعمل في مشروع جديد. وذات يوم في شهر أبريل، وبينما كنت مستلقياً على فراشي أعاني بعض الحمى، جاءني بريد به عدة رسائل من عدن. واحدة منها مكتوبة بالعربية على ورق رسمي مروّس، ولم أجد من يترجمه لي، فوضعته جانباً. بعد بضعة أيام تذكرت ذلك الخطاب وناولته لإيلين لتقرأه لي، فقالت إنه رد من الأمير عبدالله وزير خارجية اليمن على خطابي، يدعوني لزيارة تعز لكي اجتمع مع جلالة الملك لمناقشة موضوع مأرب. ما كدت أصدق أن الحظ قد ابتسم لنا بهذه الطريقة حتى تلوح أمامنا فرصة العمل في أعظم موقع آثار بكر في العالم. مدينة مأرب، عاصمة سبأ، ظلت سراً كبيراً ولم يزرها أي باحث أمريكي أو أوروبي، ولم تتم فيها أي حفريات. مأرب مدينة مقفلة في بلد طارد ومغلق. وحسب علمي لم يتحدث أي إنسان من قبل مجرد حديث مع ملك اليمن حول موضوع الاستكشاف والحفر في مأرب.

ورغم أن الطبيب أصر على ألا أتحرك من السرير بسبب الحمى إلا أنني قررت أن أتحرك نحو تعز، وفي أقل من أسبوع رتبنا الطائرة التي ستقلنا إلى عدن حيث نركب سياراتنا ونتجه بها إلى تعز. ولم يستطع بروفيسور البرايت الذهاب معنا لتعز إذ إنه على موعد في بالتيمور بالولايات المتحدة، ففارقناه في عدن. الفريق الذي صحبني لليمن كان يتألف من إيلين، شارلي ماكولم، وألاس ويد، ودكتور ميقنارد، وبوب كارميان، وجمعة. ورغم أني كنت ألعب دوري كرئيس للفريق بكل ما يتطلبه من وقار واحترام فإنني في السر كنت سعيداً مثل طفل اكتشف جبلاً كاملاً من البوظة بالنكهة المفضلة لديه.



الفصل الواحد والعشرون

دخول اليمن المحرّمة

غادرنا عدن يوم (١٠) أبريل مارّين ببوابة شيخ عثمان ثم الأراضي المسطحة والرملية التابعة لسلطنة لحج. ورغم أن الطريق كان يختفي أمامنا كلية في بعض الأحيان إلا أننا لم نضله بفضل المرشد اليمني الذي كان في رفقتنا.

ثم دخلنا منطقة جبلية تغطيها الخضرة وتتدفق فيها العديد من الجداول. وفي الطريق مررنا بآبار عديدة ضخمة ، ورأينا في واحدة منها حشداً كبيراً من النساء يحملن الماء في جرار على رؤوسهن، كن يرتدين سراويل طويلة زرقاء مربوطة عند أسفل القدم . ولقد أعجبنا بجمالهن المفرط، حتى إن دكتور ميقنارد ظل يشير لوجوههن الذكية والجميلة وقال: (ما كانت بيحان مثل هذا .)

وفي نقطة الجمارك بـ « الراهدة » *، على بعد ستين ميلاً من عدن، انتظرنا مع الشيخ علي محمد الرهبيتي** لفترة ساعتين اتصل خلالهما بصنعاء وجاءنا بالضوء الأخضر منها. هذه أول مرة ندرك فيها أن المسؤول اليمني لا يعترف بالتصريح الذي صدر من جهة رسمية، ولذلك فهو يدقق ويفحص ويتأكد بنفسه. التأشيرة في اليمن لا تعني شيئاً، والوثائق الرسمية لا تعني شيئاً، حتى لو كنت مزوداً بكل الأوراق الثبوتية والأذونات ، فأنت لا تستطيع أن تعبر الحدود

---

* هكذا أوردها المؤلف Raidha والتصحيح من عندنا والراهدة تقع على بعد نحو ٥٠ كم إلى الجنوب الشرقي من تعز وبها مركز الجمارك الرئيسي في ذلك الوقت ويمر بها طريق السيارات الذي يربط تعز بعدن .(المراجع)

** هكذا رقمه المؤلف Al. Ruhbaiti ولعل صَوَابُهُ الرحبي أو المرهبي وهو معروف أو القبيطي نسبة إلى قبيطة وهو اسم ناحيه بتلك المنطقة والله أعلم .(المراجع)

إلى داخل اليمن إلا بعد أن يتصل الضابط الموجود في تلك النقطة الحدودية بالملك شخصياً بالتلغراف، ويتلقى إذنا ملكياً تلغرافياً بالسماح لك بالدخول. جاءنا الإذن في الراهدة بعد أن أرخى الليل سدوله فقررنا أن نقضي الليلة هناك.

أكرمنا مضيفنا بأصناف من الطعام لم نرها منذ شهور، وهي الخضروات والفواكه الطازجة، مثل الطماطم والبرتقال والبصل والبطاطس وغيرها. ولم يأكل الشيخ علي معنا لأنه كان يمضغ (يخزّن) القات لأنهم لا يأكلون و« يخزّنون » في الوقت نفسه.

وبينما كان جمعة يعدّ الطعام ذهبت إيلين لتستحم ، ووقف صبية كثيرون ينتظرونها خارج الحمام بدافع الفضول ، وهم نفس الصبية الذين وقفوا يتفرجون علينا ونحن نتناول الطعام، ثم جاءوا في الصباح الباكر ليرونا ونحن نهم بالسفر.

وفعلاً بدأنا الرحلة داخل حدود اليمن. وبينما كنا نصعد على جنبات المرتفعات اليمنية أدهشتنا المزارع المنتشرة في الجبال بنظام « المدرجات » ، أي السدود الصغيرة المتدرجة كالسلم والتي تمنع الماء من الهبوط إلى أسفل، أو على الأقل تحتفظ بجزء منه ليرتوي ما عليها من زرع. وبهذه الطريقة لم يتركوا قدماً مربعاً لم يزرعوه مما يعكس اجتهادهم وعبقريتهم. وعندما تكون الأمطار عنيفة فإن السدود تنهار، ولكن سرعان ما يرسمونها ويعيدونها كما كانت. وأخيراً وصلنا تعز.

تعز ليست عاصمة اليمن ولكنها المدينة التي يقيم فيها الملك الحالي. وعروس المدائن اليمنية ، تقع على ارتفاع شديد الانحدار هنالك قلعة مبنية منذ العصور الوسطى تطل على كل المشهد المحيط بها. يشكل الجبل حائطاً طبيعياً لتعز من الناحية الجنوبية ، وهنالك سور يحيط بالجوانب الثلاثة الأخرى.

استقبلنا عند بوابة المدينة عامر غالب الجرموزي الذي يشرف على طيران اليمن كما يشرف على بيت الضيافة، وقادنا عبر طريق ضيق متعرج ومرصوف بالحجارة بينما كان أهل البلد يتفرجون علينا كأننا في موكب سيرك؛ ومن الغرائب أن الأوروبيين والأمريكيين غير مألوفين في هذه المدينة الهامة. والمنازل مبنية من الحجر. والبيت الذي نزلنا فيه مريح للغاية ، به تيار كهربائي وملاءات جديدة ونظيفة وصنابير مياه باردة وساخنة وطهاة وخدم وطعام جيد بفضل رعاية الملك شخصياً.

في صبيحة اليوم التالي جاءنا سامي مناع الإداري بوزارة الخارجية ثم جاءنا أحد المسؤولين الكبار بالقصر الملكي ، عبد الملك العَمْري ومعه دكتور عدنان ترسيسي الموظف اللبناني بوزارة الخارجية. حاول دكتور عدنان أن يثنينا عن الذهاب لمأرب لوعورة طريقها واقترح أن نحاول عملية الاستكشاف حول مدينة صنعاء. ولكننا وضحنا له أننا لن ننقل آلياتنا وسياراتنا ولن ننفق أي مال إلا فيما يتعلق بمأرب، رغم أننا قد نفكر مستقبلاً في غيرها من المواقع.

غادرنا الدكتور ترسيسي لينقل رأينا لجلالة الملك، وحتى يعود لنا مرة أخرى قررنا أن نطوف بالمدينة لنلتقط بعض الصور. وصعدنا الجبل الحاد الانحدار خلف تعز ومن هناك ألقينا نظرة على تعز ومن ورائها جزء من «العربية السعيدة» ، سلاسل من الجبال الخضراء والأراضي والأودية الخصبة. كلمة اليمن تعني «اليمين» والقبائل السامية دائماً تيمم وجهها شطر الشرق وعلى يمينها الجنوب

السعيد والمبارك وعلى يسارها الشمال المظلم والبغيض*.

وعندما بلغنا قمة الجبل وجدنا القلعة التي يحفظ الملك فيها من يريدهم كرهائن من انحاء مملكته كافة. ورأينا عند البوابة أدوات مرصوصة تشبه الصلبان ولم يوضح لنا أحد ما هي بالضبط. ووجدنا بقرب حائط القلعة معبداً يهودياً يعود تاريخه للقرن الرابع عندما كان يحكم اليمن ملوك يهود.

في تمام السادسة مساءً جاءنا «طلعت غصين» مدير شؤون الصحافة وأحد أفراد البعثة اليمنية في الأمم المتحدة، ومعه خمسة أعضاء في بعثة اليمن بالأمم المتحدة، وطلبوا منا أن نستعد للذهاب للقصر في خلال عشر دقائق، وبعد فترة قصيرة وجدنا أنفسنا في سيارات تكاد تطير في شوارع تعز، يقودها رجال يمضغون القات، إلى أن خرجنا من أسوار المدينة متجهين نحو القصر الملكي.

وقف أمام القصر ثلاثة جنود في حالة انتباه وهم يرتدون ملابس بيضاء فضفاضة ويتمنطقون بالجنبية المزخرفة وأحزمة ذخيرة، والقصر مبني من الحجر الأحمر. ولما جلسنا بالداخل أداروا لنا القهوة اليمنية المسماة «قهوة المخا» وهي أطيب قهوة في العالم**. بعد ذلك قمنا بتسجيل أسمائنا في دفتر الزوار، أولاً

* لعل اقدم ذكر في النقوش اليمنية القديمة للفظ (يمن) هو ما ورد في النقش الموسوم ب (Ry 507) من بئر الحما ويعود تاريخه إلى عهد الملك الحميري يوسف اسار المعروف بذي نواس ذلك في الربع الأول من القرن السادس الميلادي كما جاء ذكر لفظ (يمن) ايضا بعد ذلك في نقش لابرهة الحبشي وضمن لقبه الملكي اما لفظ (يمنت) الذي ورد في نقوش القرن الخامس الميلادي وما بعدها ضمن لقب ملوك حمير فقد كان يعني منطقة ما في الساحل الجنوبي لليمن لم يعرف إلى الآن مكانها على وجه التحديد بشكل قاطع. (المراجع)

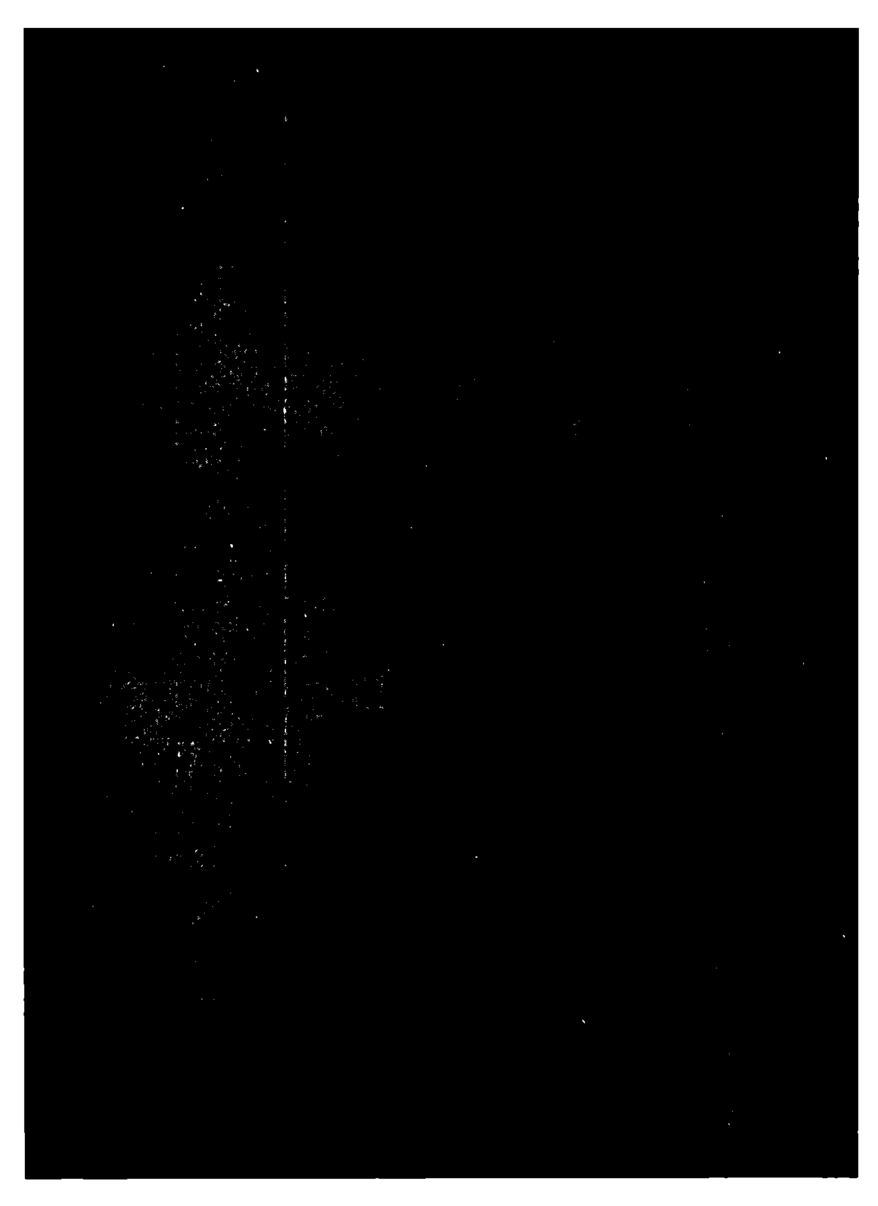
** قهوة المخا: نسبة إلى ميناء المخا على ساحل البحر الأحمر إلى الغرب من تعز بنحو ٩٥ كم وباسم هذا الميناء اليمني الشهير الذي ورد ذكره في نقوش المسند سمي الاوربيون اول بُنٍ يعرف في أوروبا حيث وصلت في عام ١٦٣٠م أول شحنة من حبوب البن اليمني من هذا الميناء إلى هولندا ومنذ ذلك التاريخ صار يطلق لفظ Mocha على افخر انواع البن في العالم. (المراجع)

باللغة الإنجليزية ومن ثم بالعربية.

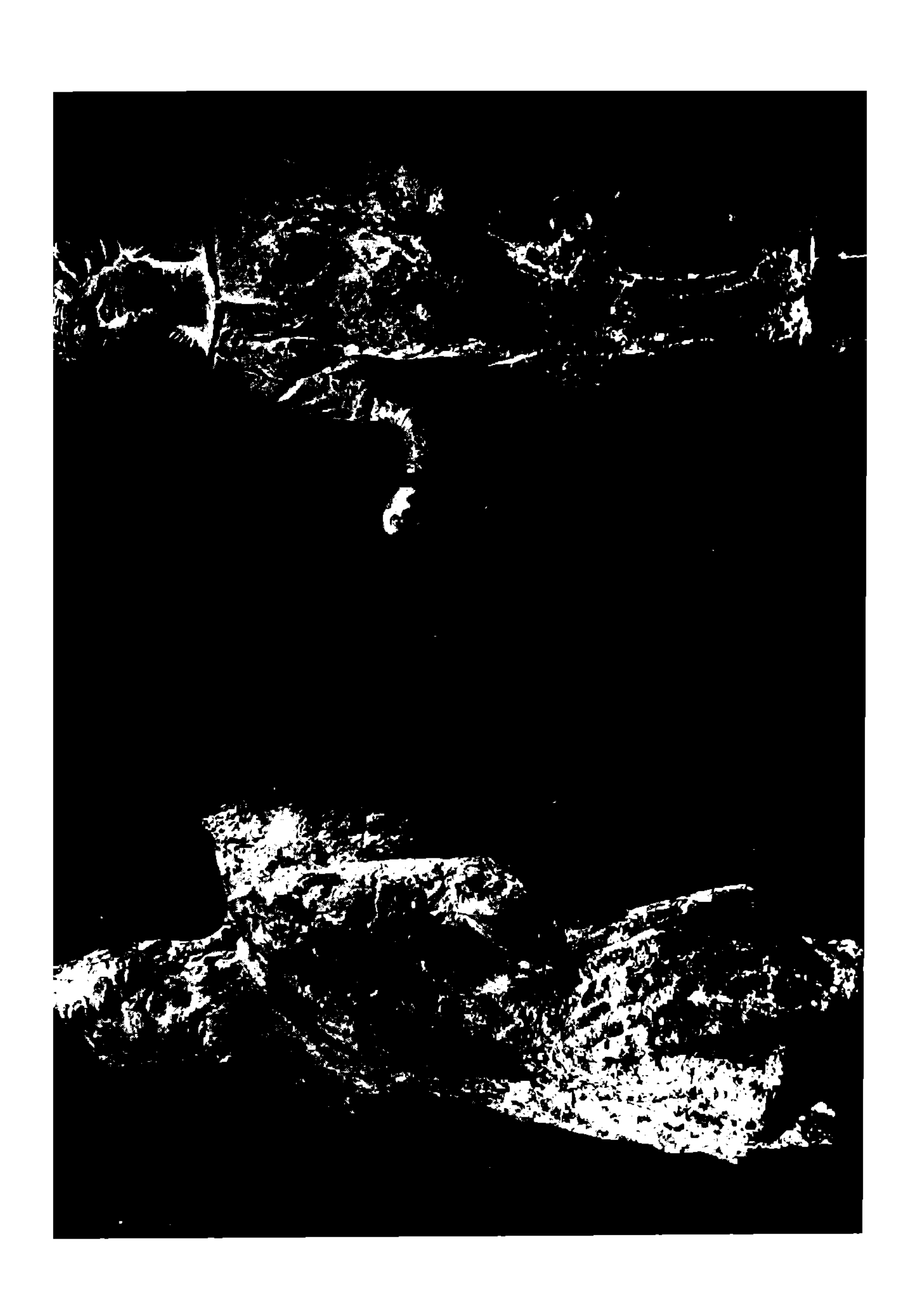
وعدنا لمقر إقامتنا وجلسنا يوماً كاملاً آخر في حالة انتظار، وتلك هواية محبوبة في العالم العربي، ولكنها في اليمن أكثر من هواية، فهم يبالغون في الانتظار. ورحنا نلتقط الصور في المدينة، وحدث ذات مرة أن استوقفتنا الشرطة ومنعتنا من تصوير جماعة من البدو يتجولون في تعز، ولكن فجأة أتانا شخص يجري من بناية مجاورة وأمر الشرطة بأن لا يتعرضوا لنا، وانصاعوا لأمره فوراً إذ كان فيما يبدو شخصية متنفذة. وبينما استمر والاس في التصوير علمت أن الإمام (الملك) نفسه كان في المبنى الذي خرج منه الرجل، وهو الذي أرسله ليمنع الشرطة من مضايقتنا.

وفي المساء تلقيت رسالة من طلعت تفيد بأن الملك سيقابلنا صبيحة الغد وأن السيارات ستأخذنا في التاسعة صباحاً من مقرنا. ولما استفسرنا عن الأشخاص الذين يتألف منهم الوفد، قالوا إن الملك سيقابل الوفد كله باستثناء إيلين، فهو لا يقابل نساء مطلقاً.

شرعت في إعداد نفسي لمقابلة إمام اليمن صبيحة الغد. هذه فرصة لم تتح من قبل لأي مستكشف آخر، ولكن لأول مرة في حياتي، ورغم خبرتي في المطالبة بالأذونات والتبرأت ومقابلة المسؤولين، أجد نفسي هذه المرة مضطرباً وخائفاً. إنني سأتعامل غداً مع واحد من أكثر الأتقراطيين انفراداً بالحكم في العالم، مع شخص يستطيع أن يقول لا أو نعم بدون استشارة أحد، وهو مثله مثل بلده معزول تماماً عن العالم، فلم تمسسهما التيارات والأفكار الحديثة، وذلك بمحض اختياره. هذا بلد، حتى بمقاييس الدول العربية الأخرى، مازال يعيش في القرون الوسطى.



البوابة الجنوبية لتمنع (تعود للقرن السادس ق.م.) بعد أن أزالت البعثة الرمال عنها .



ولكن رغم أن الإمام دكتاتور فهو لا يستطيع أن يفعل كل شيء يريده، فهو مثلاً لا يستطيع، وبعضهم يقول لا يجرؤ، أن يذهب لصنعاء عاصمة بلاده، منذ اغتيال والده قبل ثلاث سنوات. الذي يحكم صنعاء باسمه هو شقيقه الأمير حسن، غير أن الكثيرين يقولون إن الأمير حسن أخذ الحكم لنفسه، ونصب نفسه حاكما على شرق وشمال اليمن. مهما يكن من أمر فإن الإمام أحمد حميد الدين لن ينسى الطريقة التي لاقى أبوه حتفه بها وهو في الرابعة والثمانين من عمره ولن يفرط في أمنه الشخصي بسهولة. وللكيفية التي مات بها أبوه الإمام يحيى حميد الدين قصة.

كان الإمام يحيى يجلس أمام قصره في صنعاء صباح يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٤٨م يستمع لشكاوى الرعية حسب التقاليد. ولما هم بالانصراف اقترب منه رئيس الوزراء القاضي عبد الله العَمْري الذي عاد من رحلة إلى أرض اشتراها الإمام مؤخراً ، وأبلغه بأن المضخات الجديدة بدأت الضخ وأنها ستروي مساحة قدرها عشرة كيلومترات مربعة. فرح الإمام يحيى وقرر على الفور أن يذهب ليتفقد مزارعه الجديدة، فأخذ معه رئيس الوزراء وتوجه نحو الأرض المعنية. وفي أحد المنعطفات توقف السائق لأن هناك مطباً ضخماً سد الطريق، وكانت هناك شاحنة مغطاة بقماش تقف قريباً من ذلك المكان. خرج من تلك الشاحنة مسلحون ملثمون وفتحوا النار على الإمام وأردوه قتيلاً بعد أن اخترقت جسمه تسع طلقات، وقتل معه كل من حفيده ذي العامين ورئيس الوزراء عبد الله العَمْري والسائق وأحد الحراس.

وفي صنعاء كان عبد الله الوزير الخادم الخاص للإمام ومخطط عملية الاغتيال، يقف على سقف بيته ينتظر الإشارة عن بُعدٍ بأن التنفيذ قد تم. وعندما تلقى

الإشارة بأن الإمام قد توفي ذهب للقصر ولثكنات الجيش وقوات المدرعات حيث اخبر الجنود بأن الإمام يحيى قد ذهب لتعز لمقابلة ابنه الأمير أحمد وأنه شخصياً مكلف من قبل الإمام بحفظ الأمن. وأمر عبد الله الوزير بإغلاق بوابات المدينة ، ثم أرسل قوة من المدفعية على رأسها خبير مدافع عراقي اسمه النقيب جميل جمال لتطويق قصر الإمام وحبس أولاده هناك.

ولكن أخبار اغتيال الإمام سرت كالنار في الهشيم، وسمع الأمراء حسين ويحيى الصغير ومحسن بالنبأ وتوجهوا نحو الثكنات ليصطدموا بجميل جمال وجنوده أمام القصر. وحدثت معركة أمام القصر بعد أن أخرج الأمراء جنبياتهم وارادوا أن يدافعوا عن أنفسهم وفتح الجنود النار وأردُوا الأمير حسين والأمير محسن قتيلين وقد جرح الأمير يحيى ولكنه استلقى على وجهه وتظاهر بأنه قد مات، وبعد ذلك اكتشف وحبس بالقصر.

ولما سمع الأمير أحمد ولي العهد وحاكم تعز بأخبار وفاة والده توجه بسيارة جيب نحو مدينة « حجّة » على مقربة من صنعاء، وهناك جمع جيشاً من أفراد القبائل الموالية للإمام قوامه ثلاثة عشر ألفاً من المحاربين، وتوجهوا نحو صنعاء وطوقوها وفرضوا عليها حصاراً تاماً. وبعد أربعة أيام استسلمت صنعاء لهؤلاء البدو الأشاوس الذين دخلوها غزاة فاتحين. وخلال ساعات كان سوق صنعاء مدمراً تدميراً كاملاً واستمر النهب أربعة أيام كاملة ليشمل جميع منازل صنعاء، وقد لاقى مئتا شخص حتفهم.

وفي اللحظة التي استسلمت فيها صنعاء لقوات القبائل بقيادة الأمير سيف الإسلام عباس، تمكن الأمير يحيى داخل القصر من إقناع حراسه بإطلاق سراحه وبالامتثال لأوامره، فاعتقلوا الياور عبد الله الوزير الذي كان قد نصب نفسه ملكاً

في الأيام القليلة الماضية، ولما اعتقلوه كان يردد :-

« كيف تفعلون ذلك بي؟ أنا عبد الله الوزير ملككم ».

وظل يردد هذا الكلام وهو مربوط بالأغلال الثقيلة بعد ستة أيام، واقفا على سيارات مكشوفة كانت تشق طريقها نحو مدينة « حجة » وكانت هذه آخر كلماته، إذ إن رأسه فصل عن جسمه في « قصر القاهرة »* ، كما واجه خمسة وثلاثون من أعوانه نفس المصير، وقد علق رأس عبد الله وزير أمام وزارة الصحة لعدة أيام عظة وعبرة لمن تسوّل له نفسه بالتمرد على الإمام.

وهكذا أصبح ولي العهد الأمير احمد حاكماً بلا منازع ، إماما لليمن وشيخاً للطائفة الزيدية المتفرعه من المذهب الزيدي بحكم انتسابه إلى سلالة النبي (عليه الصلاة والسلام) عن طريق ابن عمه الإمام علي (كرم الله وجهه) وابنته فاطمة الزهراء. وأسرة حميد الدين في الحقيقة تزعم بأنها كذلك من سلالة الحميريين الذين ظلوا يحكمون اليمن منذ الفترة السابقة للإسلام**.

---

* المراد هنا قلعة القاهرة التي تشرف على مدينة حجة من جهة الشمال وهناك مواضع اخرى باليمن تحمل اسم القاهرة من أشهرها القلعة المطلة على مدينة تعز.(المراجع)

** جهل المؤلف بانساب العرب أوقعه في هذا الخطأ الفاحش وإلا فكيف يمكن لأي كان ان يجمع بين النسبين العدناني والقحطاني في آنٍ واحد والصحيح ان أئمة اليمن ينتسبون إلى الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه نشأت أول دولة لهم باليمن سنة ٢٨٤هـ على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي وانتهت دولتهم الأخيرة باليمن سنة ١٣٨٢هـ ولعلهم بذلك يمثلون استثناء لانكاد نجد له مثيلا ليس في تاريخ العرب فحسب بل في تاريخ الأمم والشعوب حيث تعاقبت سلالاتهم حكم اليمن أو اجزاء منه طوال ما يقارب احد عشر قرناً.(المراجع)

الفصل الثاني والعشرون

مقابلــة الإمـــــام

كما هي العادة في اليمن فقد جاءتنا السيارات متأخرة ساعة ونصفاً عن مواعيدها؛ جاءنا سامي عز الدين الموظف بالخارجية يأخذنا لمقابلة الإمام أحمد حميد الدين، وفي الطريق أخذنا معنا الدكتور ترسيسي، وذهبوا بنا ليس للقصر كما توقعت ولكن للبناية المطلة على السوق التي خرج منها ذلك الرجل المتنفذ ليصد الشرطة عنا لما أردنا أن نلتقط بعض الصور.

ادخلونا إلى غرفة عادية حيث التقينا الإمام أحمد لأول مرة، وكان جالساً على كرسي مبهرج ومنمق، وعلى حجره يجلس طفل صغير، وكان الطفل يعبث بالطاولة الموضوعة أمام الإمام. وحاكم اليمن رجل متوسط القامة وممتلئ الجسم في العقد السادس من عمره، وله حضور بلحيته السوداء وعينيه الواسعتين اللتين يديرهما حول الغرفه فيستوعب كل شيء فيها بلمح البصر. كان يرتدي عباءة بيضاء من الحرير ، متمنطقا بجنبية مرصعة بالجواهر داخل غمد أخضر وأسود، وعلى رأسه عمامة أطرافها مزركشة بالحرير الأحمر، وخلفه كان يقف مستشاروه وحراسه بملابسهم البيضاء وبنادقهم على أبسطة فارسية رائعة.

صافحنا الإمام أحمد واحداً واحداً وابتسامة جميلة تعلو وجهه، وعندما جاء دور جمعة انحنى ليقبّل يد الإمام الذي تذكر جمعة ، فقد رآه عام ١٩٣٨م عندما جاء مصطحباً عالم الحشرات «هيو سكوت» ، وسأله:

«كيف حال أصدقائي المفضلين أبناء الصومال؟»

جلست إلى يسار الإمام ، فالتفت نحوي ووضع يده على ركبتي قائلا :-

«هل تتحدث العربية؟»

أجبته بعربيتي غير السليمة إنني أحاول دون جدوى، وبعد ذلك تولى دكتور ترسيسي عملية الترجمة.

دخلت مع الإمام في مناقشة سلسة تناولنا خلالها مواضيع شتى، ويبدو أنه كان في مزاج هادئ، فكان يضحك ملء شدقيه ويرسل النكات والملح، حتى سرت العدوى فينا وضحكنا كثيراً.

شرحت للإمام أعمالنا في بيحان، وقاطعني قائلاً إنه كان شغوفا بجمع النقوشات، لذلك فهو مهتم جداً بعملنا. في هذه اللحظة نظر جمعة نحوي نظرة ذات معنى فوقفت وبدأت في إخراج الهدايا التي أحضرناها للإمام: معجون أسنان كولجيت ومستحضرات أخرى بنفس الماركة، وصناديق تحتوي على كوكاكولا، ونظارات مكبرة، ومسدسات ، وذخيرة ، ومروحة صناعة جنرال الكترك، ومذياع ماركة هالكرافتر، وآلة كاتبة ماركة رويال، وآلة تصوير بولارويد تركها لي الان سكيف. ثم اعتذرت للإمام عن قلة الهدايا وتمنيت لو كان لدينا أكثر من ذلك لنقدمه له، فرد قائلاً:-

«النبي محمد صلى الله عليه وسلم قبل الهدية، صغيرة كانت أم كبيرة، فليس المهم هو الهدية نفسها ولكن الدافع وراءها والنية الطيبة التي تحرك من يتقدم بها.»

وبعد ذلك تقدمت للإمام بهدية أخرى وهي خريطة للجنوب العربي كان قد أعدها «فريزو هايبروك» خلال موسمنا الأول بتمنع. وأمعن الإمام النظر جيداً في شريط الحدود بين اليمن ومحميات عدن التي تتميّز بكثرة علامات الاستفهام والفصلات الخطية الصغيرة ، وخشيت أن يغضب الإمام من الطريقة التي عالج بها

رسامنا موضوع الحدود الشائك ، فاعتذرت للإمام ، ولكنه ابتسم فقط وقال :-

« ارجو ان تزيلوا الفصلات في المرة القادمة وتتركوا علامات الاستفهام . »

واخيراً بدأنا نقترب من الموضوع الأساسي، فحاولت ان أشرع في طرح الحديث اولاً عن مشروع بيحان وربطه بما ننوي ان نقوم به في مأرب ، ولكن الإمام قاطعني مستفسراً :-

« هل زرت شبوة ؟ »

إنني مدرك بالطبع لحقيقة الوضع الخاص بهذه البقعة والمنطقة المحيطة بها التي تطالب بها اليمن، فأجبت قائلاً :-

« لقد رايت شبوة فقط من الجو، وقد زارها أحد رفاقنا ، وهو شارلي ملكولم، بمحض المصادفة عندما ضل طريقه لبيحان ووجد نفسه في شبوة »

وفجاة سأل الإمام :-

« ما كمية اللحم التي أعطاها لذلك الرجل في شبوة ؟ »

وقد فاجاني السؤال فعلاً لأنني لم أسمع بحادثة كهذه، فالتفت نحو شارلي مستفسراً بالتعبير الذي حمله وجهي، وأجاب شارلي بانه كان قد وجد شخصاً مسناً جائعاً في شبوة فاعطاه جزءاً من لحم الغزال الذي كان معه . ويبدو ان الإمام اقتنع بتلك الإجابة، بينما عشت افكر في هذا المستوى الاستخباراتي العجيب، وتمنيت ان تمتلك حكومتنا في واشنطن نظاماً لجمع المعلومات كهذا .

واخيراً اتيت بالسؤال الحرج :-

« ماذا عن مأرب ؟ »

بدا الإمام مستغرقاً في تفكير عميق، وآثرت ان أستمر في شرح المزايا الخاصة بمشروع الحفريات في كل من مأرب وتمنع . عند ذلك فاجاني الإمام بقنبلة :

« هل أنت المسؤول عن تلك الطائرة التي حلّقت حول مأرب بدون إذن ودارت عدة دورات؟ وهل التقطت أي صور؟ »

وقبل أن ينتظر إجابتي أخرج الإمام رسالة رسمية كانت قد جاءته من السلطات العدنية رداً على احتجاجه. مدت الرسالة أصبعاً للاتهام ضدي وادعت بأن الطائرة تابعة لشركة أمريكيه خاصة. وبالطبع ابتعدت تلك الرسالة عن الحقيقة، واحترت ماذا أقول. إنني مستعد للاعتراف بالجانب الذي يخصني، ولكن الطائرة بريطانية استأجرناها من عدن وهي تحمل العلم البريطاني واضحاً في ذيلها ، ويقودها كابتن وطاقم إنجليزي . والسلطات البريطانية الحاكمة في عدن كانت على علم بكل ذلك لأنهم فحصوا الطائرة وتسلموا الرسوم الخاصة بمطار عدن. واعترفت بأنني كنت في الطائرة والتقطت بعض الصور.

أجاب الإمام على كل ذلك بكلمة واحدة: « الحمد لله ». بعد ذلك دخلت في الموضوع مباشرة وطلبت إذناً للعمل في مأرب، فرد الإمام قائلاً :-

« إن شاء الله ».

هذا التعبير الشائع الاستخدام في العالم العربي مطاط جداً وقد يعني عدة أشياء في وقت واحد: قد يعني « ربما أقوم بذلك » أو « أريد أن أقول (لا) بطريقة مهذبة ».

وقف موضوع مأرب عند تلك النقطة، وانتقل الإمام لمسألة أخرى مختلفة تماماً، وهي أنه قد وضع طائرته الملكية تحت تصرفنا لنذهب إلى صنعاء، وسألني :-

« متى تريدون أن تغادروا إلى صنعاء خلال الأيام القليلة القادمة؟ »

قلت له : —

« عصر اليوم إن شاء الله »

ولقد كنت في عجلة من أمري لدرجة أني نسيت الصور التى سمح لنا بأخذها مع الإمام، وعندما هممت بالمغادرة ذكرني الإمام نفسه بالصور، وطلب منا بلطف شديد أن نقف إلى جواره للصورة الجماعية التي أخذت بآلة التصوير البولارويد التي أهديناها له، والتقط الصور والاس ويد، ثم انتهى لقاؤنا مع الإمام بكلمة «الحمد لله» التى أطلقها الإمام برضا وسرور. دام ذلك الاجتماع ساعتين وأربعين دقيقة وهو زمن قياسي، وقد أخبرنا المقربون أن الإمام لم يعط مثل هذا الزمن لأي شخص من قبل.

كانت المقابلة مشجعة ولكننا تعلمنا من تجاربنا ألا نتفاءل أكثر مما يجب. وعموماً، سرنا حسب البرنامج، وركبنا الطائرة الملكية «دي سي ثلاثة» التي يتألف طاقمها كله من سويديين لسبب لا أعرفه، واتجهنا صوب صنعاء*.

وقبل أن ننزل في أرض صنعاء، بدت لنا من الجو مدينة كبيرة وهامة، واستبد بنا الشوق لرؤيتها عن كثب. ولما اقتربنا أكثر رأيناها محاطة بالجبال من كل الجوانب، وهي نفسها على ارتفاع شاهق يبلغ ٨٠٠٠ قدم، لذلك فإن جوها معتدل للغاية.

هبطت الطائرة بمطار صنعاء، على مسافة منها، وركبنا سيارة «كرايسلر» من طراز ١٩٤٦م في معية سامي عز الدين الذي انتدبه الإمام ليكون مرشداً لنا. وفي طريقنا من المطار رأينا حقول القمح الممتدة وبساتين البرتقال والموز والخوخ المرتبة ترتيباً جميلاً. مدينة صنعاء مترامية الأطراف، يقطنها ستون ألف نسمة، وعند

* السبب في ذلك هو أن الإمام كان لايثق في الإنجليز ولافي الفرنسيين ولاحتى في الإيطاليين باعتبارهم يمثلون دولاً استعمارية ذات مصالح في المنطقة بينما لم تكن السويد كذلك إنني أدين بهذا التوضيح للأخ الاستاذ عبد الله السريحي،الباحث بالمجمع الثقافي .(المراجع)

مدخل المدينة وجدنا قصر الإمام الراحل الذى يتالف من سبعة طوابق ويضم كثيراً من المساجد، والعديد من المباني الحكومية التي تحمل الطابع المعماري التركي.

كانت الاستراحة التي نزلنا فيها بصنعاء أجمل من بيت الضيافة بتعز. وبعد العشاء الذي كان فيه أربعة أنواع من الحلوى، زارنا العديد من التجار ببضائعهم التي عرضوها أمامنا، مثل السجاد الراقي والمجوهرات والجنبيات والطرابيش والقبعات والحجارة الكريمة.

في صبيحة اليوم التالي قمنا بزيارة ما يسمى بمتحف صنعاء، وهو في الواقع مجرد مخزن صغير في الطابق الأسفل من الاستراحة، فوجدنا مجموعة بديعة من النقوش السبئية والتماثيل الصغيرة، وقد استرعى انتباهنا أحد التماثيل: إنه تمثال من البرونز طوله سبع أقدام لمحارب، طرازه يوناني، يقف بارزاً في أحد أركان الغرفة. إنه مصنوع من المادة نفسها التي صنع منها الأسدان اللذان وجدناهما في تمنع، وقد وُجد في بئر عميقة جنوب صنعاء بخمسين ميلاً، وكان ذلك قبل بضع سنوات.

وجدت صعوبة في التركيز على صنعاء وصرف ذهني عن التفكير في مأرب وما قاله الإمام بشأنها وهل سيرد على طلبنا بالإيجاب. ولكننا على كل حال استمتعنا بأيامنا في صنعاء، وبخاصة لقاؤنا مع وزير الخارجية الأمير سيف الاسلام عبد الله. هذا الأمير الأنيق واحد من اليمنيين القلائل الذين سافروا كثيراً، وقضى شهوراً عديدة في الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا. وقبيل مغادرتنا أهداني الأمير نسختين باللغة العربية لكتابين عن تاريخ اليمن تم تصنيفهما قبل الف عام.

أما رحلة الرجوع إلى تعز فلم يكن بها شيء جديد إلا ما حدث لولاس ويد، فقد حاول أن يفتح باب طوارئ لكي يتمكن من التصوير وكاد أن يطيح خارج

الطائرة. وبمجرد هبوطنا في مطار تعز توجهت ومعي ايلين لمقابلة دكتور ترسيسي نسأله عن رد الملك على طلبنا، ووجدناه مكباً على إعداد عقد اتفاق خاص بأعمال الحفر في مأرب التي ستقوم بها «المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان».

عقدت الدهشة لساني ، وكدت أطير من الفرح. لقد أعطينا الضوء الأخضر لننقب في آثار عاصمة مملكة سبأ.

وبعد أن افقت من الاندهاش أخذت أفكر في التفاصيل الخاصة بالعقد، وصممت على الا اسمح لأي تفاصيل صغيرة بافساد هذا المشروع، وقررت الا تثنينا اي صعوبات أو مضايقات عن المضي في هذا العمل الهام، مع الحرص على ان تكون الاتفاقية منصفة لكل الأطراف وشاملة لكل النقاط الضرورية. ومن المستحسن حسم الخلافات منذ البداية ، عندما تكون النفوس بخير والود موجوداً والكل متحمساً للدخول في المشروع. ويجب أن نصف واجباتنا وطبيعة عملنا بوضوح ، كما يجب أن نوضح واجبات الحكومة والإمام ونضعها على الورق جلية لا لبس فيها ، ويجب أن نحسم المواضيع المتعلقة بإدارة الجانب المالي وإدخال الأليات والأجهزة والمؤن، ويجب أن نحدد منذ الآن كيفية السكن ومكاتب العمل وإمكانيات التخزين. ويجب ان نتأكد من أن سياراتنا يمكنها أن تتحرك وتكون موجودة في الأماكن التي نحتاجها فيها وأن الطرق لا باس بها، وأن هنالك إمكانيه لتشييد مطار صغير بالقرب من الموقع الجديد بمأرب. وبالطبع فإن السؤال الاكثر دقة وحرجاً، والذي يجب ان نحسمه قبل الدخول في المشروع، هو موضوع اقتسام ما نجده من آثار وتحف وقطع اركيولوجية.

وبالطبع لا يمكنني حسم الكثير من التفاصيل ما لم أعاين الموقع بمأرب ، لذلك اقترحت أن يضاف بند للعقد يسمح بموجبه أن أذهب للموقع مع نفر قليل من

أعواني لمعاينة المكان، وبعد ذلك نتفق على ملحق إضافي للعقد يختص بالطرق والمساكن وغيرها بالموقع.

رجعت مع إيلين لمنزل الضيافة، وأخذ الدكتور ترسيسي يجيء لنا على رأس كل ساعة ليعرض علينا التعديلات لإجازتها في مرحلة المسودة ، قبل أن يتبلور الاتفاق بشكله النهائي ويكون جاهزاً للتوقيع ، وكانت تلك الاستشارات تشمل كذلك بعضا من معاوني الإمام.

وفي مرة من المرات، وفي تمام الساعة الثالثة والنصف صباحاً، طلبوا مني ان اثبت أنني فعلاً رئيس «المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان» ، وهنا صرت أبحث في أوراقي وأتساءل: ترى هل هنالك فعلا رئيس لمؤسستنا؟ لكنني أقنعتهم بهويتي. وفي النهاية توصلنا لاتفاقية متوازنة نالت رضا كل من يهمهم الأمر ووقعتها بالإنابة عن المؤسسة كما وقعها ولي العهد سيف الإسلام محمد أحمد البدر الممثل الرسمي للإمام، وقد كانت أسطرها الأولى كالآتي:-

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«لقد تم الاتفاق بإذن الله بين حكومة صاحب الجلالة إمام المملكة المتوكلية اليمنية، ويشار لها من الآن فصاعداً بكلمة (الطرف الاول) ، والمؤسسة الامريكية لدراسة الإنسان..

لأول مرة في تاريخ مملكة اليمن يعطي إمامها تصريحاً لجهة أجنبية لتقوم بدراسات علمية واستكشاف وحفريات في واحدة من أعظم المستودعات الآثارية في العالم، وهي مأرب عاصمة مملكة سبأ القديمة . وهكذا تحققت أحلامي في آخر الأمر.

الفصل الثالث والعشرون
عبر الأراضي غير المكتشفة

عندما كنا في رحلة العودة لبيحان كان يغمرنا شعور بالتفاؤل والانشراح، وبمجرد وصولنا شرعت في الإعداد للمهمة الاستطلاعية بمارب. وهذه المدينة القديمة تبعد أربعين ميلاً فقط عن تمنع وهو مشوار بسيط بالطائرة، ولكنه ليس كذلك بأنواع المواصلات الأخرى، ونحن نعلم أن وسيلتنا الوحيدة المتاحة هي الشاحنة. وحسب الاتفاقية كان لابد ان ابرق للإمام بيوم قبل موعد سفرنا إلى مارب ، ففعلت.

قمتُ بدراسة الخرائط، بمعاونة شارلي ماكولم، لاختيار افضل طريق لمارب، وكان أحد الخيارات الالتفاف حول « جول الكديف » ثم فوقه، ولكنه أطول طريق رغم أنه أكثر أمناً. والبديل الآخر الوحيد هو صعود الجبال مروراً بـ« نجد مرقد » ثم اختراق الصحراء على خط مستقيم بعد ذلك نحو مارب وهذا هو أقصر طريق بيد أن رماله الهشة وكثبانه الوعرة قد يتعذر السير عليها إلا بالجمال. وأخيراً صاح شارلي حسماً للمناقشة :-

« عندما أعطانا « ثي كيلر» هذه السيارات ماركة دودج بوار واقن كان واثقاً منها ويريدنا أن نستخدمها بلا تردد ».

فقررنا أن نركب الصعب طالما نحن فوق هذه الشاحنات القوية، وتوجهنا صوب طريق الكثبان الرملية رغم أنها في كل خريطة يرمز لها بالتعبير: (منطقة غير مطروقة).

وأخيراً تمكنا من إعداد أنفسنا للرحلة بيوم قبل المواعيد المحددة، فحزمنا أمرنا على بدء المشوار. وكانت إيلين قد أرسلت شخصا للسيد الكحلاني حاكم مأرب وحريب ليخبره بأننا سنغادر إلى مأرب قبل أربع وعشرين ساعة من المواعيد التي كنا قد حددناها في برقيتنا للإمام . ولكننا لم ننتظر رجوع الرسول الذي بعثت به إيلين، ولم نعرف إلا بعد أن بلغنا مأرب أن حاكمها رفض السماح لنا بزيارة مأرب حتى يتلقّى أوامر محددة من الإمام. وكانت إيلين قد أرسلت الغلام مرة أخرى لحاكم مأرب مع رسالة فكهة تقول:-

«إن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى من الآن فصاعداً، لأن الوفد قد غادر بالفعل متجهاً إليكم».

وكنا بالفعل قد بدأنا الرحلة مفعمين بالنشوة والفرح والتطلع لهذه المغامرة الجديدة بروح عالية لم أشهد مثلها في حياتي. نحن في طريقنا لأرض سبأ لنرى بأعيننا ونخطط للعمليات الحفرية، وها نحن ندخل في الجانب العملي لأحلام كانت تراودنا منذ سنين طويلة.

وكانت الرحلة شاقة، بل كانت مغامرة غير مضمونة العواقب، لذلك فقد اصطحبنا معنا فقط من كان وجودهم معنا ضروريا ولا غنى عنه: شارلي ماكولم لقيادة وصيانة سيارات البوار واقن، يساعده جورج فارير الذي كان يقوم بالتصوير كذلك، ودكتور جام لتقييم النقوشات والمساعدة في وضع الخطط المستقبلية، والدكتور ديميفراند لعلاجنا إذا دعا الحال، ووالاس ويد للتصوير السينمائي، وابراهيم الطباخ، وجمعة للترجمة والأعمال الإدارية. وكنا قد وجدنا صعوبة في إيجاد دليل يرشدنا في الطرق الصحراوية، إلى أن عثرنا في آخر الأمر على صبي يافع يسكن أبواه في مأرب.

اتجهنا شمالاً نحو « نجد مرقد » بالطريق الجبلي في بادئ الأمر ، وقطعنا وادي حريب الذي يمتد إلى الجهة اليسرى من الطريق . وعندما وصلنا « جبل حنو » كنا قد بلغنا منطقة في الجبال يتعذر السير فيها بالشاحنات، فدلف شارلي نحو الكثبان الرملية بالناحية الشمالية، وكانت عبارة عن سلسلة من التلال الرملية العالية. كنا نتجه صوب قمة التل الرملي بعد صعوبة جمة، وهناك نكتشف أن الهبوط من الجانب الآخر مستحيل لأنها في الواقع هاوية سحيقة، فنعود أدراجنا ونجرّب خطاً آخر ونحاول أن نتجاوز التل بطريقة أسهل ، وتكرر هذا المشهد مرات ومرات ، وكان الهبوط في أحيان كثيرة حاداً للغاية، ولولا أن سياراتنا كانت جيدة ولولا أن سائقيها ماهرون لانقلبت عدة مرات. وأخيراً أبصرنا على مسافة أمامنا جبلاً مدهشاً تذكرت أنني رأيته من قبل، وكان ذلك عندما حلقنا فوق مأرب بالطائرة، وأدركت أن هدفنا خلف ذلك الجبل وإلى اليمين قليلاً.

زادت مخاوف الصبي الذي كان يهدينا السبيل في تلك البقعة، ولكنه ظل يطمئننا بأن ما تبقى لنا هو آخر مجموعة من الكثبان الرملية، وفي الحقيقة تبقى لنا سبع سلاسل من التلال الضخمة، ولما عبرنا آخرها كان النهار قد انتصف والشمس في كبد السماء، وبينما كانت المسافة عشرين ميلاً لهذا الجزء الأخير من الكثبان وذلك بسبب اللف والتقهقر ثم الإقدام لتفادي المطبات والهاويات وخلافه.

تذكرت المصير الذي واجهه أحد القادة العسكريين الرومان في هذه الرمال قبل ألفي عام، وهو « أوليوس جاليوس » الذي حاول أن يفتح بلاد التوابل هذه عام ٢٤ ق.م ، وقد أخطأ مرشدوه الأنباط الطريق فذهب أولاً إلى أرض نجران الخصبة حيث قابلته بعض المقاومة، ثم واصل سيره نحو مأرب ، ولكن قوات السبئيين

خفت لملاقاته بمسافة بعيدة من عاصمتهم وأوقعوا به هزيمة ماحقة بعد أسبوع من القتال، فتراجع الجنرال الروماني وتوغل في صحراء لا حدود لها وفقد معظم جنوده فيها.

وصلنا إلى سهل منبسط بعد منتصف النهار بقليل، ونزلنا لنتناول طعام الغداء تحت شجرة ضخمة، وهنا تماسك مرشدنا وزال عنه الخوف والاضطراب، ثم أشار علينا باتباع طريق يمر بـ (وادي المسلة)* بين جبلين كبيرين، فتحركنا في ذلك الاتجاه. وبعد لحظات بسيطة هتف دكتور جام وقفز من مقعده لكي يتفحص أول نقوش سبئية تصادفنا على بضع صخور مبعثرة هنا وهناك، فتوقفنا قليلاً، ثم نظرنا نحو أفق السهل المنبسط وإذا بمأرب تنتصب أمامنا على مسافة ليست بعيدة.

وهنا حيث توقفنا لفترة قصيرة وجدنا أطلالاً لبناية قديمة دارسة، حجارتها الضخمة ملقاة على الأرض ومغطاة بالخط السبئي، وهناك تبدو مأرب وتبدو الآثار القديمة على قمة تل شاهق كأنها سراب لمدينة أمريكية بناطحات سحابها. وعلى يسارنا وقف شريط من أعمدة جميلة فوق الرمال، وعرفنا فيما بعد أن هذا كان معبداً لإله القمر، وإلى يميننا وقفت بقايا المعبد المستدير الأنيق المسمى (محرم بلقيس)، والمسلمون دائما يطلقون على ملكة سبأ اسم بلقيس، ولا ندري ما هو أصل هذا الاسم**.

---

* هكذا في الأصل (Misela) ولعل صوابه وادي السائلة أو السيلة قرب مَأْرِب من جهة الغرب والجنوب الغربي. (المراجع)

** هذا صحيح في ظل غياب وجود أية أدلة نقشية أو أثرية تلقي الضوء على اسم هذه الملكة الشهيرة الثابت تاريخيا وبنص القرآن الكريم زيارتها للنبي سليمان في القرن العاشر ق.م. أما تفنن أوائل الرواة والاخباريين في صدر الإسلام مثل وهب بن منبه وعبيد بن شرية ثم من جاء =

وركضنا نحو محرم بلقيس لنتفحصه عن قرب، وطفنا حول سوره الخارجي المستدير لمدة نصف ساعة، بينما أخذ دكتور جام في قراءة الخطوط وفك طلاسمها أولاً بأول. وأخيراً قررنا ان نتجه للمدينة التي يبدو أنها لم تحفل بنا ولم تعد لجنة لاستقبالنا ، فشعرنا أن في الأمر شيئاً ، وصدق حدسنا.

فبمجرد وصولنا لطرف القرية الحالية المسماة « مأرب » بجوار آثار مأرب القديمة، أحاط بنا نفر من الجنود ورجال القبائل المسلحين، مشهرين بنادقهم باتجاهنا والشرر يتطاير من عيونهم ، يرتدون جلابيب زرقاء ووجوههم مطلية بلون غامق. ما كان أمامنا أي مخرج وليس هنالك داعٍ لأي مقاومة إذ إنهم مسلحون وعددهم أكبر منا بكثير. ولكن يبدو أن فضولهم غطى على عدوانيتهم وصرفهم عنها إلى حين، فهذه أول مرة في حياتهم يشاهدون أوروبيين وأول مرة كذلك يرون اختراعا اسمه السيارة. وعندما حاول أحدهم أن يقترب من سياراتنا ليراها عن كثب ، ضربه قائد المجموعة بمؤخرة البندقية على رأسه، فخاف الباقون، وهنا سألهم جمعة :-

« ألم تكونوا تتوقعوننا؟ ألم يخطركم سمو الإمام بأننا قادمون؟ »

« كلا . وعندما سمعنا أزيز المركبات حسبنا أن هذه طائرات، وظللنا نرقب السماء. لدينا تعليمات بفتح النيران بالمدافع الرشاشة. أنتم الآن محبوسون ، إنكم أسرانا . »

= بعدهم من علماء اللغة والاشتقاق من تفسير للفظ "بلقيس" بأن أصله (بالقياس)" أو (بنت القيس) أو (يلقمه) وهذا الأخير ماهو الا تصحيف لاسم إله سبأ (المقه) المذكور في النقوش فكل ذلك لا يعدو ضربا من التوهم والتمحل والفذلكة اللغوية التي لا تستند على أساس، ناهيك عن أن معرفة اشتقاق الأسماء عموما مسالة من أعوص المسائل بل سد البعض كل الأبواب حين قالوا بأن الأسماء لا تعلل. (المراجع)

بعد ذلك أخذني الجنود ومعي جمعة، بينما بقي رفاقي الآخرون تحت الحراسة، وأخذونا عبر ممر فوق تل نحو قلعة بعيدة بعض الشيء عن القرية، وبدت لنا القلعة كأنها تنذر بشر مستطير. وداخل القلعة وجدنا رجلاً ذا لحية سوداء يجلس على أبسطة ، وأخذت الدهشة كلينا لأنني عرفته على الفور حيث إنه زارنا في العام الماضي بمعسكرنا في تمنع يطلب العلاج وكنت قد تحدثت معه. اسمه القاضي احمد بكر، وهو قاضي تلك المنطقة. ولكني شعرت من التعبير المرسوم على وجهه انه لا يرغب في معاملتي معاملة خاصة.

سألني ذلك الرجل:-

«ماذا تفعل هنا؟»

قلت له : -

«لدينا إذن من حضرة صاحب الجلالة الإمام لناتي هنا وننقب في آثار مأرب.»

نظر الرجل نحوي دون أن يصدق ما قلت، فناولته نسخة من العقد الموقع مع الحكومة اليمنية، فقرأه وهو يهز رأسه مستغرباً، ثم قال: -

«لا أستطيع أن أصدّق هذا. أنتم مساجيني.»

وبعد ذلك أدخلونا كلنا في غرفة واحدة صغيرة حيطانها من الحجر، ووقف أمام الغرفة عدد من الجنود لحراستنا. وقد همس جمعة في أذني قائلا إن إشاعة سرت بين قبيلة عُبَيْدةَ فتنادوا من المنطقة المحيطة بمارب والإشاعة تقول بأن لدينا جيشاً من الشاحنات يتجه الآن نحو مأرب لاجتياحها وإنقاذنا. وما كان بمقدورنا أن نصحح تلك المعلومات الخاطئة فقررنا أن نتركها تتلاشى بمفردها.

ما كان النوم سهلاً، ليس فقط لأننا خائفون ولكن لأن الحراس عملوا ما في وسعهم لإيقاظنا بالصياح والإزعاج المتعمد. وما كدت أخلد إلى النوم أخيراً حتى

صحوت مذعوراً عندما أدخل أحد الجنود رأسه داخل «ناموسيتي»، أي الشبكة الواقية من الناموس المحيطة بسريري. في تلك اللحظة تدخل جمعة وجر الجندي بعيداً عن سريري.

في صبيحة اليوم التالي شعرت بأن الجوَّ قد تغير بعض الشيء، إذ إن القاضي احمد بكر جاء مهرولاً ويبدو عليه القلق، وسأل عن صحتنا وسلامتنا، وهل تمكنا من النوم، ثم وضح لنا سبب هذا التغيير المفاجئ: لقد وصل موفد للقاضي يخبره بأن الممثل الخاص لسمو الإمام في طريقه إلى مأرب على ظهر حصان، وهو صهر الإمام شخصياً، السيد احمد بن الحسين الكِبْسِي، الذي جاء من صنعاء ليبلغ القاضي بأخبار حضورنا لمأرب.

بعد ذلك مباشرة أطلقوا سراحنا بأمر القاضي احمد وركبنا إحدى سياراتنا لنذهب ونستقبل مبعوث الإمام، ووجدناه ممتطيا جواداً أبيض جميلاً ومعه حراس، وقد سمع بما حدث لنا الليلة البارحة وهو في الطريق فواصل الليل بالنهار دون توقف حتى يصلنا بأسرع وقت ممكن.

وأمام برج القلعة اصطف الجنود يغنون بينما أطلق ثلاثة منهم أصواتاً معينه من البوق في استقبال الضيف المرموق مندوب الإمام . وفي أثناء هذه المراسم همس والي ويد في أذني قائلاً بأن حادثة عجيبة وقعت عندما ذهبنا نحن لاستقبال مندوب الإمام ، فقد حاول أحد الحراس أن يخطف مسدس والي وهنا قفز والي ودون أن يقصد دفع الجندي للخلف حيث سقط على سَلَّة قاذورات.

بعد ذلك أعلن القاضي احمد أن لنا مطلق التصرف في آثار مأرب بأمر الإمام، وفي تلك اللحظة وصل السيد الكحلاني حاكم حريب ومأرب وبصحبته مجموعة ضخمة من الجنود المسلحين الراكبين على ظهور الجمال. كان هدفه

اعتقالنا ووضعنا في جنازير وأخذنا إلى حريب، ولكن عندما وجد مندوب الإمام احتار حيرة شديدة ، وضحك الجميع على هذا المشهد، غير أن الكحلاني غضب من ذلك الضحك . وبعد دقائق من ذلك وصلنا غلام يجري من بيحان وكان يتصبب عرقاً، ووضع في يدي ورقة صغيرة من الشريف حسين يحذرنا فيها من الكحلاني ومما كان ينويه في حقنا، وقد عرفنا أن الغلام لم يتوقف عن الجري طوال المشوار من بيحان لمأرب، وقد سعدنا بهذا الصديق الوفي الموجود في بيحان، ألا وهو الشريف حسين.

وبرغم كل ما حدث لنا في اليومين الأولين فإن حماستنا لم تفتر وتفاؤلنا لم يتغير بما سننجز في مأرب.

الفصل الرابع والعشرون

مدينـــة بلقيـــس

وقفنا أمام أطلال دارسة لم يقف أمامها أوروبي أو أمريكي غيرنا منذ عام ١٨٨٩م، حسب علمنا، ونظرنا نحو الموقع الذي كان ذات يوم يضم أكبر وأغنى مدينة في الجنوب العربي القديم، كان مركزاً لحضارة عظيمة تليدة سادت هنا قبل ثلاثة آلاف سنة، ونحن بصدد إماطة اللثام الرملي عنها وسحب القناع الذي تدثرت به هذه الحضارة حتى أصبحت سراً عظيماً ظهرت فقط عناوينه وراجت عنه الأساطير. إن التنقيب الذي ننوي أن نقوم به في هذا الموقع الدسم بالأخبار لم يسبقه تنقيب، على الأقل من جانب علماء آثار وبطرق علمية. ولو قلت لي إن أمامي منجماً من الذهب إذا حفرته سأجد الثروات أمامي فإنني لن أفرح كفرحي الآن بمجرد هذه الفرصةِ التي منحت لنا كي ننقب في آثار مملكة سبأ. ورسمت صورة في ذهني لبقايا مدينة مأرب القديمة بعد أن نزيل عنها الرمال، فرأيت في خيالي الشوارع والمنازل والمعابد والتماثيل والنقوش إن شاء الله، وذلك هو الكنز الحقيقي الذى أتطلع إليه. وتخيلت صحائف النقوشات التي سنخرج بها من هذه الحفرية فتضاف إلى ما تعلمناه من تمنع.

ومنذ المرة الأولى التي قمنا فيها بتفتيش الموقع أدركنا أنه عشرة أضعاف تمنع على الأقل من ناحية المساحة. فالقرية الموجودة حالياً والمسماة مأرب موجودة في ركن صغير من الموقع الذي قامت عليه المدينة القديمة. وها نحن نرى فوق الأرض الآن ، وليس فقط تحتها، صفوفاً من بقايا العمدان والحيطان والمسلات تمتد أمامنا في شكل هلال ضخم على مدّ البصر. وقد حدث في مرات بسيطة أن غاص

اليمنيون في باطن الأرض وحفروا لأعماق سحيقة ليخرجوا الحجارة والطوب السبئي الأصلي ويشيدوا به بعض بناياتهم، مثل القلعة الكئيبة التي قضينا فيها أول ليلة بمأرب ، وبعض منازلهم، وقد بلغوا عمق سبعين قدماً، وإذا قارنا ذلك بالعمق الذي بلغناه في هجر بن حميد، وهو واحد وخمسون قدماً، فهذا يعني أن مأرب أقدم بكثير من قتبان، وما خفي أعظم. وقبل أن نبدأ الحفريات وجدنا نقوشات تعود للقرن الثامن قبل الميلاد، وليس من شك في أن مأرب بنيت في الألف الثانية قبل الميلاد كواحدة من المدن الأولى التى ظهرت وقتئذ في ذلك الجزء من العالم، وكل الدلائل تشير إلى أن مأرب ظلت عامرة لأكثر من ألف وخمسمائة عام، حتي بداية القرن السابع الميلادي.

كان أول مستكشف زار مأرب هو الصيدلي الفرنسي توماس أرنود عام ١٨٤٣م ، وجاء بعده فرنسي آخر هو جوزيف هاليفي عام ١٨٧٠م، ثم تبعه في ذلك النمساوي المدهش إدوارد جلازر الذي زار مأرب عام ١٨٨٩م وأقنع سكان المنطقة بالتعاون معه والبحث عن النقوش شرقاً وغرباً. وفي عام ١٩٣٦م سمح الإمام يحيى حميد الدين لرحالة سوري هو نجيب مؤيد العظم بنقل بعض نقوشات مأرب على ورقة. وفي عام ١٩٤٧م زار مأرب عالم الآثار المصري الدكتور أحمد فخري الذي كان جزءاً من بعثتنا في أفريقيا، وأقام لبضعة أيام في مأرب، أجرى خلالها دراسات قيمة؛ وهذا كل ما حدث من ناحية البحث والدراسة والحفريات قبل مجيئنا.

أشهر آثار مأرب هي أنقاض سدها المعروف الذي كان واحداً من عجائب الدنيا، وربما بُني عندما كانت سبأ في أوج عظمتها زهاء القرن الثامن ق.م . إنه في الحقيقة سلسلة من السدود على بعد أميال بسيطة من المدينة القديمة، ومازال

جزءاً من تلك السدود قائماً حتى الآن ، وهي مازالت آية عمرانية لا يصدقها العقل رغم انها ظلت عبارة عن أطلال دارسة منذ مئات السنين. وبعد ان تسلقنا قمة أحد هذه السدود تساءل شارلي فيما إذا كان هذا هو الجزء الذي طالعناه من الطائرة عندما حلقنا فوق مأرب دون إذن ، ولكنني لا أذكر هذا المشهد ولا أعتقد انني رأيته من قبل. وأشار دكتور ديميقنارد لجزء آخر مدهش من السد على الجانب الآخر من الوادي، وتلك بقعة خلابة ومنظرها بديع، ويجري من تحتها نهر لا بأس بحجمه.

ورأينا جانباً من الجبال الموازية للسد التي نُحتت أجزاء كاملة منها وشكّلت فيها أخاديد كانت بمثابة قنوات للمياه التي وفرها السد، تنساب تلك المياه عبر الأخاديد الصناعية لتروي المزارع المجاورة . وكان السد عبارة عن مركز ثقل لمعظم المياه المتدفقة من الجبال المحيطة بمأرب، وهنا يتم تخزينها ثم توزيعها بنظام للأراضي الزراعية الشاسعة التي بلغت مساحتها أميالاً مربعة عديدة.

وأكثر ما أدهشنا هو الطريقة التي بنيت بها الحيطان الحجرية التي يتألف منها السد، فهي حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض كما يحدث في لعبة القطع المخرّمة ، كل حجر منها منحوت بحيث يضم تماماً مع الحجر الآخر المجاور له، وليس هنالك أثر لأي مادة أو طين بناء بين هذه الحجارة، ورغم ذلك فقد ظلت أجزاء من هذه الحيطان وارتفاعها خمسون قدماً شامخةً كما كانت يوم شيدها أولئك المهندسون والبناؤون السبئيون المهرة قبل ثلاثة آلاف سنة.

هنالك أجزاء من السد مفقودة ، ولابد أنها قد ذهبت عندما انهار سد مأرب بسبب العاصفة العاتية التي هبت في أثناء الحكم الحبشي لمملكة سبأ في القرن السادس الميلادي، واقتلعت سد مأرب، وعن تلك الكارثة تقول دائرة المعارف

الإسلامية :-

« ليس هنالك حدث في الفترة السابقة للإسلام حظي بالاهتمام مثل انهيار سد مأرب، سد العرم. » وجاء في القرآن الكريم ذكر لأهل مأرب وحدائقهم الغناء وفاكهتهم الممتازة. (لقد كان لسبأ في مَسْكِنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشِمال كُلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العرمِ وبدَّلناهم بجنّتيهم جنَّتين ذواتى أكلٍ خمطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سِدرٍ قليل*)

وهنالك رواية عن انهيار السد تقول بأن ملك سبأ المسمى عمرو كان يعرف أن السد سينهار، فقد أخبره رجل حكيم بذلك وقال له إذا رأيت فأراً يحفر في حائط السد فتلك إشارة من الله عز وجل إلى أن السد سينهار، وذهب الملك للسد ليجد فأراً يحرك بأرجله الصغيرة تلك صخرة ضخمة لا يستطيع أن يحملها أقل من خمسين رجلاً. وفي اليوم التالي انهار السد.

إن المؤرخين العرب غالباً ما يرجعون سقوط ممالك الجنوب العربي لانهيار سد مأرب الذي تشتت بعده سكان تلك المناطق (أيدي سبأ) . ولكن من الواضح أن أمجاد ممالك الجنوب كانت قد تصرّمت منذ زمن طويل قبل انهيار السد، وأن تغيير مسار طريق البخور من البر إلى البحر هو الذي لعب الدور الحاسم في تقهقر حضارات وممالك الجنوب العربي وخرابها**. هنالك ما يشير إلى أن السد عانى

* سبأ : ٣٤ / ١٥ - ١٦ (القرآن الكريم).

** أنظر ما سبق وذكرناه حول تأثير تحول طريق البخور من البر إلى البحر على ممالك العربية الجنوبية في حاشية صفحة ٦٧ غير أنه لابد لنا أن نضيف هنا فيما يتعلق بأسباب إنهيار تلك الممالك إلى أنه قد تضافرت مجموعة من العوامل أدت في النهاية إلى إنحلال تدريجي لها حتى كان عام ٥٧٥ ميلادية فكان الانهيار الأخير لسد مَأْرب من جراء سيل العرم بمثابة الضربة التي قصمت ظهر البعير وبذلك أسدل الستار على تلك الممالك ولاتتسع المجال لذكر تلك العوامل=

بعض ثقوب وتسرب مياه عدة مرات ثم تم إصلاحها وترميمها ، وكان ذلك في القرون الأولى للعهد المسيحي. وربما توقفت حركة الترميم لما أخذ أهل تلك الديار في الهجرة عنها، ولذلك فإن أول سيل أو عاصفة أو زلزال يحل بالسد كفيل بتدميره.

وبعد أن تجولنا حول الخرائب جزءاً من اليوم، آوينا إلى المقر الذي هيأه لنا السيد أحمد في قلعة حجرية خارج سور المدينة ، وذلك حتى يتم تشييد مكاتبنا والمقر الجديد كما وعدنا سمو الإمام. وعندما دخلنا القلعة رأينا مدفعاً رشاشاً يتدلى من السقف ، طراز كولت ١٨٩٥م، وهو مزيّت ومنظف وجاهز للاستخدام. هذا الطراز لا تجده في باقي العالم إلا في المتاحف.

= بتوسع ولذا تقتصر على القول بان من بينها الحروب الطاحنة بين الممالك الكبرى الثلاث سبأ وحمير وحضر موت في القرن الثالث الميلادي وما نتج عنها من عدم استقرار سياسي وضعف اقتصادي وبالرغم من توحيد البلاد تحت قيادة حمير في بداية القرن الرابع الميلادي إلا ان ضعف السلطة المركزية وعدم اتباع ملوك حمير تطبيق سياسة حذره تجاه مناطق نفوذ القوتين العظميين آنذاك فارس والروم وتورطهم في حملات عسكرية في شرق ووسط وغرب الجزيرة العربية وفي حروب عديدة مع ملوك الحيرة ثم حادثة أصحاب الاخدود كل ذلك ادى إلى احتلال الاحباش لليمن نيابة عن الروم، ثم طرد الاحباش بواسطة الفرس هذا على الصعيد السياسي، وهناك عوامل اخرى لاتقل اهمية منها على سبيل المثال تغلغل العناصر البدوية وما نَتَجَ عنه في النهاية من خلخلة كبيرة في التركيبة السكانية وفي النظام القبلي القديم، بالإضافة إلى التغيرات الدينية من الوثنية واليهودية والمسيحية وهكذا ادت كل هذه العوامل وغيرها مجتمعة، إلى فقدان البلاد للبؤرة اللامة الجامعة فاصبحت لقمة سائغة للقوى الخارجية أما قصة الفأر الذي تسبب في تهدم سد مأرب والتي أوردها المؤلف، فاتصور اننا بعد النص القرآني الصريح بإرسال الله سيل العرم لسنا بحاجة إلى تشريفها بذكر. (المراجع)

إنضم لنا سيد الكحلاني في تمام الساعة التاسعة ومعه ابنه ذو الوجه المخرم ربما بسبب إصابة سابقة بالجدري، ولكنه صبي ظريف. وتحدث الكحلاني بعدوانية تجاهنا، ويبدو أنه جزء من التيار المعادي للأجانب وللنفوذ الأجنبي في اليمن. وتتألف هذه المجموعة أساساً من «السادة (الأشراف)» والذين يتطلعون للأمير حسن شقيق الإمام وحاكم الجزء الشرقي من اليمن لقيادتهم.

وأبدى الكحلاني شغفاً بالدكتور ديميقنارد، وبعد تردد فاتح الطبيب قائلاً بأنه متزوج من ثلاث زوجات وقد فترت قواه الجنسية في الآونة الأخيرة ويريد دواءً مقوياً لهذه الناحية؛ ولكن دكتور ديميقنارد شرح له أن العلم لم يتوصل لشيء من هذا القبيل حتى الآن، ولم يعثر العلماء بعد على شجرة الأكسير التي تساعد على ديمومة الشباب.

وفي صبيحة اليوم التالي أخذونا في جولة حول قلعة مأرب الرئيسة، وبعد أن مررنا من بابين كبيرين فتحا خصيصاً لنا رأينا العجب: هنالك ستمائة تمثال مرمري واقفة في صفوف منتظمة بغرفة شاسعة، واقترب منها دكتور جام على عجلة من أمره ليقرأ النقوشات الكثيرة التي توشحها. كانت تلك التماثيل مختلفة عن اي شيء رأيناه من قبل في هذا المجال من تمنع، وكل واحد منها عبارة عن «بلوك» مكعب بانتظام وبه ثقبان مربعان في وسطه، ومن كل ثقب أطل وجه مرمري لإنسان، بعضها له عيون عادية وبعضها عيونه مطلية بالسواد. لقد تم العثور على هذا الكنز من التماثيل، كما عرفنا، بمحض المصادفة، وذلك بواسطة أهل مأرب المعاصرين الذين كانوا ينبشون الرمل بعشوائية بحثاً عن الحجارة المكعبة والطابوق ليبنوا بها بيوتهم، وتلك لمحة تشير إلى ما ينتظرنا من اكتشافات ضخمة بإذن الله.

وعند العصر ذهبنا بالسيارات لمسافة ميلين لكي نزور « محرم بلقيس » ، كما زرنا الموقع الذي رأيناه قبل دخول المدينة وهو الأعمدة المربعة العالية البارزة من الرمال. هذه الأعمدة منحوتة من الصخور الكلسيه الجوراسية، وما يظهر منها فوق السطح يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً، ويبدو أن أضعاف هذا الطول تغوص في أعماق الرمل. لابد أن هذه الأطلال هي لمعبد إله القمر، وقد سمعنا أن أهل سبأ كانوا يعبدون هذا الإله في معبد رائع. وقد وجد دكتور جام على مقربة من هذا المكان نقشاً به اسم هذا المعبد وهو: (برأن، المعبد المخصص لعبادة الإله المقه و« المقه » هي القمر.

هذا وقد حدثنا أحد الجنود اليمنيين مشيراً إلى تل رملي على مسافة خارج سور مأرب قائلاً:-

« لقد حدثنا جدودنا الذين حدثهم جدودهم أن هذا التل الرملي يغطي مدينة جميلة مبنية من المرمر الأبيض ، وقد دفنت في ليلة واحدة عندما سلط عليها الله عز وجل ريحاً صرصراً عاتية لم يحدث مثلها من قبل. » وإذا كان ذلك صحيحاً فلا بد أن علماء الآثار ينتظرهم الكثير المثير في نواحي مأرب.

بعد ساعة من ذلك وقفنا أمام النقطة التي وقفنا عندها في أول يوم لنا بمأرب ، والتي كان دكتور جام قد وجد فيها نقوشات ، وصعدنا جبلاً شديد الانحدار بجوار الممر الذي تدخل به مأرب، وهنا وجدنا أطلالاً وراء أطلال، وعلى قمة التل المحاذي للممر وجدنا مقابر صغيرة مستديرة شبيهة بالمقابر التي رأيناها في سيناء قبل أربع سنوات.

ولما كنا في طريقنا نحو قمة الجبل وقع والاس ويد وأصيب في يده، وجلست معه بينما واصل شارلي ودكتور ديميقنارد مشوارهما ليفحصا عموداً حجريا رقيقاً بارزاً على مسافة نصف ميل. وبعد ربع ساعة سمعنا طلقتين ، وتلك إشارة تعني

أنهما قد عثرا على أثر جيد، فهرولت صوبهما. ولما وصلتهما أطلقت عيارين حتى يحاول والاس أن يلحق بنا مهما كانت إصابته، إذ إننا وجدنا شيئاً يستحق ذلك فعلاً. فبالقرب من رأس العمود الحجري الرقيق كانت هناك صورة جميلة منحوتة للشمس ومعها هلال القمر، وتحتها نقوش جميلة بالسبئية محفورة بإتقان شديد بواسطة إزميل ماهر. لقد ظل هذا العمود واقفاً هنا منذ الفين وخمسمائة سنة، ولم تطله الرمال، ليظل شاهداً على مثيلاته من الآيات العمرانية التي تقبع تحته بلا شك.

قضينا ليلتنا تلك نستعيد الأنس والأحلام والخطط المستقبلية الخاصة بموقع مأرب، ورغم تجاربنا السابقة وما رأيناه من قبل من آثار عظيمة فإن مدينة بلقيس شيء آخر يأخذ الألباب تماماً. والثروة المكتنزة من النقوش هنا ستفتح لنا آفاق معرفة شرهة بعادات وتقاليد وطقوس آل سبأ القديمة. لقد سمعنا وقرأنا عن تلك الحضارة، وعرفنا كذلك من حفرياتنا في تمنع أن قوم بلقيس كانوا متوسطي البنية وحمر الوجوه ولهم أنوف مغطوسة بعض الشيء، مثل أهل اليمن اليوم. ولقد كانوا حرفيين مهرة ومعماريين عباقرة، ولم تظهر براعتهم في سد مأرب فقط ولكنهم صنعوا الكثير، مثل الشبابيك المرمرية الشفافة في بناياتهم متعددة الطوابق. إن طريق البخور بلا شك هو المسؤول عن الازدهار الاقتصادي الذي شهدته سبأ، على النقيض من الفقر المدقع الذى يعيشه بدو الجنوب العربي في هذا العصر. ولقد عبد السبئيون القمر والشمس ونجم الصباح. مثلهم مثل الأجناس السامية كلها تقريباً*. الإله الرئيس هو القمر، وهو مذكر ويرمزون له بالثور، وقد وجدنا العديد من رؤوس الثيران المنحوتة والمجاري للتخلص من دماء

*حاول الباحثون الأوائل تفسير الديانة العربية الجنوبية بأنها بدائية وبدوية تعكس بيئة الصحراء لكن الدراسات الحديثة دلت على أنها ذات طبيعة معقدة ومتطورة تشابه كثيرا ديانات بلاد=

القرابين. كما عرفنا من الكتاب القدامى شيئاً من عاداتهم الاجتماعية ، ومنها مثلاً أن زوجة الرجل يمكن أن يجامعها كذلك أبوه وإخوانه وأعمامه وكل الرجال في أسرته**.

كل ما قرأناه وسمعناه عن سبأ جاء من دراسات نظرت إلى السطح فقط، لأن الغوص أبعد من ذلك لم يكن متاحاً من قبل. ونحن الآن نتمنى أن نتمكن من إلقاء المزيد من الضوء على هذه الحضارة ، وربما نجد ما يشفي غليلنا عن بلقيس

=العراق والشام وخصوصا مملكتي تدمر والأنباط فهي ديانة تعج بأنواع من الآلهة تتفاوت درجاتهم ومجالات نشاطهم فهناك الإله الوطني الأكبر وهو عثتر ثم هناك الإله الحامي للقبيلة أو التجمع القبلي مثل (المقه) لسبأ، و(عم) لقتبان و(سين)لحضر موت ولهذه الآلهة آلهات أصغر مشتقة منها تنسب إلى اسم معبد فهناك مثلا (المقه ذ - ريمن) و (سين ذ - ميفعن) ثم هناك الآلهة الحارسة للبيوت أو العائلات أو القرى (منضحن) وهي آلهة ذكور وتوصف بأنها (بعل) أي سيد للمعبد الفلاني .(المراجع)

أما مدلول معاني أسماء الآلهة فعثتر وبسبب لقبه (الشارق) يمكن القول أنه الزهرة ، أما (المقه) فلا يوجد ما يؤكد أنها ترمز للقمر بل يرى جاربيني أنها آلهة حرب شمسية ونحن نعلم يقينا بنص القرآن الكريم أن قوم سبأ كانوا يعبدون الشمس من دون الله أما (سين) إله حضر موت فقد ثبت أنه إله شمسي كما دلت على ذلك تنقيبات البعثة الأثرية الفرنسية في شبوه حيث أظهرت أن رمز الإله (سين) هو النسر، والنسر في الشرق العربي القديم يرمز إلى الشمس.

**لاصحة لهذه المعلومة التي استقاها المؤلف من الكتابات الكلاسيكية ذلك لأن المعلومات المتعلقة بالجوانب الاجتماعية والعادات والتقاليد التي اوردتها هذه الكتابات هي في مجملها حكايات أقرب إلى الخيال وأخبار أسطورية غامضة ومتناقضة زيفها القصاص والأخباريون، بل وحتى المعلومات الجغرافية، والسكانية التي وردت في هذه الكتابات يجد الباحث صعوبة كبيرة في تحديد ومطابقة مايقابل التسميات اليونانية من تسميات عربية أو شرقية ولهذا السبب تظل الاستفادة منها في هذه النواحي محدودة و يتطلب الإستناد إليها أخذ الكثير من الحيطة والحذر .(المراجع)

وزيارتها للنبي سليمان عليه السلام التي تناقلها الناس عبر القرون. ذلك مادار في أذهاننا في أثناء زيارتنا الاستطلاعية الأولى لمأرب، وكذلك اطلعنا على الظروف بما يمكننا من إجراء المحادثات الخاصة بالسكن وخلافه مع سمو الإمام ومستشاريه. وأول هذه الهموم هو الطريق لبيحان الذي يجب أن تسلكه سياراتنا «البوار واقن» لتنقل معداتنا من بيحان للموقع الجديد. وكذلك نحتاج لطريق ممهد آخر عبر الصحراء من مأرب إلى صنعاء لنقل المواد والمؤن، ولطريق آخر يوصلنا بميناء الحديدة على البحر الأحمر، ونحتاج لمطار بقرب مأرب. وأهم من ذلك كله نحتاج لمكاتب ومساكن ومخازن وذلك ما وعد الإمام بإعداده لنا. ورغم كل هذه الهموم كنا واثقين من أنه ليس هنالك أمر مستحيلٌ، لذلك آويت لفراشي في تلك الليلة مطمئناً واستسلمت لنوم عميق.

وفي الرابعة من فجر اليوم التالي أيقظنا جمعة من النوم حتى نبدأ الرحلة لبيحان في وقت مبكر. وقد صحبنا بعض الركاب مثل السيّد أحمد الذي أراد أن يزورنا في بيحان ويبقى معنا لبضعة أيام، كما أراد الكحلاني أن يرافقنا حتى مدينته حريب، وهي في طريقنا لبيحان. وفكرنا في إبقاء دكتور جام ليقوم بنسخ النقوش بطريقة ورق «اللاتكس» اللاصق، ولكن السيد أحمد حذرنا من ذلك إذ إن جماعة الكحلاني موجودون بالمنطقة وبذلك فهي غير آمنة بالنسبة لنا، ومن غير المستحسن ترك الدكتور بمفرده في هذا المكان.

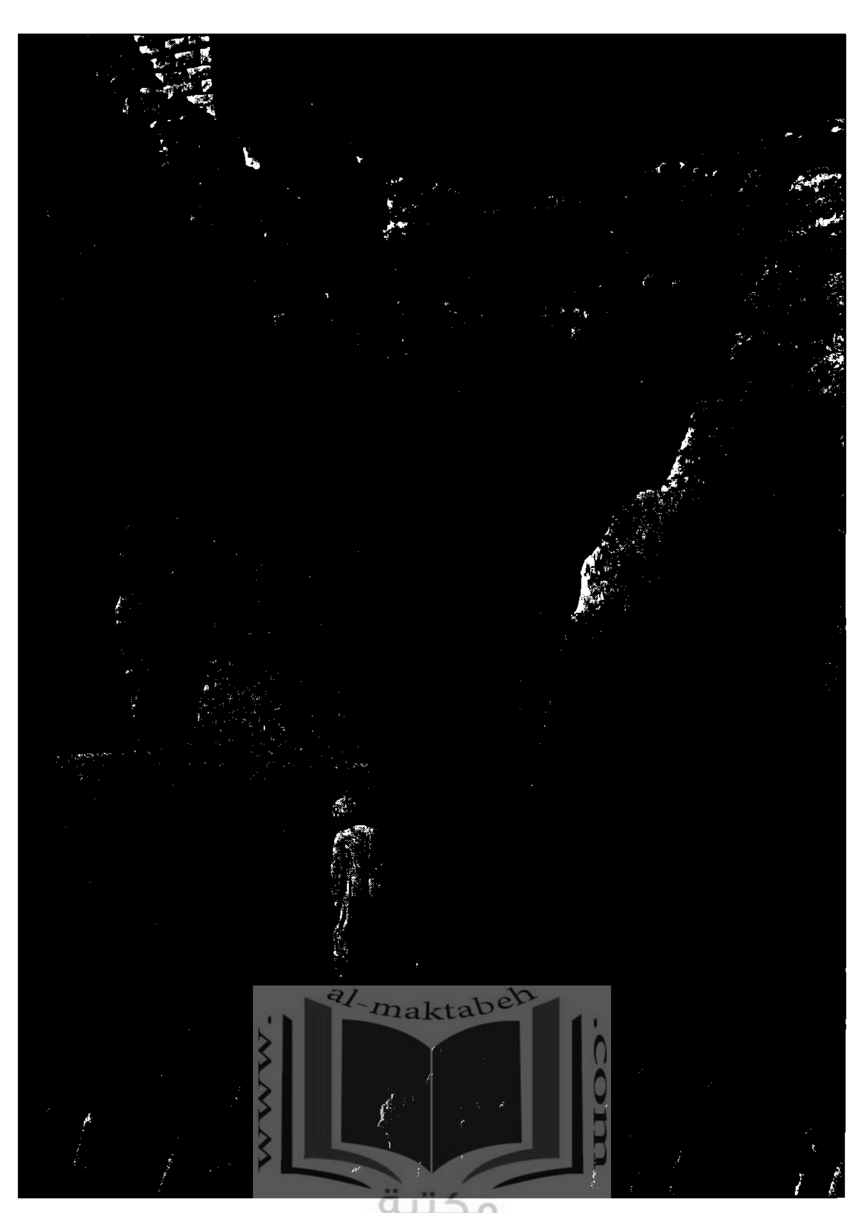
وعندما بدأنا ركوب الشاحنات جاءني صبي من بيحان والدموع تنهمر من عينيه طالباً أخذه معنا إلى تمنع، ولقد تذكرت الغلام الذي أرسله الشريف عوض ليطمئن علينا، وجاء راجلاً، وبالطبع وافقنا على ركوبه السيارة.

أما رحلة العودة فقد كانت أسهل لأننا سرنا هذه المرة بمحاذاة الجبال ولم نفارقها محاولين أن نتجنب الكثبان الرملية قدرَ الإمكان، وفي الحقيقة فقد صرنا أكثر



التنقيب جار على قدم وساق في معبد عشتار (فينوس) أكبر المباني داخل مدينة تمنع القديمة

هذا المدرج الحجري الواسع يشكل المدخل الرئيسي للمعبد الذي يعود تاريخه إلى القرن الأول ق.م



مقطع عرضي لطبقات تل هجر ابن حميد التي حددت التسلسل الزمني للفخار الذي يعود أقدامُهُ لعام ١٠٠٠ق.م وهو ما يمثل الإطار المرجعي لكل دراسات الآثار في العربية الجنوبية مستقبلا .

دراية بالطريق من تمنع إلى مارب . ولما وصلنا حريب أصر الكحلاني على أن نتناول طعام الغداء معه، ولعله أراد أن يتقرب للسيد أحمد بذلك. وهناك عرفت أنَّه بامكاننا زيارة خرائب « حنو الزرير »، وهي المنطقة التي حاولت أن أدخل إليها في رحلة سابقة ولكن جنودها منعونا، وما كنت أحسب أنني سأتغدى مع حاكمها بهذه السرعة.

وفي طريقنا عبر وادي حريب استوقفنا تل عال جداً وما بدا من آثاره كان مشابهاً للعمران القتباني، وقد عرفنا هذه المدينة من نقوشات تمنع التي تحدثت عن مليكها « وروأيل غيلان » الذي ضرب عملات ذهبية زهاء عام ٥٠ ق.م . وحسب معلوماتي فنحن أول مستكشفين على الإطلاق يقومون بمعاينة وتصوير هذه الأطلال اللافتة للنظر.

أهدرنا ثلاث ساعات على مائدة الكحلاني في حريب، وقد أصر على ذلك رغم إلحاحي على مواصلة السفر، ولكنا في النهاية أفلتنا منه وواصلنا مسيرتنا. وهنا كان من رأي شارلس أننا يمكن أن نوفر الزمن ونختصر الطريق إذا سرنا بمحاذاة الشط الشرقي لوادي حريب حتى نصل إلى الطريق السوي فوق الجبال الذي يربط الوادي مع « رملة السبعتين » . هذا الممر المسمى « نجد مرقد » كان حَلقة وصل هامة بالنسبة لطريق البخور القديم وكان شبيها بممر « مبلقة »، ومازالت بهذا الممر آثار الطريق المعبد بحجارة البلاط الخاصة ومازالت الحيطان واقفة على جانبي الطريق. وعندما كنت هنا قبل عامين في أول زيارة لبيحان كانت هنالك معركة اشترك فيها ثلاثمئة من رجال القبائل للسيطرة على هذا الممر الحيوي ومحطة الجمارك بقمة الجبل هنا.

وبينما كنا نصعد إلى قمة الجبل قفز شارلي من الشاحنة وسبقنا ببضع خطوات ليستكشف الطريق، وفعلاً تأكد من سلامة الطريق، وواصلنا السير. وفجأة حانت



استراحة في الطريق إلى تعز باليمن من اليسار إلى اليمين (المؤلف – شارلس ماكولم – إيلين سلامة – دكتور ديميقنارد يمنيون – كارمبان) .



صاحب الجلالة الإمام أحمد حميد الدين إمام اليمن، بمناسبة أول لقاء مع البعثة لبحث التنقيب في مأرب عاصمة سبأ القديمة

مني التفاتة لاكتشف أننا على حافة هاوية سحيقة وكادت السيارة أن تسقط من ذلك العلو الشاهق. عند ذاك قفزت من السيارة ومعي السيد أحمد والآخرون، وفي آخر لحظة ضغط جام على المكبح ووقفت السيارة على طرف القمة؛ وهنا قام فارير بربطها بسيارته وجرها نحو السلامة.

بعد ذلك رجعنا القهقرى وكان لا مفر من ترك الجبال والتوغل في الصحراء بكثبانها الرملية، وهكذا سلكنا الطريق الأطول وأخيراً وصلنا مشارف تمنع. وهناك رأينا تلاً مليئاً بالآثار لم يكن ظاهراً لنا من قبل ، مع أنه قريب من مقر إقامتنا. ولكنا في تلك اللحظة كنا في غاية الإرهاق، ولم نلتفت لتلك الآثار ، فقط لوحنا بالتحية لها على أن نلتقي مرة أخرى، وهكذا وصلنا نهاية رحلة تاريخية لا يمكن نسيانها.

الفصل الخامس والعشرون

وداعـــاً بيحـــــــان

خرجت إيلين لاستقبالنا، ولما تتوقف المركبات بعد، وتنفست الصعداء بعد أن عددت الركاب واطمانت إلى أننا عدنا سالمين. وبعد أن شربنا الكوكاكولا المثلجة وارتحنا قليلاً، أخبرتنا إيلين بأن الأمير صالح زارها في مساء اليوم الذي غادرنا فيه، ولما سالته عن الخبر قال بأن جاسوسهم في مأرب أرسل قائلاً بأن المجموعة كلها قد اعتقلت ووضعت في سجن تحت الأرض. هزت تلك الأخبار إيلين ، وتوجهت إلى بيحان القصب لتتشاور مع الشريف حسين الذي اهتم بالأمر غاية الاهتمام. وصف الشريف لايلين سجون اليمن وأهوالها، وأخبرها بأنه قد أرسل النبأ للصحافة عن طريق عدن. ثم أشار حسين لشيخ من البيضاء كان يقف بجواره وقال لها إنه سيعتقل ذلك الشيخ كرهينة حتى يطلقوا سراح أصدقائه الأمريكان، وكانت الفكرة غاية في الغرابة بالنسبة لإيلين.

وبينما جلس رفاقنا بالبعثة يستمعون لقصتنا في مأرب ، جلس الرسام (جرار بلاموديان) يعد الخرائط لمكتبنا ومقرنا بمأرب الذي سيعرض على إمام اليمن للموافقة. أما الشريف حسين والسيد أحمد فقد غادرانا إلى بيحان القصب.

وما كدنا نصل حتى أخرج دكتور جام قطع الفخار التي جاء بها من مأرب وصار يتفرس فيها ويدرسها. لقد تجمعت لديه في هذا الموسم أكثر من ألف شريحة نقوش من المملكة القتبانية، وبذلك يصبح مجموع ما حصل عليه من الموسمين خمسة آلاف شريحة؛ أما الآن فقد توجه الانتباه نحو مدينة بلقيس ملكة سبأ.

أعددت تقريراً لسمو الإمام يتضمّن آرائي واقتراحاتي بعد زيارة مأرب الاستطلاعية ، وفي صبيحة اليوم التالي أقلتنا طائرة من طائرات القوات الجوية الملكية البريطانية ومعي السيد أحمد الذي أراد أن يعود لصنعاء. وطرت من عدن إلى القاهرة لمقابلة أمي وشقيقتي مارلين اللتين كانتا في سياحة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط وأرادتا أن يضيفا بيحان لخط سفرهما. وكانت مفاجأة سارة أن جلس بجواري في الطائرة المهندس والمستكشف «كارل توتشل»، إذ إن هذا الرجل يعرف عن السعودية أكثر من أي أمريكي آخر ، وقد لعب دوراً أساسياً في استقطاب شركات النفط الأمريكية الكبرى لتنقب وتعمل في السعودية، فاستزدت منه وتعلمت الكثير.

وفي القاهرة عقدت مؤتمراً صحافياً أعلنت فيه توقيع الاتفاقية الخاصة بحفريات مأرب، وكانت تلك فرصة طيبة للتعبير عن شكرنا لصاحب الجلالة إمام اليمن على مرأى ومسمع من كل العالم.

عدت بعد ذلك لبيحان بصحبة أمي وأختي هذه المرة، ووجدت العمل يسير على ما يرام من الناحية الآثارية، وموسمنا الثاني قد شارف على الانتهاء. ولكن صادف أفراد البعثة بعض المشكلات في أثناء غيابي. فقد شكا الشريف عوض لإيلين من سلوك جمعة الصومالي الذي اتهم بأنه يحتفظ بفتاة عربية في غرفته، وطالب بطرد جمعة فوراً. ولكن التحقيق أثبت أن جمعة بريء من ذلك وأن بعض الأهالي أشاعوا حوله هذه القصة والمقصودة هي الفتاة التي أراد أحد البدو أن يدمر سمعتها، والسبب في ذلك أنه طلب خطبتها فرفضت ورفضت أمها كذلك . فأرسلت إيلين في طلب الشريف حسين الذي جاء إلى المعسكر وطمأنهم ورفع من روح جمعة المعنوية ووقف إلى جانبه وانتهى الموضوع.

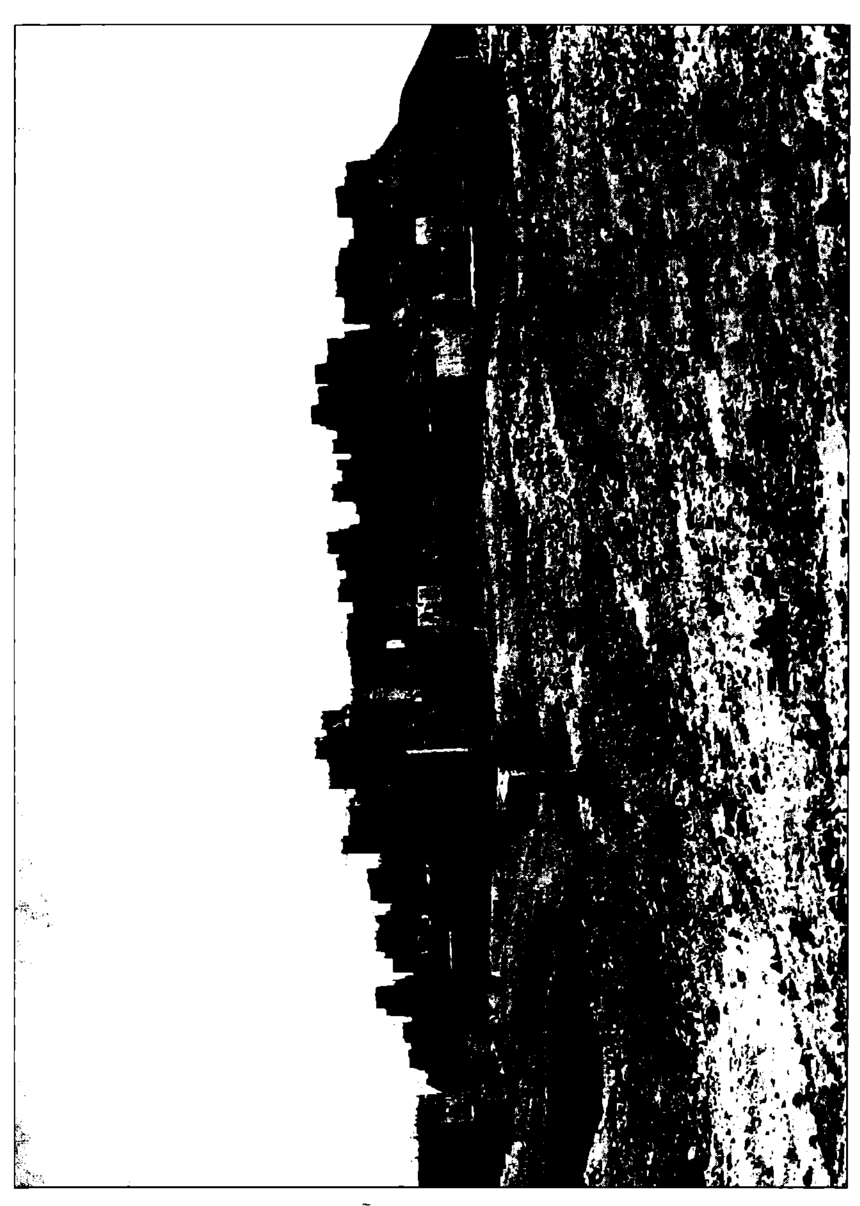
وكان الشريف حسين لطيفاً لدرجة بعيدة مع أمي وأختي، وكان يزورنا كل يوم ليتلقى دروساً في الإنجليزية من شقيقتي ماريلين التي أطلق عليها لقب «بروفيسورة».

ولما وصلنا لنهاية الموسم وبدأنا في حزم أمتعتنا، دعونا الشريف حسين والشريف عوض والشيخ علي وعدداً محدوداً من أعيان المدينة لحفل بسيط بمعسكرنا. وكما يحدث دائماً في هذا الجزء من العالم فقد هبط علينا أربعون ضيفاً ومجموعة من العبيد لا نعرفهم ولم نرهم من قبل البتة.

على كل حال، انتهزت فرصة الحفل لأهدي للشريف حسين إحدى سياراتنا (البوار واقن) ومعها كمية محترمة من إطارات (قودبير) الخاصة بالقيادة في الرمال، فكاد يطير من الفرح وكان لسانه يلهج بالثناء. وبعد العشاء عرضنا على الحضور فيلماً سينمائياً يغطي موسمنا الأول الذي كان ناجحاً بكل المقاييس؛ وقد كانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة للكثيرين من الحضور التي يشاهدون فيها السينما.

وما إن غادرنا الضيوف حتى هطلت علينا الأمطار مدراراً مصحوبة ببرد شديد، وأول ما فكرنا فيه الصناديق الموجودة في العراء التي تحتوى على نماذج ما جمعناه من آثار، والتي أعددناها للشحن إلى عدن. وتمكنا من تغطية تلك الصناديق وحمايتها من المطر.

في صبيحة اليوم التالي توجهت إلى عدن ومنها إلى تعز وكان معي إيلين وجورج وجمعة، وكنت أنوي أن أناقش الإمام حول ما جاء في تقريري المكتوب. وفي تعز شكرني القاضي محمد العَمْري على مؤتمر القاهرة الصحفي الذي أضاف الكثير لسمعة اليمن، ولكنه قال إن الإمام تلقى خطابات عديدة من واشنطن



تقع مدينة مأرب اليمنية على تل عال مليء بالآثار، ويظهر جزء منها في الواجهة



أول مرة تقوم البعثة بزيارة محرم بلقيس. وهو معبد (أوام) شيد لعبادة إله القمر (ألمقه)

وغيرها تحذره من انشطتي. وهنا تذكرت خطاب «فلبي»، وتعجبت كثيراً لهذه الجهة الخفية التي تريد أن تعيق وتعقر «المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان»، وخشيت أن يعرقلوا عملنا في اليمن، ويبدو أن القلق ظهر على وجهي، لأن القاضي العَمْري تبسم في وجهي وأومأ بيده كأنه يرمي شيئاً غير هام بعيداً، وقال:-

«كيف يتسنى لحجر صغير قذفوا به جبلاً أنْ يؤثر على ذلك الجبل. قد تتطاير حفنة من الرمل، ولكن الجبل سيظل شامخاً».

قامت إيلين بالترجمة، وبعد جهد من جانبها وبعض تفكير من جانبي أدركت أن القاضي أثنى علي وأطراني كثيراً. على الرغم من ذلك فإنني لم أطمئن لتلك الجهة التي قد تحاول أن تدق إسفيناً بيني وبين الملك. فقد لا يؤثر حجر واحد، ولكن ماذا لو تكاثرت الحجارة والرماة والمحاولات؟!

وعندما التقيت سمو الإمام في صبيحة اليوم التالي كان ظريفاً ومتجاوباً مع ما سردت عليه من بدائع مأرب بالتفصيل وما طرحته من اقتراحات حول كيفية تنفيذ الاتفاقية التي أبرمت بيننا. لقد وافق جلالة الإمام على اقتراحاتنا، وتوصلنا لتفاهم مشترك حول المسائل المالية؛ فكما هو الحال في بيحان سندفع رواتب العمال في مأرب بريال ماريا تريزا، وكان من رأيي أن نقايض الحكومة اليمنية عملة صعبة بعملة محلية، فندفع قيمة الرواتب بالدولار الأمريكي للبعثة الدبلوماسية اليمنية في واشنطن وتسلمنا الحكومة اليمنية المقابل بالعملة المحلية، وتمت الموافقة على ذلك فوراً.

وفي نهاية المقابلة ودعني جلالة الإمام مبتسماً وقال:- «الحمد لله».

وعندما علمت بعد ذلك بدقائق أن سمو الإمام قد استبدل بالكحلاني حاكماً

آخر من أسرته اسمه « السيد عبد الرحمن » قلت كذلك :- « الحمد لله » .

اقمنا حفلاً خاصاً في المساء، ولكن انقطع التيار الكهربائي ونحن في الحفل فأضاء جمعة شمعة، وعند ذاك علق القاضي العَمْري وعيناه معلقتان على إيلين :-

« حتى لو حل بنا الظلام الدامس فإننا سننعم بضوء القمر . »

وفي تمام الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي توجهنا بالشاحنة نحو ميناء الحديدة يصحبنا حاكم مارب الجديد، وسرنا لمدة خمس ساعات عبر الجبال الشاهقة ، الأودية السحيقة التي غطتها أشجار النخيل، في جو منعش وأقرب للبرودة، وكان جمعة من آن لآخر يشير إلى المزارع التي تغطي جنبات الجبال قائلاً : « قات ! » .

وقد تركنا الجبال خلفنا عندما انتصف النهار، وسرنا لمدة ثماني ساعات رتيبة فوق سهل « تهامة » الساحلي، في جو حار ومشبع بالأتربة والغبار . وأخيراً وصلنا الحديدة في الساعة الثامنة مساءً ، ولم أشهد في حياتي مثل رطوبة وسخونة الحديدة، حتى في جزيرة زنجبار . وفي الصباح رأينا طرفاً من الحديدة ولكنها لم تغرنا ولم نشعر برغبة في استكشافها والطواف حولها . وهي خليط من أبنية متباينة الشكل والحجم ، منها بيوت الحجر المزركشة وأكواخ القش الرثة، وجزء منها محاط بسور . وقد ذكرني سوقها بدمشق بأزقته الضيقة والطويلة والمسقوفة .

وفي الساعة الرابعة عصراً استقبلنا سمو ولي العهد الأمير سيف الإسلام محمد أحمد البدر نائب الإمام لمنطقة تهامة . إنه ابن الإمام الأكبر وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وقد رحب بنا هاشاً باشاً، وذكرنا بالأيام التي قضاها معنا في تعز في أثناء مفاوضات العقد، وكيف أنه جلس معنا حتى الرابعة صباحاً ليوقع الاتفاقية الخاصة بأعمال الحفر في مارب . وفجأة سمعنا صوت الموسيقى التي عزفتها الفرقة الإمامية

الواقفة أمام قصر الأمير، والتي بدأت بالسلام الجمهوري الفرنسي إكراماً لإيلين ثم بعد ذلك عزفت سلام الراية الأمريكية المرصعة بالنجوم؛ وظلت إيلين تتباهى دائماً بأن الفرقة عزفت السلام الفرنسي قبل الأمريكي.

ثم أخذ جورج ينظمنا في صف لالتقاط الصور، وهنا حاولت إيلين أن تتحاشى الوقوف بجانب الأمير احتراماً للتقاليد العربية، فذهبت بعيداً عنه، ولكن الأمير أصر على أن تقف بجانبه، وفعلاً ظهرت إيلين في إحدى اللقطات وهي واقفة بجوار الأمير.

وفي وقت لاحق أخذنا لزيارة مطاحن البن التابعة للشيخ صالح الجبلي شقيق وكيل الإمام في عدن، حيث شاهدنا العاملات يعبئن أكياس القهوة المشهورة باسم (المخا)، وهن يعملن لاثنتي عشرة ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع، بأجر لا يزيد على عشرين سنتاً في اليوم.

وأخيراً، عندما غادرنا الحديدة في الساعة الرابعة والنصف مساء كنا سعيدين بذلك، وفي النية بلوغ صنعاء في اليوم نفسه رغم ما قاله لنا بعض الناس بأن ذلك مستحيل. وقبيل ذلك طلب منا حاكم مأرب أن نأخذ معنا راكباً واحداً فوافقنا، ولكن، مثلما حدث لنا كثيراً، جاءنا خمسة ركاب وأضافوا بثقلهم على ما كانت تنوء به شاحنتنا من عبء كبير، وبدأنا الرحلة بالسير لعدة أميال بمحاذاة البحر الأحمر متجهين شمالاً فوق الشاطئ الرملي. ولكن بعد أن اتجهنا يميناً باتجاه المرتفعات اليمنية أخذ الجو يتحسن كالعادة. إنقشعت سحب الرطوبة وأصبح النسيم عليلاً، وصرنا كمن بعثت فيه الحياة مجدداً وصعدنا الجبال ونحن نغنّي ونضحك ونستمتع بمنظر الجداول الصافية والخضرة الوافرة والقلاع الباهرة المتناثرة فوق قمم الجبال.

زهاء الساعة الخامسة والنصف مساءً وصلنا قمة الهضبة الأولى في طريقنا بعد «وادي المسنا»*، وارتفاعها ثمانية آلاف قدم، وعلى جانبيها ارتفعت الجبال التي يبلغ متوسط ارتفاعها أحد عشر الف قدم. ومررنا بعدة مدن مسورة فوق الهضبة قبل أن نصعد رويداً رويداً نحو صنعاء. وآخر خمسين ميلاً قبل صنعاء كانت مرهقة لدرجة بعيدة، فقد توقفنا بعد كل خمسين ياردة لكي نعالج الموقف المتأزم على الطريق بسبب الجدول المائي الذي يخترقه بالعرض والذي يحفره المزارعون لنقل الماء من مزرعة إلى أخرى.

وقبيل وصولنا إلى صنعاء أشار جمعة لنصب تذكاري حجري بجانب الطريق أقيم في المكان الذي اغتيل فيه الإمام يحيى حميد الدين عام ١٩٤٨م. وفي الساعة التاسعة والنصف مساء وصلنا بوابة صنعاء الرئيسة منهكين تماماً ولكنا كنا فرحين بقهر إحدى المستحيلات اليمنية، «وهو السفر من الحديدة لصنعاء في يوم واحد».

في صباح أول يوم لنا في صنعاء أُبلغنا بان سمو الأمير سيف الإسلام الحسن نائب الإمام لمنطقة صنعاء سيجتمع بنا في الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وقد توجسنا خيفة لأن هذا الأمير مشهور بعدائه لكل ما هو أجنبي، ولكنه على كل حال قوة يعتد بها في اليمن. وعندما ذهبنا لقصره في الموعد المحدد انبرى لنا حارس وقال بان هنالك خطأ في الأمر، والموعد الحقيقي هو الساعة العاشرة

* هكذا في الأصل Almasna ولعل صوابه وادي المُوسنه بضم فسكون والذي أورده أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب الجزء الأول صفحة ٢٣٧) في معرض وصفه لطريق صنعاء الحُدَيْدَة وحديثه عن مناخه وجبل حراز وكذا حفاش وملحان. كما ذكره أيضا أحمد وصفي زكريا في كتابه (رحلتي إلى اليمن) في صفحة ٩٩ ولعله كان ناقلا لما ذكره الريحاني أما إذا كان الريحاني مخطئا في نقله لذلك الاسم فلعل الصواب هو متنة مركز ناحية البستان والله أعلم. (المراجع)

والنصف من صبيحة اليوم التالي. وقد عرفنا لاحقاً أن الأشخاص الذين تسببوا في هذا الخطأ ربطوا بالأغلال في الحال ووضعوا في الحبس.

اجتمعنا بالأمير الحسن في اليوم التالي، وكان معه أخوه الأمير إسماعيل وزير الصحة، واستمعا باهتمام لقصة حفرياتنا بمأرب. ورغم أنهما كانا مهذبين وودودين للغاية إلا أنهما لم يتحمسا لما حدثناهما عنه. وتساءل الأمير حسن إذا كان من الضروري تشييد مساكن جديدة لنا. ألا نستطيع أن نعيش في الخرائب التي سنقوم بدراستها؟

كانت إيلين تقوم بمهمة الترجمة يساعدها طبيب أسنان سوري اسمه دكتور ممدوح تحسين فاخر، وقد سألني هذا الدكتور في نهاية الاجتماع إن كنت أرغب في مقابلة صهره المشهور القاضي راغب بك، وهو رجل معروف ، كان يعمل في السلك الدبلوماسي التركي ، وخدم بلاده كسفير في سانت بطرسبيرج بروسيا في بداية القرن، ونقل لليمن عام ١٩١٤م، ولكنه بقي في صنعاء بعد طرد الأتراك ، وأنضم لبلاط الإمام يحيى وتقلد العديد من المناصب ، فأصبح والياً لتعز ثم الحديدة، ثم وزيراً للخارجية . فوافقت وتمنيت أن أقابل هذا الرجل.

ذهبنا للقاضي راغب فوجدناه رجلاً مهيباً طويل القامة ومتحضراً من الطراز الكلاسيكي، ولما صافحنا انحنى ليقبل يد إيلين. وبينما كنا نحتسي الشاي كان يحكي لنا بلغة فرنسية راقية عن أول سيارة دخلت اليمن. عندما جاء لليمن أول مرة أهدى سيارة للإمام يحيى. وبما أن صنعاء لم يكن فيها شوارع تسع السيارة آنئذ فقد قبعت بالمخزن لثلاث سنوات. وحدث ذات يوم جمعة أن القاضي راغب كان يقود سيارته في أحد الشوارع عندما شاهد الإمام يحيى يمشي راجلاً نحو المسجد، فتوقف وطلب من سمو الإمام أن يركب معه، ففعل، ولكن أحد الشيوخ

صاح قائلاً للإمام:

« يا صاحب الجلالة، هل تركب تلك البدعة النصرانية؟ » فما كان من الإمام إلا أن قفز من السيارة وهي تجري، وفضل أن يواصل مشواره على ظهر جواد. وبعد فترة وجيزة ذهب ذلك الشيخ للحج، وفي طريق عودته من الأراضي المقدسة مرّ بالحديدة حيث مرض وأرسل للإمام يطلب أي وسيلة مناسبة تحمله إلى صنعاء. فأحال الإمام هذا الموضوع للقاضي راغب الذي وجدها فرصة مناسبة لترويج هذا الاختراع « الجديد » فأرسل السيارة للحديدة، ولما جاءت بالشيخ توجه بالشكر للقاضي راغب وعيناه تدمعان. هنا قال القاضي إنه لا يريد الشكر بالكلمات ولكن بالأفعال. فاضطرب الشيخ وامتقع لونه إذ حسب أن ذلك يعني مبلغاً هائلاً من المال، غير أن القاضي طلب منه فقط أن يذهب للإمام ويقول له إن هذه البدعة النصرانية أنقذت حياته، وإنها تستحق الاقتناء والاستفادة منها، لا الخوف والازورار عنها. ففعل الشيخ، وهكذا دخلت السيارة اليمن.

في اليوم التالي تلقينا دعوة من السيد أحمد الكبسي الذي انقذنا من سجن مارب وسافر معنا لبيحان. وذهبنا لمنزل السيد أحمد لنجده واحداً من أروع الفيلات في اليمن كلها، وقدم لنا المشروبات المنعشة بيديه وتلك إشارة مستخدمة في كل العالم العربي لمن أراد أن يكرم ضيوفه غاية الإكرام. ولقد كان في استقبالنا أيضاً شاب مهذب عمره تسع عشرة سنة هو الأمير يحيى بن الأمير الحسين الذي كان قد أصيب بطلقة عندما تعرض الإمام يحيى للاغتيال، وأمير آخر بالاسم نفسه، ابن الأمير مطهر.

جلسنا مع هؤلاء السادة نحدثهم عن الحياة في كاليفورنيا، بينما ذهبت إيلين لجناح النسوة بالقصر حيث قدموها لحرم السيد أحمد وهي شقيقة إمام اليمن،

وفي وقت لاحق وصفت إيلين تلك الأميرة بأنها حلوة وراقية جداً وصوتها عذب، وكانت ترتدي حلية لا يصدقها العقل، معظمها مصنوعه من الماس الطبيعي كالأساور والأقراط والعقود والخواتم وغيرها من الحلي وحتى دبابيس شعرها مرصعة بالماس الأصلي.

بعد هذا التجوال في بعض نواحي اليمن عدنا لبيحان استعداداً للسفر بعد آخر أيام بقيت من الموسم الثاني، وهناك وجدت أن أمي وشقيقتي قد اكتسبتا سمرة بسبب الشمس لا تقل عن سمرة أهل بيحان أنفسهم، كما وجدتهما يتطلعان لرحلة العودة ليس بالطائرة إلى عدن كما خططنا من قبل ولكن بالسيارة ، كجزء من موكب «بوب كارميان» القادم إلى المكلا. وفعلا تحركتا إلى المكلا مع بوب ووالي ويد، وَقَضَّيَتا بعض الوقت هناك، واستمتعت أمي بصيد السمك من شواطئ المكلا مستخدمة الرمح.

وقد دعانا الشريف حسين ببيحان القصب لحفل وداع قبل سفرنا بيوم، وعندما وصلنا قصره كان المطر يهطل مدراراً ، ولكنه أخيراً توقف وتنفس مضيفنا الصعداء. وقد رصت الكراسي بشكل دائري حول طاولة مغطاة بلوح زجاجي، وفي المؤخرة كان يقف جماعة من رجال القبائل، معظمهم من قبيلة بلحارث.

ثم جاء دور الخطب ، فاخرج الشريف حسين أوراقاً بدأ يقرأ منها مخاطباً مجموعة تمنع باللغة العربية، معدداً محاسن المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان وبعثاتها في الدول العربية. وبينما دار شريط آلة التصوير السينمائي وأمسك جورج فارير باللاقطة حتى يتم التسجيل الصوتي، كان الشريف حسين يشير نحوي قائلاً :-

«إنني أشكرك على معاملتك لكل العرب وعلى ما قدمته من أيادٍ بيضاء لكل

الناس في وادي بيحان. لهذا السبب ولأنك خدمت بلادنا فإني أود أن أطلق عليك اسماً عربياً؛ ستكون « شيخاً » بدل « مستر » وسيكون اسمك « حسين علي » بدل « وندل فيليبس » . ولأنك عشت مع بلحارث وعملت في مناطقهم فإننا سنسميك « الحارثي - رئيس أعمال الحفريات » . سيسعدني كثيراً ويشرفني إذا قبلت هذا الاسم مني، ودعنا الآن نقم بالمراسم اللازمة . . » وهنا تقدم الشريف نحوي ولف رأسي بشريط أبيض وعليه قلادة من ذهب كما لف جسمي بعباءة مذهبة ، بينما أخذ رجال القبائل الواقفون يطلقون الرصاص في الهواء.

أول المهنئين كان الشيخ علي الذي ناولني لفافة ورق كتب عليها :-

« الشيخ علي بن منصر الحارثي، شيخ شيوخ بلحارث يرسل التحية لإبنه الجديد الشيخ حسين علي الحارثي، الذي كان يسمى وندل فيليبس الأمريكي . »

لقد تأثرت بهذا الموقف لدرجة بعيدة ، فهذه بلا شك لحظة يندر مثلها ، وقد منحوني ليس فقط لقب « شيخ » بل سمّوني بأسماء قائديهما : الشريف حسين والشيخ علي .

بعد ذلك أبعدت الكراسي وفرشت الأرض بالأبسطة والسجاجيد الفاخرة لنجلس عليها، وبينما اتكأ الشريف حسين وأعرابه على جنباتهم، غنى لهم « إليس بيركو » أغاني رعاة البقر بالجيتار . ثم جاء دور الدكتور ديميقراند الذي كان نجم الحفل، فقد درس حركات الحواة في أكاديمية علم الحواة ببراغ وقام ببعض تلك الحركات، في تلك الليلة وسط دهشة الجميع وتصفيقهم الحاد .

في تمام الساعة السادسة من صبيحة اليوم التالي تجمعنا في المطار بانتظار الطائرة، ولكننا انتظرنا لثلاث ساعات كاملة إذ إن التوقيت كان حسب قرينيتش، رغم ذلك فإن هذه المضايقة لم تقلل من شعورنا بالسعادة النابعة من الإنجازات

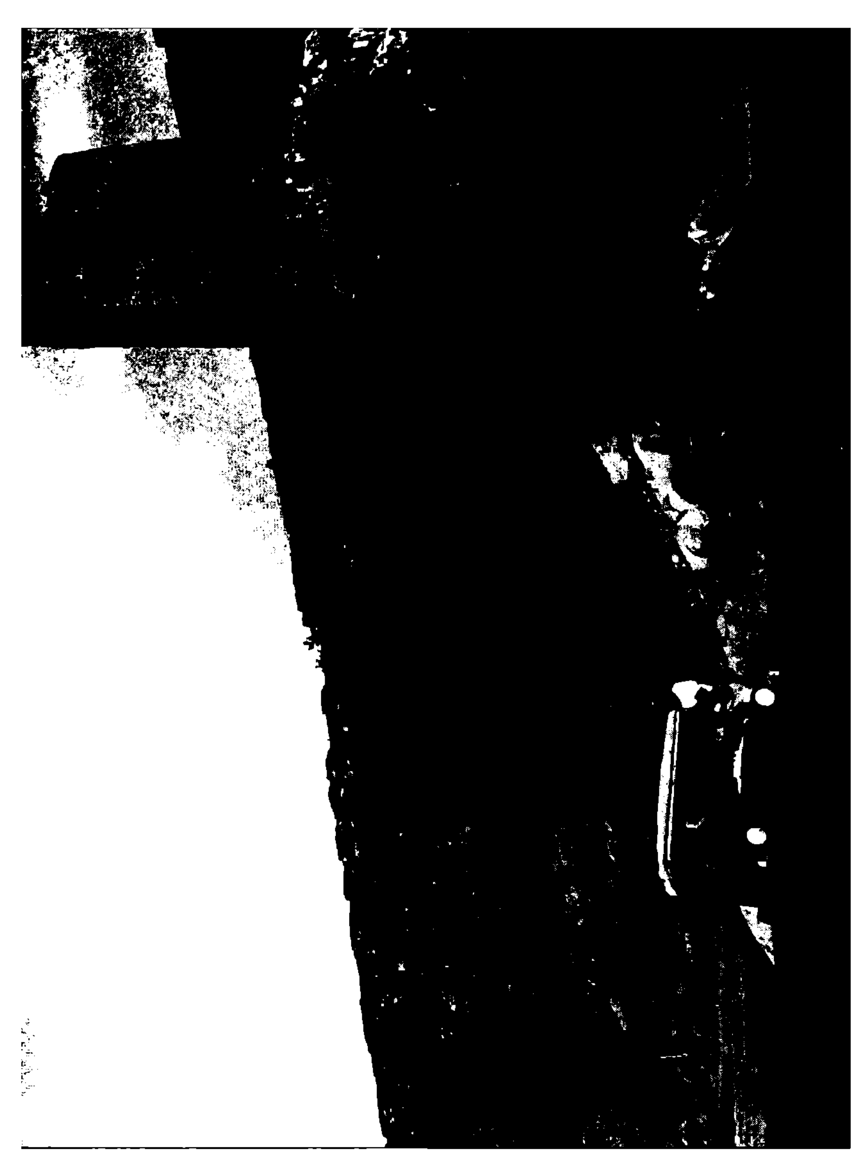
التي تمت؛ ولما ركبنا الطائرة ألقينا نظرة أخيرة من الشبابيك على الخرائب التي نبشناها في تمنع، وعلى قصرنا الطيني، وعلى الشريف حسين والشريف عوض والشيخ علي وهم يلوحون ويبتسمون.



آثار مأرب



أول بعثة أمريكية تزور سد مأرب



جزء من سد مأرب العظيم أحد عجائب الدنيا.

بدأ تشييده قبل ٢٧ قرنا عندما كانت مملكة سبأ في أوج عظمتها

الفصل السادس والعشرون

كشف النقاب عن قتبان

غادرنا بيحان ونحن نحمل في جعبتنا من المعلومات عن قتبان ما لم يكن متوفراً لدينا عندما جئناها أول مرة؛ فقد كنا نلم ببعض أسماء الملوك وشذرات من المعلومات البسيطة، أما اليوم فلدينا من المعلومات ما تفيض به المجلدات التي ستصدر عما قريب عن مطبعة جامعة جون هوبكنز، بالإضافة إلى العديد من التقارير العلمية التي كتبها كل واحد من أعضاء البعثة.

لقد تأكدنا بأن المدن القتبانية كانت عامرة بالحياة منذ الألف الثانية قبل الميلاد، وربما منذ بداية الألف الثانية ق.م، أي منذ القرون التي عاش فيها آباء الأجناس السامية من سيدنا ابراهيم إلى سيدنا يوسف (٢٠٠٠-١٥٠٠ق.م). وقد استطعنا أن نحدد بداية العهد القتباني بواسطة نقوش المخربشات التي عثر عليها الدكتور جام والتي رجعت بنا للقرنين العاشر والحادي عشر ق.م، وهي أقدم نقوش وجدت حتى الآن بالجزيرة العربية. وبعد ذلك جاء عهد المكربيين، أو الحكام الكهنة الذين حكموا قتبان لعدة قرون. من الصعوبة تحديد هوية أولئك الحكام الكهنة بشكل قاطع، ولكنهم بالتأكيد أقل درجة من الملوك رغم أنهم الحكام الشرعيون لامتهم، هذا وقد توصلنا لأسماء قليل من المكربيين الذين حكموا بين القرنين السابع والخامس ق.م.

على سبيل المثال، هنالك المكرب يدع أب ذبيان الذي حكم في نهاية القرن الخامس ق.م، وهو على الأرجح الشخص الذي بنى بوابة تمنع الجنوبية التي

حفرناها ودرسناها طويلاً، فهو على كل حال صاحب أقدم نقش وجد بتلك البوابة، ذلك النقش الذي اكتشفه باحثانا « فليزر وكيني براون » . وهنالك قطعة فخار منقوشة اكتشفت بعد ذلك وعليها اسم « يدع أب ذبيان » مربوطاً بتمنع؛ وهذه النقوش تسمّي أهل قتبان (أبناء الإله عم)، كما ظهر اسم « بيحان » على هذه النقوش . وربما كان « يدع أب ذبيان » أول ملك، أو واحداً من أوائل ملوك قتبان، وقد تأكد أن عهده شهد عمرانا مكثفاً ، كما نجح في عقد حلف كنفدرالي بين مختلف القبائل.

المجموعة الثانية لملوك قتبان تمتد تقريباً من الفترة الفارسية المتأخرة إلى أوائل الفترة اليونانية (الهيلينستية)، من ٣٥٠ إلى ٢٥٠ ق.م ، وأول ملوك هذه المجموعة هو (أب شبم)، ولكن أسرته تعرف باسم ابنه (شهر غيلان) الذي كتب العديد من النقوش بما فيها عدة نصوص وجدناها بالبوابة الجنوبية. وينتمي لهذه الأسرة أحد ملوك قتبان المشهورين وهو (شهر يجل) الذي كتب في إحدى نقوشه أنه غزا « معين » في الشمال ، وقد عاش في نهاية القرن الرابع ق.م حسب رأي البروفيسور ألبرايت. وقد كان آخر ملوك هذه الأسرة هو (شهر هلال يهنعم) شقيق شهر يجل، وهو الذي شيّد المسلة الحجرية في وسط مدينة تمنع.

وقد جاء بعد ذلك عدة ملوك لم تُحدد الأسر التي كانوا ينتمون إليها حتى

---

(١) يقول نقش فحصه د. جام في مأرب أن نبط ملك قتبان عاصر أحد ملوك سبأ، وهذا الأخير عاش في آخر القرن الأول الميلادي حسب رأي البرايت. هذا الملك هو نفس الملك نبط بن شهر هلال الذي ذكر مع ابنه مرثد ملك قتبان في نقش وجد بهجر بن حميد عام ١٩٥١م. هؤلاء الملوك القتبانيون حكموا في حريب والمنطقة المحيطة بها التي تقع في الجزء الغربي من قتبان بعد أن غزا الحضارمة الجزء الشرقي من قتبان ودمروا تمنع خلال الخمس والعشرين سنة السابقة لميلاد السيد المسيح.

الآن، آخرهم (يدع اب غيلان) الذي بُني في عهده منزل يفش، حيث وجدنا الأسدين البرونزيين، في أواخر القرن الثاني ق.م.

عاشت المجموعة الثالثة الرئيسة من الملوك القتبانيين في الفترة من ١٠٠ إلى ٢٥ ق.م، وأول ملك فيها كان (هوفعم يهنعم) الذي قام ابنه (شهر يجل يهرجب) بإعادة بناء برج البوابة الجنوبية ومنزل يافاش؛ أما ابنه (وارا ويل غيلان يهنعم) فهو معروف بأقدم عملة ذهبية عرفتها قتبان، ضربت في حريب، واخوه (فرع كرب يهو ضع) كان آخر ملك في هذه المجموعة. وقد عاش عدة ملوك آخرين وحكموا في القرن الأول ق.م، وقام أحدهم يدعى (شهر هلال يهقبض) ابن (ذرأكرب) ببناء منزل يفعم داخل مدخل البوابة الجنوبية.

وقد كانت أهم فترة في تاريخ قتبان ما بين عام ٣٥٠ وعام ٥٠ ق.م، في أواخر العهد الفارسي وبداية العهد اليوناني (الهيلينستي)، ومن هذه الفترة جاءت معظم النقوشات المطولة والنصب التذكارية ؛ ويبدو أن قتبان كانت آنئذ أهم دولة في الجنوب العربي وكانت معين، وربما سبأ كذلك، خاضعة لها*.

وقبيل ظهور المسيح عليه السلام بوقت قصير تعرضت عاصمة الدولة القتبانية لغزو من جهة غير معروفة صَاحَبَهُ دمار وحريق وخراب. ثم ظهرت بعد ذلك مملكة جديدة وهي مملكة « سبأ وذي ريدان » والتي حلت محل قتبان وسبأ ومعين. تعني

---

* كان يظن ذلك وهو في الواقع غير صحيح وذلك لأن بعض الباحثين أساءوا فهم سبب وجود جالية لمملكة ما في عاصمة أو مدينة مملكة أخرى بحكم النشاط التجاري المتبادل فظنوا ذلك سيطرة لمملكة على أخرى. فقد كان على سبيل المثال للقتبانيين مبنى في مدينة يثل (حاليا براقش) في مملكة معين (النقش R.2999) ففسّروا ذلك بسيطرة قتبان على معين ومن هذا القبيل أيضا بضع نقوش سبئية عثر عليها في شبوه عاصمة حضر موت وفسرت بأنها دلالة على فترة احتلال سبئي لحضر موت .(المراجع)

ذوريدان (صاحب ريدان) ، وربما تعني كذلك (إله جبل ريدان)، والجبل المذكور هو الجبل الذي تعلوه قمة مخروطية تستوقف الأنظار في الطرف الجنوبي من وادي بيحان*.

لمدة قرنين ونصف ازدهرت المملكة المزدوجة (سبأ وذي ريدان) في اليمن، وكانت مأرب هي عاصمتها، وتنتمي الطبقة (ب) حسب تصنيفاتنا لهذه الفترة بهجر بن حميد .

وقد استوعبت مملكة حضرموت جزءاً من قتبان بعد سقوط تمنع، وخلال القرن الأول الميلادي كانت حضرموت وسبأ أهم دولتين في الجنوب العربي . ويبدو أنه لا خلال العصر الروماني (القرن الأول - القرن الرابع ميلادية) إختفت مملكة قتبان كدولة مستقلة .

---

* بالرغم من أن هذا الطرح الذي يفترض انبثاق حمير من رحم قتبان يبدو مغريا ولاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن إله حمير هو نفسه إله قتبان (عم) الا أنه و بالنظر إلى أن أقدم النقوش الحميرية مكتوبة باللهجة السبئية وليست القتبانية بالأضافة إلى أن هناك دلائل يؤكدها تاريخ حمير اللاحق تشير إلى أن حمير إنبثقت من مملكة رعين التي كانت حليفة لسبأ في حربها مع قتبان كما يفهم من النقشين (R.3858) و (Ja 550) فإنه يبدو من الثابت أن ريدان هو اسم الجبل الذي يطل على مدينة ظفار حمير وكانت تقع على بعد نحو ١٢٠ كم إلى الجنوب في صنعاء، ونحو ١٧ كم جنوب مدينة يريم الحالية) وباسم ريدان سمي القصر الملكي لحمير وأما ذوريدان فهو اسم السلالة من الأقيال الحمير ين الذين ترأسوا تجمعا قبليا ضم عدة قبائل مثل (مهأ نفم) وقشمم) و (مهقر أم) وألهان ثم ردمان - خولان ثم مضحي (مضحيم) فكان ذوريدان تجمعا تنضوي تحت رايته قبائل اخرى متحالفة مع القبيلة الرئيسة وهي حمير. ولعل فيما ورد في كتاب الإنساب عن (حمير الكبرى) و (حمير الصغرى) ما يؤكد هذا التصور الذي تشير إليه النقوش أما بالنسبة لما ذكرناه عن رعين ففي ما أورده الهمداني عنها مايؤيد ما ذهبنا إليه .(المراجع)

تقول إحدى النقوش الرائعة التي عثر عليها دكتور جام :-

(يدع اب غيلان، ابن غيلان، ملك حضرموت، الذي بنى مدينته ذوغيلان .)

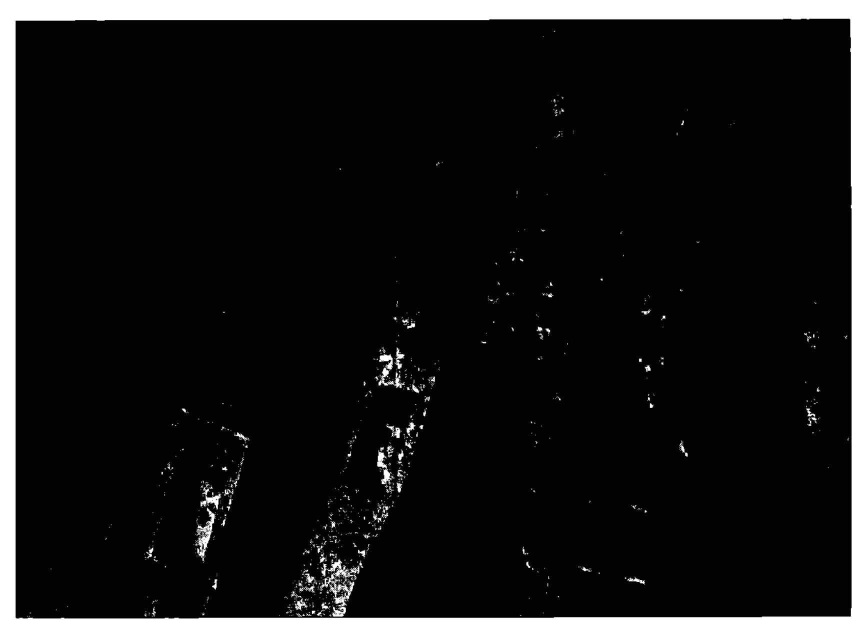
وبما أنه من المستحيل أن يكون هذا الحجر المنقوش قد أُحضر إلى وادي بيحان من حضرموت فإننا نرجح وجود مدينة اسمها « دوغيلان » على بعد عشرة أميال إلى الشمال من مدينة بيحان القصاب الحالية . ولقد وجدنا ثلاثاً من الحجارة منقوشة في وادي بيحان تتكلم عن ملوك حضرموت بعد سقوط تمنع ، إحداهما كانت معروفة قبلنا، اما الأخريان فقد اكتشفناهما نحن(١) .

البحار اليوناني الذي كتب (الطواف« periplus) ووصف الرحلة التي قام بها حول الجزيرة العربية حتى وصل الهند في عام ٥٠م ذكر ملكين في جنوب الجزيرة . أحدهم إليازوس « ملك بلاد التوابل »، وتبدو أوصافه مطابقة للملك « العز يلط » ، أحد ملوك الحضارم المعروفين الذين حكموا خلال القرن الأول الميلادي ، وتقول النقوش إنه حكم بيحان كذلك .

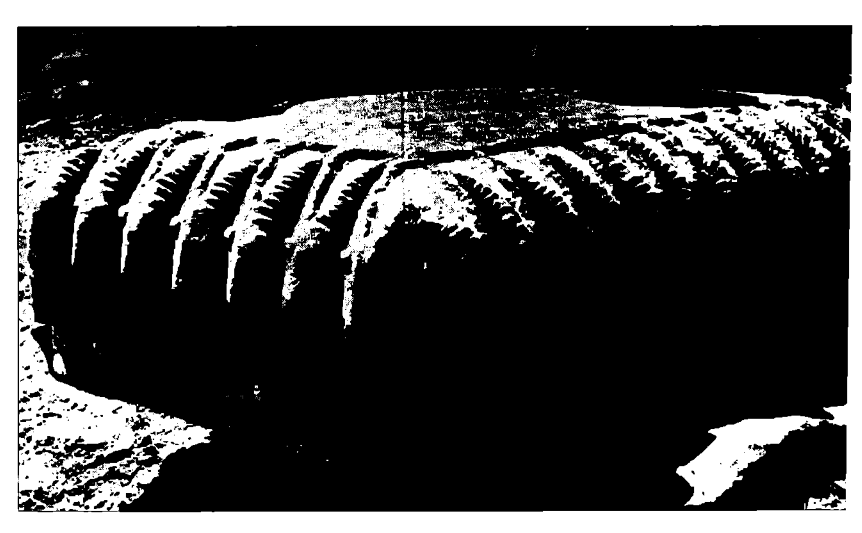
نحن نعرف الآن أن الممالك الثلاث (سبأ ومعين وقتبان) كانت موجودة في نفس الوقت الذي تحدث عنه البحار اليوناني، ولكنها لم تزدهر كلها في نفس الوقت، اما قتبان فقد جاءت عظمتها بعد الأخريات كما عرفنا من آثارها . ومعين التي ازدهرت قبل قتبان مازالت آثارها مطمورة في « الجوف » باليمن ومنطقة نجران بالسعودية، أي خارج نطاق نشاطاتنا الاستكشافيه الحالية . أما سبأ فقد ازدهرت بين القرنين العاشر والخامس قبل الميلاد ، أي قبل كل من معين وقتبان ، وأقرب إلى زمن المِلكَة المذكورة في الكتب السماوية، أي بلقيس . ذلك هو هدفنا القادم: كشف النقاب عن سبأ كما كشفناه عن قتبان .

الترتيب الزمني للحوادث التاريخية
الذي صنّفه ألبرايت لممالك جنوب الجزيرة العربية

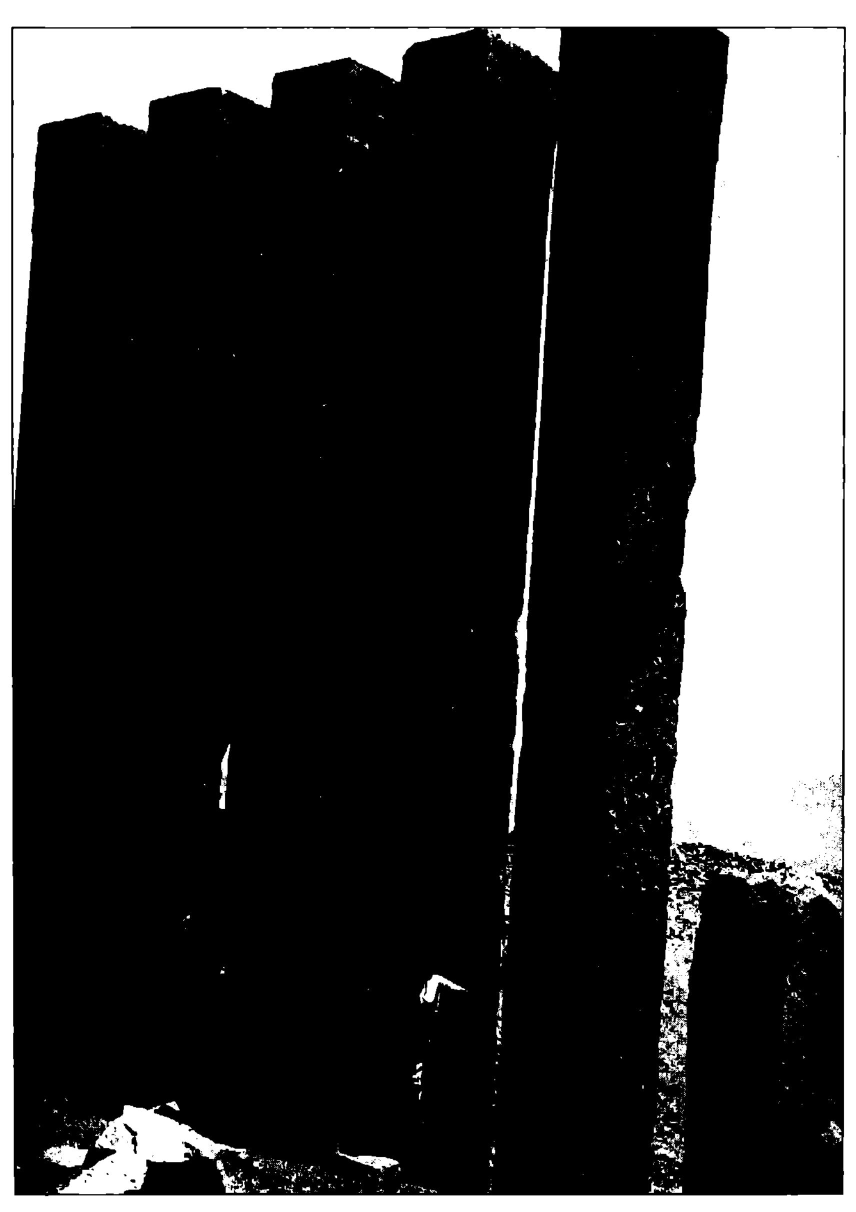
الحدث	التاريخ
– هجرة قبائل (س) (القتبانيون، المعنيون، الحضارم) من الشمال إلى مواقعهم التاريخية	قبل ١٥٠٠ ق.م
– رحلة قبائل (هـ) (السبئيين) من الشمال	قبل ١٢٠٠ ق.م
– بداية انتشار قوافل الجمال في الجزيرة العربية	قبل ١٠٠٠ ق.م
– تاريخ ملكة سبأ المذكور في الإنجيل	قرابة ٩٥٠ ق.م
–تاريخ محتمل لأول نقوش قتبانية	القرن العاشر ق.م
– تاريخ أقدم «مكرب» معروف من سبأ	قرابة ٨٠٠ ق.م
– يثامر وتر ملك سبأ يرسل الجزية لسارجون ملك الآشوريين	قرابة ٧١٥ ق.م
– كرب ايل بين ملك سبأ يرسل التحية إلى سنكريب ملك الآشوريين	قرابة ٦٩٠ ق.م
– كرب إيل وتر يؤسس ملكه في سبأ	قرابة ٤٥٠ ق.م
– صدق إيل ملك حضرموت يؤسس مملكة معين	قرابة ٤٠٠ ق.م
– يدع أب ذبيان يؤسّس ملكه في قتبان	القرن الرابع ق.م
– شهر هلال يهنعم يشيد مسلة في تمنع	القرن الثالث ق.م
– ييدع أب غيلان يبني منزل يافاش في تمنع	نهاية القرن الثاني ق.م
– شهر يجل يهرجب وبلوغ قتبان ذروة مجدها	بداية القرن الأول ق.م
– واراويل غيلان يضرب عملة ذهبية في قتبان	قرابة ٥٠ ق.م



تماثيل من المرمر مخزنة في قلعة مأرب



رؤوس الوعول منحوتة، ربما كانت تاجا لعمود ضخم



بالقرب من هذه الأعمدة التي يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدم تم العثور على نقش مكسور يعطي اسم هذا المعبد وهو (برأن) والمكّرس لعبادة (ألمقه) إله القمر..

شهر هلال يهقبض يبني منزل يفعم في تمنع	بعد ٥٠ ق.م
أوليوس جاليوس يهاجم الجنوب العربي	٢٤ ق.م
دمار تمنع وانهيار قتبان	بداية العصر المسيحي
وصف بلاد العرب الجنوبية في كتاب «الطوافperiplus»	قرابة ٥٠ م
وصف بلاد العرب الجنوبية بواسطة بطليموس	قرابة ١٥٠ م
توحيد بلاد العرب الجنوبية تحت حاكم واحد	قرابة ٣٠٠ م
الغزو الحبشي لبلاد العرب الجنوبية	قرابة ٥٢٥م
الغزو الفارسي لبلاد العرب الجنوبية	قرابة ٥٧٥ م
آخر نقوش حميرية	نهاية القرن السادس م
اعتناق بلاد العرب الجنوبية للإسلام	بعد ٦٣٠م



الفصل السابع والعشرون
مشكلات في مأرب

سافرت جواً إلى الولايات المتحدة بصحبة إيلين، عسى أن ندبر الموارد المالية والمعدات والمزيد من الخبراء والعاملين. وقد عاد كثير من أعضاء البعثة إلى مواقعهم القديمة بالجامعات وغيرها من المواقع لأنهم تعاقدوا معنا لحملة بيحان فقط، بينما بقي البعض معنا، مثل «بوب كارميان» الذي أصبح مديراً للموقع بمأرب وسافر إلى هناك في السابع من يونيو ١٩٥١م ، وبعد فترة وجيزة لحق به «شستر ستيفنز» المصوّر والذي يقوم كذلك بالعديد من المهام المتنوعة حسب الظروف.

وذهب شارلي ماكولم ليساعد بوب كارميان في نقل الأجهزة والمعدات من بيحان إلى مأرب ، وأصبح فيما بعد ممثلاً متنقلاً للبعثة في عدن والحديدة وتعز وغيرها، وذلك لتسهيل دخول المعدات والمؤن من الخارج ثم ترحيلها إلى مأرب ، وتلك مهمة عسيرة في اليمن إذ إنها تكاد تكون دولة مغلقة تماماً في وجه أي شيء أجنبي، وعندما يدخل فإن تحريكه من مكان إلى آخر يكاد يكون مستحيلاً. وما لم تكتمل استعداداتنا بالموقع، من حيث البنية التحتية والمؤن والمعدات، فإنني لا أستطيع أن أرسل باقي البعثة لتشرع في أعمال الحفر ، وذلك لن نستطيع أن نفعله قبل نهاية أغسطس وبداية سبتمبر. لذلك قررتُ أن أبقى في الولايات المتحدة طوال شهور الصيف وحاولت أن أبذل أقصى جهد ممكن حتى أنجز ما يواجهنا من مهام هناك خلال تلك الفترة.

وكما عرفنا لاحقا فإن الأمور لم تسر في اليمن كما توقعنا، فعندما وصل بوب كارميان إلى مأرب وجد أن المنازل المتفق عليها لم تُشيّد بعد، ولكنه قرر أن يركّز

على موضوع آخر غير المنازل والمخازن ، وهو الطريق بين بيحان ومأرب . لا بد من حل مشكلة الكثبان الرملية القاسية على سياراتنا إذا أردنا أن ننقل معداتنا وأجهزتنا من بيحان لمأرب ، ولابد من شق طريق سهل بالنسبة للسيارات .

كانت الحكومة اليمنية قد التزمت بفتح الطريق بين وادي بيحان ومأرب ، ولكنها ماطلت كثيراً ولم تفِ بوعدها، فقرر بوب ان يُمَهِّد هذا الطريق بنفسه؛ أخذ معه مجموعة من العمال وأجهزة ومؤن وماء وضرب في البيداء متوجهاً نحو مأرب، وفي خلال أربعة عشر يوماً أعد بوب أجمل طريق صحراوي للسيارات بين بيحان ومأرب. وفي نفس اليوم قام أول موكب مؤلف من أربع سيارات محملة بالمؤن والمعدات من تمنع متوجهاً صوب مأرب، وطوال شهر يوليو كانت تلك الشاحنات تراوح بين الموقعين لترحيل الموتورات ومولّدات الكهرباء والأجهزة والأطعمة والوحدات العلاجية وأجهزة التصوير والتحميض والثلاجات وغيرها إلى مأرب، وقد هطلت بعض الأمطار قبل أوانها مما ساعد على تثبيت الرمال وتلطيف الجو وتنظيفه من الغبار.

مع بداية أغسطس كان الترحيل قد انتهى، ولكن مازال السكن لم يجهز وليست هنالك مخازن مناسبة لوضع أغراضنا فيها، وقد اضطر العاملون المقيمون في مأرب، مثل بوب وستيفنز وعثمان ، شقيق جمعة الصومالي، أن يعيشوا مع الجنود اليمنيين في ثكناتهم التي كانت مكتظة ونتنة ومقززة ، وقد انتقلت لبعض منهم حمى تسببها الذبابة الرملية، مما اضطرهم للخروج من تلك الثكنات ونصب خيام في العراء ليقيموا فيها. وأخيراً سلمت الحكومة بيتاً للبعثة لاستخدامه ، وكان ضيقاً ومتهتكاً ومأهولاً بالعديد من الجنود، ولكن بوب عدّله وأضاف إليه مطبخاً وورشة ونظفه ونقل إليه العاملين بالبعثة .

حاولنا أن نلتزم بنصوص الاتفاقية حتى لو لم تلتزم الحكومة اليمنية بذلك، فبدأ بوب أعمال المسح والحفر قبل أن تكتمل البنية المؤسسية، وفي اليوم الأول من اغسطس أخبر بوب حاكم مأرب الجديد، السيد عبد الرحمن ، أنه سيبدأ في جرف الرمال من الجانب الخارجي لسور معبد بلقيس (المعروف محليا باسم «محرم بلقيس») . واستعان بوب باثنين من الصعايدة اللذين جلبناهما من مصر في الموسم الفائت لخبرتهما في حفريات الآثار، وهما «الريس جيلاني» و «الشاطر احمد» ، وكانت مهمتهما توجيه العمال الآخرين وقيادتهم لإنجاز الحفريات المطلوبة. عند ذاك سأل الحاكم سؤالاً غريباً بعض الشيء :-

«هل لديكم إذناً بالحفر؟»

صعق بوب بهذا السؤال، ولكنه تماسك وحاول أن يرد على الحاكم قائلاً إن العقد المبرم مع جلالة الإمام كان يهدف لذلك، وليس هنالك سبب آخر لوجوده بمارب سوى الحفر. ولكن الحاكم قال بإنه لن يسمح بالحفر إلا بإذن محدد من جلالة الإمام. هذه القصة أصبحت روتينية بالنسبة لنا، فالوثائق والتصاريح لا تعني شيئا حتى لو وقعها الإمام نفسه، والموظف المحدد في الموقع المعين لا يسمح إلا بإذن جديد موجه له شخصياً .

وبعد ذلك انتظر بوب لمدة ثلاثة أسابيع ليأتي الإذن ببدء العمل في المعبد ، وتشاغل في هذه الأثناء بترميم وتنظيف السيارات والمنزل ومسح واستكشاف المنطقة المحيطة بهم، وظل ينتظر وينتظر . وأخيراً وصل التصريح من تعز، ولكن الأمطار كانت قد اشتدت وجاء سيل جارف عبر الوادي وغمر الآثار القديمة لسد مارب، وارتفعت المياه لثمانية أقدام خلال شهر أغسطس، وكانت سياراتنا ومعدّاتنا على جانب من ذلك السيل ومعبد بلقيس على الجانب الآخر، وقد أرسل

بوب سلسلة من البرقيات لجلالة الإمام دون أن يتلقى أي ردّ عليها.

بيد أن السيل لم يثن بوب عن عزمه ، فتمكن من جر السيارات والأمتعة من جانب إلى جانب عبر مجرى السيل ومع نهاية أغسطس وقبل أن يهدأ السيل ويهبط مستوى الماء ،كان الحفر قد بدأ في محرم بلقيس. ولكن مشكلة أخرى سرعان ما برزت في هذا المنعطف، إذ ظهر « القاضي زيد عنان » ومساعده « نجيب محسن » كمبعوثين للأمير الحسن نائب الملك لصنعاء والحاكم الفعلي لشمال وشرق اليمن. هل هم الممثلون الرسميون للملك المنصوص عنهم في الاتفاقية أم هل الممثل هو السيد عبد الرحمن صهر الإمام الذي عُين واليا على مأرب؟ بعد توقيع الاتفاقية مباشرة؟ هذه أسئلة لا أحد يعرف الإجابة عنها، والقاضي زيد أو السيد عبد الرحمن لا يعرفان عنها كذلك . وفي الحقيقة فإن هذين المسؤولين المتنفّذين لم يتفقا على أي شيء وتداخلت سلطاتهما وعارض كل منهما تعليمات الآخر، فدخل بوب في حرج مستمر وهو يحاول أن يرضي كليهما وأن يتحلى بأقصى درجات الصبر.

كان السيد عبد الرحمن ودوداً ومتعاوناً مع بوب، رغم أنه كان بيرقراطياً لحد بعيد ولا يتصرف إلا بتعليمات مباشرة من الإمام في الصغيرة والكبيرة، ويبدو أنه على كل حال مدرك لمهمتنا بشكل عام.

بدأ بوب عمله بحذر شديد، وأول شيء قام به هو أن طلب من القاضي زيد أن يمده ببعض العمال، إذ إن العقد ينص على ذلك، وطلب تحديداً ثمانية رجال وعشرين صبياً كبداية. وفي اليوم التالي جاء زيد بسبعة عمال فقط وقال إنه لم يجد في المدينة أكثر من هذا العدد، مع إن المدينة تغص بالعمال الذين كانوا ينتظرون بداية المشروع بفارغ الصبر، فأرسل بوب شخصاً آخر، وهو عثمان

اسماعيل الصومالي، ليجلب العمال من المدينة، وقد جاء بهم بكل سهولة، حتى بلغ عددهم في نهاية الأمر مائة وعشرين رجلاً وصبيًّا، ومعهم ستون ثوراً.

وحسب الشروط فإن بوب ملزم بقبول الشخص الذي يرشحه الإمام ليكون عريفا (فورمان) على العمال، وقد ارسلوا له عريفا اسمه عبد الرحمن غادي*، وأول ما فعله هذا الرجل هو تغيير المواقع كل اسبوع بالنسبة للعمال، فخلق ربكة وعدم استقرار وأعاق عملية التدريب، وكلف المشروع بذلك مالاً ووقتاً مهدراً بلا طائل، فما يكاد المصريان الريس جيلاني والشاطر احمد يفرغان من تدريب المجموعة على العمل حتى ينقلها العريف لموقع آخر، فيبدأ التدريب من الصفر مع مجموعة أخرى. وقد أسر أحد العمال لبوب في وقت لاحق بان العريف يقوم بكل تلك التصرفات الضارة لأن المؤسسة الأمريكية لا تدفع له شيئا، إنه يتلقى راتباً هزيلاً من الحكومة باعتباره ممثلها في الموقع كفورمان على العمال.

وعندما لم يوافق بوب على هذه الفكرة التي اعتبرها رشوة ، لم يتورع عبد الرحمن من إيجاد وسيلة أخرى لزيادة دخله، وهي ابتزاز العمال وخصم مبلغ معيّن من راتب كل عامل يدخل في جيبه الخاص. واذا اعترض أيٌّ منهم فإن الفورمان يبلغ عنه وتعتقله الشرطه ويحبس ويغرم كل ما في جيبه ويرسل لمكان العمل وهو يرسف في الأغلال ليعمل كسجين بالمجان، ويتسلم الفورمان راتبه كاملاً وما كان بوب في موقف يسمح له بالتدخل إذ إن العقد ينص على أن المفاوضات والاتفاق مع العمال هي مسؤولية الحكومة، عن طريق ممثلها، اي عبد الرحمن غادي.

---

* هكذا أورده المؤلف Ghadi ولم اقف على ما يؤكد صحته أو ينفيها، ولعله تصحيف للغادر وهو اي الغادر اسم معروف في هذه المنطقة، هذا والله أعلم.(المراجع)

رغم هذه الصعاب فقد أنجز بوب الكثير في المرحلة التاسيسية للمشروع، فأزال أطناناً من الرمال من حول الحيطان الأثرية ، مع تصوير كل مراحل العمليات، واستخراج كميات هائلة من النقوش والتحف والأثريات، ومن ثم تخزينها بصورة جيدة بالرغم من عدم وجود المخازن المتفق عليها.

أما زيد عنان فقد بذل قصارى جهده في عرقلة العمل؛ شكى ذات يوم لبوب من قلة المياه بالنسبة للعمال في الموقع، وحقق بوب في الموضوع فوجد الماء متوافراً جداً ولكن زيد قال بأنهم يحتاجون لكميات إضافية من أجل الوضوء للصلاة خمس مرات في اليوم. وكذلك شجع زيد العمال على المكوث لأكثر من ساعتين في أثناء استراحة الغداء وذلك بدعوى أنهم يحتاجون لأن يصلوا الظهر ، ليس ذلك فقط إنما طلب من بوب أن يتم ترحيل العمال كل يوم لصلاة الظهر بمسجد المدينة، وقد وافق بوب على كل هذه المطالب خشية الفتنة الدينية، ولكن الحاكم وضع حداً لهذه الممارسات وأصدر أمراً بأن يصلي كل عامل في موقع عمله، فسكت زيد عن المطالبة الخاصة بصلاة الظهر، وتوقف العمال عن صلاة الظهر في موقع العمل.

وبدأ العمل في المبنى الذي ستستخدمه البعثة كمقر وهو منزل الحاكم القديم، وفي أواخر سبتمبر ذهب بوب للمكلاّ في مهمة رسمية وأناب شستر ستيفنز ليكون المسؤول عن الموقع. وأراد زيد أن يفتعل معركة مع شستر وذلك بأن احتل إحدى غرف المنزل الجديد وأصر ألا يغادرها باعتباره ممثلاً للإمام، وصبر شستر على ذلك.

وبعد ثلاثة أسابيع من بداية العمل بالمعبد مرض كثير من العاملين بالموقع لدرجة أن العمل توقف، ولكن بعد فترة وجيزة استؤنفت الحفريات بسلام. أما

العمل في صيانة المقر فكان يسير ببطء السلحفاة، والعمل في المطار والطريق الموصلة إلى صنعاء لم يبدأ حتى الآن. ومازال زيد ومعه جند آخرون يشاركوننا السكن في المقر الجديد.

الأسوأ من كل ذلك أن اتصالي ببوب قد انقطع، فهو لم يتسلم مني غير خطاب واحد في أول نوفمبر رغم أنني وإيلين كتبنا له كثيراً، أول خطاب تلقاه مني كان في أوائل نوفمبر. وكذا الحال بالنسبة لكتاباته لنا، والتلغرافات التي كان يرسلها بالبريد كان يدفع رسومها ولكنها لا ترسل بل توضع في سلة المهملات. وشك بوب في الأمر، لذلك أخذ يرسل برقياته عن طريق بيحان وهناك يشرف عليها الشريف حسين ويرسلها بنفسه.

وأخيراً عاد دكتور جام الذي كان في مهمة في بلجيكا، وأول شيء قام به هو الاستجابة لزيد الذي أصر عليه أن يقرأ كتاباً كان يصنّفه بعنوان (تاريخ اليمن) ، وقال بأن عمل البعثة سيساعده في إعداد هذا الكتاب. وفي اليوم التالي وجد دكتور جام أن زيد يتبعه أينما ذهب ويريد أن يطلع على أي شيء يقوم به، ويبدو أنه مندهش من استخدام صحائف « اللاتكس » اللاصقة لنسخ النقوش ومندهش للاهتمام الذي نوليه لها.

وفي الحقيقة فإن الموظفين اليمنيين يتشككون في أي شيء يقوم به أفراد البعثة ويظنون بنا الظنون ولا يرون أن علماء الآثار يهمهم شيء سوى البحث عن الذهب والأحجار الكريمة، لهذا فهم يحرصون على مراقبة عملنا حتى لا تفوتهم أي اكتشافات لكنوز الذهب و الفضة . وعندما لا يجد الآثاريون ذهباً فإن اليمنيين لا يفهمون الاهتمام الذي يوليه العلماء للأثريات الأخرى من حجارة وفخار. ولما رأوا اهتمامنا بصحائف « اللاتكس » قرروا بأنها ذات قيمة وطالبوا

بكميات منها وسببوا لنا ضيقاً فيها.

طلب زيد كمية من «اللاتكس» فأعطاه جام اثنين أو ثلاثة في بادئ الأمر. ولكن زيد أبلغ الإمام بأن البعثة ستخرج نسخة من كل صحيفة لاتكس منقوشة، وقال الإمام حسناً. ونقل زيد هذا الأمر لجام مطالبا بنسخة من كل صحيفة لنقش من النقوش. وما كان جام قادراً على الاستجابة لأن كميتنا من «اللاتكس» محدودة، ولأن عملية النسخ شاقة وطويلة ومعقدة، فما كان منه إلا أن تجاهل زيداً وحاول ألا يصطدم به وأن يرجئ الأمر لحين حضوري. لم يرفض طلب زيد ولم يستجب له.

وبالإضافة للاستنساخ بواسطة «اللاتكس» فإن جام كان يشرف على حفريات معبد بلقيس حتى يأتي عالم الآثار الرئيسي الذي كان في طريقه من الولايات المتحدة، وهو الدكتور فرانك ألبرايت (الذي كان طالباً للبروفيسور ألبرايت ولا تربطه به صلة قربى)

وفي مرة من المرات أراد أحمد (اليمني الذي يعمل مساعدا اداريا لجام) أن يطلع جام على نقوش في مكان ما بين المعبد وباقي مأرب ، ولكن زيد أمره بألا يفعل ، ثم اصدر تعليمات واضحة لكل الجنود والعمال بالا يدلوا أفراد البعثه على أي نقوش أو مخربشات. واحتج بوب كارميان ودكتور جام لدى الحاكم ولكنهما لم يفلحا في اقناعه بالتدخل، ولاحظ ان الحاكم اخذ في رفع يده من موضوع تحرشات وتدخل زيد ممثل الأمير الحسن الحاكم الفعلي لشمال وشرق اليمن، بما في ذلك مأرب.

ولما رأى زيد ان الشكوى لحاكم مأرب لم تُجد فتيلا صار يأتي بمطالب جديدة: معرفة كل الترجمات التي يقوم بها دكتور جام للنقوش وصورة من كل

نقش، وكذلك طالب زيد دكتور جام أن يعلمه اللغة السبئية القديمة. ولقد اعتذر بوب بطريقة دبلوماسية وحاول أن يشرح لزيد صعوبة الاستجابة لهذه المطالب .

وبما أن الاتفاق الخاص بالمسائل المالية لم ينفذ فإن شارلي ماكولم ذهب لعدن لإحضار عملات ماريا تريزا ومحلية لصرفها على العمال، وقد طالب العمال برفع رواتبهم إبتداءً من نوفمبر بتحريض من زيد .

ومع بداية ديسمبر وصل د. فرانك البرايت وأصبح هو المشرف على الحفريات بالمعبد التي كانت تسير سيراً حثيثاً ، وهنا أشار إليه د. جام بضرورة البحث عن وسيلة لتثبيت الأعمدة بعد أن زالت عنها الرمال التي كانت تثبتها حتى لا تقع، فطلب د. فرانك بعض الإسمنت عن طريق الحاكم الذي رد بعد أسبوعين قائلاً إنه لم يستطع أن يتحصل عليه. بعد ذلك أخذ بوب يركز على المطار حتى تأتي المواد والمؤن جواً لأن الطرق لم تعبد حتى الآن. وكذلك حاول بوب أن يصلح ويوسع المنزل لأنني كنت في طريق عودتي من أمريكا وبصحبتي عدد كبير من الخبراء.

هنالك بعض الأثريات المنقوشة في أحد المخازن بالقلعة وحاول دكتور جام أن يدخل إليها ليصورها ويستنسخها باللاتكس ، ولكن زيد قال إن المفتاح غير موجود، ولما ذهب للحاكم أخبره بأن المفتاح في صنعاء. ثم بدأت عملية مماطلة طويلة جداً: (المفتاح في الطريق) ، (المفتاح سيأتي بطائرة صغيرة) ، (المفتاح أوشك أن يصل)، وأخذ الأمر قرابة الشهر.

عند ذاك حاول بوب وجام أن يحرضا الحاكم / السيد عبد الرحمن / على استخدام نفوذه باعتباره ممثل الإمام شخصياً، لكي يسمح لهما بكسر القفل أمام الناس كلهم. وراقت الفكرة للسيد عبد الرحمن الذي كتب أمراً بالحبر الأحمر

بأن يفتح الباب في صبيحة الغد بمفتاح أو بغير مفتاح ، وسلم الأمر لبوب - وأرسل الحاكم دعوة لكل العاملين لحضور فتح الباب في الساعة التاسعة من صباح الغد ، ويبدأ الحفل بتقديم الأمر المكتوب بالحبر الأحمر للسيد عبد الرحمن أمام الحضور، رغم أنه هو الشخص الذي كتبه.

وفي الموعد المحدد وصل العاملون وعلى رأسهم دكتور جام ودكتور البرايت وبوب وشستر والعاملان المصريان. وبعد ساعة من الانتظار جاء الحاكم ومعه عشرون جندياً ، ولكنه طلب من بوب الانتظار فربما يظهر المفتاح في آخر لحظه. وأخيراً ولما يئس الحاكم من وصول المفتاح طلب من بوب أن يسلمه الأمر الذي كتبه هو نفسه، ولما سلمه له أمر الحاكم جنوده بكسر القفل ففعلوا، وسمح لجام والبرايت بالدخول، أما بوب وشستر فقد منعا من الدخول.

بقي جام والبرايت داخل المخزن لبعض الوقت يدرسان النقوش بينما وقف الآخرون أمام الباب، إلى أن أخبروهما بأن الزمن انتهى، فطلبا أن يؤذن لهما بالمجيء في اليوم التالي ووعدهما الحاكم بذلك، ولكنه صبيحة اليوم التالي أخبرهما بأنه أرسل لجلالة الإمام بتفاصيل الموضوع وهو ينتظر تعليماته ، ولم تصل تلك التعليمات أبداً.

وجد دكتور جام كثيراً من الحجارة المنقوشه التي استخدمها أهل مأرب الحاليون في بناء منازلهم ، وحاول أن يدرسها، ثم طلب من الحاكم أن يسمح له بخلع أحد الحجارة لدراسته من كل الجهات ثم إعادته لمكانه، ووافق الحاكم، إلا أن زيداً اعترض وأبرق لجلالة الإمام قائلاً إن البعثة هدمت منازل المواطنين.

ثم نقل دكتور جام اهتمامه لحيطان وعمدان المعبد وبدأ في دراسات النقوش التي أميط عنها اللثام، ولكن في المساء استدعى الحاكم بوب ليمثل أمامه ، وكان

معه زيد، وسألاه لماذا يذهب للعمل بالمعبد دون إذن منهما، فأجابهما بأنه لم يخالف نصوص العقد، ولكنهما أصدرا أمراً جديداً بالا يتحرك اي عضو من أعضاء البعثة من مقره إلا بإذن من زيد، ويجب أن يكون مصحوباً بجندي يمني. ولكن بوب تقبل التعليمات بروح ساخرة اغضبتهما غضباً شديداً، إذ قال لهما إنه سعيد بهذه الحراسة التي وفّراها لأعضاء البعثة لأنه فعلاً سمع كثيراً عن انفلات البدو وهمجيتهم ولكنه الآن تأكد من ذلك. والسبب الحقيقي لوضع هذه القيود هو عجز زيد في متابعة دكتور جام لأنه لم يستطع أن يجاري نشاطه وركضه السريع فوق الرمال وتحمله المشاق والعمل كل اليوم تحت وهج الشمس. ودكتور جام لا يريد أن يتبعه زيد لأنه يتدخل في العمل ويفسد الأمور، وقد تسبب ذات مرة في مسح كثير من الحروف من إحدى المنقوشات لمعاملته الخشنة والجاهلة للحجارة والآنية المنقوشة.

وأصر زيد على أن توضع كل الأثريات التي تعثر عليها البعثة في مخزن يحتفظ هو بمفتاحه، فأشار بوب لأحد بنود العقد الذي يقول بأن (المؤسسة لها الحق في اتخاذ الاجراءات المناسبة لتنظيم وتأمين ما تجده من أثريات.) ولكن زيداً لم يكترث للعقد، واضطر بوب للانصياع لتعليماته. ثم أصدر زيد أمراً بأن توضع كل صحائف اللاتكس في المخزن كذلك، ويمكن أن يحتفظ بوب بمفتاح قفل الصندوق فقط. ولكن بوب أشار إلى عدم جدوى ذلك طالما أن مفتاح المخزن لدى زيد. بعد يومين من ذلك، وبالتحديد يوم ١٨ ديسمبر أمر زيد دكتور جام بأن يتوقف عن أي نشاط من أي نوع.

ذهب بوب كارميان للحاكم واحضر منه أمراً مكتوباً يسمح لدكتور جام بمواصلة العمل. ثم جاء دور بوب نفسه ليدخل في مشكلة مع زيد، ففي كل مرة



البعثة الأمريكية بمقبرة تمنع



دكتور جام يفحص صحيفة لاتكس لنقوش من معبد (أوام) بمحرم بلقيس (معبد الإله ألمقه)

يجد زيد صبياً معينا راكبا إحدى سياراتنا يأمر الجنود فيعتقلوه وتفرض عليه غرامة ويقوم بوب بدفعها. وبعد أربع مرات من هذه المسرحية ذهب بوب للحاكم الذي أصدر تصريحا للصبي بركوب السيارة لأنه يعمل في تشحيم وتنظيف السيارات. ولما لم يجد شيئا يفعله ذهب زيد للحاكم وقال له إن بوب ضربه، وأحضر بوب أمام الحاكم وسئل عن الأمر، فقال للحاكم إنه لم يضرب زيد ولكنه في الحقيقة أحس برغبة شديدة في ذلك.

في يوم ٣ يناير رفض الحاكم أن يدفع أجور العاملين بالبعثة حسب الاتفاق السابق، فذهب بوب إلى بيحان ليقترض مبلغاً من المال من الشريف حسين الذي كان متعاوناً كالعادة. بعد هذه الحادثة بيوم غادرت نيويورك باتجاه مأرب ، وكنت جاهلاً بها وبالكثير غيرها مما حدث في الموقع، فما كنت أعرف غير العموميات عن سير العمل. وقد تذرع الخبراء بالصبر على ما لاقاهم من عنت وإساءات وقيود وعداء وغباء لأنهم واثقون من أن الأمور ستتغير للأفضل بعد حضوري ؛ لأنني سأقابل الإمام في تعز وأخبره بما حدث، فهم يعرفون أن الإمام لم يستمع حتى الآن لروايتهم لأنها ظلت محجوبة عنه، وذلك ما سأقوم به. ولكن كانت المفاجأة لهم ولي أن مقابلة جلالة الإمام أصبحت مستحيلة بالنسبة لي.

الفصل الثامن والعشرون

فوضى وارتباك

وصلت بصحبة إيلين إلى عدن يوم ١٥ يناير ١٩٥٢م وقابلني في المطار كل من شارلي وجمعة وآخرون من أعضاء البعثة وصلوا قبلي من أمريكا، وهم «الكماندر شارلس قليلاند» الرئيس الجديد للوحدة العلاجية، و«جون سكارف» المعماري والمؤرخ من بالتيمور، و«جيمس روبرايت» عالم آثار من أوهايو، و«رالف اندروز» عالم آثار من جامعة أوكلاهوما، و«ريتشارد بصي» مساعد إداري ومدير أعمال من مدينتي ألا وهي كونكورد بولاية كاليفورنيا.

أخبرني شارلي بالمزيد من التفاصيل عمّا حدث في مأرب ، وإذا كنت اعرف ما حدث لما أتيت بخبراء جدد ولحاولت اخراج الباقين الموجودين بالموقع. وعموماً ، بدأنا الرحلة نحو تعز لنستنجد بسمو الإمام، ووصلنا هناك يوم ٢٢ يناير. وكان الجميع ، باستثناء إيلين وشخصي، مزودين بتأشيرات الدخول لليمن؛ وذلك لأني وسكرتيرتي نأتي إلى اليمن دائماً بدعوة شخصية من جلالة الامام. وفعلاً خرجنا من قسم الجوازات بسلام، وغادرنا المطار باتجاه بيت الضيافة في تعز حيث استقبلونا خير استقبال.

في اليوم التالي اجتمع بنا القاضي العَمْري وتمنى لنا إقامة طيبة وعملاً مثمراً بمارب، ولكنه تعرض لبعض التحفظات مثل تاخري في أمريكا ، وما يراه من بطء في العمل بالموقع. ولم أرغب في الجدل والدفاع عن المؤسسة وحاولت ان أركز على المستقبل. وحاول العَمْري ان يعتذر عن عدم التزام الحكومة بما يخصها من بنود العقد مثل إعداد المنازل.

ولكن الذي أزعجني فعلاً هو ما قاله العَمْري حول الأمير عبد الله وزير الخارجية وشقيق الإمام ، فقد زار الموقع ولكن بوب كارميان استقبله ببرود ووقاحة، وطلب الوزير من الإمام أن يطرد بوب من اليمن، ولكن الإمام تجاهل هذا الطلب كما تجاهل برقيات بوب الخاصة بمشاكل أخرى في مأرب. وقد علمت لاحقاً أن بوب في الحقيقة لم يكن موجوداً في مأرب في أثناء زيارة الوزير بل كان في مهمة بعدن. في نفس ذلك اليوم تلقيت برقية من بوب غريبة للغاية تقول الآتي :-

«أطاح عامل يمني بدعامة أحد الأعمدة فوقع على عمود آخر وهكذا إلى أن انهارت كل الأعمدة على الأرض - قف - كاد الفورمان المصري جيلاني يموت . قف. حاكم مأرب يحمّل المسؤولية لجام رغم انه كان بعيداً عن مكان الحادث. قف . جام الآن رهن الاعتقال. قف. شستر رهن الاعتقال أيضاً، متهماً بتهديد العمال اليمنيين - قف - يطالب زيد بنسخ لاصقات اللاتكس - قف - كل الأثريات صودرت من البرايت - قف - يسرق العمال الأطعمة باستمرار من مقر البعثة - قف - الرجاء الحضور فوراً - قف - أفلتت الأمور من أيدينا - قف».

وقصة هذه البرقيه، كما عرفت لاحقاً ، هي كالآتي: أصبح البرايت خائفا على الأعمدة فأمر بوقف الحفر تحتها ، ونقل العمال بثيرانهم إلى مكان آخر بالمعبد. وفي غياب الإسمنت لبناء الدعامات التي تثبت الأعمدة استعان البرايت بعمدان خشبية، ولكن خدم الحاكم جاءوا للموقع وأخذوا أفضل تلك العمدان الخشبية ليستخدمها الحاكم في بيته.

أخيراً ، وفي يوم وصولي إلى عدن، اتكأ أحد العمال على واحد من تلك العمدان الخشبية فاهتز العمود الذي يستند عليه ووقع على عمود آخر، إلى أن

وقعت كلها على الرمل، وقفز الريس جيلاني من أحد الحيطان وجرح ركبته، وجرح صبي يمني في أثناء الجري والهرج والمرج الذي حدث ، ولكنه جرح طفيف وتم علاجه.

إنه بلا شك حادث مؤسف ، والسبب الرئيس هو عدم وجود الإسمنت الذي منعنا منه. وعموما، تمكنا من تدارك الموقف وامتصاص آثاره، ولكن زيد والحاكم جعلا من الحدث فرصة لخلق المزيد من البلبلة، ومن الغريب أنهما ما انفكا يحمّلان دكتور جام المسؤولية رغم أنه كان قد أمر بوقف جميع نشاطاته يوم ١٢ يناير، اي قبل الحادث بثلاثة أيام، وكان يوم الحادث موجوداً بالمقر الذي أُمر بعدم مغادرته ، وكذلك فقد رفع يده عن اي عمل له علاقة بالحفريات منذ وصول دكتور البرايت يوم ٢ ديسمبر. ومع ذلك وضع اللوم على كاهل دكتور جام لأنه اصبح مستهدفاً من قبل زيد، مثله مثل بوب، أما دكتور البرايت فهو مستثنى من ذلك، وكل ما أراده زيد هو تجميع أكبر قدر ممكن من الأدلة الملفقة ضد أحد اعمدة المؤسسة الأمريكية لضربها أمام جلالة الإمام.

وكذلك فإن الاتهامات الموجهة ضد بوب لا أساس لها من الصحة، ولما قرأت تلك البرقية التي جاءت من بوب للقاضي العَمْري بدا منزعجاً بعض الشيء ولكنه حاول أن يطمئنني.

ومضت أيام عديدة وأنا قابع في الاستراحة بتعز، ولم أقابل جلالة الإمام، ولكنني حاولت أن أجد لهم العذر، وأرسلت للإمام طالباً السماح لي بالسفر إلى مأرب طالما أنّ مقابلته متعذرة في ذلك الوقت. ولا حياة لمن تنادي. وهنالك أمر جديد هذه المرة وهو أن أعضاء البعثة منعوا من أخذ الصور في تعز.

وجاءتني برقية أخرى من بوب يطلب فيها السماح له بإرسال سيارات إلى عدن

عن طريق بيحان لجلب مؤن مستعجلة للبعثة ، وقد اذن له حاكم مأرب بذلك، وتحدثت مع القاضي العَمْري الذي وافق، فابرقت بوب موافقاً على إرسال السيارات إلى عدن. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم نفسه جاء جمعة جارياً ببرقية أخرى من بوب في مأرب، تقول:

« هاجم الجنود موكب السيارات - قف - كسر الزجاج بمؤخرات البنادق - قف - أراد أحدهم أن يطلق عليَّ النار - قف - عاد الموكب لمأرب محفوراً من جانبهم. »

لقد هزنا هذا الخبر، فكتبت رسالة لجلالة الإمام اطلعه على الأمر وطالباً التدخل من جانبه، كما طلبت مقابلة معه - الرد على ذلك كان رسالة رسمية مقتضبة بأن العقد سيتم إلغاؤه في خلال ثلاثين يوماً. وليس هنالك أي توضيح لهذا الموقف.

عقدت الدهشة ألسنتنا، وجلسنا ننظر لبعضنا البعض، ثم قرأت إيلين رسالة الإمام مرة أخرى وفحصتها جيداً وقالت :-

« هذا الخطاب عمره خمسة أيام وعليه ختم وزارة الخارجية في صنعاء »، ثم لاحظت أن الذي وقعه هو القاضي العَمْري نفسه، ونحن نعرف انه ظل موجوداً بتعز طوال الأسبوع المنصرم ولم يذهب لصنعاء.

في صبيحة اليوم التالي ذهبنا كلنا لمقابلة القاضي العَمْري الذي استعان « بالحسيني »، أحد أقرباء الشيخ الحسيني مفتي القدس المشهور، مترجماً له. أخبرنا العَمْري أن جلالة الإمام قد استشاط غضباً من رسالتي له وخاصة ما عبرت عنه من خوف على حياة الرعايا الأمريكان. ودون أن أردّ على هذه المزاعم وضعت على الطاولة أمام القاضي الخطاب الذي يتحدث عن إلغاء العقد. واندهش الرجل قليلاً ولكنه حاول أن يبرّر التاريخ المتقدم بقوله إن ذلك مقصود ، ولكنه لم

يتطرق لحقيقة أن الخطاب يحمل توقيعه فقط.

سردت للعمري تفاصيل الموقف ورأينا فيه، وأطلعته على ما تحملناه من جهد ونفقات حتى الآن، ثم إذا بهم يُلغون العقد بعد خمسة أيام من الانتظار في بيت الضيافة، وكذلك سردت له ما حدث لبوب وموكب سياراته. ولكن القاضي العَمْري كان دافئاً كالعادة وحاول أن يطمئننا ويهدئ من روعنا. وأخيراً أخبرنا بأن الإذن قد صدر لحضورنا «عيد النصر»، وهو احتفال يدوم ثلاثة أيام بمناسبة الذكرى السنوية لافشال الانقلاب الذي اغتيل فيه الإمام يحيى عام ١٩٤٨م، وكان ذلك في حقيقة أمره «تعليمات» وليس «دعوة» للحضور.

بدأ الاحتفال بعد غروب الشمس بالألعاب النارية، وكان معظم اليمنيين يستمتعون بإلقاء الألعاب النارية المشتعلة نحو بعضهم بعضا. ولما اشتد الظلام اشتعلت نيران الكيروسين المضرمة في كل صفحة الجبل خلف المدينة وفي المآذن وسقوف المنازل، مع خلفية من طلقات المدافع والغناء الرجالي الجماعي بأصوات رفيعة الطبقة، وذلك مشهد سيرسخ في ذاكرة كل واحد منا إلى أبد الآبدين.

في تمام الساعة الثامنة والنصف من صبيحة اليوم التالي كنا نجلس في المقصورة الخاصة بنا لحضور الاحتفال، ونحن نلبس العقالات والكوفيات، ولكن الرياح هبت بشدة مسببة إعصاراً دام ساعتين وغطى الجميع بطبقات كثيفة من الأتربة والغبار. وفي العاشرة والنصف ظهر جلالة الإمام، وعند ذاك بدونا شُعثاً وغُبراً كأنّا قادمون لتونا من إحدى معارك الجنرال كتشنر الذي غزا السودان.

كنا نجلس على طرف ميدان ضخم تحف به الكتل البشرية اليمنية في أجمل زينتها وبهرجتها؛ وجاء سمو الإمام بعباءته البيضاء الناصعة، يحيط به حراسه المنتقون في زيهم الأزرق والمدججون بالسلاح، يرفعون شمسية ضخمة مذهبة

فوق صاحب الجلاله لتقيه أشعة الشمس، وكانت تسير أمامه وخلفه مواكب الشاحنات المحملة بالمدافع الرشاشه.

جلس الإمام على عرشه وبدأ البرنامج بالسلام الملكي اليمني، والجماهير المحتشدة تلوح بالعلم اليمني، وتلا ذلك عدة خطب تشيد بجلالة الإمام، ثم بعض الفقرات الرياضية مثل الجمباز والركض. وقد أخبرنا بأنه يمكننا مصافحة الإمام في نهاية الحفل، إلا ان هذا التصريح سُحب منا في آخر لحظة، وكذلك غضب الكماندر فيليلاند أكثر من أي واحد منا لأنه مُنع من التقاط اي صورة.

طاف الإمام في آخر الحفل بجنبات الميدان على جواده الرمادي الجميل، ثم جرى بالحصان بسرعة فائقة أدهشتنا جميعاً. وتكرر الاحتفال ليومين آخرين ، مع تغييرات طفيفة في بعض فقراته ، وبعد ذلك عدنا لبيت الله يافة حيث بقينا فيه بلا أي ضوء في أخر النفق.

وذات يوم سمعنا عن حادث مروري مروع بين تعز والحديدة، فقد تحركت شاحنة محملة ببراميل البنزين في طريقها الى الحديدة وانقلبت في الطريق وشبت فيها النيران ، وكان بالطبع بمقدور الركاب ان يهربوا لولا أنهم كانوا قد أوثقوا أنفسهم بالحبال على أطراف الشاحنه حتى لا يقعوا منها، فتقطعوا إرباً إربا، ومن كان محظوظاً منهم مات بسرعة ولم يتعذب وتلتهمه نيران البنزين.

أرسلت جمعة للقاضي العَمْري واضعاً شاحناتنا تحت تصرفه كسيارات إسعاف وكذلك خدمات طبيبنا الكماندر فيليلاند، وانتظر الليل كله ولم يأتنا رد، وفي اليوم التالي ذهبت للقاضي العَمْري اسأل عمّا حدث فقال لي إنهم لم يحتاجوا لخدماتنا. وحيث إن أحداً من المصابين في الحادث لم يحضر إلى ما يسمى بمستشفى تعز فإنهم قد تركوا في قارعة الطريق ، في غالب الظن.

وبينما نحن في تعز سمعنا قصصاً كثيره عن الأهوال التي يتعرض لها الأجانب في اليمن. أحد الأوروبيين ظل منتظراً في تعز لعام كامل دون أن يسمح له بالرجوع لصنعاء حيث يعمل، ولم يسمح له بمغادرة البلاد إلى أن يدفع ما عليه من ديون مزعومة على الدولة.

وقد جلب الإمام مهندساً من الخارج لتشييد محطة للإذاعة بصنعاء، ولمدة سنة كاملة ظل هو وأجهزته في تعز ينتظرون الترحيل لصنعاء، ويقولون لهم كل يوم: «بكرة إن شاء الله»، إلى أن فسدت كل المعدات من الصدأ وعدم الاستعمال. وبعد الانتظار بلا جدوى لعدة أيام أخرى، اقترح عليَّ مسؤول يمني رفيع المستوى أن أستأجر واحدة من طائرات الإمام الداكوتا للسفر إلى مأرب، ورحبتُ بالفكرة، واتفقنا على رسوم الإيجار البالغ قدرها ثلاثمائة ريال ماريا تريزا. وبعد دقائق من هذا الاتفاق اخطرنا بأن خمسة من أفراد الأسرة الحاكمه سيستغلون الطائره التي استأجرناها ليذهبوا إلى صنعاء، وأصر القاضي العَمْري أن نحمل معنا كذلك خمسة عشر شوالاً من الإسمنت لترميم الأعمدة التي تكسرت. وبما أن صنعاء على ارتفاع ٨٠٠٠ قدم فإن هذا العبء على الطائرة لن يمكنها من الهبوط بسلام، وقلت ذلك للمسؤولين، وقد ذهب الجرموزي مدير الطيران المدني وأخبر جلالة الإمام بذلك فغضب واعتبر ذلك إساءة شخصية لأسرته.

وفي المساء جاءتنا رسالة من الإمام تمنعنا من السفر إلى مأرب وتأمرنا بمغادرة البلاد عن طريق عدن؛ وانتابني خوف شديد على باقي أفراد البعثة الموجودين بمأرب: ماذا سيحدث لهم إذا غادرت البلاد الآن؟

ذهبت بعد ذلك للقاضي العَمْري وتحدثنا طويلاً في هذا الموضوع، وطلب مني أن أكتب رسالة للإمام أوضح فيها سوء الفهم الذي حدث وأطلب السماح لي

بالرجوع لمأرب.

في الخامسة من مساء اليوم التالي جاءنا جمعة لاهثاً وهو يصيح :-

«صاحبي! لدي اخبار سارة لك. لقد وافق الإمام على سفرنا جواً إلى مأرب وعلى العمل فيها لمدة شهر كامل.»

وكانت آخر جملة في الخطاب محيرة ، إذ إن الإمام تحدث عن ظروف خارجة عن يده تدفعه لإلغاء العقد، ونحن نعرف ان اليمن كلها تحت تصرف الإمام وليس هناك شيء خارجاً عن إرادته ؛ وعلى كل حال ، ما زلنا نحس بان الإمام شخصياً يريدنا ان نواصل العمل ولكن هنالك ضغوط عليه من مستشاريه المتاثرين بالقوى الخارجية في واشنطن وعدن، الذين لا يريدوننا ان نواصل أعمال الحفريات.

عموماً ، فرحنا بفرصة الذهاب إلى مأرب ، فربما يغيّر الإمام رأيه إذا استطعنا ان ننجز أي حفريات ونتوصل لأي اكتشافات تستحق خلال هذه الفترة وكان ذلك أيضاً هو رأي القاضي العَمْري.

جاءنا الجرموزي في منتصف الليل ليتقبل الهدايا بالإنابة عن سمو الإمام ، وهي الهدايا التي تلقيناها من الشركات الأمريكية كمساهمة في نشاطنا الاستكشافي، فتقدمنا للجرموزي بهذه الأشياء ليعطيها للإمام، وهي :-آلة كاتبة تعمل بالصوت، ثلاجة جنرال إلكترك، بندقية بنظّارة مكبرة، فونوغراف لتشغيل اسطوانات الموسيقى ، مذياعان، مسدس كولت بمقبض من سن الفيل، بندقية رمنقتون، مسجل ماركة «برش» ، آلة تصوير ماركة «قرافلكس»، وصندوق فيه أدوية ومعدات طبية.

أخيراً ، كان يوم ٧ فبراير هو اليوم الذي حدد لسفرنا بعد إقامة جبرية دامت

ستة عشر يوماً في تعز، وبعد تأخير دام ساعتين جاءتنا شاحنة لتحمل الأمتعة إلى مطار تعز. وصعدنا الطائرة ومعنا الأشخاص الخمسة الأعضاء في أسرة الإمام، وكذلك تم شحن الإسمنت ، وكان ذلك في الحقيقة على حساب طاقم الطائرة الذين أمروا بترك أمتعتهم الشخصية في تعز. وبعد أن ركبنا الطائرة انتظرنا بداخلها لمدة ساعة كاملة، وأخيراً أقلعت الطائرة باتجاه صنعاء حيث نزل منها أقارب الإمام، ثم طرنا نحو مأرب ونزلنا في مطارها الحديث الذي أصبح أفضل مطار في اليمن بعد المجهود الذي بذله فيه أفراد بعثتنا خلال الأشهر الثلاثة الماضية، بقيادة بوب كارميان.



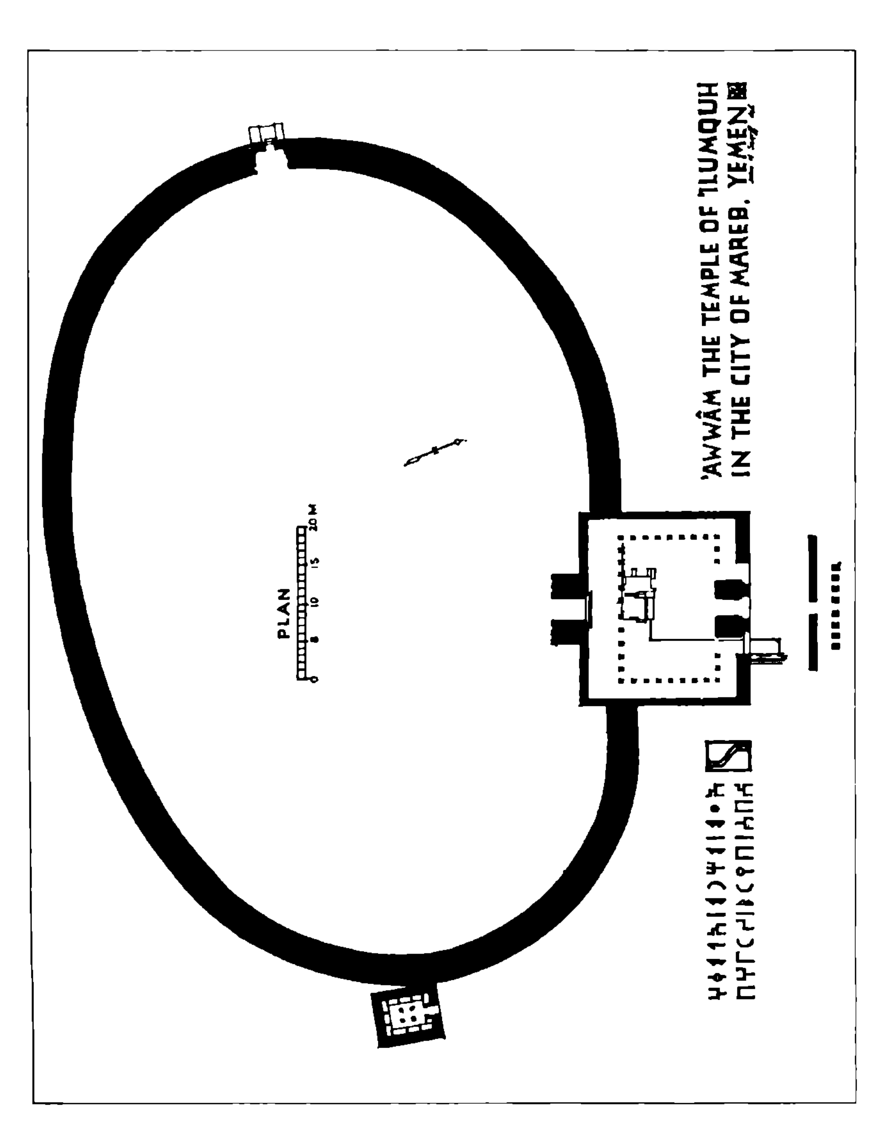
الفصل التاسع والعشرون
الخطر الكامن في سبأ

عندما هبطت الطائرة في مطار مارب فوجئنا بأعراب يركضون على دوابهم بسرعة فائقة، ولما سألنا عنهم قيل إن هنالك حرباً دائرة بين قبيلة تسكن حول مارب واخرى تسكن حول صرواح ، والمطار هو أحد الميادين التي يتقاتلون فيها، كما ذكر بوب أن المستشفى الميداني بمعسكرنا تلقّى العديد من حالات الإصابات بسبب هذه المعارك.

وما كدنا نصل المعسكر وقبل أن نزيل وعثاء السفر جاء أول مريض للكماندر دكتور فيليلاند الذي أتى معنا في الطائرة، وكان ذلك المريض هو حاكم مارب نفسه الذي طلب من فيليلاند أن يكشف عليه ففعل وأعطاه بعض الأدوية ووعد بالمزيد بعد وصول شاحناتنا.

ولقد فوجئ الحاكم عندما رأى معنا أحد مستشاري الإمام وهو رجل أثيوبي محترم متقدم في السن اسمه «أمير سومسان»، وقد أرسله الإمام معنا بغرض ترتيب الأمور معنا بسلاسة أكثر، خاصة أن هذا الرجل ذو خبرة طويلة في خدمة الإمام الراحل يحيى وهو الآن من المقربين للإمام. وقدمنا الحاكم لممثل الأمير الحسن ومساعده، القاضي زيد عنان ونجيب محسن.

وجدنا المعسكر يعاني من نواقص كثيرة، فليست فيه غرف كافية للسكن أو التخزين أو العمل ، ومن أسوأ غرفه المطبخ الذي اشتكى منه الطهاة والعمال الصوماليون، وقد جاءت إيلين بأمير سومسان ليراه بنفسه وفعلاً أبرق للإمام بخصوصه.



- خريطة محرم بلقيس (معبد أوام) في مأرب .

- الساحة البيضاوية المسوَّره أكثر قدما من البناء ذي الأعمدة أمام البوابة الذي تدل حجارته **على** أنه شَيِّد في القرن الخامس ق.م.



بدء الحفر بمعبد (أوام)



الدرج والغرف بالركن الشمالي الشرقي من قاعة الأعمدة بمعبد أوام



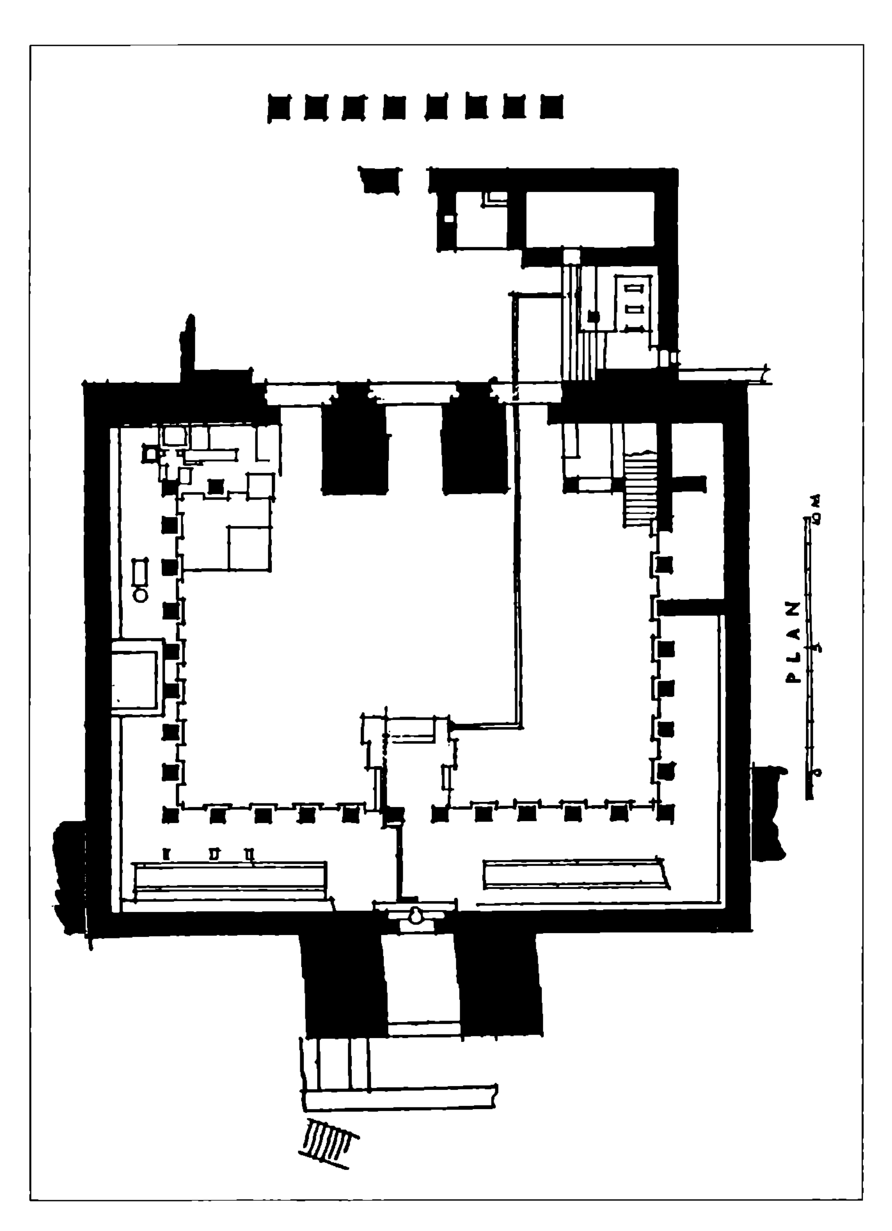
القاعة ذات الأعمدة بمعبد أوام

لقد استغربت لوجود العساكر المسلحين حتى أسنانهم داخل المعسكر، في الغرف وخارجها وعلى سقف المنزل، وقال لي بوب رداً على استفساري إنهم هكذا ليلاً ونهاراً ، وحكى عن ما حدث قبل ثلاثة أيام عندما دخل جنود مطليون بطلاء أسود إلى غرفة شارلي ماكولم في غيابه، عندما كان في عدن، وأطلقوا الرصاص على كلبته البيحانيه الأصل وأردوها قتيلة بين جرائها السبعة التي كانت ترضعهم. وعندما ذهب بوب إلى القاضي عبد الرحمن شاكيا ضحك القاضي ولم يتبين أين تكمن المشكلة. ماذا تعني هذه الكلبة!

ولما سألت بوب عن الليل في المعسكر قال إن الجنود لهم أسلوب معين يتبعونه في التنادي والصياح لبعضهم البعض حتى يظلوا يقظين، ولكن ذلك يطرد النوم من عيوننا نحن كذلك. وفعلا ظهرت آثار السهر والإرهاق على أعضاء البعثة الذين تركناهم في مأرب ، ولكن روحهم المعنوية عالية جداً. ولقد عشت نفس الظروف منذ أول يوم لي في المعسكر ، علماً بأن النوم هو أهم شيء في هذه البعثات، حتى تستطيع أن تواجه المصاعب والمشكلات بنشاط متجدد كل يوم.

وأكثر ما أحزنني هو الدكتور جام الذي بدا شاحباً ومحبطاً ، بعكس ما كان في السابق . لقد ظل محبوساً بالمعسكر منذ شهر كما تعرض لمضايقات كثيرة من زيد. وكان من رأيه أن الموقف ليس صعباً فقط إنما خطير ومليء بالمفاجآت ؛ إن حياة أعضاء البعثة في خطر.

وذكر جام بأن الحرب الدائرة الآن تزيد الطين بلة، فقد أصبح الجنود قلقين ومتوجسين مما سيحدث لهم، وأوشك موقفهم تجاه البعثة أن ينقلب إلى موقف عدواني مشوب بالعنف، وهنالك جهات عليا قد تفكر في استثمار هذا الموقف لصالحها ولتصفية حسابات مع البعثة؛ وسرد جام قصة تدلل على أن الجنود يمكن



خريطة المبنى ذي الأعمدة عند بوابة محرم بلقيس (معبد أوام) في مأرب

أن ينفلتوا بسهولة:

قبل أيام أخذني دكتور البرايت إلى مخزن الأثريات ليريني قطعة أثرية، وهناك سأل الدكتور الجندي الحارس عن القطعه البرونزية الصغيرة التي تم اكتشافها قبل بضعة أيام، فذكر الجندي أن زيد عنان قد وضعها في صندوق مع قطع وتحف أخرى وأوصده ، فاعطانا إياه لنتفرج على ما فيه من اثريات؛ ولكنه بعد قليل غيَّر رايه وغضب غضباً شديداً وأراد ان يهجم علينا بجنبيته ، فغادرنا المكان بهدوء.

وأكثر من ذلك ان زيد عنان حاول ان يجهّل ويخطئ دكتور جام، وشكك في مقدرته على ترجمة النصوص ، فأحسست بالغثيان إزاء هذا الرجل الجاهل الذي يتشكك في أعظم عالم أثريات موجود الآن بالجنوب العربي كله، ولا بد انه لا يقصد الدكتور إنما يقصد أن يسيء إلى البعثة كلها ويقلل من شأنها ويشيع البلبلة والارتياب حول نشاطها*.

بعد الغداء ذهبنا للموقع حيث كان دكتور البرايت يشرف على أعمال الحفر،

---

* هذه هي رواية المؤلف لما حدث في مارب لكن زيد عنان في كتابه (تاريخ حضارة اليمن القديم صفحة ١٣٩ - ١٤١) قدم لنا رواية أخرى ذكر فيها أن البعثة تسببت نتيجة عدم معرفتها باصول التنقيب في تدمير ست إسطونات (اعمدة) في محرم بلقيس وانها لم تكن مستعدة حتى بكيس إسمنت واحد لترميم ما يحتاج إلى إصلاح كما أشار إلى أن ويندل فيليبس رغم تراسه للبعثة لم يحضر إلى مارب إلا لمدة خمسة أيام فقط دبر فيها عملية فراره واضاف ان الإمام احمد استاء كثيرا لتدمير الاعمدة وانه كان يامل ان تتمكن البعثة من العثور على البترول بصورة سرية ولكن الخبراء الذين وعد ويندل فيليبس بإحضارهم لم يصلوا واخيرا وافق الإمام لويندل فيليبس الذي قَدِمَ مِنْ عدن ومعه أربعة خبراء في النحت والتصوير بالذهاب إلى مارب لمدة شهر وذلك لإعادة الاعمدة وترميمها ولما وجد ويندل فيليبس انه غير قادر على إعادتها لانها قد تحطمت تماما، دبر خطة فراره. (المراجع)

وهنا جاءني المصريان جيلاني والشاطر وتوسلا إليّ أن أرجعهما لبلدهما حالاً، وقال الريس جيلاني إن أحد الجنود استل جنبيته ذات يوم وهدّده بذبحه.

رغم هذه المشكلات فإن الاكتشافات الأثرية التى تتفتق أمامنا كفيلة برفع المعنويات، فالتفتنا إلى الدكتور البرايت لنعرف شيئاً عن الإنجازات الآثارية ،لقد حفروا لعمق ثلاثين قدماً مع وجود كل هذه الأجواء المعادية ، مستخدمين الثيران والعمال بسلالهم . رأينا معبداً بيضوي الشكل يُقدر محيطه بنحو الف قدم وأحد قطريه ٣٧٥ قدماً والقطر الآخر ٢٥٠ قدماً ، وبه قاعة تحيط بها الأعمدة بشكل دائرة، وبه أيضاً غرف وقاعات أخرى ثم صف من الأعمدة الشاهقة، كان هذا المعبد يسمى (معبد ألمقه) وليس « محرم بلقيس » كما يسميه اليمنيون المعاصرون. المعبد نفسه كانوا يسمونه (أوام) ، وإلاله « ألمقه » الذي شيّدوا المعبد من أجله هو إله القمر ، القاسم المشترك الأعظم بالنسبة لكل أديان الجنوب العربي القديمة. كان يغطي القاعة البيضوية ، وقطرها اثنان وسبعون قدماً ، سقف مسطح يسنده حائط من جانب وعمدان من الجوانب الأخرى ، وهنالك أربعة وتسعون شباكاً حجرياً مزيفاً. الأعمدة عملاقة كلها باستثناء اثنين منها، ولم يستخدم إسمنت او مواد بناء من هذا النوع إلا فى الصيانة والزيادات التي طرأت لاحقاً على المعبد.

هناك بابان ، يقود أحدهما من القاعة البيضاوية إلى داخل المعبد ، والآخر يتألف من ثلاثة الواح وعمودين ضخمين ، ويقود لقاعة خارجية .وقد استخدمت أغطية برونزيه في العديد من الممرات ، وربما كان جزء من الأرضية مكسواً بالبرونز كذلك .

وهنالك ثقب على أحد العتبات يشير إلى أنه ربما كان مصباً لنافورة في مكان

أعلى ، ويبدو أن الماء كان يصب بقوة ولزمن طويل جداً حتى اخترقت الأرضية البرونزية ، ثم الحجر نفسه . ومن هذه النقطة هنالك ممر من المرمر يخترق القاعة حتى مكان فيه طبق برونزي منقوش .

وقد دلنا البرايت على الجهة الغربية والشمالية خارج القاعة التى يبدوا أنها كانت ورشة من نوع ما أو مصنعاً ، ثم قادنا إلى القاعة الرئيسة بشكلها الذي يشبه الكلْية ، وحيطانها من الحجر المنحوت بدقة لدرجة انه يلتئم ببعضه بلا إسمنت ، فقط شيء من الرمل والحصى كنوع من الحشوة جزءٌ كبيرٌ من هذا الحائط كما هو ، بارتفاع يبلغ أكثر من سبعة وعشرين قدماً ، ولكن من الصعب الآن معرفة الارتفاع الحقيقي لهذا الحائط أو كيف كان سقف هذه القاعة ، والحائط يشير كذلك إلى إشتراك مهندسين وفنيين مختلفين في بنائه لأن الأسلوب متباين نوعاً ما ، من ركن لركن ، وربما بُني على مراحل تمتد من القرن الثامن إلى القرن الخامس ق.م. وربما أصبح هذا المعبد يستخدم كمدينة مسورة في عهود لاحقة ، غالباً فيما بعد دخول الإسلام ، والسكان في هذه العهود المتاخرة ما كانوا بالغزارة التي شهدتها سبأ في أيام سدها وخضرتها وأوج حضارتها.

هنالك أربعة أعمدة بارزة فوق الرمال في الجانب الشرقي من المعبد ، وبعد الحفر اتضح أنها تشكل القاعدة لضريح بُني في نفس العهد الذي بني فيه المعبد ، وكان بالضريح احد عشر قبراً وقد نهبت هذه القبور في العهود السابقة ولم يبق فيها إلا قطع ونتف من الفخار والعظام البشرية ، كما وجد البرايت بعض الأشياء البسيطة كمذابح المعبد ومواقع البخور وأغطية القبور المنقوشة وثيران من الرخام وتماثيل من المرمر وقطعة من الذهب استولى عليها القاضي زيد بسرعة فائقة.

كانت المنطقة المحيطة بالمعبد مكتظة بالمباني في الزمن القديم ، وظن فرانك في

باديءُ الأمر أنه بصدد اكتشاف سلسلة من المنازل ، ولكنها قُبور بنيت من صخور بركانية خشنة ، والحيطان الخارجية من الحجر الجيري المنحوت ، وليس هنالك نوافذ أو أبواب . بعض من المقابر مازال فيها عظام بشرية ، ولكن هنالك أيضاً عظام خراف ودجاج وبعض الحيوانات الأخرى ، وهي تشبه القبور التي وجدناها في تمنع إلى حدود كبيرة .

غادرت المعبد عائداً إلى مأرب وأنا أفكر في هذه الآثار القديمة التي يعود جزء منها إلى ما بعد بلقيس بقرن أو قرن ونصف . وبما أنها قد اكتشفت بعد فترة وجيزة من الحفر ، ماذا يكون الحال لو استمر العمل لموسم أو موسمين ؟

زارنا كل من أمير سومسان وزيد ونجيب في المساء ، وبعد التحية والمجاملة قالوا بإمكان دكتور جام العودة لعمله إذا أخرج لهم نسختين باللاتكس من كل نقش يتم اكتشافه ، وكذلك بالنسبة لكل النقوش القديمة .

وهذه مسألة مستحيلة ، فقلت لهم إن دكتور جام من الآن فصاعداً سيستخدم فقط أقلاماً وأوراقاً في نسخ أو رسم المنقوشات ، وكل أوراق اللاتكس التي بحوزتنا سنعطيها هدية لزيد ويمكنه أن يفعل بها ما يشاء . ولكن تملك الذعر زيد وقال إنه فقط يحاول أن يسهّل عمل الدكتور ، وضحك أمير سومسان على هذا الموقف .

يوم الجمعة هو عطلة المسلمين ، وتوقف العمل بالمعبد ، فركزنا على تصوير التحف البرونزية والمرمرية التي اكتشفت ووضعت في المخزن ، وبعد تأخير دام فقط ثلاثين دقيقة وصل أمير وزيد ونجيب ومعهم الحاكم وهو محاط بمجموعة من الجنود ، وفتح باب المخزن بعد طقوس وصيحات عسكرية من قبل الجنود وسمحوا لنا بالدخول لتفتيش الأثريات التي عثر عليها زملاؤنا . القطعة البارزة هي تمثال

برونزي طوله ثلاثة أقدام لرجل ، اليد اليمني ممسكة بالختم كأنه يستعد ليختم أوراقاً رسمية وهنالك حزام عريض في وسطه وبه خنجر بغمده تماماً كالجنبية التي تستخدم اليوم في الجنوب العربي بعد خمسة وعشرين قرناً . والخنجر يختلف عن خنجر اليوم لأنه مستقيم وليس معقوفاً . كان الوجه عريضاً والعينان واسعتان والأذنان والأنف كبار ، وله لحية صغيرة ، وعليه نقش يمتد من جهة الكتفين حتى أسفل إزاره وينتهي عند الركبة اليمنى ، ويقول النقش إن هذا التمثال لـ «معدكرب » وهو مُقدم لإله القمر (المقه) .

وقد أشار دكتور البرايت إلى أن التمثال صنع أصلاً كقطعة واحدة ، ولكن عندما وجده الدكتور ، فى اليوم الأول من العام الجديد ، كان بلا يد يسرى ورجل يُمْنَى ، وكانت الرجل اليسري ملتوية وآيلة للسقوط ، وقام البرايت بترميم هذا التمثال بالإسمنت والمسامير نصف بوصة ، ووضعه على قاعدة حجرية .

وقد لفت نظرنا كذلك تمثالان برونزيان مدهشان يتقدمان على سواهما من القطع البرونزية والمرمرية بالمخزن ، أحدهما لصبي صغير وهوفي حالة سليمة حتى الركبتين ، وله كتفان عريضان وعظام أرداف مخيفة ، ويرتدي سواراً رقيقاً وعقداً مضفوراً حول عنقه له مدلاة على شكل قرص . أما التمثال الثالث فهو جدير بالاهتمام لأن رأسه من صنع نحّات يختلف عن النحات الذي صمم باقي الجسد ، وقد أُلحم الرأس مع الجسم في الزمن القديم ، وهو مائل بعض الشيء إلى اليمين ، ويكسو الوجه تعبير جاد وعضلات وشفاه كأنها على بشر حي ، فالوجه كله يفيض حيوية .

وبينما نحن كذلك سمعنا جلبة وضوضاء خارج المخزن ، ولما خرجنا عرفنا أن فيليلاند أراد أن يلتقط صوراً سينمائية للتماثيل ولكن القاضي زيد ونجيب

محسن أصرا على أن يكونا في وسط الصورة فحجباه عن الأشياء التي أراد أن يصورها.

وعندما أويتُ للاستراحة قضيتُ باقي اليوم أتصفّح تقارير البرايت الآثارية وترجمات دكتور جام. وفي التاسعة والنصف مساءً جاءنا رسول من الحاكم يطلب مقابلة إيلين وبوب وشخصي على الفور ، فذهبنا لمقره يصحبنا جمعة الصومالي ، ووجدنا بيته محروساً حراسة مشددة ، واستقبلنا السيد عبد الرحمن، الحاكم ، بكل ترحاب ورقة ، وشكرنا على العلاج الذي قدّمه له طبيبنا، ثم دلف مباشرة إلى الموضوع الذي كان شغل تفكيره وهو أنه قد دفع الرواتب عدة مرات لبوب ، والآن يريد كل أمواله في خلال سويعات قليلة .

شرحت إيلين اتفاقنا مع القاضي العَمْري في تعز الذي وافق وأمّن عليه الحاكم نفسه في عدة مناسبات وهو أن البعثة تتسلم مرتباتها مقدماً بالعملة المحلية من الحكومة اليمنية وتقوم المؤسسة الأمريكية بدفع المقابل بالدولار للبعثة الدبلوماسية اليمنية في واشنطن ، وهذا ما سيحل مشكلتنا بالموقع كما يفعل الشيء نفسه مع البعثة اليمنية في الولايات المتحدة.

ابتسم الحاكم وقال بما أنه في مارب وليس في واشنطن فإنه يريد أن يتسلم أمواله بالريال ماريا تريزا على جناح السرعة. وهنا ذكرت له أنني لم أحضر معي كمية كافية من الماريا تريزا بسبب الاتفاق المذكور ، ولكن في الحقيقة حاولت أن أتدارك الموقف ، فعندما قدمت إلى تعز وسمعت بمشكلات السيولة النقدية أصدرت تعليمات لشارلي ماكولم أن يحضر معه كمية من العملات المحلية من عدن وذلك عندما يجلب شحنة الإسمنت والأغذية والأدوية .

قال الحاكم إنه لايستطيع أن ينتظر حتى يأتي شارلي من عدن ، فتقدمت

باقتراح آخر وهو أن أذهب في اليوم التالي مع بوب إلى بيحان لاقتراض مبلغ من الشريف حسين ، ولكن الحاكم تظاهر بأنه لم يفهم ما قلته رغم أن إيلين وجمعة ترجما له ترجمة ممتازة .

همس جمعه في أذني قائلاً إنني لو سافرت لبيحان فإنهم لن يعدموا ذريعة يحتجزونني بها في بيحان ويمنعونني من الرجوع لمأرب . واقترح جمعه أن اترك بوب يذهب لوحده ، وتقدمت بهذا الاقتراح للحاكم رغم أني كنت أخشي أن يصر الحاكم على انتظار تعليمات الإمام قبل أن يسمح لبوب بمغادرة مارب ، ولكن بما أن الموضوع يتعلق بمصلحة الحاكم شخصياً فقد وافق بدون تردد على أن يذهب بوب لبيحان .

وفي صبيحة اليوم التالي توجهنا نحو المعبد وجاء معنا أمير سومسان والقاضي زيد ونجيب محسن ، وقد بدا لنا جلياً أن سومسان قد تأثر بموقف زيد منا رغم أنه كان أملنا في الخلاص وحل المشكلات ، فاصدر الأمير الممثل الشخصي للإمام ، أصدر تعليماته لنا حول كيف ومتى وأين تتم عمليات الحفر.

كنا قد قررنا أن نبدأ في جرف الرمال من داخل أسوار المعبد حتى تتبين لنا الصورة الداخلية، وبدأ فرانك العمل في هذا الجزء اليوم مستعيناً بنحو أربعين ثوراً. وهنا تدخل الأمير وطلب نقل كل الثيران للجانب الأمامي من المعبد حيث كانت تقف ثمانية عمدان طويلة مازال جزء كبير منها تحت الرمال، وأمر سومسان بإزالة الرمال من هذه العمدان فوراً، وبكل أدب وكياسة وضّحتُ له أن ذلك سيتسبب في سقوط هذه العمدان مما يهدد حياة العمال اليمنيين وأعضاء البعثة وكذلك مما سيقود لانهيار الأعمدة الأخرى بالمعبد؛ وتدخل الكماندر ڤيليلاند ليوضح أن هذه العمدان كلها قد ارتجت وتحركت عن مواقعها قليلاً وقد تتهاوى

مع أبسط حركة في الأرض المحيطة بها. لم يستطع هذا الرجل أن يصمد كثيراً أمام قوة منطقنا فوافق على أن نستمر في الحيطان الأساسية للمعبد على أن نزيل جزءاً من الرمال المحيطة بالعمدان.

وعند حلول الساعة العاشرة طلب الأمير أن نحمله بإحدى سياراتنا إلى مأرب، ولأول مرة أحس بأن الأمور قد أخذت تسير على ما يرام وأن الأمير رجل يقبل المنطق السليم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نواصل عملنا بروح معنوية عالية، وسيصل البرايت إلى قاع المنطقة الرئيسة بالمعبد خلال أسبوع.

ذهب أمير سومسان لوضع تقرير للحاكم عن الموقع في ذلك اليوم، وعاد بعد هنيهة محبطاً ومرهقاً، إذ قال إنه لم يجد الحاكم، وعرف انه قد ذهب إلى المعبد على ظهر حصان ومعه زيد، وربما يحاول زيد أن يقنعه بعرقلة العمل مرة أخرى بشكل أو بآخر، واقترح الأمير أن نذهب للموقع، وفعلاً ركبنا إحدى السيارات وتوجهنا إلى المعبد.

جاءنا البرايت راكضاً وقبل أن تتوقف السيارة صاح قائلاً إن الحاكم أصدر بإيعاز من زيد تعليمات بإبعاد كل العمال والثيران عن المنطقة الداخلية بالمعبد، وأمر بوقف العمل في ذلك الجزء، وأمرهم جميعا بإزالة الرمل من حول العمدان الثمانية في الطرف الأمامي. وكذلك أمر الحاكم دكتور جام أن يتوقف عن نسخ النقوشات لا باللاتكس ولا بقلم الرصاص.

بعد كل ذلك قابلني الحاكم كأن شيئاً لم يحدث وحيّانا بحرارة شديدة، وقررت أن أكون واضحاً معه على مسمع من الآخرين، فقلت:-

«إذا كنت مريضاً وفحصك الطبيب وكتب لك علاجاً ثم لم تسمع كلامه ومت، غلطة من هذه؟»

قال : -

« غلطتي » .

فقلت : -

« هذا استنتاج صحيح . إن دكتور البرايت درس الآثار لسنين عديدة ويدرك تماما ما هو الصواب وماهو الخطأ في هذا المجال . فالبرايت هو الطبيب والمعبد هو المريض . إنه يقول لكم، إذا ازلتم كل الرمال من حول العمدان فإنها ستتهاوى وسيموت المعبد . كيف تفسرون للإمام موقفكم بعدم سماع تعليمات الطبيب؟ »

ولكي ابرهن للحاكم أنني مذعن لسلطته انحنيت امامه واضعاً ركبتي على الرمل ومطأطئاً راسي ، فخجل الرجل للغاية وأمسكني من يدي وساعدني لأقف على رجلي وقال إنني قائد هذه البعثة بلا منازع، وبدا كأنني كسبت الجولة .

وهنا التفت للقاضي زيد وتحدث بصوت مرتفع، بينما كانت إيلين تترجم كلمة بكلمة ما استطاعت لذلك سبيلا :-

« لقد اتهمت دكتور جام بأنه ترجم أحد النقوش بطريقة غير صحيحة، ويعني ذلك أنك تضع نفسك في مصاف الدكتور جام المعروف عالميا كواحد من أهم المرجعيات في الكرة الأرضية كلها في مجاله . لذلك أقترح أن يكتب ترجمته هو للحجر ونرسل الترجمتين لجلالة الإمام، وسننشرهما سوياً عالمياً لكي تطلع عليهما الدوائر الأكاديمية في كل الدنيا، وإذا وجدنا أن القاضي زيد محقاً في ادعائه فإنني ساعطيه ألف ريال ماريا تريزا وأفصل دكتور جام من البعثة . »

ضحك الحاضرون كلهم رغم أنني كنت حازماً وغير مازح، ونظروا جميعهم في اتجاه زيد الذي تمتم ببعض الكلمات بعد أن أرتج . وأخيراً ران صمت ثقيل على الحضور إلى أن تحدثت إيلين فشكرت الحاكم على تفضله بالاتفاق مع وجهة

نظرنا، وقبل أن نعطيه فرصة يغيّر رأيه فيها اقترحنا أن ترجع الثيران لمكانها الأول، ووافق الحاكم وعاد العمال إلى عملهم.

ذهبت للبوابة الكبيرة مع دكتور جام حيث كان يستنسخ النقوشات بنقلها على الورق، وذكر لي أن كمية القطع المنقوشة لا يصدقها العقل. القاعة الرئيسة محاطة بالحجارة المنقوشة بشكل طبقات ثلاث أو أربع، والأرضية نفسها تتألف من حجارة منقوشة، ومن حسن الطالع أن هناك لوحين من البرونز منقوشين وسالمين. ويقول البرايت إن الجميع فيما يبدو كانوا يكتبون صلواتهم ودعواتهم على لوحات برونزية أو على حجارة منحوتة ويعلقونها في المعبد، ولا شك إنه كانت هناك تجارة رائجة لها صلة بهذه الطقوس ، وقد استمرت هذه العادة لعدة قرون وبلغت قمتها بعد القرن الثاني ق.م وهو التاريخ الذي تعود له معظم الكتابات المنقوشة على تلك اللوحات. بعد القرن الثاني ق.م أخذ الناس يأخذون الحجارة المنقوشة نفسها ليبنوا بها منازلهم.

وأخذني دكتور جام إلى المكان الذي عثر فيه على تمثال مصقول لراس ثور من المرمر الأبيض، وفي سبأ القديمة كان الثور دائماً يمثل الإله «المقه» الذي كان يعرف بعدة أسماء ، منها «ثور».

وكان الماء ذات صلة وثيقة بالدين السبئي، بما أنها رمز للحياة نفسها في الصحراء ؛ وقد تم الكشف عن العديد من المذابح ومصاطب القرابين داخل المعبد، وكلها تتشابه ولها مجرى في الوسط ينتهي عند فوهة مزينة برأس الثور المنقوش عليها. وهنالك بئر في الجزء الذي لم يحفر حتى الآن ربما تعود لعهد بلقيس أو ما قبلها.

وعند ذاك جاءنا جمعة ليقول بأن الحاكم مرهق ويرجو أخذه بالسياره لقصره،

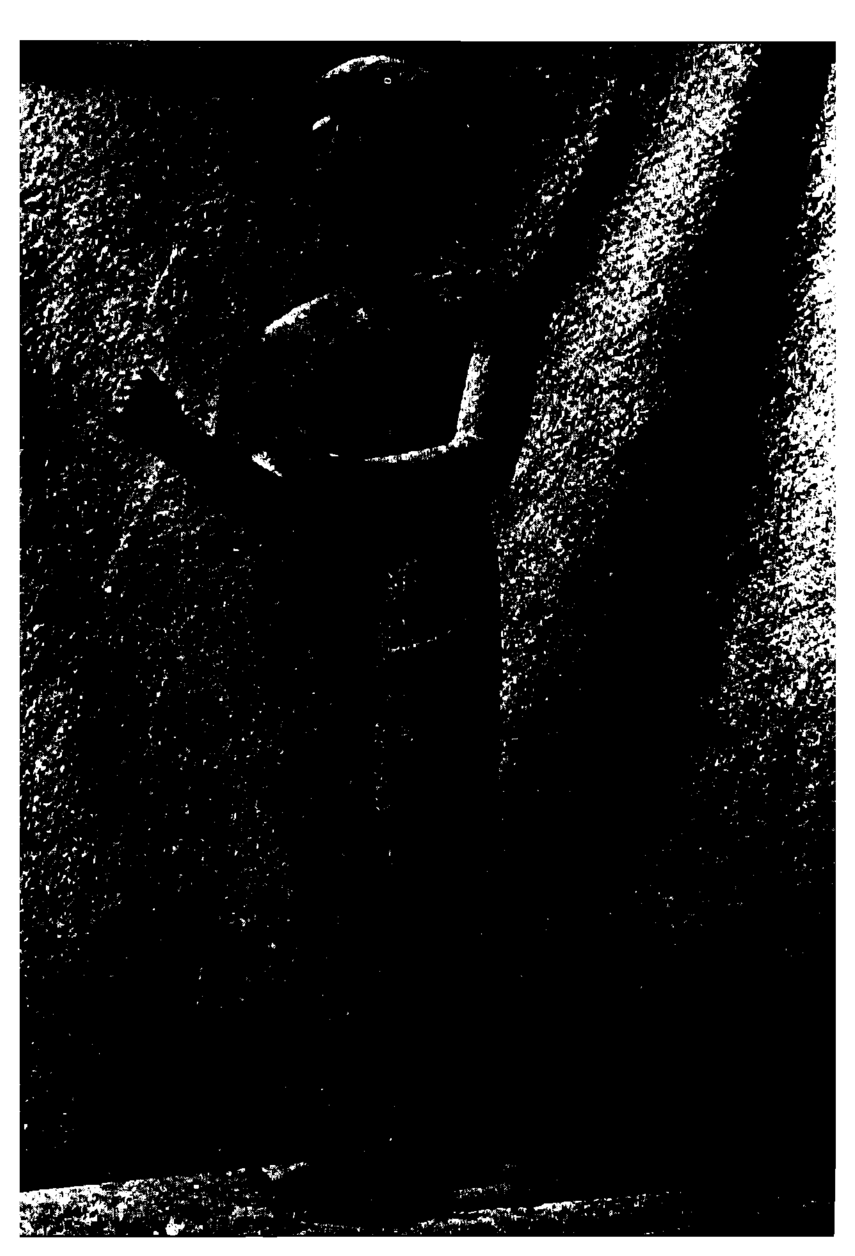
وركب الجميع، بما فيهم الأمير وزيد ونجيب، وقدت السيارة نحو مأرب وأنا في غاية النشوة. ولكني لاحظت زيد عنان يهمس طويلاً للحاكم كأنهما يطبخان شيئاً ما. ولما وصلنا مقر الحاكم أدخلنا للغرفة التي اعتقلنا فيها عند أول زيارة لمأرب في الموسم الماضي. وبعد فترة من الزمن أعلن الحاكم بصورة درامية أنه على دكتور جام أن يسلّم كل أوراق «اللاتكس» التي بحوزته، فكان ذلك كأنه اغتيال لعالم فك الرموز الكتابية الدكتور جام.

ثار جدل بيننا وبين الحاكم ومن معه لمدة ساعتين، وفجأة تذكرت حقيقة بديهية لم تخطر في ذهني من قبل، وهي أن أوراق اللاتكس ليست ذات قيمة للحكومة اليمنية، ولا يعرفون ما هي ولماذا نحن نثمّنها لهذه الدرجة، ولكنهم فقط يريدون أن يستحوذوا على أي شيء يظنون أنه ذو قيمة. وقد جادلتهم إيلين استناداً إلى نصوص العقد بيننا وبين جلالة الإمام، ولكن لا حياة لمن تنادي، ورغم أن إيلين فتاة صلبة وعاشت معنا ظروف حملات ثلاث من قبل دون أن تذرف دمعة في أي يوم من الأيام، إلا أنها اليوم انهارت وأجهشت بالبكاء وغادرت الغرفة. وهكذا انتهى اجتماعنا بالنتيجة التي تصلها الاجتماعات في اليمن عادة، وهي: لا شيء.

ومن الواضح أن موقف إيلين وخروجها باكية من الاجتماع أثر عاطفياً على الحاكم، فقد اتخذ بعض الإجراءات في ذلك اليوم لامتصاص آثار المواجهة بيننا وبينه، وقد تمثّل ذلك في دعوة إيلين لزيارة جناح النساء بقصره. ولكن إيلين تمنّعت في بادئ الأمر ولم تكن لديها أي رغبة في تلبية الدعوة، غير أننا أصررنا عليها أن تقبل الدعوة «من أجل البعثة».



الجزء الجنوبي من المبنى ذي الأعمدة بمعبد أوام



تمثال برونزي لـ (معد كرب) يعود للقرن السادس ق.م، وجد بمعبد (أوام بمأرب)



الفصل الثلاثون

الهــروب!

قصّت إيلين علينا قصة جناح «الحريم» بمنزل الحاكم فخفّفت عنا هموم العمل بعض الشيء، وقالت :-

«ادخلتني أمَةٌ صغيرةٌ بهواً مظلماً ، وكنت أسمع همساً ياتيني صداه من مسافة بعيدة، ثم رفع أحدهم ستارة فإذا بي أمام عشرين امراة على الأقل ، يرتدين ملابس زاهية ومزركشة وكن يحدّقن فيَّ كانني لعبة جديدة وغريبة.

«وأخيراً تقدمت زوجة الحاكم وحيتني وتبعتها الأخريات، وبالطبع اندهشوا كثيراً لما عرفوا انني اتحدث العربية، فاقتربوا مني أكثر وأكثر. لقد عاملنني برقّة، ولكنهن لم يشاهدن امرأة أوروبية في حياتهن، لذلك لمسنني وتحسسن بشرتي وفحصنني بحرص شديد من الراس إلى أخمص القدمين، وسألن عن «أحمر الشفاه» ، فشرحته لهن وأخرجت أصبعاً من حقيبتي ليرينه، فأخذن أصبع أحمر الشفاه ولطخن وجوههن، دون أن يضعنه على الشفاه. وعلقن على ساعتي وملابسي وطريقة تصفيف شعري.

«وأتين لي بالشاي ومعه طبق ضخم من اللوز والزبيب. وجلست زوجة الحاكم على طرف سرير وجلست الاخريات على الأرض حولي؛ وزوجة الحاكم مهندمة وأنيقة وجميلة وبيضاء اللون وشعرها أسود فاحم. وهناك فتاة عمرها خمسة عشر ربيعاً ترتدي ملابس بدوية وشعرها أشقر وعيونها خضراء وبشرتها سمراء. وهنالك سيدة أخرى رشيقة ودمها خفيف وعيناها واسعتان ومكحلتان، والكحل مادة سوداء يستخدمها العرب كثيراً في عيونهم، اتضح أنها أم لعدة أطفال ولما

تبلغ العشرين بعد . وسيدة أخرى من القبائل البدوية تشبه النسـاء المذكورات في « ألف ليلة وليلة »، ذات حسن وسحر وغموض، سمراء اللون وشعرها أسود وطويل جداً، وليس هنالك اي مساحيق تجميل على وجهها، وهي فعلاً لا تحتاجه، وكانت طويلة ورشيقة وتلك مزايا نادرة باليمن، وتحمل في حجرها طفلة رضيعة.

« ولما أخبرتهن بأنني أعمل كسكرتيرة وأقوم بالترجمة للبعثة تعجبن من ذلك ؛ وما لم يستطعن فهمه هو جلوسي مع الرجال وعدم لبس الحجاب. وتبادلت معهن الهدايا البسيطة، وودعتهن ».

« وبينما أنا في طريقي للاستراحة قابلني جمعة وقال بأن إحدى زوجات القاضي سمعت بزيارتي لحريم الحاكم وطلبت أن أزورها كذلك. ورغم أني كنت مرهقه وغير مستعدة لزيارة أخرى إلا إنني فضلت أن أذهب لها حتى لا أتسبب في مشكلة . وهكذا طلعت درجاً آخر ، ووجدت نفسي أمام سيدات أربع فقط. قابلتني زوجة القاضي عند الباب وقدمت لي ابنتها الجميلة والخجولة ذات الثمانية عشر ربيعاً، وقدمت ابنة اخت القاضي وطفلها الرضيع . وليس الأمر كمنزل الحاكم، إنهن سيدات ودودات وكريمات. شكت الزوجة من بعض الآلام وطلبت مني أن أخبر الطبيب علّه يرسل لها دواءً ، ولكني اقترحت أن أحضر الطبيب لها بالمنزل ليفحصها، غير انها ترددت. وحاولت أن أقنعها قائلة إنه رجل طيب ومتزوج وله أربعة أطفال ».

« وأخيراً ودعتهم وحمّلوني كمية من اللوز والزبيب ».

طلبنا الحاكم مرة أخرى في نفس ذلك اليوم وذهبنا له في المساء، أنا وإيلين وبوب وجمعة، وكان هذه المرة في غاية الحرج والخجل. قال الحاكم إنه نسي أمراً هاماً لم يبلغنا به في الاجتماع السابق: فلقد وصلته رسالة من الإمام بنفس الطائرة

التي احضرتنا من تعز، تقول إن شارلى ماكولم وجورج فارير ودك بصي الموجودين بعدن الآن غير مسموح لهم بدخول مأرب. ولما حدقنا في وجهه وقد عقدت الدهشة السنتنا ، قال بانه يشعر بالخجل من هذا الأمر وقد أبرق للإمام موضحاً أن هذه القافلة بالذات ستكون محملة بأشياء ضرورية للعمل كالأجهزة والبترول والطعام والدواء والإسمنت؛ ولم يصل رد من جلالة الإمام حتى تلك اللحظة. وفي تلك اللحظه عرفت لماذا طالب الحاكم بنقوده ولم ينتظر القافلة، فهو يعرف انها لن تحضر البتة.

ما كان لدينا ردٌ نقوله للحاكم، فقفلنا راجعين للمنزل. تذكرت أن الجرموزي جاءنا بالإذن لإقلاع الطائرة من تعز بعد ما أكدنا له أن شارلي سيأتي بالقافلة المحملة بالإسمنت لإصلاح العمدان المهشمة. والآن نفس الإمام يأمر نفس الجرموزي أن يبلغ مأرب بعدم دخول القافلة اليها. ما هذا التناقض؟ إنه ليس كذلك في واقع الأمر، بل مؤامرة مخططه مع سبق الإصرار لعزلنا في مأرب.

وهنا تساءل جمعة :-

« يا صاحب! لقد منعوا شارلي والآخرين من الانضمام إلينا؛ كيف نضمن أنهم سيسمحون لبوب بالرجوع إلى مأرب إذا ذهب لبيحان ليحضر المال؟ »

لا احد يعرف الإجابة عن هذا السؤال، وإذا ذهب بوب فإننا سنكون بلا خبير في شؤون السيارات، فالغينا تلك السفرية على الفور. وليس أمامنا إلا أن نواصل العمل، متمنين أن تصلنا أنباء الإفراج من تعز عن القافلة القادمة من عدن، وأن تتحسن الأمور بشكل عام. ولما وصلت الموقع في الصباح وجدت أن الأمير قد غيّر رأيه مرة أخرى وأمر بأن تعود الثيران للعمدان الثمانية وتزيل الرمال من تحتها كليةً. ليس هنالك حجة جديدة أسوقها لمندوب الإمام الذي انضم بشكل سافر



تمثالان من البرونز وجدا في معبد أوام



دكتور فرانك ألبرايت ممسكا برأس برونزية في مأرب

لمعسكر زيد عنان المصدر الأساسي لمشكلاتنا. وما أزعجني أن الأمير لا يتصرف بأمر من زيد ولكن بمعرفة الإمام، إن لم تكن أوامره المباشرة.

عدتُ إلى المعسكر لأتشاور مع بوب وجمعة، وأول فكرة خطرت بذهني سحب كل أعضاء البعثة من المعبد وترك اليمنيين لوحدهم، وبهذه الطريقة نكون قد رفعنا أيدينا ولا نتحمل ما سيحدث نتيجة هذه التعليمات المدمرة من الأمير.

ولكن جمعة نصحنا بالحذر الشديد؛ هنالك إشارات مزعجه في الأجواء، فقد حدث ليلة البارحة أن بوب حيّى أحد الجنود المكلفين بحراستنا قائلاً: «السلام عليكم»، فما كان من الجند إلا أن بصق أمام قدمه، ويعتبر هذا التصرف إساءة ما بعدها إساءة في العالم الإسلامي. واذا انسحبنا من الموقع، ماذا يظن بنا العمال وماذا يفعلون؟ ألن يطالبوا بحقوقهم، ونحن نواجه مشكلة سيولة بالعملة المحلية؟ الحل الوحيد هو أن نواصل العمل على أمل أن تتحسن الأوضاع وأن نحاول البحث عن حل لتغيير مجرى الأمور؛ فرجعنا للموقع بعد الغداء، فيليلاند وسكارف وإيلين وشخصي، وذهبنا لمنطقة سد مأرب لأخذ بعض اللقطات. وفي المساء جاءني جمعة متجهماً وقال:-

«يا صاحب. إن الحاكم يبلغك تحيته واعتذاره. فقد أبرقه الإمام من تعز قائلا بأنه لو لم يسلم دكتور جام اللاتكس اليوم فلن يكون هنالك عمل غداً، يوقف فوراً. كما رفض الإمام مرة أخرى توسل الحاكم بالإفراج عن شارلي والقافلة.»

وهكذا فلقد تبلور المخطط الرامي لحرمان البعثة من كوادرها وأكلها ودوائها ونفطها؛ الطعام الموجود يكفي لمدة أسبوع واحد، والأدوية أوشكت ان تنفد، والبنزين كذلك. وفكرت في إرسال برقيات والاتصال بالعالم الخارجي طالباً النجدة ولكن ربما لا تجدي فتيلا، إذ إن هذه البرقيات لن تغادر مأرب.

عقدت اجتماع حرب مع قادة الأركان وهم دكتور جام وإيلين وبوب وشستر وجمعة، واتفقنا حول شيء واحد: ما عادت المسألة هي الآثار، إنها البقاء على قيد الحياة؛ كيف ننسل من اليمن بسلام! وذكر جام بأنه مستعد لإعطائهم اللاتكس إذا كان ذلك سيخفف من حدة التوتر.

لابد من الاتصال بالعالم الخارجي، وبوب هو الشخص المناسب للذهاب لبيحان ومن هناك بث رسائلنا للعالم، ولكن السبب المعلن هنا هو إحضار مبلغ من المال لرد الدين الخاص بالحاكم. وأخذ بوب يعد سيارته للسفر صبيحة الغد، وقمنا نحن بكتابة البرقيات التي ستوجه للرئيس الأمريكي والأمين العام للأمم المتحدة ولمديري مؤسستنا، وكانت البرقية الموجهة للرئيس الأمريكي كالآتي:-

«سيدي الرئيس!

«إن بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان العاملة في مأرب عاصمة مملكة سبأ باليمن في مأزق خطير. مالم تتدخلوا بشخصكم مع الإمام أحمد فإن أرواح العلماء الأمريكان في خطر. وندل فيليبس». وآوينا لغرفنا وخلدنا للنوم، وفي الصباح الباكر صحوت على صوت الحراس وهم يمنعون جمعة من دخول غرفتي ويعاملونه معاملة خشنة جداً. ليس هنالك أي شك في أن الأزمة شارفت ذروتها. قررنا أن يصطحب بوب معه عثمان شقيق جمعة، وإذا حدث أي شيء لبوب يستطيع أن يواصل هو سيراً على الأقدام، فهو عدّاء ونشيط. وهكذا حمل بوب الأفلام مخفية معه، وأخفى الرسائل في جوربه. واستعد للسفر، وعندما همَّ بمغادرة المعسكر في الصباح تم تفتيشه بصورة دقيقة، وأخيراً تحرك بوب وبجواره عثمان نحو بيحان، والحمد لله.

الاتفاق هو أن يرسل بوب البرقيات ويتصل بشارلي في عدن ويخبره بألا يحاول

المجيء إلى مأرب البتة.

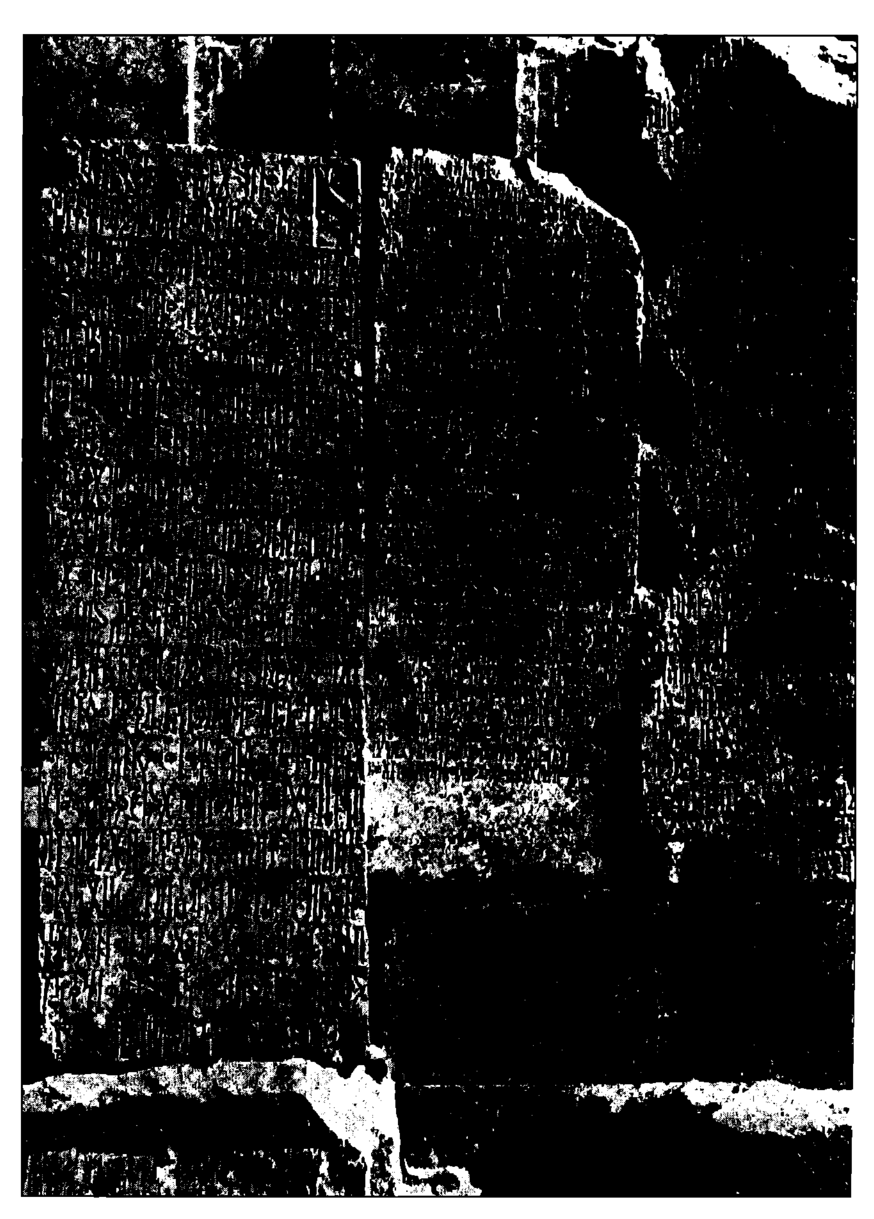
وفي موقع العمل أصدر الأمير تعليمات شاذة أخرى، إذ طلب إحضار الحجارة المنقوشة التي نقلت للمخزن من قبل. أما فيما يختص باللاتكس فقد قررنا أن نستغل هذه المسألة لنكسب مزيداً من الزمن، وذلك بالتسويف ومواصلة العمل في استنساخ النقوشات لكي نبدو كأننا حريصون على إنجاز المهمة التي طلبها الإمام.

بعد الغداء جاءني جمعة قائلا إن الحاكم مطلوب في تعز من قبل الإمام ومعنى ذلك أننا سنكون تحت رحمة الجنود بلا كابح. وقال جمعة إنه سمع جنوداً يتناقشون البارحة حول أفضل طريقه لقتل جزء من أعضاء البعثة. وأول من يريدون أن يقتلوا هو دكتور جام، بعده بوب ثم وندل. أما إيلين فانهم سيختطفونها ولن يسمع بها أحد مرة أخرى.

أما كيفية القتل فإن أحد الجنود سيعطي امراً سخيفاً لجام وإذا لم ينفذه فإنه سيهاجمه بالجنبية ومعه آخرون ، وإذا جاء وندل لحمايته فإنهم سيطلقون عليه النار من الحيطان ومن كل مكان.

هذا هو السيناريو كما سمعه جمعة من بعض الجنود وهم يتناقشون في هذا الأمر. عندما تتم الاغتيالات فإن الجنود يستطيعون أن يجمعوا عدداً من الشهود الذين يشهدون زوراً بأن جماعة البعثة هم المخطئون. أما باقي أعضاء البعثة فإنهم سيعتقلون ولن يعطوهم فرصة للدفاع عن أنفسهم . ليس هنالك هول أعظم من أن تكون تحت رحمة الغوغاء الذين اذا استثيروا فإنهم يفقدون صوابهم البتة. إنني أعرف ذلك جيداً بحكم التجربة.

إنني أصدق الرواية التي قصّها جمعة، فقد عاش كثيراً مع اليمنيين وخبرهم



النقوش السبئية التي اكتشفت بكميات هائلة حول القاعة ذات الأعمدة بمعبد أوام



الكاتب في مأرب ممسكا بتمثال برونزي ضخم لرجل بنعلها

تماماً. تحدثت مع شستر عن الوضع الخاص بالسيارات: إحداها في حالة جيدة، والثانية تحتاج لبطارية. أمّا بالنسبة للبنزين فيمكن الاستفادة من بنزين المولدات الكهربائية. ولما سألته عن إمكانية هذه السيارة في قطع الصحراء بين مأرب وبيحان، قال شستر إنها قد لا تستطيع، لأن الونش غير موجود لجرها في حالة الغوص في الرمال. فقررنا أن نستخدم السيارتين، نأخذ فيهما العاملين بالمؤسسة بدون أي أغراض. ورأي شستر أننا يجب أن نغادر في صباح الغد الباكر لأن البنزين لا يكفي لأي مشوار آخر، واستقر رأينا على القيام في الغد الباكر صوب بيحان على الطريق الذي استصلحه شستر . ووافق الجميع على هذه الخطة. وقال دكتور جام إن الهروب محفوف بالمخاطر ولكنه أفضل من البقاء وانتظار المصير الحالك الذي ينتظرنا. وأخبرنا البرايت وجمعة ولكن لم نخبر حتى الصوماليين العاملين معنا لكي لا يخبروا أحداً. وقد تمكن جمعة من إيجاد طريقة لتعبئة البطارية لدى أحد الموظفين المحليين في خلال خمس ساعات . والمشكلة بعد ذلك كيف ننقذ الموظفين الآخرين الذين جلبناهم من خارج اليمن، وهم ثمانية صوماليين ومصريان، (إضافة إلينا، وعددنا تسعة).

ولتغطية تحركنا صباح الغد نشرنا إشاعة بأن فيليلاند سيقوم بتصوير سينمائي في المعبد في الصباح، ويريد لإحدى اللقطات أن تضم كل المشتركين في المشروع بالمعبد، ولذلك لابد من حضور كل الناس بالمعبد، ولهذا فإن المبرر قد وجد لذهاب العاملين بالمعسكر من طباخين وعمال نظافة إلى المعبد. وقد أخذ فيليلاند كثيراً من اللقطات والأفلام وقد فرح بها اليمنيون، ويحاول المسؤولون دائما أن يظهروا في الصور. ثم أخبرت جماعتنا بألا يحملوا أي شيء معهم سوى آلات التصوير والأوراق الهامة والملابس التي يرتدونها، وذلك ليس فقط لتخفيف الحمل

على السيارتين ولكن حتى لا نثير فضول الجند. ويجب أن نبدأ رحلتنا من المعبد لعدة أسباب: التحرك من المعسكر نحو الطريق إلى بيحان سيجلب شك الحراس وسيطلقون علينا النار. وحتى لو أفلتنا من نيرانهم فإنهم سيرسلون برقية لحامية حريب لكي تعترض سبيلنا. أما التحرك من الموقع فهو أسهل، والجنود هناك أقل عدداً. ومن أهم العوامل التي كانت في صالحنا أن اليمنيين لا يمكن أن يصدقوا أن إنساناً عاقلاً يترك وراءه كل هذه الأجهزة والمعدات الثمينة ويهرب، وهذه الأشياء بالنسبة لهم قد تكون أكثر قيمة من الحياة البشرية.

في أثناء تناول العشاء حددنا لكل واحد مكانه بالضبط على كل من السيارتين، وقد استكب البنزين من السيارات الأخرى وأضيف لخزانات السيارتين اللتين سنهرب بهما، ولم يلاحظ أحد شيئاً غريباً في ذلك إذ إن شستر دائما يعمل في تصليح وصيانة السيارات، كما سمع الجنود بالتصوير السينمائي صبيحة الغد. وقد خبأ جمعة طعاماً وماء للشرب في السيارتين، وكان منظراً مضحكاً أن ترى العامل الصومالي وهو ينظف السيارتين من أجل التصوير في اليوم التالي. وطلبت من الجميع أن يخلدوا إلى النوم مبكرين استعداداً لتجربة الغد. طلب جمعة من الصوماليين جوازاتهم لأنني أريد أن أفحصها، وإلا تركناها وراءنا. وبحثت إيلين عن الورق والمذكرات الهامة لأخذها معنا. وأعد جمعة وشستر البنادق والمسدسات وعبأوها رصاصاً. وحتى الساعة الخامسة والنصف صباحا لم يستطع جمعة وشستر أن يضعوا الماء والبنادق في السيارتين لكي لا يلفتوا النظر.

مع انبلاج الصبح أخذ كل واحد من المجموعة يمارس الدور المناط به بهدوء وكفاءة عالية. وكان هذا اليوم يحمل تاريخا غير عادي، وهو الثلاثاء ١٢ فبراير

١٩٥٢م، فهو يوم عيد ميلاد لنكولن. وخرجت الساعة السادسة والأربعين دقيقة كما هو مقرر. وستلحق بي السيارة الثانية بعد دقائق أربع، وهذه المواعيد المبكرة هي بغرض تجنب الحاكم أو الأمير أو زيد عنان.

أشار شستر برأسه ففهمت أنهم وضعوا الماء والأسلحة في السيارات بدون أن ينتبه أحد لذلك، وظهرت إيلين بفرائها الفاخر. وما إن أدرت محرك السيارة حتى ظهر القاضي ونجيب وركبوا معي السيارة ومعنا الجنود. والسيارة الأخرى أيضاً تحركت وكانت بحالة جيدة بعد أن تم شحن البطارية.

اتجهنا نحو المعبد في صباح منعش وصحو، وبدأت الشمس ترسل أشعتها فتحدث ظلالاً مستطيلة تنعكس على الرمال. ورأيت سيارة شيستر بالمرآة وهي محملة بعشرات الجنود. وأبطأت الخطى قليلا حتى تسير سيارتانا جنباً إلى جنب من دون أن يثير ذلك شكاً عندما نقوم به مرة ثانية بعد التصوير. ووقفنا على الطرف الأبعد من المعبد. في نقطة يصبح التحرك منها سهلاً. وبتوقيت مضبوط نزل دكتور جام ومعه برميل صغير مليء إلى نصفه باللاتكس، وقد سمح له باستخدامه ، وهبط معه الجنود . وكذلك هبط زيد ونجيب وقلت لهما: (نحن سنسير قريبا لأخذ أفلام ، وأنت أيها القاضي زيد عنان، الرجاء أخذ مكاني لتصبح وندل فيليبس حتى نعود بعد دقائق.)

وضع دكتور جام اللاتكس وعاد بهدوء للسيارة. جلس جمعة أمام عجلة القيادة كما هو متفق ووقفت اتحدث بعفوية مع زيد ومحسن، وما إن ركبت معه حتى انطلقت السيارة خلف شستر ، وبذلك كنت قد تفرغت للرد على الجنود إذا لاحظوا شيئاً، ولكنهم لم يحركوا ساكناً، فقد أخذناهم على حين غرة وكل ما فعلوه هو النظر باستغراب لزيد عنان الذي لن أنسى التعبير الذي كان على وجهه:



جلالة السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعُمان



الشيخ حمود بن حامد والي ولاية ظفار بسلطنة مسقط وعُمان

الحيرة في أسمى معانيها. ثم صاح الجنود قائلين شيئا لم أتبينه، ولم يخالجني شك في أنني كنت سأطلق النار على الجنود إذا بدأوا بإطلاق النار لأنني كنت في وضع أفضل إذ لم أحس بالمفاجأة التي أحسوا بها، بالإضافة إلى أنني كنت ممسكاً بمسدس كولت في كل يد. كنت أخشى الجنود الواقفين على الجانب الآخر من المعبد، ولكننا ابتعدنا عن مدى بنادقهم في لمح البصر بفضل الشاحنات «بوار واقن» الممتازة.

ربما يدرك زيد نوايانا على الفور ولكنه سينتظر بعض الوقت قبل أن يخبر الحاكم، والحاكم سيستشير الأمير، وذلك قد يعطينا نصف ساعة من الوقت، أو إذا كانت حيرتهم شديدة فقد يأخذ ذلك ساعة ونصف. وبعد ذلك سيخطرون حاميه حريب وهي على بعد خمسة أميال من طريقنا. هل يصل الخبر قبلنا ويغلقون الطريق أمامنا؟ هذا ما سنعرفه عندما نصل وادي حريب.

لقد تناقشنا في ذلك أنا وشستر ليلة البارحة. ونحن نعرف أن اللاسلكي يعمل حتى الثامنة والنصف صباحاً، وكان يمكننا أن نبدأ الرحلة في وقت متأخر عندما يكون الراديو متعطلاً، ولكن بعد الثامنة تلهب الشمس الرمال فتتفتت وتصبح القيادة فوقها صعبة وقد تتعطل السيارات بسبب المجهود في مغالبة الرمال. وكذلك لو تأخرنا كان الأمير والحاكم سيطلان على المعبد بأسئلتهم الكثيرة وشكهم في كل صغيرة وكبيرة. لذلك فإن ما راهنا عليه هو وصول وادي حريب قبل الرسالة المحتملة من حاكم مأرب.

بعد دقائق عشر طلبت من جمعة أن يوقف السيارة وتبادلت معه المواقع، وسرنا بعد ذلك لمدة ساعة بدون توقف وبدون أن نمر بأية مشكلة. بعد ذلك بدأت الكثبان العالية، وفي أول واحد منها اضطررت لإنزال كل الركاب، وعبرت التل

الرملي ، ولكننا تاخرنا بعض الشيء وضاع منا زمن هام، أصبحت أشعة الشمس حارة ولكن ليست هنالك رياح وبالتالي ليس هنالك غبار يعتم الرؤية.

ومرة اخرى توقفت سيارة شستر في الرمال السائبة، وربطنا جنزير الونش حول صخرة على مسافة منا وتحركت نحوه السيارة وهكذا انقذنا السيارتين. ومرة اخرى اضعنا ثلاثين دقيقة هنا. واصبح وادي حريب قاب قوسين أو أدنى . وقدت سيارتي لموقع متقدم على سيارة شستر حتى أكون في المقدمة من الآن فصاعداً . وسرنا باسرع ما يمكن فوق وادي حريب المسطح ، وكان جمعة والآخرون يتطلعون إلى جهة حريب علهم يرون الجنود خارجين بجمالهم ، ولكن شيئاً لم يحدث.

سمعت إيلين تصرخ بأعلى صوتها فقد رات كمية ضخمة من العساكر على ظهور الجياد والجمال يركضون باتجاه سيارة شستر، واخذت إيلين تصيح لشستر: «أسرع! أسرع يا شسترا» ولكن شستر ايضا رأى الجنود وانعطف يساراً لكي يتجنب رصاصهم ، وتمكن من ذلك فعلاً.

أبطأت السيارة قليلاً، ثم اسرعتُ لما عرفتُ أن السيارة الأخرى قد نجت ، وأسرع كلانا خارجين من الوادي تاركين خلفنا غباراً كثيفاً، وذلك كل ما جناه اليمنيون منا.

لقد خرجنا من منطقة الخطر، ولكنا نعلم أن اليمنيين لا يحترمون الحدود وقد يدخلون لنا في وادي بيحان إذا احسوا بانهم يستطيعون اعتقالنا. وسرنا بسرعة عادية، إلى أن رأى جمعة صبياً من البدو يلّوح لنا بورقة . إنها رسالة من بوب كتبت في بيحان تقول بأنه لم يجد الشريف حسين ولا الشريف عوض لذلك فقد ركب طائرة سلاح جوي بريطاني الى عدن ليرسل البرقيات. وقد طربنا لهذه الأخبار. فإذا لحق بشارلي وجورج ودك قبل أن يغادروا عدن يعني ذلك أنهم لن

يذهبوا إلى اليمن ، وإذا أصبح كل المشتركين في البعثة خارج اليمن فذلك معناه أنهم خارج منطقة الخطر.

ومن هناك دخلنا وادي بيحان ، ورغم حرارة الجو فإن السعادة التي أحسسنا بها لا تعادلها سعادة.

الفصل الحادي والثلاثون

اتهامات واتهامات مضادة

كان الشريف عوض والشريف صالح بن ناصر هم أول من حيّانا في بيحان القصب، ويا لها من مفارقة بين هذا الاستقبال الحار وتلك العدوانية البَغيضة التي هربنا من بين فكيها! ويا له من شعور رائع أن تحس بحريتك وتستمتع بها مرة أخرى!

وبينما كنا نهنئ بعضنا بعضاً بسلامة الوصول، جثا دكتور جام على ركبتيه وقبّل الرمل وهتف قائلاً: عاشت الحريه!

لم نجد الشريف حسين ونجله الأمير اللذين كانا في مهمة بعدن، فاجتمعتُ، وبصحبتي جمعة، بالشريف عوض وصالح بن ناصر لنناقش موضوع أمننا في بيحان، فلقد سمعنا بحرب كانت دائرة بين أهل بيحان واليمن قبيل شهور وقد يهجم اليمنيون في ذلك اليوم الذي وصلنا فيه، وبدا الشريف صالح بن ناصر جاداً وقال إن هناك معركة مشتعلة في تلك اللحظة نفسها.

ولقد أكد لنا هذان المسؤولان أننا في مأمن في كنفهم وهم مستعدون للذود عنا بأرواحهم، وذكر جمعة بأن قوات استطلاعية قد أرسلت إلى مشارف بيحان لترى ما إذا كانت هناك جهات غازية، ومن المستبعد أن يتم هجوم يمني مباغت في تلك الليلة.

وقد أحسن الشريف عوض وفادتنا وأنزلنا بقصر الأمير الذي كان غائباً، وجلسنا كلنا سويا لتناول العشاء وكانت أول وجبة نجتمع حولها ونحن بهذا القدر من الراحة النفسية منذ زمن طويل. وخاطب الشريف عوض إيلين في أثناء

تناول قدح القهوة قائلاً إن جواسيسه قد أخبروه قبل يومين أن قاتلاً مسلحاً كان قد غادر صنعاء متجهاً إلى مأرب لتنفيذ مهمة محددة وهي تصفيتي، وبما أثبتته التجارب السابقة فإن جواسيس الشريف لهم مصداقية وأخبارهم صحيحة مائة في المائة، فأحسست بسعادة غامرة أنني مازلت على قيد الحياة، وزادت سعادتي عندما تلفت يمنة ويسرى فوجدت كل أعضاء البعثة أحياء . إن حياة كل فرد من أفراد الفريق هي مسؤولية قائد الفريق (بعد الله) ، ورغم الخسارة الجسيمة في الأجهزة والمنجزات العلمية، فإن سعادتي كانت فائقة بحضور كل أعضاء حملة مأرب. بيد أني كنت قلقاً على حياة كلٍ من شارلي وجورج ودك، وظللت أحاول طوال الليل أن أبعث لهم ببرقية لتوضيح الموقف ، وحاولنا أن نرسل البرقية للمحطات السابقة للحدود اليمنية والتي لابد للقافلة أن تمر بها، فأرسلنا برقية لكل من محطة موديه والصعيد والمحفد، وأخيراً وفي تمام الساعة الرابعة صباحاً وصلتني برقية من بوب في عدن تقول بأنهم تمكنوا من الاتصال بشارلي قبل أن يصل الحدود اليمنية وتم تدارك الموقف، والقافلة الآن في طريقها عائدة إلى عدن. وبعد هذه الأخبار المفرحة خلدت للنوم أخيراً.

سرنا نحو تمنع في الصباح، مارين بمضارب قبيلة بلحارث حيث استقبلنا الشيخ علي والشيخ عبد الله بحري استقبالاً حاراً، وجلسنا مع الشيخ علي في خيمته حيث روى له جمعة ما جري لنا في مأرب، فالتفت الشيخ علي لابنه ومنذ تلك اللحظة حتى ركبت طائرة السلاح الجوي البريطاني فإن الشيخ عبد الله لم يفارقني ولا ثانية واحدة، وقد جاءتنا تلك الطائرة من قبل السير توم هكنبوثام الحاكم العام البريطاني بعدن.

زارنا الشريف حسين في أول ليلة لنا بعدن معتذراً عن عدم وجوده في بيحان

في أثناء وصولنا لها، ثم روى لنا قصة :-

« أراد أحد الشيوخ مرة أن يتزوج ، وكان أمامه عرضان، والبنتان جميلتان ومن نفس السن والوضع الاجتماعي، وكل والد من والديهما طلب مهراً معيناً، فطلب الأول ألفي ريال، والثاني مائتي ريال فقط. وافق الشيخ على الأولى بدون تردد وقرر أن يدفع ٢٠٠٠ ريال ماريا تريزا لأنه أراد أن يظفر بأغلاهما مهراً لأن ذلك يعني أن الحصول عليها أمر صعب. »

والتفت الشيخ نحوي قائلاً :-

« أما أنت أيها الشيخ حسين فقد أتيت أولاً لبيحان حيث استقبلت استقبال الملوك ، ولكنك لم تقنع بعروسنا ذات المائتي ريال، وفضلت ان تذهب لمأرب لأنها عروس مهرها ألفا ريال ماريا تريزا. »

وما احتاج الشريف لإكمال القصة، وصفقنا له طويلاً. وقد طلب منا الشريف حسين وابنه الأمير صالح أن نعود لتمنع ونواصل حفرياتنا الأثرية فيها. ولكني هززت رأسي حزينا وقلت لهما إننا قد نعود ذات يوم إن شاء الله ، وودعتهما في تلك اللحظة.

ولقد أخبرت القنصل الأمريكي في عدن، قبيل مغادرتي، أن هنالك بعض ديون مستحقة علينا في مأرب لم نستطع سدادها لظروف خارجة عن إرادتنا، وطلبت منه أن يؤكد للحكومة اليمنية أننا على استعداد لدفع هذه المبالغ بمجرد ان نتأكد من أنها ستصل العمال المعنيين أنفسهم وليس لآخرين لا دخل لهم بعملنا. وفي صباح اليوم التالي وجدت نفسي محاطاً بوكالات الأنباء والصحافة العالمية يستفسرون عمّا روجته الصحافة اليمنية عنا من اتهامات متعددة ومتنوعة. ونسبة لجسامة خسائرنا المادية بسبب المعدات التي تركناها في صنعاء فقد نشرت

خطاباً مفتوحاً لإمام اليمن في الصحافة العالمية ، وهو كالآتي :-

« إلى صاحب الجلالة الإمام أحمد حميد الدين - القصر الملكي - تعز.

« لقد ضحيت بمعدات قيمتها مئتي الف دولار في سبيل ان انقذ حياة زملائي الامريكان والمصريين والصوماليين. إن الأطلال الموجودة في مارب هي من أهم الكنوز الآثارية المتبقية في العالم ومعبد المقه هو شيء متفرّد تماماً. لقد أمطنا اللثام عن جزء من هذا المعبد وما لم تتدخل شخصياً وتحميه فإنه في خطر من قبائلك البدوية المحيطة به وعندئذ ستفقد البشرية معلماً إنسانياً وعلمياً هاماً . الرجاء تقدير قيمة الأشياء التي تركنا من سيارات ومولدات وأجهزة علمية ووثائق ومنقوشات كما أرجو أن تحموا الأثريات التي اكتشفناها حتى لا يعبث بها موظفوكم وأفراد القبائل المنفلته بتلك الديار . لقد لجأت لهذا الخطاب المفتوح لأنني لم أفلح في مقابلة جلالتكم.

مخلصكم وندل فيليبس

عن « المؤسسة الأمريكية لدراسة الانسان »

بعثة اليمن

كانت تلك بداية حملة استمرت عاماً ونصف لاسترجاع شيء من الممتلكات التي تركناها في مارب . ولقد كان عوضنا في القافلة التي عاد بها شارلى من مشارف اليمن، فوجدنا أنفسنا نمتلك بعض المعدات والإمكانيات التي قد تسمح لنا بمواصلة نشاطاتنا كبعثة استكشافية. وهنا ثار السؤال الطبيعي : ثم ماذا بعد؟ الوضع الطبيعي هو أن نلملم أطرافنا ونعود لبلادنا حتى تلتئم جراحنا، ثم نبدأ مرة أخرى في استقطاب الإسهامات التي قد تؤهلنا للشروع في مغامرة آثارية جديدة. ولكن ذلك لم يرق لي تماما، ووجدت نفسي أفكر في المسألة محاولاً أن

أجد وسيلة لتحويل هزيمتنا إلى نصر. وهنا وجدت نفسي أتذكر صديقي السلطان سعيد بن تيمور ، سلطان مسقط وعمان، الذي كان قد شجعني عام ١٩٤٩م على العمل في ظفار ، ولكنا في ذلك الوقت كنا نركز على تمنع ثم مارب بحثا عن آثار المدن القديمة السابقة للدولة الحميرية. وقد خطر لي الآن احتمال وجود تلك الثقافات القديمة وارد أيضا في عُمان، رغم ان أحداً لم يذكر ذلك. بيد أني تساءلت: هل ترغب بنا عُمان؟ الم تؤثر أحداث مارب على سمعتنا في العالم العربي؟

ارسلت برقية لسلطان مسقط وعمان عن هذا الموضوع ، وبينما كنت انتظر رده ملأت اليمن الدنيا بأخبار متناقضة عن بعثتنا في مارب، وقد نشطت سفارات اليمن في القاهرةّ ولندن وواشنطن في إشاعة هذه القصص الملفّقة عنا، ولقد ردت الصحف اليمنية على خطابي المفتوح، ونشرته الصحافة العالمية في صفحاتها الأولى ، وأصدر الإمام أوامره بطبخ مؤامرة تلقى اهتماماً صحفياً أكبر من خطابي المفتوح وتسهم في الإساءة لسمعة البعثة.

وقد وجدت سفارة اليمن في القاهرة ضالتها عندما اتهمتني بتهريب تمثال كامل من الذهب الخالص لبلقيس ملكة سبأ. أما سفارة اليمن في واشنطن فقد التزمت بالتحفظ إزاء هذه الأكذوبة. فكما يعلم جميع الموظفين اليمنيين بمأرب وجنودهم وكل سكان تلك المدينة لم نعثر على أي تمثال أو أي شيء مادي آخر يدل على بلقيس، والقطعة الذهبية الوحيدة في كل حفرياتنا بمأرب كانت كرة صغيرة صادرها القاضي زيد عنان فوراً. والجزء الذي أمطنا عنه نقاب الرمل من المعبد يعود للقرن الخامس ق.م ، بينما عاشت بلقيس في عام ٩٥٠ ق.م، وتلك حقيقة ليست مهمة في الدوائر الدبلوماسية اليمنية ولكنها من الأهمية بمكان

بالنسبة للأوساط الأكاديمية والجهات المرتبطة بعلم الآثار.

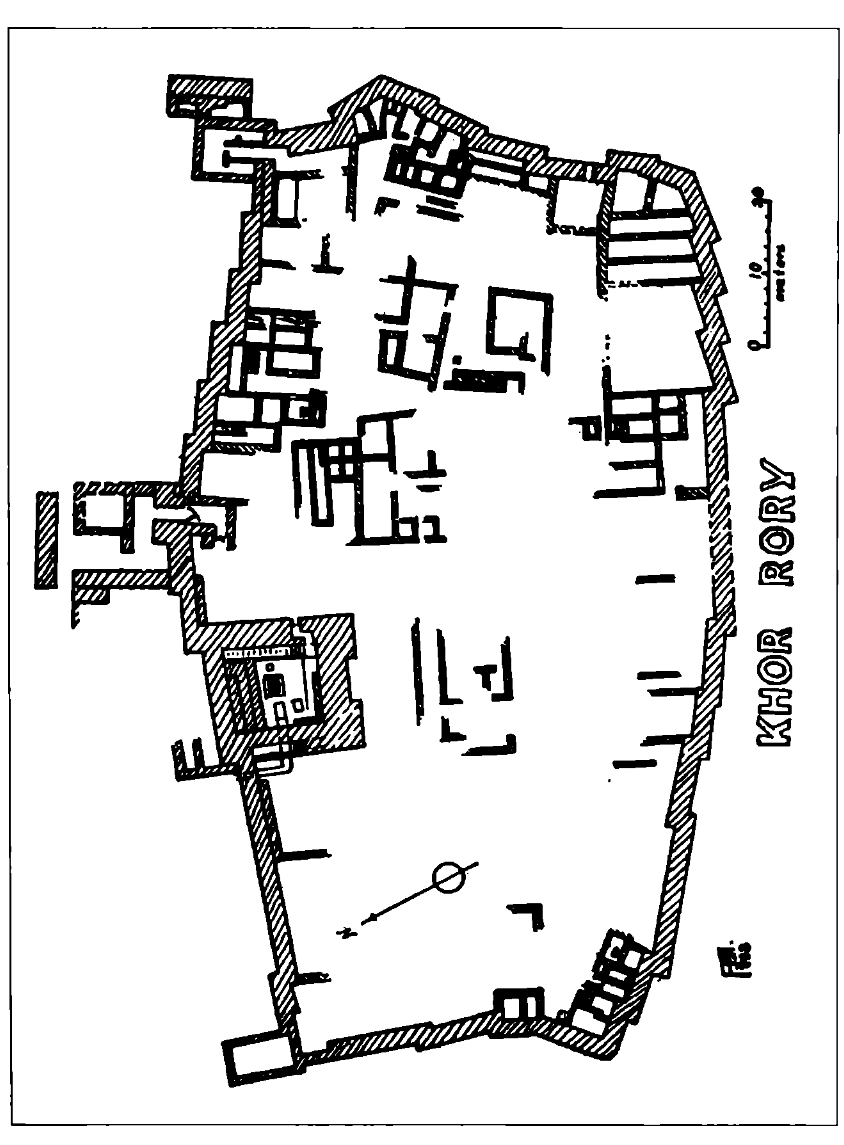
وقد تحدثت كثير من المصادر اليمنية حديث الإفك أيضاً عن الجوانب المالية الخاصة ببعثتنا ، فقالت سفارة القاهرة إننا مدينون بمبلغ ٣٦٢٠ ريال ماريا تريزا، وسفارة واشنطن قالت ٢٨٠٠ ريال، والصحافة العربية بعدن تحدثت عن مبلغ ١٦٧٠ ريالاً، كما أخطر القنصل الأمريكي في عدن رسميا أن الدَين يبلغ ٥٤٤٢٫٥ ريال ماريا تريزا. وقد حاسبونا بإيجار المخزن وبخدمات الحراسة من قبل الجنود (الذين هددوا حياة دكتور جام)، وحسب سجلات بوب الموقعة بواسطة حاكم مأرب بالقلم الأحمر فإن الدين يبلغ ٢٩٩٥ ريال ماريا تريزا.

قال السيد عبد الرحمن أبو طالب القائم بالأعمال اليمني في واشنطن في مؤتمر صحفي إن البعثة لم تكن في أي خطر، ولكن هذا الرجل نفسه لا يستطيع أن يغادر منزله في اليمن إلا بحراسة مشددة ، ويعرف كذلك أن إمامه نفسه لا يستطيع أن يذهب إلى عاصمة بلاده صنعاء لأسباب أمنية منذ اغتيال والده قبل عدة سنوات.

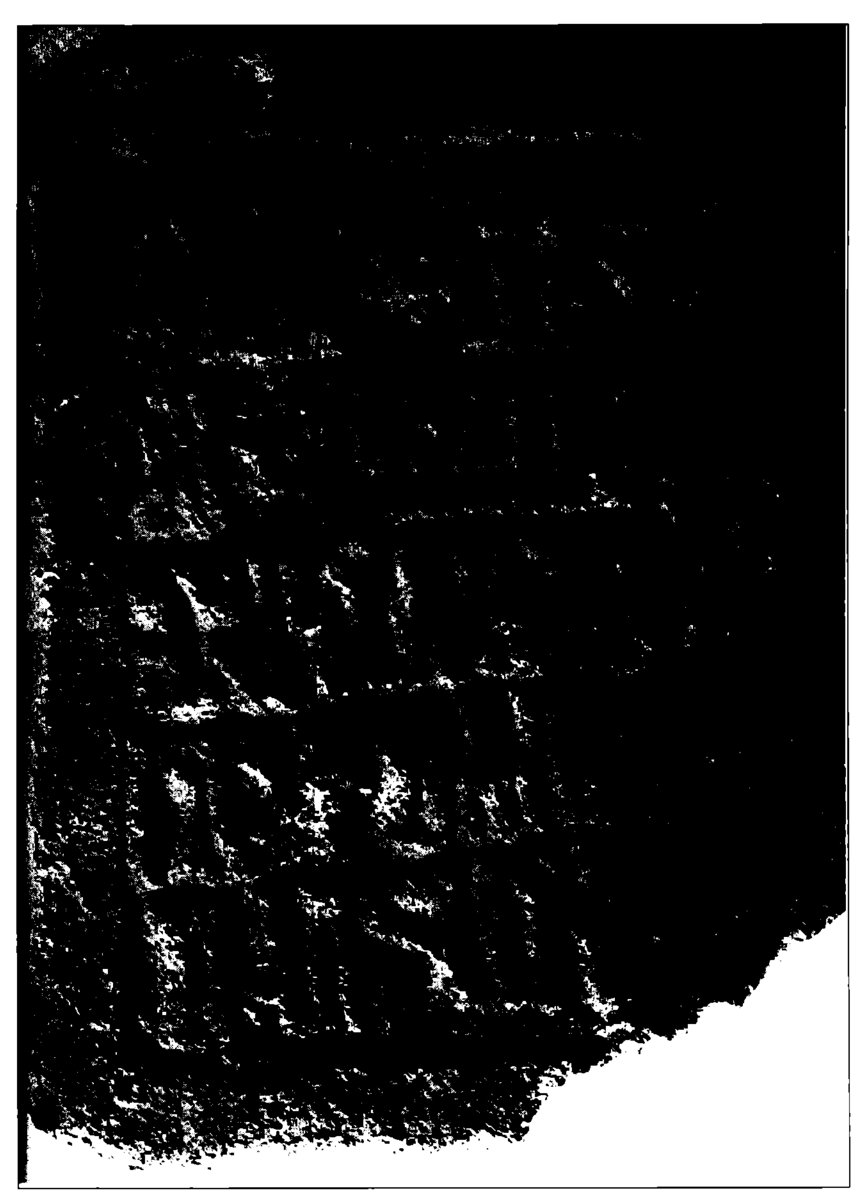
ومن الواضح أن هذه الروايات لم تؤخذ مأخذ الجد في العديد من الدوائر، كما يدل على ذلك مقالان ظهرا في جريدة (الفضل) . تقول المقالة الأولى التي أرسلها مراقب من تعز:-

[«لقد عرف كل الناس في تعز القرار الذي اتخذ بصدد التحرش بالبعثة الأمريكية وطردها من البلاد، ولقد استمرت المشاورات الخاصة بهذا الموضوع لمدة شهرين بين تعز وصنعاء ، وكان الهدف الوحيد من زيارة الأمير عبد الله إلى مأرب إعطاء التعليمات مشافهة لموظفيه هناك. وتهمس مصادر عليا بقصر الإمام بتعز قائلة إن ذهاب الأمريكان إلى مأرب ترك لديهم شعوراً بالندم من بادئ الأمر. وم

حـدث بعـد ذلك كـان ضـرورياً لـتصـحيح ذلك الخطأ . ويقـول الـشيخ اليـدومي رئيس القضاء والصـديق الـشخصي لجلالة الإمام : (هـذه الآثار هي العيون التي أراد العـالم ان ينظر الينا بـها، ولكـننا الآن اغـمضنـاها) من المؤكـد ان جلالـة الإمام غـيّـر رأيه رغم أنه كان قد أعطى البعثة إذنا كتابيا لإجراء حفرياتـها في مأرب »] .



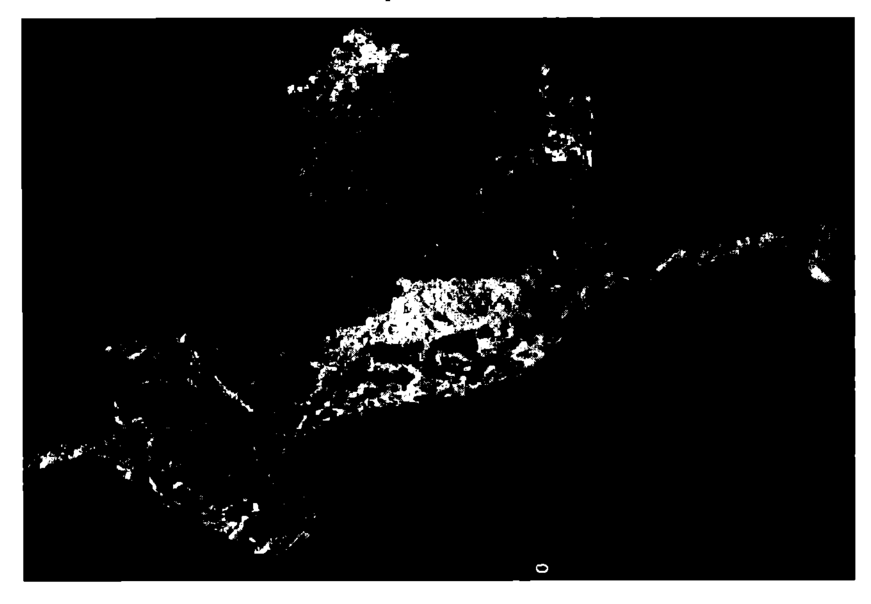
خريطة لما ظهر حتى الآن من الميناء القديمة (سمهرم) بالقرب من خور روري في ظفار
النقوش تعود بميناء (البخور) للقرن الأول ق.م وتشير إلى أنها كانت آنئذ مستعمرة حضرمية



أول نقش من الفترة السابقة للإسلام يكتشف في ظفار



تمثال راقصة من البرونز وجد في خور روري بظفار



ثور من البرونز يمثل إله القمر وجد في ظفار

الفصل الثاني والثلاثون
عُمان المجهولة

« كان الحر قائظاً لدرجة أن النخاع احترق داخل العظام، وذاب السيف كالشمع في غمده، وتحولت الحجارة الكريمة التي تزيّن مقبض الجنبية إلى فحم، واصبح القنص في السهول أمراً سهلاً لأن الصحراء اكتظت بالغزلان المشوية بلفح الهجير. »

هكذا كتب عبد الرزاق الفارسي واصفاً مسقط عام ١٤٤٢م. وفي أغسطس ١٩٤٩م، عندما زرتها أول مرة، أدركت الحكمة في ذلك التقرير المناخي القديم، ولكن عندما ذهبت مع قائد البحرية جيليلاند في فبراير ١٩٥٢م كانت الأمسيات في مسقط باردة ومنعشة.

لقد تلقيت رداً من جلالة سلطان مسقط وعمان على برقيتي مانحاً لنا تصريحاً بمقابلته، ولما لم نجد وسيلة أسرع ركبنا سفينة هولندية اسمها « لبرتي »، ووصلنا مسقط بعد خمسة أيام، بينما انتظرنا الباقون في عدن. وقد كنت قلقا على بوب كارميان بالذات لأنه أُصيْبَ بمرض بالملاريا وهو الآن في المستشفى العسكري البريطاني بعدن، ومعه شستر ستيفنز الذي يعاني من داء في الكبد. ولكن هذه السحب التي تلبدت في سمائنا يتخللها خيط من نور فضي وهو سعادتنا بأنه إن كان لابد لهما وأن يمرضا ،فمن حسن الحظ أن المرض لم يصبهما وهما باليمن فحمداً لله وشكراً.

وفي مسقط زرنا الدكتور ولزتومز في منزله الجميل، حيث يعمل هو وزوجته في المستشفى التابع للكنيسة الإصلاحية الهولندية الأمريكية، وكانهما ينعمان

بقدرات أصحاب المعجزات فإنهما يفحصان ويعالجان أكثر من ١٢٠٠٠ مريض في العام بموازنة سنوية تقدر بعشرين الف دولار، تساعدهما كوادر محلية مدربة، ونادراً ما تجد مثل هذه الإنجازات في العالم كله.

ومن شباك مقرنا بمدينة «مطرح» ، التوام لمدينة مسقط، كنا نطالع المعالم البرتغالية على كل الجنبات والاتجاهات ، فقد احتلت البرتغال هذا الموقع الاستراتيجي المطل على مضيق هرمز لتتحكم في الخليج العربي ، إلى ان تم طردها من هذه المنطقة عام ١٦٥٠م، وحل محلها الاستعمار الفارسي الذي دام مئة عام. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت عمان أقوى دولة في الجزيرة العربية. وهي الآن دولة مستقلة يحكمها السلطان سعيد بن تيمور الذي أعقب والده عام ١٩٣٢م ليصبح السلطان الثالث عشر من نفس الأسرة.

في العاشرة من صباح اليوم التالي لوصولنا استقبلنا جلالة السلطان المعظم وأكرمنا وأحسن وفادتنا في قصره الرائع، ويا لها من متعة أن تجلس مع هذا الملك الذكي والمثقف والودود والنزيه، وهو يتحدث الإنجليزية بطلاقة، فلم يكن هنالك حاجز لغوي، وأهم من ذلك فليس هنالك حواجز بينك وبينه من المستشارين والطبالين والمتملقين الذين لا تحركهم سوى طموحاتهم وأطماعهم وحساسياتهم ووسوستهم وخوفهم . كنا نتفاوض مع السلطان رأساً الذي تفهم ما نقول وتعاطف مع أهدافنا.

قصصنا لجلالة السلطان أحداث اليمن المؤسفة التي تعرضنا لها ، واتفقنا معه على ان الأمور ما كانت تسير على ذلك النحو لو أننا لبينا دعوته قبل عامين ونصف لإجراء الحفريات في عمان. وبعد يومين من المفاوضات المتحضرة توصلنا لأفضل امتياز حفريات منح لأي جهة في الشرق الأوسط لسنين عديدة، وقد

تفضل السلطان بالموافقة على البدء فوراً بعملياتنا في ظفار وعلى الاستمرار في الاستكشاف والحفريات لسنوات ثلاث، وفي نهاية كل موسم تقتسم الأثريات والتحف مناصفة بيننا وبين الحكومة العمانية.

أبرقت لجورج فارير في عدن بهذه الأخبار السارة، ورتب جورج سفرية خاصة على الخطوط الجوية الجيبوتية تحمل باقي المجموعة من عدن إلى صلالة عاصمة ظفار، أما باقي الأغراض ، كالشاحنات والأجهزة فإنها ستأتي على ظهر سفينة.

إن السفر من مسقط إلى صلالة أكثر صعوبة من السفر من عدن إلى مسقط؛ ولكننا أخيراً استأجرنا طائرة من البحرين لتحملني وفيليلاند إلى صلالة عبر جزيرة مصيرة.

وتقع صلالة على بعد ٦٤٠ ميلاً بحرياً من مسقط، مع شريط ساحلي يمتد لمسافة ٢٠٠ ميل بين رأس ضربة علي ورأس شويمية[١] وأمامنا الآن مهمة استكشاف هذه المنطقة المعزولة والتي تبلغ مساحتها ٣٨٠٠٠ ميل مربع، بحجم ولاية أوهايو، وأكبر من دولة البرتغال. قبل تسعة عشر قرناً قال الرحالة اليوناني صاحب كتاب « الطواف » عن هذه المناطق:-

« تنتهي الأرض عند البحر ويمتد من هناك خليج عميق لمسافة بعيدة، يسمونه

---

(١) الحدود الشرقية لظفار تمتد من نقطة على الساحل هي رأس شويمية لمسافة ١٦٠ ميلاً إلى رملة مقشن. وتمتد من الناحية الشمالية على المنطقة المسماة « الرمال » لمسافة ٢٠٠ ميل إلى جهة الغرب حتى رملة شعيت. ومن هنا يتجه الخط الحدودي جنوباً عبر وادي شعيت خروات وميتان، ومن هناك إلى جبل سدخ في وادي حبروت وجنوبا إلى رأس ضربة علي على الشاطئ. هذا الشريط الحدودي يفصل بين قبائل إقليم ظفار عن محمية عدن الشرقية. هذه الملامح واضحة في خريطة ثيسقر بعد رحلاته في الجنوب العربي، بما في ذلك بلاد المهرة، عام ١٩٤٧م، ونشرته الجمعية الجغرافية الملكية.

(ساكالايتس)؛ هذا هو بلد البخور الجبلي الوعر، يلفه سحائب وضباب، وتنتج أشجاره لبان البخور ؛ وأشجار اللبان هذه ليست عالية أو ضخمة الحجم، إنها تفرز لبان البخور من لحاها على شكل بقع تماما كما تفرز الأشجار الصمغ في مصر، كأنه دموع بكائها. ويجمع عبيد الملك لبان البخور ومعهم كذلك المساجين. ».

إذن فالتلال والجبال التي تقع خلف صلالة كانت في الأزمان القديمة غابات ومزارع لأشجار البخور ، ومنها تبدأ القوافل رحلتها غرباً مخترقة الجنوب العربي، ثم شمالاً محاذيةً البحر الأحمر، حتى تصل منطقة البحر الأبيض المتوسط، وعلى طريقها نمت وترعرعت وازدهرت حضارات وممالك عظيمة ومدن مثل شبوة وتمنع ومأرب. وإذا قامت هذه المدن وانتعشت لأن القوافل تمر بها مرور الكرام فما بال المنطقة التي تحمل منها تلك القوافل ، دولة المنشأ؟ من المنطقي أن نتوقع وجود مدن غنية تاريخية هنا أيضاً ، وثمة أطلال لحضارة قديمة ذات شأن وجبروت. ولكن لم نسمع بأي حفريات أو دراسات في عمان من قبل، ولم يعثر أحد على حجارة منقوشة أو صخور بارزة من الأرض كبقايا مدينة دارسة غطتها الرمال. هنالك أطلال من الحجارة الجيرية على طول السهول الساحلية ، وكل الشواهد الظاهرة تشير إلى العصور الوسطى، اي منذ ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية.

لقد تعرض المؤرخون القدامى، امثال « كلوديوس بطليموس » و« أريان » لمنطقة ظفار باعتبارها مركزاً لحضارة عربية معاصرة لحضارات الجنوب العربي الأخرى في تمنع ومأرب . ورغم أن هذه المصادر تعتبر من الدرجة الثانية أو الثالثة فهي لا تخلو من حقيقة ، كما تؤكد ما يخطر للذهن بالقريحة. على كل حال، ورغم

الاحتمالات الكثيرة فإننا هذه المرة ندخل في مغامرة غير مضمونة العواقب، من الناحية الآثارية والعلمية. كنا في الماضي نعرف أهدافنا قبل أن نبدأ العمل ونستند على فرضيات مدعومة ببعض الأدلة من الدرجة الأولى والثانية . تمنع ومأرب موجودتان ومواقعهما محددة ، فذهبنا لهما وحفرنا. أما الآن فقد ألقينا نظرة على السهول والجبال والصحاري الممتدة وقلنا:

«في مكان ما من هذه المنطقة توجد أطلال ، ومدن بمعابدها وضرائحها وبيوتها ونقوشها وفخارها وتماثيلها - كلها مطمورة تحت ركام القرون. أين هي بالتحديد؟ هل نستطيع أن نعثر عليها ونهتك ستائر أسرارها؟» .

أصبحنا بعد ما جرى لنا باليمن أقل إمكانيات من الناحية المادية، وها نحن نغوص في المجهول، ولكن شيئاً خير من لا شيء، وهذه المغامرة أفضل من الركون لليأس والقنوط. هذا هو موقف أعضاء البعثة جميعهم وهم يتشوقون للعمل. وإذا كانت عمان كماً مجهولاً من الناحية الآثارية فإن ذلك حافز للبحث والتنقيب، والموضوع برمته يمثل تحدياً بالنسبة لنا نريد أن نقهره ، خاصة ونحن مجموعة متجانسة ومتوحدة الرؤى.

ومدينة صلالة مصدر للأمل والتفاؤل ، فالناس هنا طيبون ويشيعون من حولهم الشعور بالطمأنينة ، يحكمهم الوالي الممثل للسلطان، الشيخ حمود بن حامد، ولا تحس بالضيق أو الكبت أو الخوف ، بخلاف الإنسان اليمني الذي ترك في

نفوسنا شيئاً من المرارة* .

ومدينة صلالة نظيفة نسبياً، وشوارعها أكثر رحابة من كثير من المدن العربية، وأشجار النخيل تتمايس برشاقة مع النسيم القادم من المحيط، والخضرة تكسو الأرض كلها تقريباً؛ كل ذلك أكسبنا حيوية وحبوراً وحماساً للعمل.

يقع المنزل الذي خصصه لنا السلطان على بعد دقائق من مركز المدينة، وهو منزل ضخم وفخم ومطل على البحر وتظله أشجار النخيل الباسقة.

بدأنا باستكشاف المنطقة بحثا عن موقع للحفريات، وقمنا برحلة سريعة حول الجبال المحيطة بصلالة ، المسماة بجبال القرا، شعرنا من جرائها بالرغبة في معاينة المنطقة كلها إن أمكن ، حتى الربع الخالي في الشمال. إنها جنة من الحجارة الجيرية، ومرتفعات تكسوها الغابات والبحيرات والمساقط المائية، منها شلالات مرباط وارتفاعها البالغ خمسمائة قدم، ولا شك أن هذه المناطق تذخر بالكنوز

---

* يناقض المؤلف هنا نفسه حيث كال المديح للإمام وما حظى به من حسن استقبال لديه ولدى المسؤولين التابعين له، و يبدو أنه كان يعيش حالة إحباط شديدة إثر النهاية المحزنة للبعثة في مارب وما تكبدته من خسائر في المعدات و الفشل في تحقيق اكتشافات اثرية كبيرة تلقي الضوء على الملكة بلقيس ملكة سبأ الشهيرة، مما جعله يصب جام غضبه على يمن الإمامه ويحمل إنسانها أخطاء لم يرتكبها وإنما يتحملها المؤلف نفسه لأنه وكما قال علماء آثار اوروبيون لم يحسن التصرف ولا التقدير في تعامله مع أهل اليمن فقد ظن أنه يستطيع بدفع الأموال أن يحصل على كل ما يريد منهم وهذا شيء لا يقبله اليمنيون لما عرف عنهم من أنفة وإباء وكان الاجدر به أن يبدأ قبل كل شيء بكسب ثقتهم وإظهار رغبة صادقة في منفعتهم، تذكر الطبيبة الفرنسية كلودي فايان وكانت ضمن أعضاء اللجنة الحكومية التي كلفها الإمام بعد هروب البعثة مباشرة بجرد ماتركه ويندل فيليبس في مارب، في كتابها (كنت طبيبة في اليمن) إن ويندل فيليبس كان يرسل البرقيات إلى الإمام من نيويورك ثم من القاهرة ثم من عدن وكلها بعبارة واحدة "سأصل ومعي هدايا" وقد رفض الإمام هداياه ورفض استقباله .(المراجع)

الآثارية والطلاسم التي تنتظر من يفكها . ولقد اختار دكتور البرايت موقعاً قريباً من المدينة، وهو تل مرتفع مليء بالأطلال ، اسمه « البلد » ، يطل على البحر. كانت هذه المدينة تسمى « المنصورة » في أيام الإسلام الأولى. ولا بد أنها كانت موطن مدينة ظفار القديمة قبل انهيارها في عام ٦١٨م. وخلال الأشهر الثلاثة التي تلت اختيارنا لذلك الموقع بدأ البرايت عملاً في مواقع ثلاثة أخرى. ولكن عندما بدأت أول الاكتشافات الملموسة تظهر كنت بعيداً عن كل هذه المواقع، فقد سافرت إلى نيويورك في مهمة تتعلق « بالمؤسسة »، وسافر معي بوب كارميان بعد أن شفي من الملاريا، وبعد إقامة في الجزيرة العربية دامت ثمانية عشر شهراً.

وهناك وصلتني أخبار سارة برقياً من جورج فارير الذي يشرف على عملياتنا في مسقط وعُمان؛ فقد تمكن دكتور جام من فك رموز نقوش على البرونز فيها كلام عن إله القمر الحضرمي (سين) وفيها اسم (سمهرم) المدينة التي ضاع أثرها منذ أمد طويل. ثم وجد كذلك نقوشاً غريبة على إناء حجري للماء، واللغة تكتب من اليسار إلى اليمين وبها حروف غريبة لم تُقرأ من قبل إلا في النقوش الخاصة بالكلدانيين واكتشف دكتور البرايت أول مدينة من الفترات السابقة للإسلام على بعد تسعة وعشرين ميلاً شرق صلالة، مطلة على بحيرة « خور روري » الساحرة . كانت هذه المدينة القلعة تحرس الميناء الأساسي بساحل ظفار قبل ألفي سنة أو أكثر، والمنتج الرئيس الذي خرج من تلك الميناء وقتئذ هو لبان البخور.

وبالقرب من بوابة هذه المدينة الشمالية كانت هناك بقايا معبد هام له عمد ممددة وحيطان عملاقة، ولقد أخرج دكتور البرايت هذا المعبد كله من تحت الرمال والركام، وهو أول معبد من الفترات السابقة للإسلام يكشف عنه النقاب كاملاً

في الجزيرة العربية وقد وجد البرايت مكاناً للاستحمام والغسل عجيب الشكل ومذبحين لتقديم النذر للآلهة وكمية من العملات البرونزية ونقوشات سبعة هامة منحوتة على باب المدينة الداخلي.

تتحدث العديد من النقوش عن الملك (ألعز) ملك حضرموت والذي ورد ذكره في في كتاب الطواف (The Peliplus) وغيره من الكتابات الكلاسيكية باسم(إليازوس) ملك بلاد البخور. وذكرت النقوش كذلك شبوة والولاية الحضرمية المجاورة وحاكمها. وهنا، وعلى بعد سبعمائة ميل من مدن طريق البخور وجدنا أول دليل مادي يربط منطقة ظفار القديمة بالممالك التي نشأت إلى الغرب من الجنوب العربي. ووجدنا دليلاً قوياً يشير إلى أن مملكة حضرموت نشرت نفوذها من بيحان إلى ظفار قبيل ظهور المسيح. ولا غرابة في أن تسمى حضرموت مملكة البخور رغم غياب ما يثبت انتاجها له آنئذ، ولكن بما أنها احتوت تحت جناحها المنتج الأساسي للبخور وهو ظفار فقد أصبحت تسمى «مملكة البخور»*.

ما عادت عمان لغزا اركيولوجياً، فقد أجابت بعثتنا عن بعض الأسئلة في هذا المجال، وكما قال البروفيسور البرايت فإن أهمية هذه الاكتشافات في عُمان كبيرة جداً لأنها رائدة في مجالها، فلم يكن أحد قبلنا يتحدث عن امتداد حضارة

---

* لا شك في ان منطقة ظفار أو الأساكل (ساكلن في النقوش الحضرمية) كانت من اهم المناطق التي تنمو فيها اشجار البخور أو اللبان قديما لكن ذلك لايعني أنها المنطقة الوحيدة التي تنتج البخور بل من الثابت أن مناطق نموه وإنتاجه امتدت إلى الغرب من ظفار لتشمل السهول والوديان الجنوبية لمنطقة المهرة وكذا سفوح المرتفعات الجنوبية لوادي حضر موت مثل كور سيبان ومنطقة وادي حجر بالاضافة إلى جزيرة سقطري بل تدل المصادر الكلاسيكية اليونانية على إنتاج اللبان والمر في بلاد قتبان وأوسان وقد حدد بالنسبة لاوسان منطقة الوسر في وادي مرخة منطقة=

العربية الجنوبية حتى هذه المنطقة.

ستستمر هذه الدراسات والاكتشافات كلما توغلت بعثتنا شمالاً في قلب المنطقة المنتجة للبخور ، حتى الربع الخالي وما بعده.

لقد حَمَلنَا بَحْثُنا هذا بعيداً عبر طريق التوابل التوراتي .مدن مدفونة تحت الرمال كشفت لنا عن بعض أسرارها المَخْبيّة ،فانفتحت لنا بذلك مجالات واسعة وجديدة للاستكشاف مستقبلاً .ممالك غامضة طال الاعتقاد بأنها قد ضاعت وضاع ملوكها ،ها هي الآن قد وُضِعتْ في مكانها التاريخي الصحيح.

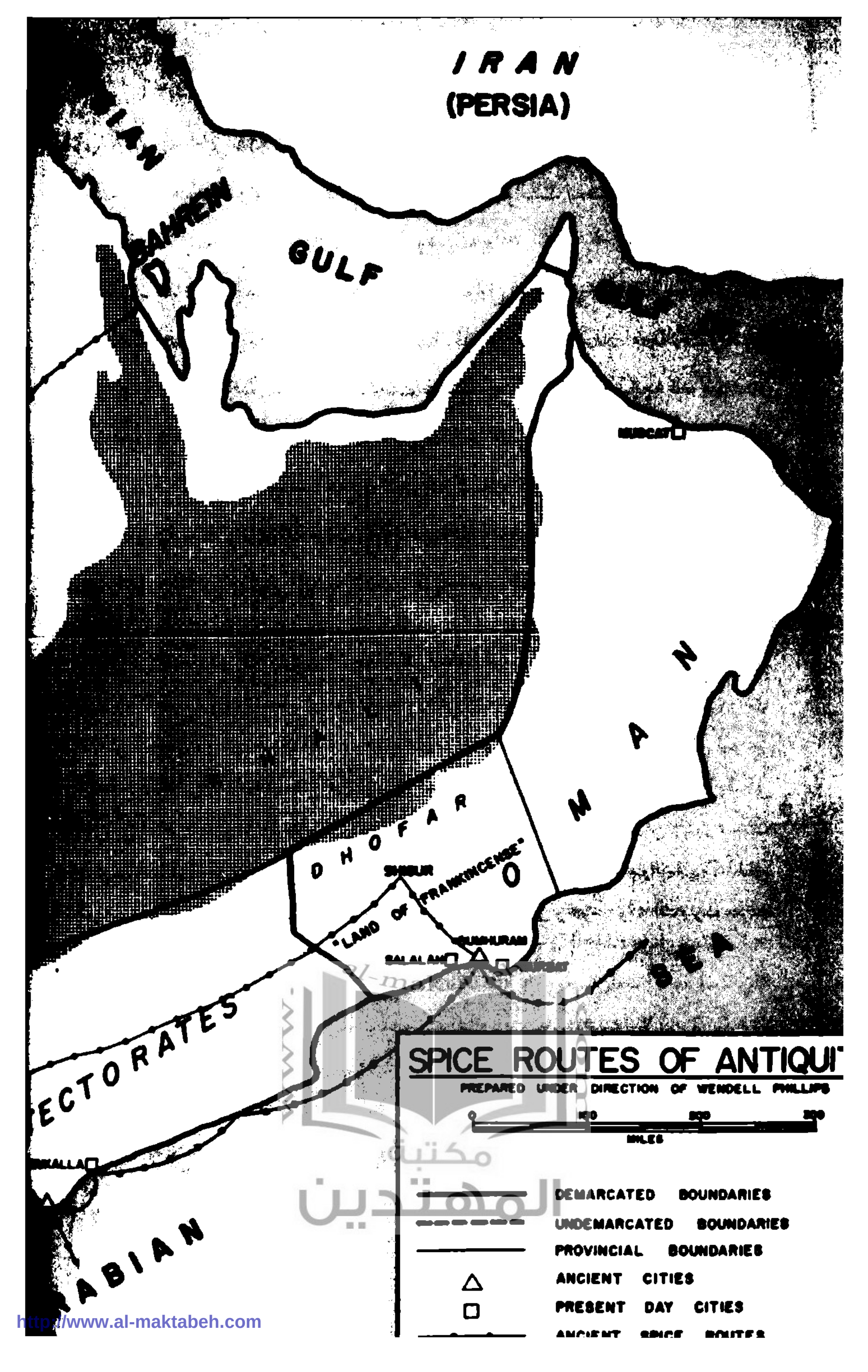
لا نملك إلا أن نطلق لخيالنا العنان لنعرف كيف كنا سَنُسْتَقْبَلُ لو أن زيارتنا لعاصمة مملكة سبأ كانت قد حدثت في عهد الملكة بلقيس ،أشهر ملكات الجزيرة العربية قاطبة ذلك لأنها هي أيضاً كانت، في حقيقة الأمر مستكشفة مثلنا

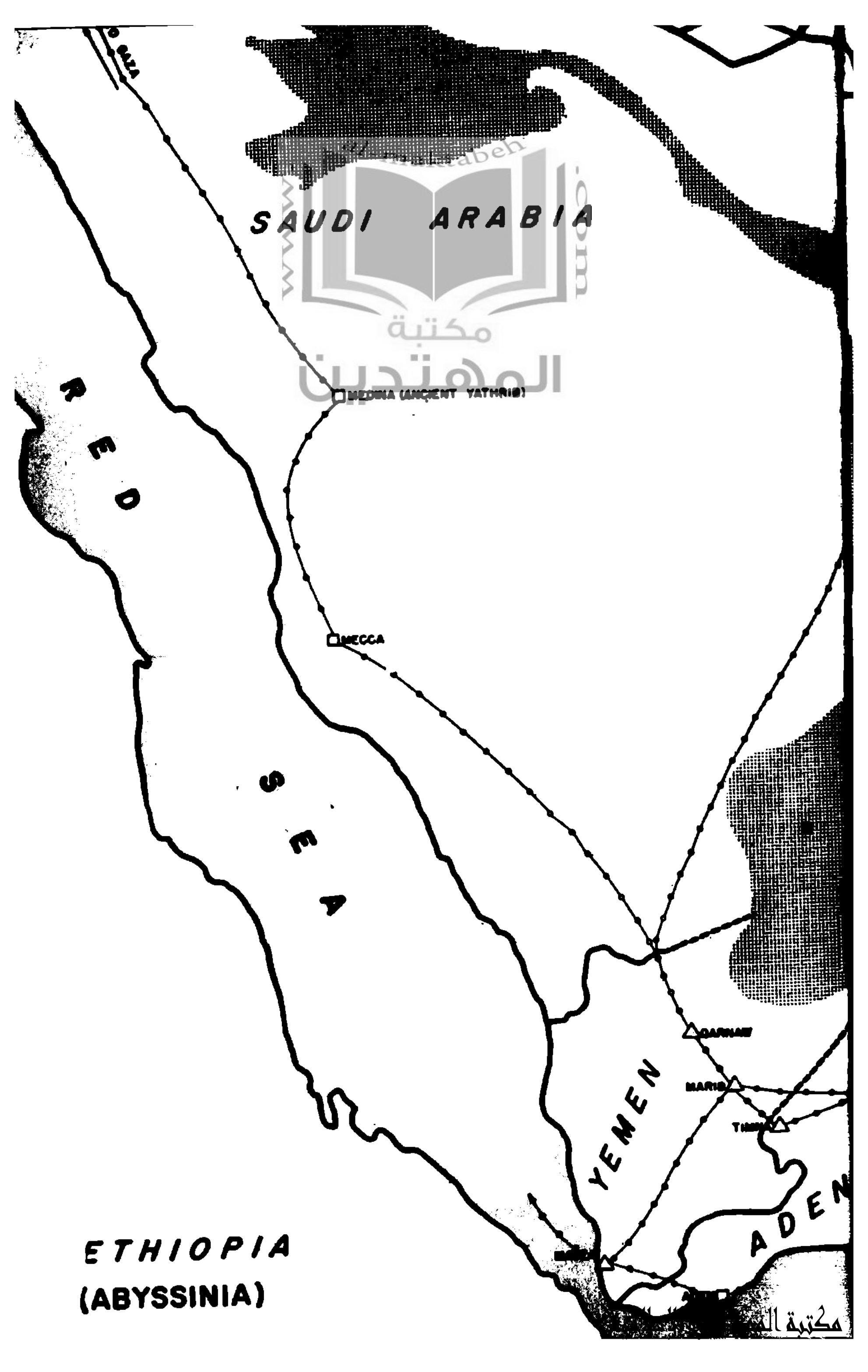
= لانتاج المر وسماه المر الأوساري وقد جاء ذكر منطقة الوسر في نقش صرواح المسمى نقش النصر (Gl 10000A) وتشمل الوسر وفقا لما ورد في النقش المنطقة الواقعة بين (الجاتم) وادي لجية حتى (حمن) وادي حمان أحد روافد وادي مرخة وقد قام عالم النبات الفرنسي ثيودور مونو بمسح ميداني لشجرة البخور في اليمن الجنوبي سابقا عام ١٩٧٨م واثبت نموها بشكل طبيعي في المناطق الجنوبية والشرقية في حضر موت مثل مناطق الشحر والديس وكور سيبان وشحير وزغفة وواسط وفي حضر موت الداخل مثل وادي الخون ووادي عدم وصيف وكذا في اماكن في منطقة وادي حجر وحبان مثل جبل كدور وشعب ينبق وغيرها وقد اشتهرت مدينة الشحر باللبان وفي ذلك يقول الشاعر:

إذهب إلى الشحر ودعْ عُمانا

إنْ لمْ تجدْ تمراً تجد لُبَانا

(المراجع).


IRAN
(PERSIA)
BAHREIN
GULF
DHOFAR
"LAND OF FRANKINCENSE"
OMAN
SEA
ECTORATES
ABIAN
SPICE ROUTES OF ANTIQUI
PREPARED UNDER DIRECTION OF WENDELL PHILLIPS
MILES
DEMARCATED BOUNDARIES
UNDEMARCATED BOUNDARIES
PROVINCIAL BOUNDARIES
ANCIENT CITIES
PRESENT DAY CITIES


SAUDI ARABIA
MEDINA (ANCIENT YATHRIB)
MECCA
RED SEA
QARNAW
MARIB
YEMEN
ADEN
ETHIOPIA
(ABYSSINIA)